نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

٤-٥

تحقيق

الدكتور يحيى الشامي

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة
Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signé par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللَّهمَّ صلِّ أفضل صلاة على أفضل خلقك سيِّدنا محمد وآله وسلّم

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الثاني

في المجون والنوادر والفُكاهات والمُلَح

وهذا الباب مما تنجذِبُ النفوسُ إليه، وتشتملُ الخواطرُ عليه؛ فإنّ فيه راحةً للنفوس إذا تعِبت وكلَّتْ، ونشاطًا للخواطرِ إذا سئمت وملّت؛ لأنّ النفوسَ لا تستطيع ملازمةَ الأعمال، بل ترتاحُ إلى تنقُّلِ الأحوال، فإذا عاهدتها بالنوادر[1] في بعض الأحيان، ولاطفْتَها بالفكاهاتِ[2] في أحد الأزمان، عادت إلى العملِ الجدِّ بنَشْطةٍ جديدة، وراحةٍ في طلب العلومِ مديدة.

وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «رَوِّحُوا القلوبَ ساعةً بعد ساعةٍ، فإنّ القلوبَ إذا كلّت عَمِيَت»[3].

وقال عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: «أجِمُّوا هذه القلوبَ والْتمسوا لها طُرُقَ الحِكمة، فإنها تَمَلُّ كما تملُّ الأبدان[4]، والنفسُ مُؤْثِرةٌ[5] للهوى، آخذةٌ

---

(١) عاهدتها بالنوادر: أتيتها بها. ونوادر الكلام: غرائبه، وما شذّ منه، وكان مستجادًا نادرًا.

(٢) الفكاهات، جمع فكاهة وفكيهة، وهي ضرب من المزاح والحديث الذي يتلذّذ به.

(٣) وفي رواية ثانية جاء قوله ﷺ مختصرًا، وهو التالي: «روّحوا القلوب ساعةً بساعة». انظر: وهج الفصاحة في أدب النبي ﷺ، لعلاء الدين الأعلمي، منشورات الأعلمي، بيروت ١٩٨٨ م. وروّحوا القلوب: أدخلوا عليها الراحة، وكلّت: تعبت وأعيت.

(٤) وفي شرح «نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ٢٤٦/٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ٢، القاهرة ١٩٦٧، في هذا الشرح تجد قول الإمام عليّ بالصورة التالية: «إن هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة». وأجمّوا: أريحوا.

(٥) مؤثرة: مفضّلة ومختارة.

بالهُوَيْني[١]، جانحةٌ[٢] إلى اللّهو، أمّارةٌ بالسّوء، مستوطنةٌ[٣] بالعجز، طالبةٌ للرّاحة، نافرةٌ عن العمل؛ فإن أكرهْتَها أنْضَيْتَهَا[٤]، وإنْ أهملْتَها أرْدَيْتَها»[٥].

وكان رسولُ الله ﷺ يضحكُ حتى تبدوَ نواجذه[٦]، وكان محمدُ بن سيرين[٧] يضحك حتى يسيلَ لُعَابُه.

وقال هشامُ بنُ عبد الملك[٨]: قد أكلتُ الحلوَ والحامضَ حتى ما أَجِدُ لواحِدٍ منهما طعمًا، وشممتُ الطِّيبَ حتى ما أجدُ له رائحةً، وأتيتُ النّساء حتى ما أُبالي امرأةً أتيتُ أم حائطًا؛ فما وجدتُ شيئًا ألذَّ إليّ من جليسٍ تسقطُ بيني وبينَه مُؤْنة التحفُّظ[٩].

وقال أحمدُ بنُ عبدِ ربّه[١٠]: المُلَحُ[١١] نُزهةُ النّفس، وربيعُ القلب، ومَرْتَعُ[١٢] السّمع، ومَجْلَبُ الراحة، ومَعْدِنُ السرور. وقال أيضًا: إنّ في بعض الكتبِ المترجمةِ أنّ يوحنّا[١٣] وشمعون[١٤] كانا من

(١) الهوينى، والهوينا، بالألف الطويلة اللّينة الساكنة: الرّفق والتّؤدة، وهي تصغير الهونى، مؤنث الأهون.

(٢) جانحة: مائلة.

(٣) مستوطنة: متّخذة وطنًا.

(٤) أنضيتها: هزلتها وأبليتها.

(٥) أرديتها: أهلكتها.

(٦) نواجذه: أضراسه. والمفرد منها ناجذ. ومعنى «ضحكت نواجذه»: بالغ في الضحك.

(٧) محمد بن سيرين، وكنيته أبو بكر، فقيه وعالم من علماء البصرة، اشتهر بتفسير الأحلام، وله كتاب يحمل هذا الاسم. توفي سنة ١٠٠ هـ/ ٧٢٩ م. انظر: الفهرست، لابن النديم، ص ٤٢٩، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨.

(٨) هشام بن عبد الملك، هو الخليفة الأموي العاشر، استلم مقاليد الخلافة بعد أخيه يزيد الثاني سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م، ومات سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م. انظر: تاريخ الخلفاء، لابن قتيبة الدينوري ٢/ ١٠٤، تحقيق طه الزيني، دار المعرفة، بيروت.

(٩) مؤنة التحفّظ: المؤنة، في الأساس، ما يتّخذ أو يذّخر من القوت. والتحفّظ من الشيء وعنه: الاحتراز والتصوّن. وسقوط المؤنة بين الاثنين أو الصديقين، كناية عن رفع الكلفة فيما بينهما.

(١٠) أحمد بن عبد ربه، المتوفّى ١٢٩ هـ/ ٩٤٠ م، شاعر وأديب أندلسي، اشتهر بكتابه القيّم الموسوم بـ«العقد الفريد». انظر: مقدمة «العقد الفريد» بقلم الأستاذ خليل شرف الدين، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦.

(١١) الملح، جمع ملحة، وهي الكلمة المليحة أو ما لذّ من الكلام.

(١٢) المرتع، مكان الرتع حيث السّعة والرغد والخصب.

(١٣) يوحنّا: هو أحد رسل المسيح الاثني عشر، وصاحب الإنجيل المعروف باسمه إضافة إلى رؤياه ورسائله الثلاث. مات نحو ١٠٠ م.

(١٤) شمعون، في الأصل، هو سمعان نفسه، ابن يعقوب، وجدّ أحد أسباط إسرائيل الاثني عشر. =

الحَوَارِيِّين[١]، فكان يوحنّا لا يجلسُ مجلسًا إلا ضحك وأضحك مَن حولَه، وكان شمعونُ لا يجلسُ مجلسًا إلا بكى وأبكى مَن حوله. فقال شمعون ليوحنا: ما أكثر ضحكَكَ! كأنك قد فرغتَ من عملِكَ! فقال له يوحنّا: ما أكثرَ بكاك! كأنك قد يئسْتَ من ربِّك، فأوحى اللهُ إلى عيسى ابنِ مريمَ عليه السلام: أنّ أحبَّ السِّيرتين إليّ سيرةُ يوحنّا.

والعربُ إذا مدحوا الرجلَ قالوا: هو ضحوكُ السِّنِّ، بسّام العشيّاتِ، هَشٌّ[٢] إلى الضّيف. وإذا ذمّته قالت: هو عَبُوسُ الوجهِ، جَهْم المُحَيَّا[٣]، كريه المنظر، حامضُ الوجه «كأنّما وجهُه بالخلّ منضوح»[٤]، وكأنما أُسْعِطَ[٥] خيشومه[٦] بالخَرْدل[٧].

وقيل لسفيان[٨]: المِزاحُ هُجْنة[٩]؛ فقال: بل سُنَّة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إني لأمزحُ ولا أقولُ إلا الحقَّ»، صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه أجمعين.

ذِكْرُ مُزاحات رسول الله ﷺ

وقد مَزح رسول الله ﷺ؛ فمن ذلك: أنه قال ﷺ لرجلٍ استحمله[١٠]: «نحن حاملوك على ولدِ الناقة»، يريد: البعير. وقال ﷺ لامرأةٍ من الأنصار: «الحَقِي زوجَكِ ففي عينهِ بياضٌ»، فسعتِ المرأةُ نحوَ زوجها مرعوبةً؛ فقال لها: ما دهاكِ؟ فقالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إنّ في عينِك بياضًا»؛ فقال: إنّ في عيني بياضًا لا

= ويعرف بشمعون الصفا. لكنّ سياق الحديث أعلاه يدلّ على أنه سمعان الشيخ، وهو الذي حمل المسيح بين يديه يوم تقدمته إلى الهيكل.

(١) الحواريون، وهم رسل السيد المسيح، كذلك لنقاء سريرتهم، ولخلوص نيّتهم.

(٢) هشّ له وإليه: تبسّم وارتاح إليه، وخفّ لمعروفه وإضافته.

(٣) جهم المحيّا: عابس الوجه.

(٤) منضوح: مرشوش ومبلول.

(٥) أسعط: أُدخل في أنفه.

(٦) الخيشوم: أقصى الأنف، وتطلق على الأنف نفسه.

(٧) الخردل: نبات برّي، حبّه صغير مقرّح، له فوائد طبّية، ويستخرج منه زيت الخردل.

(٨) سفيان، المقصود: سفيان الثوري، المحدّث المشهور، صاحب «الجامع الكبير» و«الجامع الصغير» في الحديث. مات سنة ١٦١ هـ/٧٧٨ م.

(٩) الهجنة، المصدر من هجن، وهي العيب أو القبح في الكلام وغيره.

(١٠) استحمله: سأله أن يحمل.

لسوء[١]. وأتته عجوزٌ أنصاريّة فقالت: يا رسولَ الله، أدعُ لي بالمغفرة، فقال لها: «أمَا علمتِ أنّ الجنّةَ لا يدخلُها العُجز!» فصرخت؛ فتبسّم ﷺ وقال لها: «أمَا قرأتِ ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: الآيات ٣٥ - ٣٧]».

ونظر عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه إلى إعرابيٍّ قد صلّى صلاةً خفيفة، فلمّا قضاها قال: اللّهمّ زوّجْني بالحورِ العِينِ؛ فقال عمر: يا هذا! أسأتَ النَّقْدَ، وأعظمتَ الخِطْبة.

ذكر مَن اشتهر بالمزاح من الصحابة رضوان الله عليهم

كان أشهرَهم بالمزاحِ رضي الله عنهم نُعَيْمانُ، وهو أحدُ أصحابِ رسول الله ﷺ البدريّين[٢]، وله رضي الله عنه مزاحات مشهورة، منها ما روي: أنه خرج مع أبي بكرٍ الصِّدِّيق إلى بُصْرَى[٣]، وكان في الحملة سُوَيْبِط، وهو بدريٌّ أيضًا، وكان سويبط على الزّاد؛ فجاءه نعيمانُ فقال له: أطعمني؛ قال: لا، حتى يأتيَ أبو بكر. فقال نعيمان: والله لأغيظنّك. وجاء إلى أُناسٍ جلبوا ظَهْرًا[٤]، فقال: ابتاعوا منّي غلامًا عربيًّا فارهًا[٥] إلّا أنه دعّاء[٦]، له لِسان، لعلّه يقول: أنا حرّ؛ فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه، لا تُفسدوا عليّ غُلامي. قالوا: بل نبتاعه منك بعشرِ قلائص[٧]، فأقبل بها يسوقُها، وأقبلَ بالقوم حتى عقلها[٨]، ثم قال: دونَكم! هذا هو. فقالوا: قد اشتريناك. فقال سويبِط: هو كاذب، أنا رجل حرٌّ؛ فقالوا: قد أُخْبِرْنا خبَرك، ووضعوا في عنقه حبلًا وذهبوا به. فجاء أبو بكر رضي الله عنه فأُخبِر بذلك، فذهب هو وأصحابه، فردّوا القلائصَ على أربابِها وأخذوه، وأُخبر النبيُّ ﷺ بالقصّة فضحِك منها حَوْلًا.

---

(١) قوله لا لسوء: إشارة منه ﷺ إلى قوله تعالى مخاطبًا موسى عليه السلام في الآية الثانية والعشرين من سورة طه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

(٢) البدريّون، هم الذين شهدوا بدرًا، تلك الواقعة المشهورة بين المسلمين والمشركين.

(٣) بصرى، المراد بها بصرى أسكي شام، الواقعة قريبًا من الطريق المؤدّية من يثرب إلى الشام، كانت قصبة كورة حوران، ذكرها كثير في أسفارهم. انظر: معجم البلدان، لياقوت ١/ ٤٤١، دار صادر، بيروت ١٩٨٤.

(٤) ظهرًا: مالًا كثيرًا.

(٥) فارهًا: نشطًا وخفيفًا.

(٦) الدعّاء: الكثير الدعاء.

(٧) قلائص، جمع قلوس، وهي من إناث الإبل أول ما يركب، والطويلة القوائم.

(٨) عقلها: ثنى وظيفها مع ذراعها فشدّهما معًا بحبل هو العِقال.

ومن مُزاحاته: أنه أهدى إلى رسول الله ﷺ جرّةَ عسل اشتراها من أعرابيّ، وأتى بالأعرابيّ إلى بابِ النبيّ ﷺ، فقال: خذ الثّمن مِن هاهنا، فلما قسمها النبيّ ﷺ نادى الأعرابيّ: ألَا أُعْطَى ثمنَ عسلي؟! فقال النبيّ ﷺ: «إحدى هَنَاتِ[١] نُعَيمان». وسأله: لِمَ فعلتَ هذا؟ فقال: أردتُ بِرَّك يا رسولَ الله، ولم يكن معي شيء. فتبسّم النبيّ ﷺ وأعطى الأعرابيّ حَقّه.

ومن مزاحاته أيضًا: أنه مرّ يومًا بمَخْرَمة بنِ نَوْفَلٍ الزُّهري، وهو ضرير، فقال له: قُدْني حتى أَبُول، فأخذ بيده حتى إذا كان في مؤخّر المسجد، قال له: اجلس؛ فجلس مخرمةُ ليبُولَ؛ فصاح الناس: يا أبا المِسْوَر، أنت في المسجد. فقال: من قادني؟ فقيل له: نعيمان. قال: لله عليّ أن أضربَه بعصاي إن وجدته، فبلغ ذلك نُعيمان، فجاء يومًا فقال لمخرمةَ: يا أبا المِسْور، هل لك في نعيمان؟ قال: نعم. قال: هو ذا يصلّي، وأخذ بيده وجاء به إلى عثمانَ بنِ عفّان رضي الله عنه وهو يصلّي، فقال: هذا نعيمان؛ فعلاه مَخْرَمَةُ بعصاه؛ فصاح به الناس: ضربتَ أميرَ المؤمنين، فقال: من قادني؟ قالوا: نعيمانُ؛ فقال: لا جَرَم[٢] لا عرَضْتُ له بسوء أبدًا.

ومنهم ابنُ أبي عَتِيق، وهو عبدُ الله بنُ محمدِ بنِ عبدِ الرحمـٰن بنِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنهم. وكان ذا وَرَع[٣] وعَفاف وشرف، وكان كثير المجُون[٤]، وله نوادرُ مستظرفةٌ، منها: أنه لقي عبدَ اللهِ بنَ عمرَ بن الخطّابِ رضي الله عنه قال: ما تقول في إنسان هجاني بشعرٍ، وهو: [من الكامل]

أذهبـتَ مـالَكَ غـيـرَ مُـتَّـرِكٍ ... فـي كُـلِّ مـؤنـسـةٍ وفـي الـخَـمْـرِ
ذهـبَ الإلـٰهُ بـمـا تَـعـيـشُ بـهِ ... وبَقِيتَ وَحْدَكَ غيرَ ذي وَفْرِ[٥]

فقال عبدُ الله بنُ عمرَ: أرى أن تأخذَ بالفضلِ وتصفَح. فقال له عبدُ الله بنُ محمدِ بنِ عبدِ الرحمـٰنِ: والله أرى غيرَ ذلك. فقال: وما هو؟ قال: أرى أن أَنِيكَه. فقال ابنُ عمر: سبحانَ الله! ما تترك الهزل!؟ وافترقا. ثم لقِيه بعدَ ذلك فقال له: أتدري ما فعلتُ بذلك الإنسان؟ فقال: أيّ إنسان؟ قال: الذي أعلمتُك أنه هجاني.

---

(١) هنات، جمع هنة، وهي خصلة الشرّ، والشيء الصغير.
(٢) لا جرم: حقًّا، وفيها معنى القسم؛ ومن معانيها: لا بدّ ولا محالة.
(٣) الورع: اجتناب الشبهات والمعاصي، وهو التقوى أيضًا.
(٤) المجون: المزح وقلّة الحياء.
(٥) الوفر: الغنى.

قال: ما فعلتَ به؟ قال: كلُّ مملوكٍ لي حرّ إن لم أكن نِكْته، فأعْظَمَ ذلك عبدَ الله بن عمرٍ واضطرب له. فقال له: امرأتي والله التي قالت الشعر وهجتني به. وكانت امرأتُه أمّ إسحٰق بنتُ طلحةَ بنِ عبيد الله.

وقد مدح الشعراء اللعِبَ في موضعه، كما مُدِحَ الجِدُّ في موضعه؛ فقال أبو تمام: [من الرجز]

الجِدّ شيمتُه[1] وفيه فُكاهةٌ طورًا ولا جِدّ لمن لم يلعبِ

وقال الأُبَيْرِد[2] رحمة الله عليه: [من الطويل]

إذا جدَّ عند الجِدِّ[3] أرضاك جِدُّه وذو باطلٍ إنْ شئتَ ألهاكَ باطِلُهْ

ومن مجونِ عبدِ الله بن محمدِ بن عبدِ الرحمٰن ما حُكِيَ أنّ جاريته، قالت له: إنّ فلانًا القارىءَ كان يُظهر النسك[4]، قد قطع عليّ الطريقَ وآذاني ويقول لي: أنا أُحبّكِ. فقال لها: قولي له: وأنا أُحبُّكَ أيضًا، وواعديهِ[5] المنزِل؛ ففعلت وأدخلَتْه المنزلَ؛ وكان عبدُ اللهِ قد واعد جماعةً من أصحابه ليضحكوا من الرجل، ودخلت الجاريةُ إلى البيت الذي فيه الرجلُ، فدعاها فاعتلّت عليه[6]؛ فوثَب إليها فاحتملها وضرب بها الأرضَ؛ فدخل عليه ابنُ أبي عَتيقٍ وأصحابُه وقد تورّكها[7]؛ فخجل وقام وقال: يا فُسّاقُ، ما تجمّعتم هٰهنا إلا لِريبة. فقال له ابنُ أبي عتِيق: اُسترْ علينا، سترَ الله عليك. ثم لم يرتدع عن العَبَث بها، فشكَتْ ذلك إلى سيِّدها؛ فقال لها: هَيِّئي من الطّعام طِحْنَ ليلةٍ إلى الغداةِ ففعلت، ثم قال لها: عِدِيه الليلةَ، فإذا جاء فقولي له: إنّ وظيفتي الليلةَ طَحْنُ هذا كلِّه، ثم اخرجي إلى البيت واتركيه، ففعلت. فلما دخل طَحنت الجاريةُ قليلًا، ثم قالت له: أدِرِ الرَّحَى[8] حتى أفتقدَ سيِّدي، فإذا نام وأمِنّا أن يأتِيَنا أحد، صرتُ إلى ما تحبُّ، ففعل؛ ومضت الجاريةُ إلى مولاها، وأمر ابن أبي عَتِيق عدّة من مَوْلَياته[9] أن

---

(١) شيمته: خلقه وعادته وطبعه.

(٢) هو الأبيرد بن المعذّر الريحاني، من بني يربوع، من تميم. شاعر أموي بدوي فصيح، مات سنة ٦٨ هـ/٦٨٦ م. انظر: الأعلام للزركلي ١/٧٨.

(٣) الجد، بخلاف الهزل، وهو الاجتهاد.

(٤) النسك: العبادة، وكلّ حقّ لله تعالى.

(٥) واعديه: عاهديه على أن يوافيك في موضع أو في وقت معيّن.

(٦) اعتلّت عليه: امتنعت منه لعلّة ما.

(٧) تورّكها: اعتمد على وركيه أو حملها على وركيه.

(٨) الرحى: الطاحون.

(٩) مولياته: إمائه ونسائه المملوكات له.

يتراوحْن[١] على سَهَرِ ليلتِهِنّ ويتفقّدْنَ أمرَ الطَّحنِ ويَحْثُثْن عليه، ففعَلْنَ وجعلْنَ يُنادين الفتى كلما كفّ عن الطَّحْن: يا فلانةُ إنّ مولاكِ مستيقِظٌ، والساعةَ يعلم أنّكِ قد كفَفتِ عن الطَّحن، فيقومُ إليك بالعصا كعادته مع من كانت نوبتها[٢] قبلك إذا هي نامت وكفّت عن الطحن. فلم يزل كلّما سمع ذلك الكلام منهنّ اجتهد في العمل والجارية تتفقّده وتقول له: استيقظ مولاي والساعة ينام فأصير إلى ما تحبّ وهو يطحن، حتى أصبح وفرغ القمح. فأتته الجارية بعد فراغه فقالت له: قد أصبح فانجُ بنفسك. فقال: أوَ قد فعلتِها يا عدوّةَ الله! وخرج تعِبًا نَصِبًا، وأعقبه ذلك مرضًا شديدًا أشرف منه على الموت، وعاهد الله ألّا يعود إلى كلام الجارية، فلم تر منه بعد ذلك شيئًا تكرهه.

قال: وتعشّى عبدُ الله ليلةً ومعه رجلٌ من الأنصار، فوقع حجرٌ في الدّارِ، ووقع آخرُ، وثالثٌ؛ فقال للجارية: اخرجي فانظري، أَذّنوا المغربَ أم لا؛ فخرجت وجاءت بعدَ ساعة، وقالت: قد أذّنوا وصلّوا. فقال الرجل الذي كان عنده: أليس قد صلّينا قبل أن تدخل الجارية؟ قال: بلى، ولكن لو لم أُرسلها تسألُ عن ذلك لَرُجِمْنا[٣] إلى الغَداة، أفهمت؟! قال: نعم، قد فهمت. قال: وسمع عبدُ الله بنُ أبي عَتِيقٍ قولَ عمرَ بنِ أبي ربيعة: [من الخفيف]

مَنْ رسولي إلى الثُّرَيّا[٤] فإنّي ضِقْتُ ذرعًا بهجرها والكتابِ

فركب بغلته من المدينة، وسار يريدُ مكّةَ، فلما بلغ ذا الحُلَيْفةِ[٥] قيل له: أحْرِمْ[٦]؛ قال: ذو الحاجةِ لا يُحْرِمُ، وجاء حتى دخل على الثريّا. فقال لها: ابنُ عمّكِ يقول:

* ضِقْتُ ذرعًا بهجرها والكتاب *

ثم ركب بغلته وعاد.

---

(١) يتراوحن: يتناوبن القيام بالسهر هذه مرّة، وهذه مرّة.

(٢) نوبتها: دورها، وقيامها بالأمر. (٣) رُجمنا: رمينا بالحجارة.

(٤) الثريّا، واحدة ممّن شبّب بهنّ عمر بن أبي ربيعة، وهي الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، وكانت من أجمل نساء عصرها، ومن ذوات الترف والدلال. وضقت ذرعًا بالأمر: لم أقدر عليه.

(٥) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال، ومنها ميقات أهل المدينة، وهو من مياه جشم، بينهم وبين خفاجة من عُقيل. انظر: معجم البلدان ٢/ ٢٩٥.

(٦) أحرم: انزع ثيابك العادية، واستبدلها بثياب الإحرام، وهي عبارة عن ثوبين اثنين أبيضين، أحدهما المئزر، والآخر الشملة. يفعل هذا عند الميقات باتجاه الدخول إلى البلد الحرام، أي مكة ومسجدها.

ذِكْرُ شيء من مجون الأعراب

سُئِل أعرابيٌّ عن جاريةٍ له يقال لها زهرة، فقيل له: أيسُرُّك أنّكَ الخليفةُ وأنّ زهرةَ ماتت؟ فقال: لا والله! تذهب الأمَةُ[١] وتضيعُ الأُمّة. وجد أعرابيّ مِرآة وكان قبيح الصورة، فنظر فيها فرأى وجه فاستقبحه، فرمى بها وقال: لشرٌّ مّا طرحَك أهلُك. وقيل لأعرابيّ: لِمَ يقال: باعك الله في الأعراب؟ فقال: لأنّا نُجِيع كَبِده، ونُعْرِي جلدَه، ونُطِيل كدَّه[٢]. وتزوّج أعرابيّ على كِبَرِ سنّه، فقيل له في ذلك؛ فقال: أُبادِره باليُتْم، قبلَ أن يُبادِرَني بالعُقوق[٣]. ومرّ أعرابيٌّ وفي يده رغيفٌ برجلٍ في يده سيفٌ، فقال: بِعْني هذا السّيفَ بهذا الرغيفِ؛ فقال: أمجنون أنت؟ فقال الأعرابيّ: ما أنكرتَ منّي؟ انظر أيّهما أحسن أثرًا في البطن.

وحُكي أن المهديّ[٤] خرج للصّيد فغلبه فرسُه حتى انتهى به إلى خِباءٍ لأعرابيٍّ، فقال: يا أعرابيُّ، هل من قِرًى[٥]؟ قال: نعم، وأخرج له فضْلةً من خُبْزِ مَلّةٍ فأكلها، وفُضْلَةً من لبنٍ فسقاه، ثم أتى بنبيذٍ في زُكْرةٍ[٦] فسقاه قَعْبًا[٧]. فلمّا شرِب قال: أتدري من أنا؟ قال: لا والله. قال: أنا من خَدَم الخاصّة؛ قال: بارك لك الله في موضعك. ثمّ سقاه آخر؛ فلمّا شرِبه قال: أتدري من أنا؟ قال: نعم، زعمت أنك من خدم الخاصّة؛ قال: بل أنا من قوّاد أمير المؤمنين؛ فقال له الأعرابيّ: رَحُبَتْ بلادُك؛ وطابَ مزادُك ومَرَادُك[٨]. ثم سقاه قدحًا ثالثًا؛ فلما فرغ منه قال: يا أعرابيّ، أتدري من أنا؟ قال: زعمت أخيرًا أنك من قوّاد أمير المؤمنين؛ قال: لا ولكنّي أميرُ المؤمنين، فأخذ الأعرابيّ الزكرة فأوكأها[٩]، وقال: والله لئن شربت الرابع لتقولنّ، إنّك لرسول الله؛ فضحك المهديّ. ثم أحاطت بهم الخيلُ، فنزل أبناءُ الملوك والأشراف؛ فطار قلبُ الأعرابيّ؛ فقال له المهديّ: لا

---

(١) الأمة: الجارية، والعبدة، والمرأة المملوكة. (٢) كدّه: أتعبه.

(٣) العقوق: العصيان وترك الشفقة على الآخر، والاستخفاف به، وعدم الإحسان إليه.

(٤) المهدي: لقب الخليفة العباسي الثالث محمد بن المنصور. مات سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م. انظر: التنبيه والإشراف، للمسعودي، ص ٢٨٦، دار صعب، بيروت.

(٥) قرى: القرى: ما يقدم للضّيف.

(٦) الزكرة: وعاء من جلد للّبن أو الخمر أو غيره.

(٧) القعب: القدح الضخم الغليظ.

(٨) مرادك: المراد، مكان رياد الإبل وغيرها، أي اختلافها في المرعى مقبلة أو مدبرة. والمراد أيضًا، مكان رود الماء.

(٩) أوكاها: شدّها بالوكاء، وهو رباط القربة أو الزّكرة ونحوها.

بأسَ عليك! وأمر له بصِلة. فقال: أشهدُ أنّك صادقٌ، ولو ادّعيتَ الرابعةَ لخرجت منها.

ودخل أعرابيّ على يزيدِ بنِ المهلّب[(١)] وهو على فَرْشِه والناس سِمَاطان[(٢)]، فقال: كيف أصبح الأمير؟ قال يزيد: كما تُحِبّ، فقال الأعرابيّ: لو كنتَ كما أُحِبّ كنتَ أنت مكاني وأنا مكانك؛ فضحِك يزيد.

ذكر شيء من نوادر القضاة

قيل: أتى عَدِيّ بنُ أرطاةَ شُرَيْحًا القاضي[(٣)] ومعه امرأةٌ له من أهل الكوفةِ يخاصمُها إليه؛ فلما جلس عَدِيّ بينَ يدَيْ شُرَيح، قال عَدِيّ: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: إني امرؤ من أهل الشام؛ قال: بعيدُ الدار. قال: وإنّي قدمت العراق، قال: خير مَقْدِم. قال: وتزوّجتُ هذه المرأة؛ قال: بالرِّفاء[(٤)] والبنين. قال: وإنها ولدت غلامًا؛ قال: لِيَهْنِك الفارس. قال: وقد أردت أن أنقلَها إلى داري؛ قال: المرءُ أحقُّ بأهلِه. قال: كنت شَرَطت لها دارها؛ قال: الشرطُ أمْلَك. قال: اقضِ بيننا؛ قال: قد فعلت. قال: فعلى مَن قضيت؟ قال: على ابنِ أُمّك.

ودخل على الشعبيّ[(٥)] في مجلس قضائهِ رجلٌ وامرأته، وكانت المرأةُ مِن أجملِ النساءِ، فاختصما إليه، فأدْلت المرأة بحجّتها، وقَوِيت بيِّنتُها. فقال للزوج: هل عندك مِن دافع؟ فأنشأ يقول: [من مجزوء الرمل]

فُتِنَ الشَّعْبِيُّ لَمّا ... رفع الطَّرْفَ[(٦)] إليها
فتنته بِدلالٍ ... وبِخَطَّيْ حاجِبَيْها

(١) يزيد بن المهلّب: عامل خراسان بعد وفاة أبيه. عزل وسجن ثم فرّ من سجنه، قتله مسلمة بن عبد الملك.
(٢) السماطان: مثنى السماط، وهو الشيء المصطفّ، وهو الصفّ من الناس.
(٣) هو أبو أمية شريح بن الحارث الكندي، ولي قضاء الكوفة لعمر. بقي قاضيًا حتى زمن السفاح. كان فقيهًا وشاعرًا وصاحب مزاح. مات سنة ٧٨ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/ ٨٥.
(٤) الرفاء: المصدر من رافاه مرافاة ورفاء، إذا وافقه. وقوله: بالرفاء والبنين، يتضمن دعوة مباركة للعرس.
(٥) الشعبي، من التابعين البلغاء والحكماء، ضمّن الثعالبي كلامه في عداد أصحاب الإعجاز والإيجاز. انظر: الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص ٣٧، دار صعب، بيروت.
(٦) الطرف: العين.

قــال لِلْجِــلْوازِ[١] قَــرِّبْــ ـهــا وقــدّمْ شــاهِــدَيْــهــا
فقضى جَوْرًا[٢] على الخَصْـ ـمِ ولــم يــقــضِ عــلــيــهــا

قال الشعبيُّ: فدخلت على عبد الملكِ بن مروان؛ فلما نظر إليّ تبسّم، وقال:

فُــتِــن الــشــعــبــيّ لــمّــا رفــع الــطَّــرْف إلــيــهــا

ثم قال: ما فعلتَ بقائل هذه الأبيات؟ قلت: أوجعتُه ضربًا يا أميرَ المؤمنين بما انتهك من حرمتي في مجلس الحكومة وما افترى به عليّ، قال: أحسنت! وأحضرَ رجلٌ امرأته إلى بعضِ قضاةِ البَصْرة، وكانت حسنةَ المُنْتَقَبِ[٣]، قبيحة المَسْفَر[٤]؛ فمال القاضي لها على زوجها وقال: يعمِد أحدكم إلى المرأة الكريهة فيتزوّجُها ثم يسيءُ إليها. ففطن الرجلُ لميلهِ إليها فقال: أصلح الله القاضي، قد شككتُ في أنها امرأتي، فمُرْها تَسْفِر عن وجهها؛ فوقّع ذلك بوِفاق من القاضي، فقال لها: اسفري رحمكِ الله؛ فسفَرت عن وجه قبيح. فقال القاضي لمّا نظر إلى قبح وجهها: قُومي عليكِ لعنةُ الله! كلامُ مظلوم، ووجهُ ظالم.

قيل: بينا رَقَبةُ بنُ مَصْقَلة القاضي في حَلْقته، إذ مرّ به رجل غليظُ العنق؛ فقال له بعضُ جلسائه: يا أبا عبدِ الله، هذا أعبدُ الناس. فقال رقبة: إني لأرى لهذا عنقًا ما دقّقتها العبادة. قال: فمضى الرجل وعاد قاصدًا إليهم. فقال رجل لرقبة: يا أبا عبد الله، أخبره بما قلت حتى لا تكون غِيبة[٥]؛ قال: نعم، أخبره أنت حتى تكون نميمة[٦]. ودخل رَقَبةُ إلى المسجد الأعظم فألقى نفسه إلى حلقة قوم، ثم قال: قتيل فالوذج[٧] رحمكم الله! قالوا: عند من؟ قال: عند من حكم في الفُرقة وقضى في الجماعة، يعني: بلال بن أبي بُرْدَة.

---

(١) الجلواز: رجل الشرطة. (٢) جورًا: ظلمًا.
(٣) المنتقب: المصدر الميمي أو اسم المكان من انتقبت المرأة، إذا لبست نقابها على وجهها.
(٤) المسفر: المصدر الميمي أو اسم المكان من سفرت المرأة، إذا كشفت عن وجهها.
(٥) الغيبة: ذكر المرأة الآخرين بما يسوء.
(٦) النميمة: فعل النمام، وهو الذي يظهر الحديث بالوشاية، ويرفعه على وجه الإفساد والإشاعة بين الناس.
(٧) الفالوذج: ضرب من الحلواء، واللفظة في الأصل فارسية.

واختصم رجلان إلى إياس بنِ معاويةَ وهو قاضي البَصْرة لعمرَ بنِ عبد العزيز في مِطْرَف[١] خَزّ وأنبجانِيّ[٢]، وادّعى كل واحد منهما أن المِطْرف له وأن الأنبجانيّ لصاحبه، فدعا إياس بمشط وماء، فبلّ رأس كل واحد منهما، ثم قال لأحدهما: سَرِّح رأسك فسرّحه، فخرج في المشط عَفْر المِطْرف، وفي مشط الآخر عَفْرُ الأنبجانيّ؛ فقال: يا خبيث! الأنبجانيّ لك، فأَقَرّ[٣]، فدفع المطرف لصاحبه. وقال رجل لإياس: هل ترى عليّ من بأس إن أكلت تمرًا؟ قال: لا، قال: فهل ترى عليّ من بأس إن أكلت معه كَيْسومًا[٤]؟ قال: لا، قال: فإن شربت عليهما ماء؟ قال: جائز. قال: فلم تحرّم السّكْر، وإنما هو ما ذكرت لك؟ قال له إياس: لو صببت عليك ماءً هل كان يضرُّك؟ قال: لا، قال: فلو نثرت عليك ترابًا هل كان يضرّك؟ قال: لا، قال: فإن أخذت ذلك فخلطته وعجنته وجعلت منه لَبِنَةً عظيمة فضربت بها رأسك هل كان يضرّك؟ قال: كنتَ تقتلُني، قال: فهذا مثلُ ذاك.

دعا الرشيد[٥] أبا يوسف[٦] القاضي فسأله عن مسألةٍ فأفتاه؛ فأمر له بمائة ألف درهم، فقال: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأمرَ بتعجيلِها قبلَ الصبح! فقال: عَجِّلوها له. فقيل: إنّ الخازنَ في بيته والأبواب مغلقة. فقال أبو يوسف: وقد كنت في بيتي والدروب مغلقة، فلمّا دُعِيت فُتِحت. فقال له الرشيد: بلغني أنك لا ترى لُبْس السواد. فقال: يا أميرَ المؤمنين، ولِم وليس في بدني شيء أعزّ منه؟ قال: وما هو؟ قال: السوادُ الذي في عينيّ.

وسأل الرشيدُ الأوزاعيّ[٧] عن لُبْس السّواد، فقال: لا أُحرّمه، ولكني أكرهه. قال: ولِم؟ قال: لأنه لا تُجْلَى[٨] فيه عَرُوس، ولا

---

(١) مطرف الخزّ: الدواء المعلم من الحرير.

(٢) الأنبجاني: ضرب من اللباس ينسب إلى أنبجان.

(٣) أقرّ: اعترف، وشهد على نفسه.

(٤) الكيسوم: الحشيش الكثير.

(٥) الرشيد، لقب الخليفة العباسي الخامس، واسمه هارون. تولّى بعد أخيه الهادي. مات سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٢٩٩.

(٦) هو يعقوب بن إبراهيم القاضي المشهور، تولّى قضاء بغداد أيام المهدي والهادي والرشيد. أول من دعي بقاضي القضاة. له كتاب «الخراج» و«الردّ على سير الأوزاعي»، توفي سنة ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م. انظر: الفهرست ص ٢٨٦.

(٧) الأوزاعي، هو عبد الرحمٰن الأوزاعي الفقيه المشهور، ولد في بعلبك، وصار صاحب مذهب فقهي معروف. قبره جنوبي بيروت، له كتاب «السنن» و«المسائل». مات سنة ١٥٧ هـ/ ٧٧٤ م. انظر: الفهرست ص ٣١٨.

(٨) تجلى: تعرض على زوجها مجلوّة ومزيّنة ليلة عرسها.

يلبّي[١] فيه مُحْرِم[٢]، ولا يُكَفَّن فيه ميّت. فالتفت الرشيد إلى أبي يوسف وقال: ما تقول أنت في السواد؟ قال: يا أمير المؤمنين، النورُ في السواد. فاستحسن الرشيد ذلك؛ ثم قال: وفضيلة أخرى يا أمير المؤمنين. قال: وما هي؟ قال: لم يكت كتابُ الله إلّا به؛ فاهتزّ الرشيد لذلك.

تقدّم رجل إلى أبي حازم عبد الحميدِ بنِ عبد العزيز السَّكُونيّ قاضي المعتمدِ[٣]، وقدّم أباه يطالبه بدَين له عليه، فأقرَّ الأب بالدّين، وأراد الابن حبس والده. فقال القاضي: هل لأبيك مال؟ قال: لا أعلمه، قال: فَمُذْ كم داينته بهذا المال؟ قال: منذ كذا وكذا. قال: قد فرضتُ عليك نفقة أبيك من وقت المداينة؛ فحبس الابن وخلّى الأب.

كان عبد الملك بن عمرَ قاضي الكوفة، فهجاه هُذَيْل الأشجعيّ بأبياتٍ منها: [من الطويل]

إذا ذاتُ دَلٍّ كـلّمـتـه بـحـاجـةٍ   فهَمَّ بأن يقضي تنحنحَ أو سَعَلْ[٤]

فكان عبد الملك يقول: قاتله الله! واللهِ لربما جاءتني النحنحةُ وأنا في المتوضّأ[٥] فأذكرُ ما قال فأرُدّها.

وقيل: شَهِد سلميُّ الموسوسُ عند جعفر بن سليمان على رجل، فقال: هو ـ أصلحك الله ـ ناصِبيّ[٦]، رافِضِيّ[٧]، قَدَرِيّ[٨]، مجبِريّ[٩]، يشتم الحجّاج بنَ الزبير الذي يهدم الكعبةَ على عليّ بنِ أبي سفيان. فقال له جعفر: ما أدري على أيّ شيء

(١) يلبّي: يقول: لبّيك اللّهمّ لبّيك، وذلك حين التوجّه لزيارة الكعبة المشرّفة.
(٢) المحرم: من يلبس ثوبي الإحرام بقصد زيارة الكعبة المشرّفة.
(٣) المعتمد، هو أحمد بن المتوكّل، الخليفة العباسي الخامس عشر، لقب بالمعتمد، وكان أخا الموفق. توفي مسمومًا سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣١٨.
(٤) الدّلّ، التغنّج والتلوّي، وإظهار الجرأة في تلطّف.
(٥) المتوضّأ: مكان الوضوء.
(٦) الناصبيّ: من يظهر النصب والعداوة لعليّ بن أبي طالب وشيعته.
(٧) الرافضيّ: من يظهر الرفض والعداوة لأبي بكر وعمر وعثمان وأشياعهم.
(٨) القدري، الذي يقول بأن الإنسان قادر على عمل الخير أو الشرّ، وهو المنسوب إلى القدريّة.
(٩) الجبري، الذي يقول بأن الإنسان مجبر على الخير أو الشرّ، وهو المنسوب إلى الجبرية.

أحسدك: على علمك بالمقالات، أم على معرفتك بالأنساب! فقال: أصلح الله الأمير، ما خرجتُ من الكُتّاب[١]، حتى حذفت هذا كلّه ورائي.

واستُفْتِي بعضُ القضاة، وقد نُسِبت إلى القاضي أبي بكر بن قُرَيْعَة، فقيل له: ما يقول سيّدنا القاضي أيّده الله في رجل باع حِجْرًا[٢] من رجل، فحين رفع ذنبها ليقلّبه خرجت منها رِيحٌ مصوّتة اتصلت بحصاةٍ ففقأت عينَ المشتري؟ أفتِنا في الدِّية[٣] والردّ يرحمك الله. فأجاب: لم تجرِ العادة بمثل هذه البدائع، بين مشترٍ وبائع؛ فلذلك لم يثبت في كتب الفقهاء، ولم يستعمل في فتوى العلماء؛ لكن هذا وما شاكله[٤] يجري مجرى الفضول، المستخرج من أحكام العقول، والقول فيه - وبالله العصمة من الزَّلَل والخطل: أنّ دِيَةَ ماجنته الحِجْرُ ملغى في الهَدْرِ، عملًا بقول النبيّ المختار، صلّى الله عليه وعلى آله الأطهار، «جُرْح العَجْماء جُبَار»[٥]؛ لا سيّما والمشتري عند كشفه لعورتها، استثار كامِن سَوْرتها[٦]، وعلى البائع لها ارتجاعها، وردّ ما قبض من ثمنها؛ لأنه دلّس[٧] حِجْرًا مَضِيقُها مَنْجنِيقُها[٨]. وإذا كانت السِّهام طائشة، فهي من العيوب الفاحشة، وكيف يمتنع ردّها وأغراضها نواظر الحَدَق[٩]، وقلّما يَسْتظهِر المقلّبون الخيل بالدَّرَق[١٠].

ذِكْر شيء من نوادر النُّحاة

قدّم رجل من النحاة خصمًا إلى القاضي، وقال: لي عليه مائتان وخمسون درهمًا، فقال لخصمه: ما تقول؟ فقال: أصلح الله القاضي، الطلاق لازم له، إن كان له إلا ثلاثمائة، وإنما ترك منها خمسين ليعلم القاضي أنه نَحْوِيّ.

---

(١) الكتاب، موضع التعليم. (٢) الحجر: الأنثى من الخيل.
(٣) الدّية: ما يعطى من المال بدل نفس القتيل، والأصل: ودي، المصدر من ودى وديًا وديّة، قلبت الواو تاء مربوطة، ثم وضعت في آخر الكلمة.
(٤) شاكله: ناظره وشابهه.
(٥) العجماء: مؤنث الأعجم، وهي البهيمة. ومعنى الحديث أن جرح البهيمة هدر لأنها لا تقاصّ بما فعلت.
(٦) سورتها: شدّتها وغيظها.
(٧) دلّس البائعُ: كتم عيب ما يبيعه من المشتري، ودلّس: خدع وكذب.
(٨) المنجنيق، آلة ترمى بها الحجارة الضخمة على الأعداء.
(٩) الحدق، جمع حدقة، وهي سواد العين الأعظم.
(١٠) الدرق، جمع درقة وهي الترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب.

ومرّ أبو علقمة بأعْدالٍ[١] قد كُتِب عليها: رُبٌّ[٢] سُلِّم لأبو فلان؛ فقال لأصحابه: لا إلٰه إلّا الله! يلحنون[٣] ويربحون.

وجاء رجل إلى الحسن البصري، فقال: ما تقول في رجل مات فترك أبيه وأخيه؟ فقال الحسن: ترك أباه وأخاه. فقال: ما لأباه وأخاه؛ فقال الحسن: ما لأبيه وأخيه. فقال الرجل: إني أراك كلّما طاوعتك تخالفني! وقيل سِكر هارون بن محمدِ بنِ عبد الملك ليلةً بين يدي الموفَّق[٤]، فقام لينصرفَ فغلبه السكر فنام في المضْرِب، فلمّا انصرف الناس جاء راشدٌ الحاجب فأنبّهه وقال: يا هارونُ انصرف. فقال: هارون لا ينصرف، فأعاد راشد القول على هارون، فقال هارون: سَلْ مولاك فهو يعلم أن هارون لا ينصرف. فسمع الموفّق فقال: هارون لا ينصرف؛ فتركه راشد. فلمّا أصبح الموفّق وقف على أن هارون بات في مِضْرَبه[٥]؛ فأنكر على راشد، وقال: يا راشدُ، يبيت في مِضْرَبي رجل لا أعلم به! فقال: أنت أمرتني بهذا، قلت: هارون لا ينصرف. فضحك وقال: ما أردت إلا الإعرابَ وظننتَ أنت غيره.

وقيل: قدِم العُرْيان بنُ الهيثم على عبد الملك، فقيل له: تحفَّظْ من مَسْلَمة فإنه يقول: لأَن يُلْقِمني رجل بحجر أحبُّ إليّ من أن يُسمِعني رجل لَحنًا. فأتاه العريان ذاتَ يوم فسلّم عليه، فقال له مَسْلَمة: كم عطاءك؟ قال: ألفين. فنظر إلى رجل عنده وقال له: لَحن العراقيٌّ؛ فلم يفهم الرجل عن مسلمةَ، فأعاد مسلمةُ القولَ على العريان، وقال: كم عطاؤك؟ فقال: ألفان. فقال: ما الذي دعاك إلى اللَّحِن أوّلًا والإعراب ثانيًا؟ قال: لَحِنَ الأميرُ فكرِهت أن أُعْرِب[٦]، وأعرب فأعربت، فاستحسن قوله وزاد في عطائه.

ووقف نحويٌّ على بَقّال يبيع الباذنجانَ، فقال له: كيف تبيع؟ قال: عشرين بدانق[٧]، فقال: وما عليك أن تقول: عشرون بدانق؟ فقدّر البقّال أنه يستزيده، فقال:

(١) أعدال، جمع عدل، وهو الغِرارة والجوالق لأنه يحمل على جنب البعير ويعدل بآخر. والعدل أيضًا: الكيل.

(٢) الرُّبّ: ما يطبخ من التمر وسواه، أو هو ما يختر من عصير الثمار.

(٣) يلحنون: يخطئون في الإعراب ويخالفون وجه الصواب، والمصدر اللحن.

(٤) الموفّق: هو الموفّق بالله، طلحة بن المتوكّل الخليفة العباسي، والموفّق والد الخليفة المعتضد. كان وليًا للعهد في خلافة أخيه المعتمد. قضى على ثورة الزّنج بمعاونة لؤلؤ. توفي سنة ٢٧٨ هـ/ ٨٩١ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣١٩.

(٥) المضرب: الخيمة العظيمة.

(٦) أعرب، بخلاف ألحن، وأعرب: أبان وأفصح ولم يخطىء في الإعراب.

(٧) الدانق: قطعة نقدية كانت تساوي سدس الدرهم.

ثلاثين بدانق. فقال: وما عليك أن تقول: ثلاثون؟ فما زال على ذلك إلى أن بلغ سبعين، فقال: وما عليك أن تقول: سبعون؟ فقال: أراكَ تدور على الثمانون، وذلك لا يكون أبدًا.

ذكر شيء من نوادر المتنبئين

قيل: ادّعى رجل النبوّةَ في أيام المهديّ، فأُدْخِل عليه؛ فقال له: إلى من بُعثت؟ فقال: ما تركتموني أذهب إلى من بُعثت إليهم، فإنّي بُعثت بالغداة وحبستموني بالعشيّ، فضحك المهديّ منه وأمر له بجائزة وخلّى سبيله.

وتنبّأ رجل وادّعى أنه موسى بنُ عُمرانَ، فبلغ خبرُه الخليفةَ، فأحضره وقال له: من أنت؟ قال: أنا موسى بنُ عمرانَ الكليم[١]. قال: وهذه عصاكَ التي صارت ثعبانًا! قال: نعم، قال: فألقِها من يدك ومُرْها أن تصير ثعبانًا كما فعل موسى. قال: قل أنت ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّازعَات: الآية ٢٤]، كما قال فرعون[٢] حتى أُصَيِّر عصاي ثعبانًا كما فعل موسى. فضحِك الخليفة منه واستظرفه، وأُحْضِرتِ المائدةُ، فقيل له: أكلتَ شيئًا؟ قال: ما أحسَنَ العقلَ! لو كان لي شيء آكله، ما الذي كنتُ أعمل عندكم؟ فأعجب الخليفة وأحسن إليه.

وادّعت امرأة النبوّة على عهد المأمون[٣]؛ فأُحضِرت إليه فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا فاطمةُ النبيّة. فقال لها المأمون: أتؤمنين بما جاء به محمّدٌ ﷺ؟ قالت: نعم، كلُّ ما جاء به فهو حقّ. فقال المأمون: فقد قال محمد ﷺ: «لا نبيّ بعدي». قالت: صدق عليه الصلاة والسلام، فهل قال: لا نبيّةَ بعدي؟ فقال المأمون لمن حضره: أمّا أنا فقد انقطعت، فمن كانت عنده حُجّة فليأتِ بها، وضَحِك حتى غطّى على وجهه.

---

(١) الكليم: صفة لموسى، نبيّ الله، أطلقت عليه لأن الله تعالى خاطبه وكلّمه.

(٢) فرعون، أحد فراعنة مصر. أرسل إليه موسى مبشّرًا ونذيرًا فلم يؤمن بما أتى به موسى، لكنّ سحرته الذين جمعهم لكيد موسى، آمنوا بالله وتخلّوا عن عبارة فرعون وأشياعه. انظر: مروج الذهب، للمسعودي ١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦. شرح محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٢.

(٣) المأمون: هو عبد الله بن هارون الرشيد، الخليفة العباسي السابع، قتل أخاه الأمين وخلفه، مات سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣٠٢.

وادّعى رجل النبوّةَ؛ فقيل له: ما علاماتُ نبوّتك؟ قال: أنبئكم بما في نفوسكم. قالوا: فما في أنفسنا؟ قال: في أنفسكم أنني كذبت ولست بنبيّ.

وتنبّأ رجل في أيام المأمون، فأُتِي به إليه؛ فقال له: أنت نبيّ؟ قال: نعم، قال: فما معجزتُك؟ قال: ما شئت. قال: أَخْرِجْ لنا من الأرض بِطِّيخة. قال: أمهلني ثلاثةَ أيام. قال المأمون: بل الساعةَ أريدُها. قال: يا أميرَ المؤمنين، أنصفْني، أنت تعلم أنّ الله يُنبِتها في ثلاثة أشهر، فلا تقبلها مني في ثلاثة أيام! فضحك منه، وعلم أنه محتال، فاستتابه[1] ووصَله.

وادّعى آخرٌ النبوّةَ في زمانه فطالبه بمُعْجِزة، فقال: أطرَح لكم حصاةً في الماء فأُذيبها حتى تصيرَ مع الماء شيئًا واحدًا. قالوا: قد رَضِينا، فأَخْرَجَ حصاةً كانت معه فطرحها في الماء فذابت. فقالوا: هذه حيلة، ولكن أَذِبْ حصاةً غيرَها نأتيك بها نحن. فقال لهم: لا تتعصّبوا، لستم أضلّ من فرعون، ولا أنا أعظم من موسى، ولم يقل فرعون لموسى: لا أرضى بما تفعله بعصاك حتى أُعطِيك عصا من عندي تجعلها ثعبانًا، فضحك المأمون منه وأجازه.

وادّعى رجل النبوّة في أيام المعتصم، فأُحضر بين يديه؛ فقال له: أنت نبيّ؟ قال: نعم، قال: إلى من بُعثت؟ قال: إليك. قال: أشهد إنك لسَفيهٌ[2] أحمق[3]. قال: إنما يذهب إلى كل قوم مثلُهم. فضحِك منه وأمر له بشيء.

وادّعى آخر النبوّة في أيام المأمون؛ فقال له: ما مُعْجِزتك؟ قال: سَلْ ما شئت؛ وكان بين يديه قُفْل، فقال: خذ هذا القفلَ فافتحْه، فقال: أصلحك الله، لم أقل إني حدّاد. فضحك منه واستتابه وأجازه.

وادّعى آخر النبوّة، فطُلِب ودُعِي له بالسيف والنِّطْع[4]؛ فقال: ما تصنعون؟ قالوا: نقتلك. قال: ولِم تقتلونني؟ قالوا: لأنك ادّعيت النبوّة. قال: فلستُ أدّعيها. قيل له: فأيّ شيء أنت؟ قال: أنا صِدِّيق[5]. فدُعِي له بالسِّياط[6]؛ فقال: لم

---

(١) استتابه: طلب إليه أن يعلن توبته.
(٢) السفيه: الجاهل والرديء الخلق.
(٣) الأحمق: الفاسد الرأي.
(٤) النّطع: بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس.
(٥) الصدّيق: الكثير الصدق، أو الكامل فيه.
(٦) السياط: جمع السوط، وهو ما يضرب من جلد مضفور أو نحوه. سمّي بذلك لأنه يخلط اللحم بالدم.

تضربونني؟ قالوا: لادّعائك أنك صدِّيق؛ قال: لا أدّعي ذلك. قالوا: فمن أنت؟ قال: من التابعين لهم بإحسان. فدُعِي له بالدِّرة[١]. قال: ولِم ذلك؟ قالوا: لادّعائك ما ليس فيك؛ فقال: ويحكم! أدخل إليكم وأنا نبيّ تريدون أن تحطّوني في ساعة واحدة إلى مرتبة العوامّ! لا أقلّ من أن تصبروا عليّ إلى غد حتى أصِيرَ لكم ما شئتم.

وادّعى آخر النبوّة، وسمّى نفسه نوحًا، فنهاه صديق له عن ذلك فلم ينته؛ فأخذه السلطان وصلبه؛ فمرّ به صديقه الذي كان ينهاه، فقال: يا نوح! ما حصل لك من السفينة غير الدَّقَل[٢].

ذكر شيء من نوادر المغفّلين والحَمْقى

قال بعضهم: رأيت ابنَ خلفِ الهمدانيّ في صحراءَ وهو يطلبُ شيئًا، فقلت له: ما تبغي هٰهنا؟ قال: دفنت شيئًا ولست أهتدي إليه. قلت: فهلّا علّمت عليه بشيء! قال: جعلت علامتي قطعةً منَ الغيم كانت فوقه، وما أراها الساعة. ونظر مرة في الحُبِّ (وهو الزير[٣]) فرأى وجهه، فعدا إلى أمّه فقال: يا أُمّي في الحُبِّ لِصّ. فجاءت أمه وتطلّعت فيه، فقالت: إي والله ومعه قَحْبة. ورُئي في وسط داره وهو يعدو عَدْوًا شديدًا، ويقرأ بصوت عال، فسُئِل عن ذلك فقال: أردت أن أسمع صوتي من بعيد. ودخل إلى رجل يعزّيه، فقال: عظّم الله مصيبتكم، وأعان أخاك على ما يرِد عليه من يأجوجَ ومأجوج[٤]، فضحِك الناس، فقال: تضحكون مما قلت! وإنما أردت هاروت وماروت[٥].

وقيل: كتب المنصور[٦] إلى زِياد بن عبد الله الحارثيّ، ليقسِّم بين القواعد[٧] والعميان والأيتام مالًا، فدخل عليه أبو زياد التميميّ، وكان مغفّلًا فقال: أصلحك الله!

---

(١) الدّرّة: السوط يضرب به.

(٢) الدقل: خشبة تشدّ في وسط السفينة، وعليها ينشر الشراع.

(٣) الزّير أو الحُبّ: الجرّة الكبيرة.

(٤) يأجوج ومأجوج: اسمان لقبيلتين همجيتين كانتا تؤذيان من حولهما في شمال شرقي آسيا. ورد ذكرهما في القرآن الكريم.

(٥) هاروت وماروت: اسمان لملكين كانا ببابل يعلّمان الناس السحر. وقد ورد ذكرهما في القرآن الكريم.

(٦) المنصور: لقب الخليفة العباسي الثاني، واسمه عبد الله، وكنيته أبو جعفر. بنى بغداد فدعاها مدينة السلام. مات وهو في الحج سنة ١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٢٩٥.

(٧) القواعد: النساء اللائي يقعدن في البيوت فيما أزواجهنّ خارج البيوت.

اكتبْني في القواعد، فقال له: عافاك الله، القواعد هنّ النساء اللّاتي قعدن عن أزواجهنّ. فقال: فاكتبني في العميان، قال: اكتبوه منهم؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦]، قال أبو زياد: واكتب ابني في الأيتام؛ قال: نعم! من كنتَ أباه فهو يتيم.

وسُئِل بعضهم عن مولده، فقال: وُلِدت رأسَ الهلال للنصف من رمضانَ بعد الهيد بثلاثة أيام، فاحسبُوا الآن كيف شئتم.

ذكر شيء من نوادر النبِيذيّين

قال رجلٌ لبعض أصحاب النبيذ: وجّهتُ إليك رسولًا عشِيّة أمسِ فلم يجدْك؛ فقال: ذاك وقتٌ لا أجد فيه نفسي.

وقيل لبعضهم: كم الصلاة؟ فذكر الغداة والظهر، قالوا: فالعصر؟ قال: تعرِف وتنكر، قالوا: فالعِشاء؟ قال: يبلغها الجواد، قالوا: فالعَتَمة؟ قال: ما كانت لنا في حساب قطّ.

شَرِب الأُقَيْشِر[١] في حانوت خمّار[٢] حتى نفذ ما معه، ثم شَرِب بثيابه وبقي عُرْيانًا، فجلس في تِبن يستدفيء به، فمرّ رجل ينشُد ضالّة[٣]؛ فقال الأُقيشر: اللّهمّ اردُد عليه، واحفظ علينا. فقال له الخمار: سَخِنَتْ عينُك[٤]، أيَّ شيء يحفظ عليك ربّك! قال: هذا التبن، لئلا يأخذه صاحبه فأهلِك من البرد.

وباع بعضهم ضَيعةً له؛ فقال له المشتري: بالعشيّ أشهد عليك، فقال: لو كنتُ ممن يفرغ بالعشيّ ما بعت ضيعتي.

ذكر شيء من نوادر النساء والجواري

قال رجل: قلت لجارية أريد شراءها: لا يُريبِك شيبي؛ فإن عندي قوّة. فقالت: أيسرُّك أنّ عندك عجوزًا مُغْتَلِمة![٥]

(١) الأُقيشر: لقب للمغيرة بن عبد الله بن الأسود بن وهب، وهو من شعراء الكوفة ومجّانهم.
(٢) حانوت الخمار: المحل الذي تباع فيه الخمرة.
(٣) الضالة: الشيء المفقود الضائع، يبحث عنه بقصد العثور عليه.
(٤) سخنت عينك: أي ذهبت عينك، وسال ماؤها.
(٥) مغتلمة: شديد الشهوة، أو هي المنقادة لها.

أُدْخِل على المنصور جاريتان فأعجبتاه، فقالت التي دخلت أوّلًا: يا أميرَ المؤمنين، إن الله فضّلني على هذه بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾[١] [التوبة: الآية ١٠٠]، وقالت الأخرى: لا، بل الله فضّلني عليها بقوله: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى: الآية ٤].

وعُرِض على المعتصم[٢] جاريتان بِكر وثيّب[٣]؛ فمال إلى البِكر، فقالت الثيّب: ما بيننا إلّا يوم واحد. فقالت البكر: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: الآية ٤٧].

قيل لامرأة ظريفة: أبِكرٌ أنتِ؟ قالت: أعوذ بالله من الكساد.

وقال المتوكّل لجارية استعرضها: أنت بِكرٌ أم إيش[٤]؟ قالت: أنا إيش يا أمير المؤمنين.

واستعرض رجل جاريةً فاستقبح قدميها، فقالت: لا تُبالِ؛ فإني أجعلهما وراء ظهرك.

وقال الرشيد لبغيضٍ جاريته: إنكِ لدقيقةُ الساقَيْن. قالت: أحوج ما تكون إليهما لا تراهما.

وروى أبو الفرج الأصفهاني[٥] عن إسحٰق[٦]: أن الرشيدَ أحضره مجلسَه ذاتَ ليلة، وقد مضى شَطْر الليل؛ قال: فأخرج جاريةً كأنها مَهاة[٧]، فأجلسها في

---

(١) أما تمام هذه الآية المباركة فهو التالي: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

(٢) المعتصم بالله، لقب الخليفة العباسي الثامن محمد بن هارون الرشيد. خلف أخاه المأمون، بنى سامرّاء، وهزم البيزنطيين واحتلّ عمورية. توفي سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤٢ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣٠٥.

(٣) بكر وثيّب: البكر من النساء، من لم تفتضّ بكارتها فهي عذراء. أمّا الثيب، فهي بخلاف البكر.

(٤) إيش، لفظة تبدو عامية، وهي تعني: ماذا.

(٥) أبو الفرج الأصفهاني أو الأصبهاني، هو عليّ بن الحسن العالم والمؤرخ والأديب، صاحب كتاب «الأغاني» و«الأخبار والنوادر» و«أخبار الطفيليين» وكتاب «مقاتل الطالبيين». مات سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م. انظر: الفهرست، ص ١٦٦.

(٦) إسحٰق، المقصود به إسحٰق الموصلي، المتوفى سنة ٨٥٠ م، وهو أحد أشهر المغنّين في العصر العباسي. انقطع إلى الخليفة الرشيد فكان نديمه ومغنّيه. انظر: مروج الذهب ٤/ ١٤.

(٧) المهاة: البقرة الوحشية.

حِجْره[١]، ثم قال: غنّيني؛ فغنّته: [من السريع]

جِئْن من الروم وقَاليقلا[٢] يَرْفُلْنَ[٣] في المِرْط[٤] ولِينِ المُلَا[٥]
مُقَرْطَقَات[٦] بصنوف الحُلَى يا حبّذا البِيضُ وتِلْكَ الحُلَى

فاستحسنه وشرب عليه.

طُلِبَتْ جارية محمودِ الورّاق لِلمعتصم بسبعةِ آلاف دينارٍ، فامتنع من بيعها، واشتُرِيتْ له بعد ذلك من ميراثه بسبعمائة دينار. فذكر المعتصمُ ذلك لها، فقالت: إن كان أمير المؤمنين ينتظر بشهواته المواريث فسبعون دينارًا في ثمني كثيرٌ، فكيف بسبعمائة!

واستعرض رجل جاريةً فقال لها: في يَدَيْك عمل؟ قالت: لا، ولكن في رجليّ.

وحُكي أنّ بعض المُجّان كان يعشق جارية أمْجَنَ منه، فضاق يومًا، فكتب إليها: قد طال عهدي بك يا سيّدتي، وأقلقني الشوق إليك، فإن رأيتِ أن تستدركي رَمَقي[٧] بمُضْغة عِلْك وتجعليه بين دينارين وتُنْفذيه إليّ لأستشفي به فعلتِ إن شاء الله. ففعلتْ ذلك وكتبتْ إليه: رَدُّ الظَّرْفِ من الظَّرْف[٨]، وقد سارعتُ إلى إنفاذ ما طلبتَ؛ فأنْعِمْ بردّ الطبقِ والمكبَّة، واستعملِ الخبر: «استدِرُّوا[٩] الهدايا بردّ الظّروف».

وطلب آخر من عشيقته خاتمًا كان معها؛ فقالت: يا سيّدي، هذا ذهب وأخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود حتّى تعود.

---

(١) حجره: حضنه.
(٢) قاليقلا: اسم بلدة بعينها، كانت مدينة كبيرة بأرمينية العظمى.
(٣) يرفلن: يجررن أذيالهنّ ويتبخترن.
(٤) المرط: الثوب من صوف ونحوه يؤتزر به، وهو الكساء غير المخيط.
(٥) الملا: الثوب أو الأثواب الواسعة المشقوقة.
(٦) مقرطقات: مزيّنات ولابسات. والمقرطقات أيضًا، من عليهنّ القراطق، وهي ضرب من القباءات البيض.
(٧) الرمق: بقية الحياة.
(٨) الظرف الأولى، الوعاء. والثانية الدعابة وخفّة الدم.
(٩) استدرّوا: استجلبوا.

وكتب رجل إلى عشيقته: مُرِي خيالَكِ إن يُلِمّ[١] بي، فكتبت إليه: ابعث إليّ بدينارين حتى آتيك بنفسي.

قدّم بعضهم عجوزًا دلّالة[٢] إلى القاضي، وقال: أصلح الله القاضي، زوّجتنِي هذه امرأةً، فلما دخلت بها وجدتها عرجاء، فقالت: أصلح الله القاضي! زوّجته امرأة يجامعُها، ولـم أعلم أنّه يريد أن يحجّ عليها أو يسابق بها في الحَلْبة أو يلعب عليها بالكُرة والصولجان![٣]

كتب رجل إلى عشيقته رقعة، قال في أوّلها: عصمنا الله وإياكِ بالتقوى. فكتبت إليه في الجواب: يا غليظ الطبع، إن استجاب الله دعاءك لم نلتق أبدًا.

قال عقيل بنُ بلال: سمعتني أعرابيّة أُنشد: [من الطويل]

وكـم لـيـلةٍ قـد بِـتّـهـا غـيـرَ آثـمٍ بمهضومة الكشحينِ[٤] ريّانةِ القُلْبِ

فقالت: هَلّا أثِمت! أخزاك الله!

كان أبو نواس يومًا عند بعض إخوانه؛ فخرجت عليه جارية بيضاءُ عليها ثياب خضر. فلما رآها مسح عينيه وقال: خيرًا رأيت إن شاء الله تعالى. فقالت: وما رأيت؟ قال: ألكِ معرفة بعلم التعبير؟ قالت: ولا أعرف غيره. قال: رأيت كأني راكب دابّة شهباء[٥]، وعليها جُلٌّ[٦] أخضرُ وهي تمرح تحتي. فقالت: إن صدقت رؤياك فستدخِل فجلة. وقد روي أن هذه الحكاية اتفقت له مع عنان جاريةِ الناطفيّ.

وكان بعضهم جالسًا مع امرأته في مَنْظَرة[٧]؛ فمرّ غلام حسن الوجه؛ فقالت: أُعيذ هذا بالله؛ ما أحسنه وأحسن وجهه وقدّه! فقال الزوج: نعم، لولا أنه خَصِيّ، فقالت: لعنه الله ولعن من خصاه!

---

(١) يلمّ بي: يزورني.
(٢) دلّالة: الدلّالة من النساء، المتوسّطة بين البائع والمشتري.
(٣) الصولجان: العصا المعقوفة الرأس، وبها يتم قذف الكرة إلى مسافة بعيدة.
(٤) مهضومة الكشحين: الدقيقة الخصر، الضامرة البطن. والكشح، ما بين السّرّة ووسط الظهر والخاصرة.
(٥) شهباء، فيها شهبة، وهي البياض مع الخضرة، وهي المرتفعة والعظيمة.
(٦) الجلّ: ما يوضع على ظهر الدابة، وهو الجلال أيضًا، وجمعه جلال.
(٧) المنظرة: ما ارتفع من البناء ونظر منه.

قال أبو العيناء[1]: خطبتُ امرأةً فاستقبحتني، فكتبت إليها: [من الطويل]

فإن تَنْفِري مِن قبحِ وجهِي فإنّني أريبٌ أديبٌ لا غبِيٌّ ولا فَدْمُ[2]

فأجابتني: ليس لديوانِ الرسائلِ أريدُك.

وخطب ثُمامةُ العوفيُّ امرأةً فسألت عن حِرفته؛ فكتب إليها يقول: [من الطويل]

وسائلةٍ عن حِرفتي قلتُ حِرفتي
مقارعةُ[3] الأبطالِ في كلّ مأزِقِ[4]
وضربي طُلَى[5] الأبطالِ بالسيف مُعْلَمًا[6]
إذا زحف الصّفّانِ تحتَ الخوافِقِ[7]

فلما قرأتِ الشعرَ، قالت للرّسول: قلْ له: فديتُك! أنتَ أسدٌ، فاطلبْ لك لَبُوءةً؛ فإني ظبيةٌ أحتاج إلى غزال.

خرجت حُبيُّ المدنيّة في جوفِ الليل، فلقيها إنسانٌ فقال لها: تخرجين في هذا الوقت! قالت: ما أُبالي، إن لقيني شيطانٌ فأنا في طاعتِه، وإن لقيني رجلٌ فأنا في طلبه. وجاءت إلى شيخ يبيعُ اللّبنَ، ففتحت ظرفًا فذاقته ودفعته إليه وقالت: لا تعجَل بشدّه؛ ثم فتحت آخر فذاقته ودفعته إليه، فلما أشغلت يديه جميعًا، كشفت ثوبه من خلفه، وجعلت تَصْفِقُ[8] بظاهر قدمَيْها ٱسْتَهُ وخصيَيْهِ[9]، وتقول: يا ثاراتِ ذاتِ النِّحْيَين[10]، والشيخُ يستغيثُ، فلم يخلُصْ منها إلا بعد جُهْد.

غاب رجل عن امرأته فبلغها أنه اشترى جارية، فاشترت غلامين. فبلغه ذلك فجاء مبادرًا، وقال لها: ما هذا؟ فقالت: أمَا علمتَ أنّ الرحَى إلى بغلَيْنِ أحوجُ من البغلِ إلى رحيَيْنِ! ولكنْ بعِ الجاريةَ حتى نبيعَ الغلامين؛ ففعل ذلك ففعلت.

---

(١) أبو العيناء: هو محمد بن القاسم، الشاعر الظريف الذي اشتهر بسرعة جوابه وهجائه. اتّصل بالمتوكّل وله معه نوادر وأخبار مشهورة. مات سنة ٨٩٦ م. انظر: الفهرست، ص ١٨٠.
(٢) الأريب، العاقل البصير، والفدم: العييّ عن الكلام والقليل الفهم.
(٣) مقارعة الأبطال: مناجزتهم وقتالهم.
(٤) المأزق: موضع الحرب.
(٥) الطلى، جمع طلاة وطلية، وهي العنق.
(٦) المعلم، الذي عليه علامة.
(٧) الخوافق: الرايات.
(٨) تصفق: تضرب.
(٩) الخصيان: مثنى خصي، وهي البيضة.
(١٠) النحيان: مثنى نحي، وهو الزّقّ، والجرّة يوضع فيها السّمن أو العسل وسواهما.

ومثل ذلك ما حُكِي عن الأحنف[١]: أنه اعتمّ[٢] ونظر في المرآة؛ فقالت له امرأته: كأنك قد هممت بخِطبة امرأة! قال: قد كان ذلك. قالت: فإذا فعلت فاعلم أن المرأة إلى رجلين أحوجُ من الرجل إلى امرأتين. فنقضَ عِمَّته وترك ما كان قد همّ به.

ذِكْر شيء من نوادر العميان

قال إبراهيمُ بنُ سَيّابةَ لبشّارٍ[٣] الأعمى: ما سلب الله من مؤمنٍ كريمتَيْه[٤] إلا عوّضه عنهما: إمّا الحِفظ والذكاء، وإمّا حسن الصوت. فما الذي عوّضك الله عن عينيك؟ قال: فقدُ النَّظرِ لبغيضٍ ثقيلٍ مثلِك!

ونظيرُ هذه الحكايةِ ما حُكِي عن بعضهم، قال: خرجت ليلةً من قريةٍ لبعض شأني، فإذا أنا بأعمى على عاتقه[٥] جرّةٌ وبيده سِراجٌ، فلم يزل حتى انتهى إلى النهر، وملأ جرّته وعاد. قال: فقلت له: يا هذا، أنت أعمى، واللّيل والنهار عنده سواء، فما تصنع بالسراج؟ قال: يا كثيرَ الفضولِ، حملته لأعمى القلبِ مثلِك، يستضيء به لئلا يعثرَ في الظّلمةِ، فيقع عليَّ ويكسِر جرّتي.

قالوا: بلغ أبا العيناء أنّ المتوكّل[٦] يقول: لولا عمى أبي العيناء لاستكثرت منه؛ فقال: قولوا لأمير المؤمنين: إن كان يريدني لرؤية الأهِلّة[٧] ونظم[٨] اللآلىء واليواقيتِ وقراءةِ نقوشِ الخواتيم، فأنا لا أصلُح لذلك؛ وإن كان يريدني للمحاضرةِ والمنادمة والمذاكرة والمسامرة، فناهيك[٩] بي. فانتهى ذلك إلى المتوكّل فضحِك منه، وأمر بإحضاره، فحضر ونادمه.

(١) الأحنف: هو الأحنف بن قيس، سيّد بني تميم في البصرة. من دهاة العرب وقادتهم في صدر الإسلام. توفي سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١ م. انظر: شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ١/ ٧٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) اعتمّ: لبس العمامة.

(٣) بشار، هو بشار بن برد الأعمى، شاعر عباسي مشهور، عُرف بالهجاء وسلاطة اللّسان، وكان مكثرًا من التشبيب بالنساء. أقيم عليه الحدّ من قبل الخليفة المهديّ، فمات تحت السياط سنة ٧٨٤ م. انظر: الفهرست ص ٢٢٧.

(٤) كريمتيه: عينيه، والواحدة كريمة. (٥) عاتقه: العاتق، ما بين المنكب والعنق.

(٦) المتوكّل: المتوكل على الله هو لقب الخليفة العباسي العاشر جعفر بن المعتصم، حارب المعتزلة، وتعصّب لأهل السنّة. مات سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣١٣.

(٧) الأهلّة، جمع هلال، وهو الشهر القمري في أوّل ولادته.

(٨) نظم: جمع وسلك. (٩) ناهيك بي، تفيد التعجّب من نفسه.

تزوّج بعض العميانِ بسوداءَ؛ فقالت له: لو نظرتَ إلى حسني وجمالي وبياضي لازدَدْتَ فيّ حبًّا. فقال لها: لو كنتِ كما تقولين ما ترككِ لِي البُصَراء[١].

ذِكْر شيء من نوادر السؤّال

سأل أبو عونٍ رجلًا فمنعه، فألحّ عليه فأعطاه؛ فقال: اللّهمّ آجرْنا وإيّاهم، نسألهم إلحافًا[٢] ويعطوننا كرهًا، فلا يبارك الله لنا فيها ولا يُؤجِرهم عليها.

وقف أعرابيّ سائلٌ على بابٍ وسأل؛ فأجابه رجل وقال: ليس هٰهنا أحد. فقال: إنك أحَدٌ لو جعل الله فيك بركة.

ووقف سائل على باب، وكانت صاحبةُ الدار تبُولُ في البالوعة[٣]؛ فسمِع السائل صوتَ بولتِها فظنّه نشيش[٤] المِقلَى، فقال: أطعمونا من هذا الذي تَقْلونه؛ فضرطت المرأة وقالت: حَطبُنا رَطْبٌ ليس يُشعَل.

ووقف سائل على باب وقال: تصدّقُوا عليّ فإني جائع، قالوا: إلى الآن لم نخبِز. قال: فكفُّ سويقٍ[٥]. قالوا: ليس عندنا سَويق. قال: فشربةٌ مِن ماء فإني عطشان. قالوا: ما أتانا السّقاء. قال: فيسيرُ دُهنٍ أجعله في رأسي. قالوا: من أين لنا دهن. فقال: يا أولادَ الزّنى، فما قعودكم هنا! قوموا واشحتوا[٦] معي!

ذكر شيء من نوادر من اشتهر بالمجون

كان مُزَبِّد ممّن اشتهر بالمجون والنوادر، وله نوادر؛ فمنها ما قيل: إنه أخذه بعض الوُلاة وقد اتُّهِم بالشُّرْب، فاستنكهه[٧]، فلم يجد منه رائحة؛ فقال: قيّئوه. فقال مزبّد: ومن يضمن عشائي أصلحك الله؟ فضحك منه وأطلقه. وهبّت ريحٌ شديد فصح الناس: القيامة، القيامة! فقال مزبّد: هذه قيامةٌ على الرّيقِ بلا دابّة، ولا دجّال[٨]، ولا

---

(١) البصراء، جمع بصير، وهو خلاف الأعمى.
(٢) إلحافًا، المصدر من ألحف، وألحف السائل، إذا ألحّ في سؤاله.
(٣) البالوعة: ثقب أو قناة في الدار يجري فيها الماء الوسخ والأقذار.
(٤) نشيش: صوت الماء وغيره إذا غلى.
(٥) السويق: الناعم من دقيق الحنطة والشعير وغيره.
(٦) اشحتوا: اطلبوا الإحسان من الآخرين، والأصل: اشحذوا، بالذال.
(٧) استنكهه: شمّ ريح فمه.
(٨) الدجال: رجل يخرج في آخر الزمان قبل خروج المسيح والقائم المهدي، يدلّس على الناس، وهو أعور.

القائم[١]، ولا عيسى ابن مريم، ولا يأجوجَ ومأجوج[٢]. وقيل له: لم لا تكون كفلانٍ؟ (يعنون رجلًا موسِرًا[٣]) فقال: بأبي أنتم! كيف أشبَّه بمن يَضرِط فيُشمَّت[٤] وأعطُس فأُلطم! وقيل له: ما بالُ حِمارك يتبلّد إذا توجّه نحو المنزل وحمير الناس إلى منازلها أسرع؟ قال: لأنه يعرف سوءَ المنقلب. ونظرت امرأتُه وهي حُبلى إلى قبحِ وجهه، فقالت: الويلُ لي إن كان الذي في بطني يُشبهك، فقال لها: الويل لك إن لم يكن يشبهني. وسمِع رجلًا يقول عن ابنِ عبّاس[٥]: مَن نوى حِجّةً وعاقه عائق، كُتِبت له. فقال مزبّد: ما خرج العامَ كِراء أرخص من هذا.

وممن اشتهر بالمجون أشعب.

ذِكْر شيء من نوادر أشعب وأخباره

هو أشعبُ بنُ جُبَيْر، واسمه شُعَيْب، وكنيتُه أبو العلاء، وأمه أمُّ الجلندح، وقيل: أم جميل حميدة، وهي مولاةُ أسماءَ بنتِ أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنها، وكان أبوه قد خرج مع المختار بنِ أبي عُبَيْدٍ[٦]؛ فأسره مُصْعَب بنُ الزبير[٧]؛ فقال له: ويلك! تخرج عليّ وأنت مولاي! وقتله صبرًا[٨]. وقد قيل في ولائه: إن أباه مولى عثمانَ بنِ عفّانٍ رضي الله عنه، وإن أمّه كانت مولاةَ أبي سفيانَ بنِ حربٍ[٩]، وإن ميمونةَ أمّ المؤمنين أخذتها لمّا تزوّجها رسول الله ﷺ، وكانت تدخل على أزواج

---

(١) القائم: هو المهدي المنتظر من آل بيت النبيّ ﷺ يخرج في آخر الزمان فيملأ الأرض عدلًا وقسطًا.

(٢) يأجوج ومأجوج: سبق التعريف بهما. (٣) الموسر: ذو الغنى والمال.

(٤) يشمّت: يُدعى له عقب العطاس، والتشميت، الدعاء للعاطس.

(٥) ابن عباس: هو عبد الله بن العباس، ابن عم النبيّ ﷺ والملقّب بحبر الأمّة لعلمه وفقهه. روى الكثير من حديث الرسول، وكانت وفاته سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٧ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٧٥.

(٦) المختار بن أبي عبيد، هو المختار الثقفي الذي ثار في الكوفة طلبًا بثأر الحسين بن علي، قضى عليه مصعب بن الزبير، وكانت وفاته سنة ٦٧ هـ/ ٦٨٧ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٧٤.

(٧) مصعب بن الزبير: هو أخو عبد الله بن الزبير، ونائبه في العراق. حارب الخوارج وقضى على ثورة المختار الثقفي. قتله عبد الملك بن مروان في معركة دير الجاثليق سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م. انظر: مروج الذهب ٣/ ١١٥.

(٨) صبرًا: يقال: قُتل صبرًا، أي حُبس على القتل حتى يُقتل.

(٩) أبو سفيان بن حرب، هو صخر بن حرب بن أميّة، من أشدّ المناوئين للإسلام. قاد المشركين في معركة أُحد والخندق، أسلم ظاهرًا يوم فتح مكّة. وهو والد معاوية مؤسّس الدولة الأُمويّة. مات سنة ٣١ هـ/ ٦٥٢ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٣٧.

النبيّ ﷺ، فيستظرِفْنَها؛ ثم صارت تنقل أحاديث بعضهِنّ إلى بعضٍ، وتُغْري بينهن. فدعا عليها رسول الله ﷺ فماتت. وقد حُكِي عن أشعَب: أنه جلس يومًا في مجلس فيه جماعةٌ، فتفاخروا وذكر كل واحد منهم مناقبه وشرفه أو شجاعته أو شِعره وغير ذلك مما يتمدّح به الناس ويتفاخرون؛ فوثب أشعبُ وقال: أنا ابن أمِّ الجلندح، أنا ابنُ المحرِّشة[1] بينَ أزواجِ النبيِّ ﷺ. فقيل له: ويلك! أوَ بهذا يفتخر الناس! قال: وأيّ افتخار أعظمُ مِن هذا! لو لم تكن أمّي عندهن ثقةً لمَا قَبِلن روايتها في بعضهنّ بعضًا. وقد حُكي: أنها زنت، فحُلِقت، وطِيف بها على جمل، فكانت تنادي على نفسها: من رآني فلا يَزْنِيَنَّ. فقالت لها امرأة: نهانا الله عزّ وجلّ عنه فعَصَيْناه، ونُطيعُكِ وأنت مجلودةٌ محلوقة، راكبةٌ على جمل! ونشأ أشعبُ بالمدينة في دُور آلِ أبي طالبٍ، وكفِلته وتولّت تربيته عائشةُ بنتُ عثمان. وعُمِّر أشعب عمرًا طويلًا. وحُكي عنه أنه قال: كنت مع عثمانَ رضي الله عنه يومَ الدار لمّا حُصر؛ فلما جرّد مماليكُه السيوفَ ليقاتلوا كنت فيهم؛ فقال عثمان: من أغمد[2] سيفَه فهو حرٌّ، فلما وقعت في أذني كنت واللهِ أوّلَ مَنْ أغمد سيفه فعُتِقْتُ[3]. وكانت وفاته بعد سنةِ أربع وخمسين ومائة. وهذا القول يدلّ على أنه كان مولى[4] عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

وقد روى أبو الفرج الأصفهانيّ بإسناد رفعه إلى إبراهيمَ بنِ المهديّ[5] عن عبيدِ بنِ أشعبَ عن أبيه: أنّه كان مولده في سنة تسع من الهجرة، وأن أباه كان من مماليك عثمان بن عفان. وعمّر أشعبُ حتى هلَك في أيام المهديّ، قال: وكانت في أشعب خِلالٌ[6]، منها: أنه كان أطيبَ أهلِ زمانهِ عِشرةً، وأكثرهم نادِرةً، وكان أقوم أهل دهره لحجج المعتزلة[7]، وكان امرأً منهم. وقال مصعب بن عبد الله: كان

---

(١) المحرّشة: التي تغري بعض الناس ببعض.

(٢) أغمد سيفه: أدخله في غمده، أي بيته وقرابه.

(٣) عتقت: حُرّرت من الأسر. (٤) مولى: عبد.

(٥) إبراهيم بن المهدي، هو عمّ المأمون، وأخو هارون الرشيد، بويع بالخلافة في غياب المأمون لما كان بخراسان. ولما عاد المأمون نحّاه وعفا عنه، توفي سنة ٢٢٤ هـ/ ٨٣٩ م. انظر: الفهرست ص ٢٠٦.

(٦) خلال: صفات، جمع خلّة.

(٧) المعتزلة: فرقة كلامية إسلامية، اعتمد أصحابها على العقل والمنطق والقياس في مناقشة القضايا الدينية والكلامية. أشهر رجالاتها: واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وأبو الهذيل، والنظّام، وهم بخلاف الأشاعرة. انظر: مروج الذهب ٣/ ٢٣٦، وانظر أيضًا: الملل والنحل، للشهرستاني ١/ ٤٣ ـ ٤٦، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٠.

أشعب من القرّاء حسنَ الصوتِ بالقراءة، وكان قد نسك وغزا؛ وقد روى الحديث عن عبد الله بن جعفر[١]. وقال الأصمعيّ[٢]: قال أشعب: نشأت أنا وأبي الزّناد في حِجْر عائشةَ بنتِ عثمان؛ فلم يزل يعلو وأسْفِلُ حتى بلغنا هذه المنزلة. وقال إسحٰق بن إبراهيم: كان أشعبُ مع ملاحته ونوادره يغنّي أصواتًا فيُجيدُها، وفيه يقول عبد الله بن مُصْعَب الزّبيريّ عفا الله عنه: [من السريع]

إذا تـمـزّزْتُ[٣] صُـرَاحِـيَّـةً[٤] كمثلِ ريح المِسك أو أطيبُ
ثـم تَـغَـنَّـى لـي بـأهـزاجـه[٥] زيدٌ أخـو الأنـصارِ أو أشـعـبُ
حـسِـبـتُ أنـي مَـلِـكٌ جـالـسٌ حَفّت به الأملاك والـمـوكـبُ
ومـا أبـالـي وإلـٰهِ الـعـلا أشَـرَّقَ الـعـالـمُ أم غَـرَّبُـوا

ولأشعبَ نوادرُ مستظرفةٌ وحكاياتٌ مستحسنة، وقد آنَ أن نذكرها؛ فمنها ما حُكي أنه كان يقول: كلبي كلبُ سوءٍ، يبصبصُ[٦] للأضيافِ، وينبحُ على أصحاب الهدايا. وقيل له: قد لَقِيتَ رجالًا من أصحاب النبيّ ﷺ فلو حَفِظت أحاديثَ تتحدّثُ بها! فقال: أنا أعلمُ الناسِ بالحديث. قيل: فحدِّثنا، قال: حدّثني عِكْرِمةُ[٧] عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهم قال: خَلّتان لا تجتمعان في مؤمن إلا دخل الجنّةَ، ثم سكت. فقيل له: هاتِ، ما الخلّتان؟ قال: نَسِي عكرمةُ إحداهما ونسيتُ أنا الأخرى. وكان أشعبُ يحدّث عن عبدِ الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما فيقول: حدّثني عبدُ الله، وكان يُبْغِضُني في الله. وكان أشعب يلازم طعامَ سالمِ بنِ عبد الله بن عمر رضي الله عنهم،

(١) عبد الله بن جعفر، صحابي ولد في الحبشة، ولقّب ببحر الجود لكرمه، وهو ابن أخي عليّ بن أبي طالب، مات سنة ٨٠ هـ/ ٧٠٠ م. كان من الأجواد، وإن أردت الاطّلاع على شيء من أخبار جوده، فانظر: العقد الفريد، لابن عبد ربّه ١/ ٩٢.

(٢) الأصمعيّ: هو أبو سعيد عبد الملك، اللغوي البصري المشهور، كان تلقّى العلم على يدي أبي عمرو بن العلاء، عهد إليه الرشيد بتعليم الأمين. له كتاب «خلق الإنسان» و«الخيل» و«الإبل» و«الأضداد»، وأشهر كتبه «الأصمعيّات» في رواية أشعار العرب. انظر: الفهرست ص ٨٢ - ٨٣.

(٣) تمزّزت: تحصّصت.

(٤) الصراحية، صفة للخمرة، وهي الخالصة من الخمر.

(٥) أهزاجه، جمع هزج، أي غنائه وترنيمه وتطريبه. والهزج، بحر من بحور الشعر الستة عشر.

(٦) يبصبص: يحرّك ذنبه.

(٧) هو عكرمة بن أبي جهل، الصحابي القرشي المخزومي، قاتل مسيلمة الكذاب بحروب الرّدّة. وقتل في اليرموك سنة ١٣ هـ/ ٦٣٤ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٢٤٨.

فاشتهى سالم أن يأكل مع بناته فخرج إلى البستان؛ فجاء أشعب إلى منزل سالم على عادته؛ فأُخبر بالقِصّة، فاكترى جملًا بدرهم وجاء إلى البستان، فلما حاذى الحائطَ وثب فصار عليه؛ فغطّى سالمٌ بناتِه بثوبه وقال: بناتي بناتي! فقال أشعب: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هُود: الآية ٧٩].

قال أشعب: جاءتني جارية بدينار، وقالت: هذا وديعةٌ عندَك؛ فجعلتُه بين ثِنْي الفِراش، فجاءت بعدَ أيام وقالت: بأبي أنتَ! الدينار؛ فقلت: ارفعي فراشي وخذي ولده فإنه قد ولد، وكنت قد تركت إلى جنبه دِرهمًا، فأخذتِ الدرهمَ وتركت الدينار. وعادت بعدَ أيام فوجدت معه درهمًا آخر فأخذته، وفي الثالثة كذلك، وجاءت في الرابعة، فلما رأيتُها بكيتُ؛ فقالت: ما يُبكيك؟ قلت: مات دينارُكِ في النّفاس[1]، فقالت: وكيف يكون للدينار نِفاس؟ قلت: يا فاسقة! تُصَدِّقين بالوِلادة ولا تصدّقين بالنفاس!

ومن أخباره المستظرفة ما حكاه المدائنيّ[2]، قال: قال أشعب: تعلّقتُ بأستارِ الكعبةِ، فقلت: اللّهمّ أذهِبْ عنّي الحِرْصَ والطلبَ إلى الناس؛ فمررْت بالقرشيِّين وغيرهم فلم يُعطني أحدٌ شيئًا، فجئت إلى أُمّي، فقالت: ما لك قد جئتَ خائبًا؟ فأخبرتُها بذلك؛ فقالت: واللهِ لا تدخل حتى ترجعَ فتستقيل[3] ربَّك. فرجعت فجعلت أقول: يا ربِّ أقِلْني، ثم رجعت، فما مررت بمجلس لقريش ولا غيرهم إلا أعطوني، ووُهِب لي غلام؛ فجئت إلى أمّي بجمالٍ موقَرة[4] من كل شيء. فقالت: ما هذا الغلام؟ فخِفت أن أخبرها فتموت فرحًا إن قلت: وهبوه لي، فقالت: أيّ شيء هذا؟ فقلت: غين. قالت: أيّ شيء غين؟ قلت: لام، قالت: أيّ شيء لام؟ قلت: ألف، قالت: وأي شيء ألف؟ قلت: ميم. قالت: وأيّ ميم؟ قلت: غلام؛ فغُشِي عليها. ولو لم أقطِّع الحروف لماتت الفاسقة فرحًا. قال: وجلس أشعب يومًا إلى جانب مروانَ بنِ أبانَ بنِ عثمان؛ فانفلتت من مروان ريح لها صوتٌ؛ فانصرف أشعبَ يوهمُ الناسَ أنه هو الذي خرجت منه الرّيح، فلما انصرف مروان إلى منزله جاءه أشعب

---

(١) النفاس: ولادة المرأة، وهو الحالة التي تعقب ولادتها، وهو الدم الذي يعقبها أيضًا.

(٢) هو عليّ بن محمد المدائنيّ، المؤرّخ المشهور. عاش ببغداد، وله مؤلّفات عديدة منها «المغازي» و«السيرة النبويّة»، وبه تأثر الطبري والبلاذري. مات سنة ٨٣٩ م. انظر: الفهرست ص ١٤٧.

(٣) تستقيل الله: تسأله أن ينهضك من سقطتك. (٤) موقَرة: كثيرة الحمل.

فقال له: الدِّية، قال: دِيةُ ماذا؟ قال: ديةُ الضّرطة التي تحمَّلْتُها عنك، وإلّا شهّرتُك[١]؛ فلم يدعْه حتى أخذ منه شيئًا صالحه عليه.

وقال محمد بن أبي قبيلة: غذّى أشعب جديًا بلبنِ أمّه وغيرها حتى بلغ غاية، ثم قال لزوجته أمّ ابنه وردان: إني أحبّ أن ترضعيه بلبنكِ ففعلَتْ. ثم جاء به إلى إسماعيلَ بنِ جعفرِ بنِ محمد[٢]، فقال: تالله إنه لابني، رضِع بلبن زوجتي، قد حبوتك[٣] به، ولم أرَ أحدًا يستأهله سواك. فنظر إسماعيل إليه وأمر به فذُبح وسُمِط[٤]، فأقبل عليه أشعب وقال: المكافأة؛ فقال: ما عندي والله اليومَ شيء، ونحن مَن تعرف، وذلك غير فائت لك. فلمّا يئس أشعب منه قام من عنده فدخل على أبيه جعفر، ثم اندفع فشَهق حتى التقت أضلاعُه، ثم قال: أَخِلْني، قال: ما معنا أحد يسمع، ولا عليك عين. قال: وثب ابنك إسماعيل على ابني فذبحه وأنا أنظر إليه، فارتاع جعفر وصاح: ويلك! وفِيم؟ وتريد ماذا؟ قال: أمّا ما أريد فوالله ما لي في إسماعيل حيلة ولا يسمع هذا سامع أبدًا بعدك. فجزاه خيرًا وأدخله منزله وأخرج إليه مائتي دينار، فقال: خذ هذه، ولك عندنا ما تحِبّ. قال: وخرج إلى إسماعيل وهو لا يبصر ما يطأ عليه، فإذا به مسترسِل في مجلسه، فلما رأى وجه أبيه أنكره وقام إليه؛ فقال: يا إسماعيل، فعلتَها بأشعب! قتلت ولده؟ قال: فاستضحك، وقال: جاءني، وأخبره الخبر، فأخبره أبوه بما كان منه وما صار إليه؛ قال: فكان جعفر يقول لأشعب: رُعْتني راعك الله! فيقول: روعةُ ابنِكَ بنا في الجدي أكثرُ من روعتِكَ بالمائتي الدينار.

قال المدائنيّ: دخل أشعبُ على الحسينِ بنِ عليّ رضي الله عنهما، وعنده أعرابيّ قبيحُ المنظر، مختلفُ الخِلقة؛ فسبّح أشعب حين رآه وقال للحسين: بأبي أنت وأُمّي، أتأذن لي أن أسلحَ[٥] عليه؟ فقال: إن شئت. ومع الأعرابيّ قوسٌ وكِنانة[٦]،

---

(١) شهّرتك: فضحتك وجعلتك شهرة بين الناس.
(٢) هو إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق، إمام الإسماعيلية، وإليه ينتسب الإسماعيليون القائلون بإمامته بعد أبيه الصادق. توفي بالمدينة سنة ١٣٣ هـ/ ٧٥٠ م. انظر: المِلل والنحل ١/ ١٩١ ـ ١٩٢.
(٣) حبوتك به: أعطيتك إياه هبةً.
(٤) سمط: نُقّي من الشعر بالماء الحارّ ثم شُوي.
(٥) أسلح: أتغوّط. والسلح في الأصل، خاص بالطير والبهائم.
(٦) الكنانة: الجعبة توضع فيها سهام القوس.

ففوّق[١] نحوه سهمًا، وقال: والله لئن فعلت لتكوننّ آخرَ سلحةٍ سلحتها. فقال أشعب للحسين: جُعِلتُ فِداك، أخذني القَوْلَنْجُ[٢]، وعنه قال: توضّأ أشعب فغسلَ رجله اليسرى وترك اليمنى. فقيل له: لِمَ تركت غسلَ اليمنى؟ فقال: لأن النبيّ ﷺ قال: «أُمّتي غُرّ[٣] محجَّلون[٤] من آثار الوضوء»، وأنا أحبّ أن أكون أغرَّ محجّلًا مطلقَ اليمين، وقال: سمع أشعب حُبّي المدنيّة تقولُ: اللّهمّ لا تُمتني حتى تغفر لي ذنوبي؛ فقال لها: يا فاسقة! أنت لم تسألي الله تعالى المغفرة، وإنما سألته عمر الأبد! (يريد: أن الله لا يغفر لها أبدًا).

وقال الزبير بنُ بكّارٍ[٥]: كان أشعبُ يومًا في المسجد يدعو، وقد قبّض وجهه فصيّره كالصُّبْرَةِ[٦] المجموعة. فرآه عامر بنُ عبدِ الله بنِ الزبيرِ فحصَبه[٧] وناداه: يا أشعب، إنما أنت تناجي ربك فناجه بوجهٍ طليق، قال: فأرخى لَحْييه حتى وقعا على زَوْرِه[٨]، قال: فأعرض عنه، وقالا: ولا كلّ ذا.

وقال مصعب: بلغ أشعبَ أنّ الغاضري قد أخذَ في مثلِ مذهبه ونوادره، وأنّ جماعةً استطابوه؛ فرَقَبهم حتى علم أنه في مجلس من مجالس قريشٍ يحادثُهم ويُضحِكهم، فصار إليهم، ثم قال: قد بلغني أنك قد نحَوْتَ نحوي، وشغلت عني من كان يألفني؛ فإن كنتَ مثلي فافعلْ كما أفعل. ثم غضّن وجهه وعرّضه وشنّجه[٩]، حتى صار عرضُه أكثرَ من طوله، وصار في هيئة لم يعرفه أحد بها، ثم أرسل وجهه حتى كاد ذقنه يجوز صدره، وصار كأنه وجه الناظر في سيفه؛ ثم نزع ثيابه وتحادب[١٠]، فصار في ظهره حدبةٌ كسنامِ البعير، وصار طولُه مقدارَ شبرٍ، ثم نزع سراويلَه، وجعل يمد جِلدَ خصيَيْه حتى حكَّ بهما الأرضَ، ثم خلّاهما من يده،

(١) فوّق السهم: جعل له فوقًا، وهو مشقّ رأس السهم حيث يقع الوتر.
(٢) القولنج: داء يصيب المرء في أمعائه فيسدّها، فلا يستطيع إخراج الرّيح. والقولنج أيضًا: جمود الجسم وبرودته حتى يحسب أنّه ميّت.
(٣) غرّ، جمع أغر: وهو البياض في الجبين.
(٤) محجّلون: جمع محجّل، وهو الشية أو البياض في قائمة الفرس، ثم شبّه بها الإنسان.
(٥) الزبير بن بكار: نسّابة وراوية، ولي قضاء مكّة، وله من الكتب: «أنساب قريش» و«الموفقيّات»، مات سنة ٨٦٩ م. انظر: الفهرست ص ١٦٠.
(٦) الصبرة: الكومة من الطعام وغيره.
(٧) حصبه: رماه بالحصى.
(٨) زوره: وسط صدره.
(٩) شنّجه: قبّضه.
(١٠) تحادب: تظاهر بأنه أحدب، وهو الذي في ظهره حدبة.

وجعل يميسُ[1]، وهما يخطّان الأرض، ثم قام فتطاول وتمدّد وتمطّى، حتى صار كأطول ما يكون من الرجال. فضحِك القوم حتى أُغمي عليهم، وقُطع بالغاضريّ فما تكلّم بنادرة ولا زاد على أن يقول: يا أبا العلاء، لا أعاود ما تكره أبدًا، إنما أنا عبدك وتخريجك، ثم انصرف أشعب وتركه.

وقال الزبير بنُ بكّار: حدّثني عمّي، قال: لقِي أشعبَ صديقٌ لأبيه، فقال له: ويلَكَ يا أشعبُ! كان أبوك ألْحَى[2] وأنتَ أقطّ[3]، فإلى من خرجت تشبه؟ قال: إلى أمّي.

وقال الهيثم بن عَدِيّ: لَقِيت أشعبَ، فقلت له: كيف ترى أهل زمانك هذا؟ قال: يسألونني عن أحاديث الملوك؛ ويعطونني عطاء العبيد.

وقال مصعبُ بنُ عثمان: لقي أشعبَ سالمُ بنُ عبد الله بن عمر، فقال له: يا أشعب، هل لك في هَريس[4] أُعِدّ لنا؟ قال: نعم، بأبي أنت وأمّي، فمضى أشعب إلى منزله؛ فقالت له امرأته: قد وجّه عبدُ الله بن عمرو بن عثمان يدعوك، قال: ويحك! إن لسالمِ بنِ عبدِ الله هريسةً قد دعاني إليها، وعبد الله بن عمرو في يدي متى شئت، وسالم إنما دعوْته للناس فلتةً، وليس لي بدٌّ من المضيّ إليه. قالت: إذًا يغضب عبدُ الله، قال: آكل عنده ثم أصيرُ إلى عبدِ الله، فجاء إلى منزل سالم فجعل يأكلُ أكلَ متعالِلٍ[5]. فقال له: كلْ يا أشعبُ، وابعثْ ما فضلَ عنك إلى منزلِكِ. قال: ذلك أردتُ، بأبي أنتَ وأمّي. قال: فقال: يا غلامُ، احملْ هذا إلى منزلِهِ، فحمله ومشى أشعبُ معه. فقالت امرأتُه: ثَكلتْكَ[6] أُمُّك، قد حلف عبدُ اللهِ لا يكلّمُك شهرًا؛ قال: دعيني وإيّاه، هاتي شيئًا من زعفران[7]؛ فأعطته، فأخذه ودخل الحمّامَ، فمسحه على وجههِ وبدنهِ، وجلس في الحمام حتى صفّره، وخرج متوكّأً على عصا يرعدُ حتى أتى دارَ عبدِ اللهِ بنِ عمرو بن عثمان؛ فلما رآه حاجبُه قال: ويحك! بلغتْ بك العِلّةُ ما أرى. ودخل فأعلم صاحبه، فأذن له، فلما دخل عليه، إذا سالمُ بنُ عبدِ الله عندَه، فجعل يزيدُ في الرّعدةِ، ويقاربُ الخطوَ، وجلس وما كاد

(١) يميس: يتخايل ويتمايل بزهو. (٢) الألحى: الطويل اللحية.
(٣) الأقطّ: القصير اللّحية.
(٤) هريس وهريسة: ضرب من الطعام وعماده الدقيق المهروس باللحم.
(٥) متعالل: مظهر للعلّة وليس بعليل.
(٦) ثكلتك: خسرتك وأصيبت بالثكل، وهو فقدان الولد.
(٧) الزعفران: نبات كريم، زهره أحمر وأصفر، وبه يطيّب الطعام، ويستخدم كمواد للكتابة.

أن يستقِلّ. فقال عبد الله: ظلمناك يا أشعبُ في غضبِنا عليك. فقال له سالم: ويلك! ما لك؟ ألم تكن عندي آنفًا وأكلتَ هريسة! قال: لقد شُبّه لك، لا حولَ ولا قوّة إلّا بالله. قل: لعلّ الشيطانَ يتشبّه بك. قال أشعب: عليّ وعليّ إن كنت رأيتك منذ شهر. فقال له عبد الله: أعزبْ[1] ويلك عن خالي! أَتُبهِته[2] لا أُمّ لك! قال: ما قلتُ إلّا حقًّا. قال: بحياتي اصدُقْني وأنت آمنٌ من غضبي. قال: وحياتِك لقد صدق؛ وحدّثه بالقصّة؛ فضحِك حتى استلقى على قفاه.

وقال المدائنيُّ والهيثمُ بنُ عديّ: بعث الوليدُ بنُ يزيدِ بنِ عبد الملك بن مروان إلى أشعبَ بعدما طلّق امرأته سعدة، فقال له: يا أشعبُ، لك عندي عشرةُ آلافِ درهم على أن تُبَلّغ رسالتي سعدة. فقال له: أحضرِ المالَ حتى أنظر إليه، فأحضر الوليد بَدْرة[3]، فوضعها أشعبُ على عنقِه، وقال: هاتِ رسالتَك. قال: قل لها يقول لك: [من الوافر]

أسعدةُ هل إليكِ لنا سبيلٌ … وهل حتى القِيامة من تَلاقِ

بلى! ولعلّ دهرًا أن يؤاتى … بموتٍ من حليلِك[4] أو طلاقِ

فأُصبِحَ شامتًا وتَقَرَّ عَيني … ويجمعَ شملُنا بعدَ افتراقِ

قال: فأتى أشعب البابَ فأُخْبِرَت بمكانه، فأمرت ففُرِش لها فرشٌ وجلست وأذِنت له؛ فدخل فأنشدها، فلما أنشد البيتَ الأوّل:

أسعدةُ هل إليك لنا سبيلٌ … وهل حتى القيامةِ من تلاقِ

قالت: لا والله، لا يكون ذلك أبدًا. فلما أنشد البيت الثاني:

بلى! ولعلّ دهرًا أن يؤاتى … بموتٍ من حليلِك أو طلاقِ

قالت: كلّا إنْ شاء الله، بل يفعلُ الله ذلك به. فلما أنشد البيت الثالث:

فأُصْبِحَ شامتًا وتقرَّ عيني … ويُجْمَعَ شملُنا بعدَ افتراق

قالت: بل تكونُ الشماتةُ به، ثم قالت لخدَمِها: خذوا الفاسِق. فقال: يا سيِّدتي، إنها عشرةُ آلاف درهم. قالت: والله لأقتلنَّك أو تبلِّغه كما بلّغتني. قال: وما

---

(١) أعزب: ابعدْ. (٢) أتبهته: أترميه بالباطل والبهتان.

(٣) البدرة من المال: الكيس الذي يوضع فيه المال، وغالبًا ما يوضع فيه مبلغ عشرة آلاف درهم.

(٤) الحليل: الزوج.

تَهَبِين لي؟ قالت: بساطي الذي تحتي. قال: قومي عنه؛ فقامت، فطواه، ثم قال: هاتي رسالَتك، جُعلت فداكِ! قالت: قل له: [من الطويل]

أتَبكي على لُبْنَى وأنتَ تركتَها فقد ذهبتْ لُبنى فما أنتَ صانعُ؟

فأقبل أشعبُ، حتى دخل على الوليدِ، فأنشده البيتَ، فقال: أَوَّهْ قتلتني واللهِ! فما تراني صانعًا بك يا ابنَ الزانية! اِخْتَرْ إمّا أن أُدْلِيك مُنَكَّسًا[١] في بئرٍ، أو أرميَك من فوق القصرِ منكّسًا، أو أضربَ رأسك بعمودي هذا ضربة. قال له: ما كنتَ فاعلًا بي شيئًا من ذلك. قال: ولم؟ قال: لأنك لم تكن لتعذِّب عينيْنِ قد نظرتا إلى سُعْدَةَ! قال: صدقتَ يا ابنَ الزانية!

ورَوى أبو الفرج الأصفهانيّ بإسنادِه إلى إبراهيمَ بنِ المهديِّ عن ابنِ أشعبَ عن أبيه، قال: دُعِي ذاتَ يوم بالمغنّيين إلى الوليدِ بنِ يَزيدَ، وكنتُ نازلًا معهم، فقلت للرسول: خذْني فيهم؛ قال: لم أُؤمرْ بك، إنما أمرتُ بإحضارِ المغنّيين، وأنت بَطّالٌ لا تدخل في جملتهِم. فقلت له: أنا واللهِ أحسنُ غناءً منهم؛ ثم اندفعْتُ فغنّيت. فقال: لقد سمعتُ حسنًا، ولكن أخاف. قلت: لا خوفَ عليك؛ ولك مع ذلك شرط. قال: وما هو؟ قلت: كلّ ما أصبت فلك شطرُه؛ فأشهد عليّ الجماعة، ومضينا حتى دخلنا على الوليد، وهو لَقِسُ النّفس[٢]؛ فغنّاه المغنّون في كلّ فنّ فلم يتحرّك ولم يَنْشَط. فقام الأبجرُ إلى الخلاءِ، وكان خبيثًا داهيًا، فسأل الخادمَ عن خبره؛ فقال: بينه وبين امرأتِه شرٌّ، لأنه عشِق أختَها فغضِبت عليه، وهو إلى أختها أميلُ، وقد عزم على طلاقِها، وحلف ألّا يذكرها أبدًا بمراسلة أو مخاطبة، فخرج على هذه الحال من عندها. فعاد الأبجرُ إلينا، وجلس ثم اندفع يغنّي: [من الطويل]

فبِينِي[٣] فإني لا أُبالي وأيْقِنِي أَصَعّدَ[٤] باقي حُبّكم أم تَصَوَّبا[٥]
ألم تعلمي أنّي عَزُوفٌ[٦] عن الهوى إذا صاحبي من غير شيء تَغَضَّبَا[٧]

فطَرِب الوليدُ وارتاحَ، وقال للأبجر: أصبتَ واللهِ يا عُبَيد ما في نفسي، وأمر له بعشرة آلاف درهم وشرِب حتى سَكِر، ولم يحظَ أحدٌ بشيء سوى الأبجر. فلما

(١) أدليك منكّسًا: أنزلك البئر ورأسك إلى أسفل.
(٢) لقس النفس: غير مهيّأة لشيء، مضطربة تكاد تقيء.
(٣) بيني: ابعدي.
(٤) صعّد: ارتفع.
(٥) تصوّب: مال إلى السقوط.
(٦) عزوف: منصرف.
(٧) تغضّب: أسرع إلى الغضب.

أيقنتُ بانقضاءِ المجلس وثبتُ، فقلت: إنّ رأى أميرُ المؤمنين أنْ يأمرَ مَن يضربُني مائةَ سوطٍ الساعةَ بحضرتِك! فضحك، ثم قال: قبّحك الله! وما السببُ في ذلك؟ فأخبرته بقصّتي مع الرسول، وقلت له: إنه بدأني بالمكروه في أوّل يومه فاتّصل عليّ إلى آخره، فأريد أن أُضربَ مائةَ سوطٍ ويضربَ بعدي مثلَها. فقال: لقد لطُفت، بل أعطوه مائة دينار، وأعطوا الرسول خمسين دينارًا من مالنا عوضَ الخمسين التي أراد أخذها من أشعب، فقبضتُها وانصرفت.

قال ابن زَبَنّج: كان أبانُ بنُ عثمانَ مِن أهزلِ الناس وأعبثهم، فبينا نحن ذات يوم عنده وعنده أشعبُ، إذ أقبل أعرابيٌّ معه جملٌ، والأعرابيُّ أشقرُ أزرقُ أزعرُ[1] يتلظّى كأنه أفعى، والشرُّ بيّنٌ في وجهه، ما يدنو منه أحدٌ إلا شتمه ونهره؛ فقال أبانُ: هذا واللهِ من البادية، ادعوه لي، فدعَوْه له وقيل: إن الأميرَ أبانَ بن عثمان يدعوك؛ فأتاه فسلّم عليه، فسأله أبانُ بن عثمانَ عن نسبه، فانتسب له. فقال له أبان: حيّاك الله يا خال، اجلسْ، فجلس. فقال له: إني أطلب جملًا مثلَ جملِكَ هذا منذُ زمانٍ فلم أجدْه كما أشتهي بهذه الصّفة، وهذه الهامةِ[2] والصورةِ والوركِ[3] والأخفافِ[4]، والحمدُ للهِ الذي جعل ظَفَري[5] به عندَ مَنْ أُحبُّه، أتبيعُنيه؟ فقال: نعم أيها الأمير، قال: فإني قد بذلت لك به مائةَ دينار؛ فطمِع الأعرابيُّ وسُرّ بذلك وانتفخ، وبان الطّمعُ في وجهه، فأقبل أبانُ على أشعبَ ثم قال له: ويلك يا أشعب! إنّ خالي هذا مِن أهلِك وأقاربِك (يعني: في الطمع) فأوسِعْ له مما عندَك؛ قال: نعم، بأبي أنت وزيادة. فقال له أبان: يا خال، إنما زدتُك في الثمنِ على بصيرةٍ أنّ الجمل يساوي ستّين دينارًا، ولكني بذلت لك مائة دينارٍ لقلّةِ النّقدِ عندنا، وإني أُعطيك عُرُوضًا تساوي مائةَ دينار؛ فزاد طمع الأعرابيّ وقال: قد قبلت ذلك أيُّها الأمير، وأسرّ أبانُ إلى أشعب، فأخرج شيئًا مغطًّى، فقال له: أخرج ما جئت به؛ فأخرج جُرْد عمامة تساوي أربعة دراهم، فقال له: قَوِّمْها يا أشعب. فقال: عمامةُ الأمير يشهد فيها الأعيادَ والجُمَع ويلقَى فيها الخلفاءَ! خمسون دينارًا. قال: ضعها بين يديه، وقال لابنِ زَبَنّج: أثبتْ قيمتَها، فكتب ذلك، ووُضعت العمامةُ بين يدَيْ الأعرابيّ؛ فكاد يدخلُ بعضُه في بعض غيظًا، ولم يقدِرْ على الكلام. قال:

---

(١) أزعر: قليل شعر الرأس.
(٢) الهامة: رأس كل شيء، وتطلق على الجثة.
(٣) الورك: ما فوق الفخذ، كالكتف فوق العضد.
(٤) الأخفاف، جمع خفّ، وهو الحافر للبعير. (٥) ظفري: منيتي وحصولي على الشيء.

هاتِ قَلَنْسُوَتي[١]، فأخرج قلنسوةً طويلة خَلَقًا[٢] قد علاها الوسخُ والدُّهْنُ وتخرّقت تساوي نصفَ درهم، قال: قَوِّم؛ فقال: قلنسوةُ الأميرِ تعلو هامتَه، ويصلّي فيها الصلواتِ الخمسَ، ويجلسُ فيها للحكم! ثلاثون دينارًا. قال: أثبِتْ، فأثبتَ ذلك، ووُضعت القلنسوةُ بين يديْ الأعرابيّ فاربَدّ[٣] وجهُه وجحظت عيناه وهَمّ بالوثوبِ، ثم تماسك وهو مُقَلْقَل[٤]. ثم قال لأشعب: هاتِ ما عندك؛ فأخرج خُفَّيْنِ خَلَقَين قد نُقبا وتقشّرا وتفتّتا، فقال: قَوِّمْ؛ فقال: خُفًّا الأميرِ يطأُ بهما الروضةَ، ويعلو بهما منبرَ النبيّ ﷺ! أربعون دينارًا، فقال: ضَعْهما بين يديه. ثم قال للأعرابيّ: أُضمِمْ إليك متاعَك، وقال لبعضِ الأعوانِ: اُمضِ مع الأعرابيّ واقبضْ ما بقي لنا عليه مِن ثمن المتاع، وهو عشرون دينارًا؛ فوثب الأعرابيُّ فأخذ القماش فضرب به وجوهَ القوم لا يألو[٥] في شدّةِ الرّمي، ثم قال له: أتدري في أيّ شيء أموت؟ قال: لا؛ قال: لم أُدرك أباك عثمان فأشترك والله في دمه إذ وَلَد مثلكَ! ثم نهض كالمجنون حتى أخذ برأسِ بعيره؛ وضحِك أبانُ حتى سقط، وضحك مَن كان معه، فكان الأعرابيُّ بعد ذلك إذا لقِيَ أشعبَ يقول له: هلمّ إليّ يا بنَ الخبيثة، حتى أكافئَك على تقويمك المتاعَ يومَ قوّمت؛ فيهربُ منه أشعب.

وقال المدائنيّ: حدّثني شيخ من أهل المدينة، قال: كانت امرأةٌ شديدةُ العَيْنِ[٦]، لا تنظر إلى شيء فتستحسنه إلا عانَتْه[٧]؛ فدخلت على أشعبَ وهو في الموتِ، وهو يقول لابنته: يا بنيّةُ، إذا أنا متُّ فلا تندبيني، والناس يسمعونك، وتقولين: وا أبتاه، أندبُك[٨] للصوم والصلاةِ، للفقهِ والقرآنِ، فيكذّب الناس ويلعنونني. ثم التفت فرأى المرأة، فغطّى وجهه بكمّه وقال لها: يا فلانةُ، باللهِ إن كنتِ استحسنتِ شيئًا مما أنا فيه، فصلّي على النبيّ ﷺ ولا تُهلكيني؛ فغضِبت المرأة وقالت: سخِنت عينُك! وفي أيّ شيء أنت مما يستحسن؟ أنت في آخرِ رمق! قال: قد علمت، ولكن قلتُ لئلا تكوني قد استحسنت خفّةَ الموتِ عليّ وسهولةَ النّزع[٩]، فيشتدّ ما أنا فيه؛ فخرجت من عنده وهي تسبُّه، وضحك مَن كان حوله مِن كلامه، ومات.

---

(١) قلنسوتي: القلنسوة، نوع من ملابس الرأس.
(٢) خلقًا: بالية.
(٣) اربدّ: صار أربد اللّون، وتعبّس وتغيّر.
(٤) مقلقل: متحرّك.
(٥) يألو: يقصر ويبطىء.
(٦) شديدة العين: تصيب بالعين.
(٧) عانته: أصابته بالعين.
(٨) أندبك: أدعوك.
(٩) النّزع: الاحتضار عند الموت.

ذكر شيء من نوادر أبي دُلَامة

هو أبو دُلَامةَ زَنْدُ بن الجَوْن، وزند بالنون، وهو كوفيّ، أسودُ، مولى لبني أسدٍ؛ كان أبوه عبدًا لرجلٍ منهم يقال له قصاقِصُ، فأعتقه. وأدرك آخرَ زمنِ بني أُميّة ولم يكن له نباهةٌ في أيّامِهم، ونبغ في أيّام بني العبّاس، فانقطع إلى أبي العبّاسِ السفّاح(١) وأبي جعفر المنصورِ والمهديّ، وكانوا يقدّمونه ويفضّلونه ويستطيبون مجالسته ونوادره.

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: كان أبو دُلامةَ رديءَ المذهبِ، مرتكبًا للمحارم، مُضيِّعًا للفروضِ، متجاهرًا بذلك؛ وكان يُعْلَم هذا منه ويُعْرَف به، فيُتَجافَى(٢) عنه لِلُطفِ محلّه، وله أخبار وأشعار ليس هذا موضع ذكرِها، وإنما نثبت في هذا الموضع ما له من نادرة أو حكاية مستظرفة؛ فمن ذلك أنه دخل على أبي جعفر المنصور، وكان المنصور قد أمر أصحابه بلُبْس السوادِ والقلانسِ الطّوال، تُدعمُ بعِيدانٍ من داخلِها، وأن يعلّقوا السيوفَ في المناطق(٣)، ويكتبوا على ظهورهم: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٧]، فلما دخل عليه أبو دُلامةَ في هذا الزّيّ قال له المنصور: ما حالك؟ قال: شرُّ حالٍ يا أميرَ المؤمنين، وجهي في نصفي، وسيفي في استي(٤)، وقد صَبَغتُ بالسّوادِ ثيابي ونبذْت(٥) كتابَ اللهِ وراءَ ظهري؛ ثم أنشد: [من الطويل]

وكنا نُرجّى مِنحةً من إمامنا فجاءت بطُولٍ زاده في القَلَانِس(٦)
تراها على هامِ(٧) الرّجالِ كأنّها دِنانٌ(٨) يهودٍ جُلِّلتْ بالبَرَانِس(٩)

---

(١) السفاح: هو أبو العباس عبد الله، الملقب بالسفاح، أول الخلفاء العباسيّين، قاد الثورة على الأمويين بعد وفاة أخيه إبراهيم، وبويع بالخلافة له في مسجد الكوفة، اتخذ الأنبار عاصمةً له، مات سنة ١٣٦ هـ/ ٧٥٤ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٢٩٢.

(٢) يتجافى عنه: يُبعد عنه ومنه لجفائه.

(٣) المناطق: جمع منطقة، والمنطقة: ما ينتطق به.

(٤) استي: مؤخّرتي. (٥) نبذت: طرحت.

(٦) القلانس: جمع قلنسوة، وهي ضرب من لباس الرأس.

(٧) الهام، جمع هامة، وهي أعلى كل شيء، وهنا تعني الرأس.

(٨) الدنان: جمع دنّ، وهو وعاء الخمرة ونحوها.

(٩) والبرانس: جمع برنس، وهو الثوب يكون غطاء الرأس جزءًا منه ومتّصلًا به.

فضحك منه المنصورُ وأعفاه وحذّره من ذلك، وقال: إيّاك أن يسمعَ هذا منك أحدًا.

وحُكي عنه: أنه كان واقفًا بين يدي السفاحِ أو المنصورِ، فقال له: سَلْني حاجتَكَ؛ فقال أبو دلامةَ: كلب صيدٍ؛ قال: أعطوه إيّاه، قال: ودابّة أتصيّدُ عليها. قال: أعطوه، قال: وغلام يقودُ الكلبَ ويتصيّدُ به، قال: أعطوه غلامًا، قال: وجارية تُصلح لنا الصيدَ وتُطعمُنا منه؛ قال: أعطوه جارية. قال: هؤلاء يا أميرَ المؤمنين عيالٌ فلا بدّ لهم من دارٍ يسكنونها؛ قال: أعطوه دارًا تجمعهم، قال: فإن لم يكن ضيعةٌ فمِنْ أين يعيشون؟ قال: قد أطعتِكَ مائةَ جَرِيبٍ[1] عامرة ومائة جريبٍ غامرة. قال: وما الغامرة؟ قال: ما لا نباتَ فيه. قال: قد أقطعتك يا أميرَ المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرةً مِن فيافي[2] بني أسد، فضحك وقال: اجعلوا المائتين كلَّها عامرة. قال: فأْذَنْ لي أن أقبِّل يدك؛ قال: أمّا هذه فدعْها، فإني لا أفعل. قال: والله ما منعت عيالي شيئًا أَقَلَّ عليهم ضررًا منها.

ورُوِيَ: أنه دخل على المنصور فأنشده قصيدته التي يقول فيها: [من البسيط]

إنّ الخليط[3] أجدّوا البينَ[4] فانتجعوا[5] ... وزوّدوك خبالًا[6] بئسَ ما صنعوا

واللهُ يعلمُ أنْ كادت، لبينهُمُ ... يومَ الفِراقِ، حصاةُ القلبِ تنصدعُ

عجبتُ مِن صِبْيتي يومًا وأمِّهمُ ... أمّ الدُّلامةِ لمّا هاجها الجزعُ

لا باركَ اللهُ فيها مِن مُنَبِّهةٍ ... هَبّتْ تلومُ عيالي بعد ما هَجَعُوا[7]

ونحن مُشتبهو الألوانِ، أوجُهنا ... سودٌ قباحٌ، وفي أسمائِنا شُنَعُ[8]

إذا تَشكّتْ إليّ الجوعَ، قلتُ لها ... ما هاج جوعَك إلا الرِّيُّ والشِّبَعُ

أذابكَ الجوعُ مذ صارت عيالَتُنا ... على الخليفةِ منه الريّ والشبعُ

لا والذي يا أميرَ المؤمنين قضى ... لكَ الخلافةَ في أسبابها الرِّفَعُ

ما زلتُ أخلِصُها كسبي فتأكله ... دُوني ودونَ عيالي ثم تضطجعُ

---

(١) الجريب: مقدار معيّن من مساحة الأرض.
(٢) الفيافي: جمع فيفاة، وهي المفازة لا ماء فيها.
(٣) الخليط: جماعة القوم الذين رحلوا.
(٤) البين: الفراق والبعد.
(٥) انتجعوا: طلبوا النجعة والماء.
(٦) الخبال: ذهاب العقل.
(٧) هجعوا: رقدوا وناموا.
(٨) شنع: جمع شنعة، وهي القبح.

شوهاءُ[١] مشنأةٌ[٢] في بطنِها ثَجَلٌ[٣] ... وفي المَفاصِلِ من أوصافِها فَدَعُ[٤]
ذَكَّرتُها بكتابِ الله حُرْمَتَنا ... ولم تكن بكتابِ اللهِ ترتجعُ
فاْخرَنْطَمتْ[٥] ثم قالت وهي مُغْضَبةٌ ... أأنت تتلو كتابَ اللهِ يا لُكَعُ![٦]
اخرُجْ تَبَغَّ لنا مالًا ومَزرعةً ... كما لجيرانِنا مالٌ ومُزْدَرعُ[٧]
واخْدَعْ خليفتَنا عنّا بمسألةٍ ... إنّ الخليفةَ للسُّؤّالِ ينخدعُ

قال: فضحك أبو جعفرٍ وقال: أرضوها عنه بمائتَيْ جريبِ عامرة ـ ويروى: ستمائة جريب عامرة وغامرة ـ فقال: أنا أقطعك يا أميرَ المؤمنين أربعةَ آلاف جريب غامرة فيما بينَ الحِيرةِ[٨] والنّجَف[٩]، وإن شئتَ زدتُك، فضحك وقال: اجعلوها كلَّها عامرةً. قال: ولمّا توفّي السفّاحُ دخل أبو دُلامةَ على المنصورِ والناسُ عنده يعزّونه، فقال: [من الكامل]

أمسيتَ بالأنبارِ[١٠] يا ابنَ محمدٍ ... لم تستطِعْ عن عُقْرِها تحويلا
ويلي عليكَ وويلُ أهلي كلِّهم ... ويلًا وعَوْلًا في الحياة طويلا
فَلْتَبْكِيَنّ لكَ السماءُ بعَبْرةٍ ... ولتبكينّ لك الرجالُ عويلا
مات النّدى إذا متَّ يا ابنَ محمدٍ ... فجعلْتَه لك في التراب عديلا
إني سألتُ الناسَ بعدَك كلَّهم ... فوجدتُ أسمَحَ مَن سألتُ بخيلا
ألِشقوتي أُخِّرتُ بعدك للّتي ... تدعُ العزيزَ منَ الرجالِ ذليلا؟
فلأَحْلِفَنّ يمينَ حقٍّ بَرّةٍ ... تاللهِ ما أُعطِيتُ بعدكَ سُولا[١١]

قال: فأبكى الناسَ قولُه: فغضِب المنصورُ غضبًا شديدًا، وقال: إن سمعتُك تُنشدُ هذه القصيدةَ لأقطعنَّ لسانَك، قال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ أبا العباسِ أميرَ المؤمنين كان لي مُكرمًا، وهو الذي جاء بي من البدو، كما جاء الله بإخوةِ يوسف

(١) الشوهاء: المرأة القبيحة الوجه.
(٢) مشنأة: قبيحة.
(٣) الثجل: عظم البطن واسترخاؤه.
(٤) الفدع: اعوجاج رسغ اليد أو الرِّجل.
(٥) اخرنطمت: رفعت الأنف استكبارًا أو غضبًا.
(٦) اللكع: اللئيم، والأحمق والعبد.
(٧) المزدرع: موضع الزّرع.
(٨) الحيرة: أطلال قاعدة الملوك اللخميين بين النجف والكوفة بالعراق.
(٩) النجف: مدينة عراقية مشهورة، فيها ضريح الإمام علي بن أبي طالب.
(١٠) الأنبار: عاصمة العباسيين الأولى زمن أبي العباس السفاح، وهي في العراق.
(١١) السول: السّؤل، بالهمز.

إليه؛ فقل كما قال يوسفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّحِمِينَ﴾ [الآية ٩٢]، فسُرِّيَ[١] عن المنصور وقال: قد أقلناك يا أبا دُلامة، فسلْ حاجتك. قال: يا أمير المؤمنين، قد كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبًا وهو مريض ولم أقبِضْها. فقال المنصور: ومن يعلمُ ذلك؟ قال: هؤلاء (وأشار إلى جماعةٍ ممّن حضر) فوثبت سلمان بنُ مُجالدٍ وأبو الجهم، فقالا: صَدَقَ أبو دُلامةَ، نحن نعلم ذلك. فقال المنصور لأبي أيّوبِ الخازن [وهو مَغِيظ]: يا سليمانُ ادفعْها إليه وسَيِّره إلى هذه الطاغية (يعني عبد الله بن عليّ[٢]، وكان قد خرج بالشام وأظهر الخِلاف) فوثب أبو دلامة وقال: يا أمير المؤمنين، أُعيذُك بالله أن أخرُجَ معهم، ووالله إني مشؤوم. قال المنصور: امضِ فإنّ يُمْني يغلبُ شُؤْمَك. فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما أُحبُّ أن يجرِّب ذلك منّي على مثل هذا العسكر، فإنّي لا أدري أيّهما يغلب: يُمنُكَ أو شُؤمي؛ إلّا أني بنفسي أوثقُ وأعرَفُ وأطولُ تجربةً. فقال: دَعْني وهذا، فما لك من الخروج بدّ. قال: فإني أَصْدُقك الآن، شهِدتُ والله تسعةَ عشرَ عسكرًا كلّها هُزمت، وكنت سببَها، فإن شئتَ الآن على بصيرةٍ أن يكون عسكرك تمامَ العشرين فافعل، فضحك المنصور وأمره أن يتخلّفَ مع عيسى بن موسى[٣] بالكوفة.

وعن جعفر بن حسينٍ اللِّهْبيّ قال: حدّثني أبو دُلامةَ قال: أُتِي بي المنصور أو المهديّ وأنا سكرانُ، فحلف ليُخْرِجَنّي في بَعْث حرب؛ فأخرجني مع رَوْح بن حاتم المهلّبيّ لقتال الشُّراة[٤]؛ فلما التقى الجمعان قلت لِرَوْح: أما والله لو أنّ تحتي فرسَك ومعي سلاحك لأثّرتُ في عدوّك اليومَ أثرًا ترتضيه! فضحك وقال: واللهِ العظيمِ لأدفعنَّ إليك ذلك ولآخذنّك بالوفاءِ بشَرْطك؛ فنزل عن فرسه ونزع سلاحَه ودفع ذلك إليّ، ودعا بغيره فاستبدل به، فلمّا حصل ذلك في يدي قلت: أيّها الأميرُ، هذا مقامُ

---

(١) سرّي عنه: أُدخل السرور على قلبه.

(٢) عبد الله بن علي: أمير عباسي، عمّ الخليفتين السفاح والمنصور، فتك بالأمويّين في معركة الزّاب، طالب بالخلافة أيام المنصور، فهزمه أبو مسلم الخراساني، مات في السجن سنة ١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/ ١٣٤.

(٣) عيسى بن موسى: أمير عباسي، هو ابن أخي السفّاح، تولى الكوفة، وكانت وفاته سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٦ م.

(٤) الشراة: فئة من الخوارج الذين خرجوا على عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، سمّوا بالشراة لأنهم، في زعمهم، شروا أنفسهم في طاعة الله بالجنّة. انظر: المِلل والنِّحل ١/ ١٣٤ ـ ١٣٩.

العائذ بك، وقد قلت أبياتًا فاسمعْها. قال: هاتِ، فأنشدته: [من الكامل]

إنّي استجرتُكَ أنْ أُقَدَّمَ في الوغَى[١] لِتَطَاعُنٍ وتَنَازُلٍ وضِرَابِ[٢]

فهَبِ السيوفَ رأيتُها مشهورةً وتركتُها ومضيتُ في الهُرّابِ

ماذا تقول لِمَا يجيء ولا يُرَى مِنْ بادراتِ الموتِ بالنُّشَّابِ[٣]

فقال: دَعْ هذا عنك، وبَرَز رجل منَ الخوارج يدعو إلى المبارزة فقال: اخرجْ إليه يا أبا دُلامة. فقال: أَنشُدُك الله أيها الأميرُ في دمي. فقال: والله لَتَخْرُجَنّ! فقلت: أيّها الأمير، فإنّه أوّلُ يوم من الآخرةِ وآخرُ يوم من الدنيا، وأنا والله جائع ما تَنبعِثُ مني جارحةٌ[٤] من الجوعِ، فمُرْ لي بشيءٍ آكله ثم أخرُج؛ فأمر لي برغيفين ودَجاجة؛ فأخذت ذلك وبرزت عن الصفّ. فلمّا رآني الشاري أقبل نحوي وعليه فروٌ قد أصابه المطر فابتلّ، وأصابته الشمسُ فاقفعلّ[٥] وعيناه تَقِدان، فأسرع إليّ؛ فقلت: على رِسْلك[٦] يا هذا! فوقف؛ فقلت: أتقتلُ من لا يقاتلُك؟ قال: لا، قلت: أتستحلُّ أن تقتلَ رجلًا على دينك؟ قال: لا، قلت: أفتستحلّ ذلك قبلَ أن تدعوَ مَن تقاتلُه إلى دينك؟ قال: لا، فاذهب عني إلى لعنة الله، فقلت: لا أفعلُ أو تسمعَ منّي. قال: قل. فقلت: هل كانت بيننا عداوة أو تِرَةٌ[٧] أو تعرفني بحالٍ تُحْفِظك عليّ أو تعلم بيني وبين أهلِك وِتْرًا[٨]؟ قال: لا والله؛ قلت ولا أنا والله لك إلا على جميل الرأي، فإني لأهواك وأنتحلُ[٩] مذهبَك وأدينُ دينك وأريدُ السّوءَ لمن أرادك. فقال: يا هذا، جزاك الله خيرًا فانصرِفْ. قلت: إنّ معي زادًا أريد أن آكله وأُريد مؤاكلتك لتتوكّد المودّةُ بينَنا، ويرى أهلُ العسكرَيْنِ هوانَهم علينا؛ قال: فافعل. فتقدّمت إليه حتى اختلفت[١٠] أعناقُ دوابّنا وجمعنا أرجلَنا على مَعَارِفها[١١] وجعلنا نأكلُ والناسُ قد غُلِبوا ضحكًا. فلما استوفَيْنا ودّعني، ثم قلت له: إنّ هذا الجاهلَ، إن أقمتَ على طلب المبارزة نَدَبني إليك فتتعَب وتُتعبني، فإن رأيت ألّا تبرز اليومَ فافعلْ. قال: قد فعلتُ، فانصرف وانصرفْت. فقلت لروح: أمّا أنا فقد كفيتُك قِرْني[١٢]، فقل لغيري

(١) الوغى: القتال والحرب.
(٢) الضراب: الطعن.
(٣) النشاب: السهام.
(٤) الجارحة: العضو من الإنسان ولا سيما اليد.
(٥) اقفعل: تقبّض.
(٦) على رسلك: كيف تريد وتشاء.
(٧) الترة: الثأر والانتقام.
(٨) الوتر: الثأر، وهي الترة.
(٩) أنتحل: اتّخذه نحلةً ومذهبًا.
(١٠) اختلفت الأعناق: لم تتساو، وتباينت.
(١١) معارفها: وجوهها.
(١٢) القرن: النظير والمثيل.

يكفيك قِرْنَه كما كفيتُك. وخرج آخر يدعو إلى البِراز؛ فقال لي: اخرجْ إليه، فقلت: [من البسيط]

إنـي أعـوذُ بـرَوْحٍ أن يُـقَـدِّمَـنـي … إلى القتالِ فتُخزَى بي بنو أسَدِ
إنَّ الـبِـرازَ[1] إلـى الأقـرانِ أعـلَـمه … مـمـا يُـفرّقُ بـيـنَ الـرُّوحِ والـجسدِ
قد حالَفَتْكَ المنايا[2] إذ رُصِدْتَ لها … وأصبحت لجميعِ الخلقِ كالرَّصَدِ
إنّ المهلَّبَ حُبَّ الموتِ أورَثكم … فما وَرِثْتُ اختيارَ الموتِ عن أحدِ
لو أنّ لي مهجةً أخرى لجُدْتُ بها … لـكـنـهـا خُـلِقَـتْ فـردًا فـلم أَجُـدِ

قال: فضحك رَوحٌ وأعفاني.

قال: وشرب أبو دُلامةَ في بعضِ الحاناتِ[3] وسكر، فمشى وهو يميلُ، فلقيه العَسَسُ[4] فأخذه؛ فقيل له: من أنت؟ وما دينُك؟ فقال: [من الرجز]

دِيـنِـي عـلـى ديـن بـنـي الـعـبّـاسِ … ما خُتِمَ الطِّينُ على القِرْطاسِ[5]
إذا اصـطـحـبـتُ أربـعًـا بـالـكـاسِ … فـقـد أدارَ شَـرْبُـهـا بـراسـي

* فـهـل بـمـا قـلـت لـكـم مـن بَـاسِ *

فأخذوه وخرقوا ثيابَه وساجَه[6]، وأُتي به إلى أبي جعفر، فأمَر بحبسه مع الدَّجاج في بيتٍ، فلمّا أفاق جعل ينادي غلامه مرّةً وجاريتَه أخرى فلا يجيبُه أحد، وهو مع ذلك يسمعُ صوتَ الدّجاج وزُقاء[7] الديك. فلمّا أكثر قال له السجّان: ما شأنُك؟ قال: ويلك! من أنت؟ وأين أنا؟ قال: أنت في الحبس، وأنا فلان السجّان. قال: ومَنْ حَبَسني؟ قال: أميرُ المؤمنين. قال: ومن خرَق طيلَساني؟ قال: الحرس، فطلب أن يأتيَه بدواةٍ وقرطاسٍ، ففعل فأتاه؛ فكتب إلى أبي جعفر المنصور يقول: [من الوافر]

أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـن فَـدَتْـكَ نـفـسـي … عَـلَامَ حبستَني وخَرَقْتَ ساجي

---

(١) البراز: الظهور للقتال. (٢) المنايا: جمع منية، وهي الموت والرَّدَى.
(٣) الحانات: جمع حانة، وهي حانوت الخمّار.
(٤) العسس: جمع عاسّ، وهو الذي يطوف بالليل لفضح أصحاب الرذيلة.
(٥) القرطاس: الورق. (٦) ساجه: طيلسانه، ثوبه الطويل.
(٧) الزقاء: الصياح.

أمِنْ صهباءَ[١] صافيةِ المِزاجِ كأنّ شعاعَها لَهبُ السِّراجِ
وقد طُبِختْ بنارِ اللهِ حتى لقد صارتْ من النُّطَفِ النِّضاجِ[٢]
تَهَشُّ[٣] لها القلوبُ وتشتهيها إذا بَرَزتْ تَرَقْرقُ في الزُّجَاجِ
أُقادُ إلى السجونِ بغيرِ جُرْمٍ كأني بعضُ عمّالِ الخراجِ!
فلَوْ معهم حُبِستُ لكان سهلًا ولكني حُبِستُ مع الدجاجِ
وقد كانت تُخَبِّرني ذنوبي بأني من عِقابك غيرُ ناجِ
على أنّي وإن لاقيتُ شرًّا لِخيرِكَ بعد ذاك الشرِّ راجي

فاستدعاه المنصورُ وقال: أين حُبِستَ يا أبا دُلامة؟ قال: مع الدَّجاج، قال: فما كنتَ تصنعُ؟ وقال: أُقوقيءُ[٤] معهم إلى الصّباح، فضحك وخلّى سبيلَه وأمر له بجائزة. فلما خرج قال الربيع: إنه شَرِب الخمرَ يا أميرَ المؤمنين، أما سمعتَ قوله: وقد طُبخت بنارِ الله؟ (يعني الشمس) قال: لا والله، ما عَنَيْتُ إلا نارَ الله المُوقَدةَ التي تَطَّلِعُ على فؤاد الربيع. فضحك المنصور وقال: خُذْها يا ربيعُ ولا تعاود التعرّضَ له.

ورُوي عن المدائني قال: دخل أبو دُلامةَ على المهديِّ وعنده إسماعيلُ بنُ عليٍّ وعيسى بنُ موسى والعبّاسُ بنُ محمدِ بن إبراهيم الإمامِ وجماعةٌ من بني هاشم؛ فقال له المهديُّ: أنا أُعْطِي الله عهدًا إنْ لن تَهْجُ واحدًا ممن في البيت، لأقطعنَّ لسانَك أو لأضربنَّ عُنُقَك. فنظر إليه القوم، وكلما نظر إلى أحد منهم غمزة بأنّ عليّ رضاك. قال أبو دلامة: فعلمتُ أني قد وقعت وأنها عَزْمةٌ من عَزَماته لا بدّ منها، فلم أرَ أحدًا أحقَّ بالهجاء منّي ولا أدعى إلى السلامة من هجاءِ نفسي، فقلت: [من الوافر]

ألَا أبلِغْ لديكَ أبا دُلامة فلستَ من الكرامِ ولا كرامَه
إذ لبسَ العِمامةَ كان قِرْدًا وخِنْزيرًا إذا نزعَ العمامَه
جمعْتَ دَمامةً وجمعْتَ لؤمًا كذاك اللؤمُ تتبعُه الدَّمامَه[٥]
فإن تكُ قد أصبتَ نعيمَ دنيا فلا تَفْرَحْ فقد دَنتِ[٦] القِيامَه

(١) الصهباء: صفة للخمرة، لونها أصهب.
(٢) النّطف: جمع نطفة، وهي الماء. والنضاج: المستوية.
(٣) تهش: تفرح.
(٤) أقوقيء: أصيح كالدجاج.
(٥) الدمامة: القبح.
(٦) دنت: اقتربت.

فضحِك القومُ ولم يبقَ منهم أحدٌ إلا أجازه.

قال: وخرج المهديُّ وعليُّ بن سليمانَ إلى الصيد، فسنح لهما قطيعٌ من ظباءٍ، فأُرسلت الكلابُ وأُجرِيت الخيلُ، ورمى المهديُّ سهمًا فأصاب ظبيًا، ورمى عليُّ بنُ سليمان فأصاب بعضَ الكلاب فقتله؛ فقال أبو دلامة: [من مجزوء الرمل]

قد رمى المهديُّ ظبيًا ... شكَّ بالسهمِ فؤادَهْ
وعليُّ بن سليما ... ن رمى كلبًا فصَاده
فهنيئًا لهما كـ ... ـلُّ امرىءٍ يأكلُ زاده

فضحِك المهديُّ حتى كاد يسقطُ عن سرجهِ، وقال: صدق واللهِ أبو دُلامةَ، وأمر له بجائزة سنيّةٍ[1]؛ فلُقّبَ عليُّ بن سليمان بعد ذلك صائدَ الكلبِ، فغلب عليه.

قال: وتوفّيت حمادةُ بنتُ عيسى، وحضر المنصورُ جنازتَها؛ فلما وقف على حُفْرتها قال لأبي دُلامة: ما أعددْتَ لهذه الحُفرة؟ قال: ابنةَ عمِّك يا أميرَ المؤمنين حمادةَ ابنةَ عيسى يجاءُ بها الساعةَ فتُدفنُ فيها؛ فضحك المنصورُ حتى غُلِب وستر وجهه.

قال الهيثمُ بنُ عديٍّ رحمةُ الله عليه: حجّت الخيزُران[2]، فلما خرجت، صاح أبو دلامةَ: جعلني الله فداك، اللهَ اللهَ في أمري! فقالت: من هذا؟ قالوا: أبو دلامة، فقالت: سلوه ما أمرُه؛ قالوا له: ما أمرُك؟ قال: أدنوني من مَحْمِلها؛ قالت: أدنوه؛ فأُدني، فقال لها: أيتها السيّدة، إني شيخ كبير وأجرُك فيّ عظيم، قالت: فمه[3]! قال: تَهَبيني جاريةً من جواريك تُؤنسني، وترفُق بي وتُريحُني من عجوز عندي، قد أكلت رِفدي[4]، وأطالت كدّي، فقد عاف جلدي جلدَها، وتشوّقتُ فقدَها؛ فضحكت الخيزرانُ وقالت: سوف آمرُ لك بما سألت، فلمّا رجعت تلقّاها وأذكرها وخرج معها إلى بغدادَ، فأقام حتى غَرِض[5]. ثم دخل على أُمّ عَبِيدةَ حاضنةِ موسى وهارونَ[6]

---

(١) سنية: ثمينة.
(٢) الخيزران: جارية المهدي، ولدت له الرشيد والهادي. تآمرت على الهادي فقتل، توفيت سنة ٧٣ هـ/ ٧٩٨ م.
(٣) فمه: فماذا. (٤) رفدي: عطائي وصِلَتي.
(٥) غرض: ملّ وضجر.
(٦) موسى: هو الخليفة موسى الهادي، وهارون، هو الخليفة هارون الرشيد.

فدفَع إليها رقعةً قد كتبَ بها إلى الخيزران، فيها: [من مجزوء الرمل]

أبلغي سيِّدتي بالله ... يا أُمَّ عَبِيدَهْ

أنَّها أرشَدها الله ... وإن كانت رشيدَهْ

وعدتْني قبلَ أن تخـ ... ـرجَ للحجِّ وليدَه

فتأنَّيتُ وأرسلتُ بعشرينَ قصيدَه

كلّما أخلفْنَ أخلفـ ... ـتُ لها أخرى جديدَه

ليسَ في بيتي لتمهيـ ... ـد فِراشي مِن قعيده

غيرُ عجفاء[1] عجوزٍ ... ساقُها مثلُ القديده[2]

وَجْهُها أقبحُ مِن حو ... تٍ طَريٍّ في عصيده[3]

ما حياةٌ مَعَ أنثى ... مثلَ عِرْسي بسعيدَهْ

فلما قُرئت عليها، ضحكت ودعت بجارية مِن جواريها فائقةِ الجمال، فقالت لها: خُذِي كلَّ ما لك في قصري، ففعلت؛ ثم دعتْ بعضَ الخدم وقالت له: سلِّمها إلى أبي دُلامة. فانطلقَ الخادمُ بها فلم يصادفْه في منزله؛ فقال لامرأتِه: إذا رجعَ أبو دلامةَ فادفعيها إليه، وقولي له: تقولُ لك السيدةُ: أحسِنْ صُحبةَ هذه الجاريةِ، فقد أمَرْتُ لك بها. فقالت له: نعم، فلما خَرَج الخادمُ دخل ابْنُها دُلامةُ فوجد أمّه تبكي؛ فسألها عن خبرها فأخبرتْهُ وقالت: إن أردتَ أن تبرَّني يومًا من الأيام فاليوم، قال: قولي ما شئتِ فإني أفعلُه. قالت: تدخلُ عليها فتُعْلِمُها أنك مالكُها وتَطَؤها[4] فتحرّمُها عليه وإلا ذهبتْ بعقلِهِ فجفاني وجفاك، ففعل ودخل إلى الجارية فوطِئها ووافقها ذلك منه، وخرج. فدخل أبو دُلامةَ فقال لامرأتِهِ: أين الجاريةُ؟ قالت: في ذلك البيتِ، فدخل إليها شيخٌ محطَّمٌ ذاهبٌ، فمدّ يده إليها وذهبَ ليقبِّلها؛ فقالت: ما لك ويحك! تَنَحَّ وإلّا لطمتُك لطمةً دققْتُ منها أنفَك. فقال لها: أبهذا أوصتكِ السيِّدة؟ قالت: إنها بعثت بي إلى فتى من هيئته وحاله كيتَ وكيتَ، وقد كان عندي آنفًا ونال مني حاجته. فعلم أنه قد دُهِي من أُمِّ دُلامة وابنها، فخرج أبو دلامة إلى دُلامة فلطمه ولبّبه[5] وحلف ألّا يفارقَه إلّا إلى المهديّ. فمضى به مُلَبّبًا حتى وقف ببابِ المهديّ، فعُرِّفَ خبرُه؛ وأنه جاء بابنه على تلكَ الحال، فأمر بإدخاله فلما دخل قال: ما لكَ؟ قال:

---

(١) العجفاء: الهزيلة.

(٢) القديدة: الثوب الخلق، واللحم المقدّد.

(٣) العصيدة: دقيق يلت بالسمن ويطبخ.

(٤) تطؤها: تركبها وتجامعها.

(٥) لبّبه: جمع ثيابه عند صدره ثم جرّه.

فعل بي هذا ابنُ الخبيثة ما لم يفعلْه ولدٌ بأبيه، ولا يرضيني إلا أن تقتلَه. قال: ويحك! وما فعل بك؟ فأخبره الخبر؛ فضحكَ حتى استلقى ثم جلس. فقال له أبو دُلامة: أعجبَكَ فعلُه فتضحك منه؟! فقال: عليَّ بالسيف والنِّطْع[1]. فقال له دُلامة: قد سمعتَ قوله يا أمير المؤمنين، فاسمعْ حجّتي. قال: هاتِ! قال: هذا الشيخ أصْفَقُ[2] الناسِ وجهًا، هو يفعل بأمّي منذ أربعين سنة ما غضِبتُ، وفعلتُ أنا بجاريته مرّةً واحدة غضِبَ وصنعَ بي ما ترى. فضحكَ المهديُّ أشدَّ مِن ضحكهِ الأوّل، ثم قال: دَعْها له يا أبا دُلامة، وأنا أُعطيك خيرًا منها؛ قال: على أن تخبّأها لي بينَ السماءِ والأرضِ وإلّا فعَل بها واللهِ كما فعل بهذه؛ فتقدّم إلى دُلامةَ ألّا يعاودَ مثلَ فعلِه، وحلف أنه إن عاود قتلَه، ثم وهبَ له جارية.

قال عبدُ الله بن صالح رحمه الله: جاء ابنُ أبي دُلامةَ يومًا إلى أبيه وهو في محفل من جيرانِه وعشيرتِه فجلس بينَ يديه، ثم أقبل على الجماعة فقال لهم: إنّ شيخي كما ترَوْنَ قد كبِر سنُّه ورَقّ جلدُه ودقّ عظمُه، وبنا إلى حياته حاجةٌ شديدة، فلا أزالُ أُشيرُ عليه بالشيء يُمسكُ رمقَه ويُبقي قوّته فيخالفني فيه، وإني أسألكم أن تسألوه قضاءَ حاجةٍ لي أذكرَها بحضرتكم فيها صلاحُ جسمِه وبقاءُ حياتِه، فأسعفوني بمسألته معي. فقالوا: نفعلُ حبًّا وكرامة؛ ثم أقبلوا على أبي دُلامةَ بألسنتِهم فتناولوه بالعتابِ حتى رضي ابنهُ وهو ساكت، قال: قولوا للخبيثِ فليقلْ ما يريد، فستعلمون أنه لم يأت إلا ببليّة. فقالوا له: قلْ؛ فقال: إنّ أبي إنما قتله كثرةُ الجماع، فتعاونوني حتى أخصيَه[3]، فلن يقطعَه عن ذلك غيرُ الخصاءِ فيكونُ أصحَّ لجسمه وأطوَلَ لعمره. فعجِبوا بما أتى به وضحكوا. ثم قالوا لأبي دُلامة: قد سمعتَ فأجِبْ. قال: قد سمعتم أنتم فعرّفتكم أنه لم يأتِ بخير. قالوا: فما عندكَ في هذا؟ قال: قد جعلتُ أمّه حَكَمًا فيما بيني وبينه، فقوموا بنا إليها. فقاموا بأجمعهم ودخلوا إليها، وقصّ أبو دلامةَ القصّةَ عليها وقال: قد حَكَّمتُك. فأقبلت على الجماعة فقالت: إن ابني هذا أبقاهُ اللهُ قد نصحَ أباه ولم يألُ جهدًا، وما أنا إلى بقاء أبيهِ أحوج مني إلى بقائه، وهذا أمر لم يقع به تجربة منّا ولا جرى بمثله عادةٌ لنا؛ وما أشكّ في معرفته بذلك، فليبدأ بنفسه فَلْيَخْصِها، فإذا عوفي ورأينا ذلك قد أثّر عليه أثرًا محمودًا استعملَهُ أبوهُ. فضحكَ أبوهُ والقوم وانصرفوا يعجبون من خبثهم جميعًا.

---

(١) النطع: البساط من جلد يوضع تحت المحكوم عليه بالقتل ليقع الرأس عليه.

(٢) أصفق: أبشع، وأحقّه بالصفق والضرب. (٣) أخصيه: أنزع خصييه، أي بيضتيه.

ومنهم أبو صدقة.

ذكر شيء من نوادر أبي صدقة

هو أبو صدقةَ مسكينُ بنُ صدقة من أهلِ المدينةِ مولى لقريش. قال أبو الفرج: وكان مليح الغناء طيّب الصّوتِ كثير الروايةِ صالح الصنعة، من أكثر الناس نادرةً وأخفِّهم روحًا وأشدِّهم طمعًا وألحِّهم مسألةً، وهو من المغنّين الذين أقدمهم الرشيدُ من الحجازِ في أيامه. قيل: إنه عوتب على كثرة إلحاحِه في المسألة، فقال: وما يمنعُني من ذلك، واسمي مِسكينٌ، وكنيتي أبو صدقة وابنتي فاقةُ وابني صدقة، فمَنْ أحقُّ بهذا مني؟ وكان الرشيدُ يعبثُ به كثيراً؛ فقال ذاتَ يوم لمسرورٍ: قلْ لابنِ جامع وإبراهيمَ الموصليِّ وزبيرَ بن دحمان وزلزلَ[١] وبرصوما وابنِ أبي مريم المدينيّ: إذا رأيتموني قد طابت نفسي، فليسألْ كلُّ واحدٍ منكم حاجةً، مقدارُها مقدارُ صلتِه، وذكر لكل واحد منهم مبلغَ ذلك، وأمرهم أن يكتموا أمرَهم عن أبي صدقة؛ فقال لهم مسرورٌ ما أمر به الرشيد. ثم أذن الرشيدُ لأبي صدقة قبلَ إذنه لهم. فلما جلس قال له: يا أبا صدقة، لقد أضجرْتَني بكثرة مسألتِك وأنا في هذا اليوم ضَجِرٌ وأحببتُ أن أتفرّج وأفرحَ، ولستُ آمنُ أن تنغّض عليّ مجلسي بمسألتك، فإما أن تُعفيني أن تسألني اليومَ حاجةً وإلّا فانصرف. فقال له: لستُ من يومي هذا إلى شهر أسألُك حاجة. فقال له الرشيد: أمّا إذا شَرَطتَ لي هذا على نفسك فقد اشتريتُ منك حوائجك بخمسمائة دينارٍ وها هي ذه فخذْها طيبةً معجلةً، فإن سألتني شيئًا بعدها من هذا اليوم فلا لومَ عليّ إن لم أصِلْكَ سنةً بشيء. فقال: نعم وسنتين. فقال له الرشيد: زدني في الوثيقة. فقال: قد جعلتُ أمرَ أمّ صدقة في يدك فطلّقها متى شئتَ، إن شئتَ واحدة وإن شئت ألفًا إن سألتُك في يومي هذا حاجة، وأشهدتُ الله ومَن حضر على ذلك. فدفع إليه المال، ثم أذن للجلساء والمغنّين فدخلوا وشرب القوم، فلما طابت نفسُ الرشيد، قال له ابنُ جامع: يا أمير المؤمنين، قد نِلْتُ منك ما لم تبلغه أُمنيّتي، وكثُر إحسانُك إليّ حتى كَبَتَّ[٢] أعدائي وقتلتَهم، وليس لي بمكةَ دارٌ تشبهُ حالي، فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يأمرَ لي بمالٍ أبني به دارًا وأفرشُها بباقيه لأفقأ عيونَ أعدائي وأُزهِق[٣] نفوسَهم فعل. فقال له: وكم قدّرْتَ لذلك؟ قال: أربعة آلاف دينار، فأمر له بها. وقام إبراهيم الموصليّ فقال: يا أمير المؤمنين، قد ظهرتْ نعمتُك

---

(١) زلزل: أحد أشهر المغنّيين والموسيقيّين في العصر العباسي.
(٢) كبتّ: صرعت وأهلكت. (٣) أزهق: أذهب.

عليّ وعلى الكبار من ولدي؛ وفي أصاغرِهم من أحتاج إلى خِتانه، وفيهم صغارٌ أحتاجُ أن أتّخذ لهم خدمًا؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يحسنَ معونتي على ذلك فعل. فأمر له بمثل ما أمر به لابنِ جامع، وجعل كلُّ واحدٍ منهم يقول في الثناء ما يحضره ويسأل حاجتَه على قدرِ جائزته، وأبو صدقةَ ينظر إلى الأموال تُفرَّق يمينًا وشمالًا، فوثب قائمًا ورمى بالدنانير من كُمِّه وقال للرشيد: أقِلْني أقال اللهُ عَثْرتَك. فقال الرشيد: لا أفعل. فجعل يستحلفُه ويضطربُ ويلحّ والرشيدُ يضحكُ ويقول: ما لي إلى ذلك سبيلٌ، الشرط أَمْلَكُ. فلمّا عِيل صبرُه أخذ الدنانيرَ ورمى بها بينَ يدي الرشيد وقال: هاكها قد رددتُها عليك وزدتُك أمّ صدقة فطلّقْها واحدةً إنْ شئتَ وإن شئت ألفًا. وإنْ لم تلحِقني بجوائزِ القوم فألحقْني بجائزةِ هذا الباردِ عمرو الغزّال - وكانت جائزتُه ثلاثةِ آلافِ دينار - فضحك حتى استلقى ثم رد عليه الخمسمائة الدينار وأمر له بألفِ أخرى معها، وكان ذلك أكثر ما أخذه منذ خدمه إلى أن مات، رحمةُ الله عليهم.

وروى أبو الفرج عن أبي إسحٰق قال: مُطِرْنا ونحن مع الرشيدِ بالرّقة[1] مع الفجر فاتّصل إلى غدِ ذلك اليوم، وعرفنا خبرَ الرشيد أنه مقيمٌ عندَ أُمّ ولدهِ المسمّاةِ سحرَ، فتشاغلنا عنه في منازلنا. فلما كان من غدٍ جاءنا رسولُ الرشيد فحضرْنا جميعًا، وأقبل يسألُ كلَّ واحدٍ منّا عن يومهِ الماضي وما صنعَ فيه؛ فيخبره إلى أن انتهى إلى جعفرِ بن يحيىٰ، فسأله عن خبره فقال له: كان عندي أبو زكّارٍ الأعمى وأبو صدقة، وكان أبو زكّارٍ كلّما غنّى صوتًا، لم يفرغْ منه حتى يأخذه أبو صدقة؛ فإذا انتهى الدورُ إليه أعاده وحكَى أبا زكّار فيه وحركاتِه وشمائله، ويفطنُ أبو زكّار لذلك فيُجَنّ ويموت غيظًا ويشتم أبا صدقة كلّ الشتم حتى يضجرَ، وهو لا يجيبُه ولا يدعُ العبثَ به وأنا أضحكُ من ذلك، إلى أن توسّطنا الشرب وسئمنا من عبثِهِ به؛ فقلت له: دَعْ هذا عنك وغنِّ غنائك، فغنّى رَمَلًا ذكر أنه من صنعته، فطربت له والله يا أمير المؤمنين طربًا ما أذكر أني طربتُ مثله منذ حينٍ، وهو: [من الخفيف]

فتَنتني بفاحم[2] اللونِ جَعْدٍ[3] وبــثــغــرٍ[4] كــأنــه نــظــمُ دُرِّ
وبــوجــهٍ كــأنــه طــلعــة الــبــدْ رِ وعينٍ في طرفها نَفْث[5] سِحْرِ

---

(١) الرّقة: مدينة سورية على الفرات جعلها هارون الرشيد عاصمته الصيفيّة وبنى فيها قصر السلام، فعرفت بمدينة الرشيد.
(٢) فاحم اللّون: صفة للشعر الأسود.
(٣) جعد: صفة ثانية له، وهو بخلاف المرسل.
(٤) الثغر: الفم.
(٥) نفث: إلقاء وإلهام.

فقلت له: أحسنتَ واللهِ يا أبا صدقة! فلم أسكتْ من هذه الكلمةِ حتى قال: يا سيّدي إني قد بنيتُ دارًا أنفقتُ عليها جميعَ مالي، وما أعددتُ لها فرشًا فافرشها لي. فتغافلتُ عنه، وعاودَ الغناء فتعمّدتُ أن قلتُ: أحسنتَ، فسألني فتغافلت؛ فقال: يا سيّدي، هذا التغافلُ متى حدثَ لك؟ سألك بالله وبحقّ أبيك عليك إلا أجبتني عن كلامي ولو بشتم. فأقبلتُ عليه وقلتُ له: أنت والله بغيض، اسكتْ يا بغيض، واكفُفْ عن هذه المسألةِ الملحّة. فوثب من بين يديّ، فقلت: إنّه قد خرج لحاجة، فإذا هو قد نزعَ ثيابه وتجرّد منها خوفًا من أن تبتلّ ووقف تحت السماءِ لا يواريه شيءٌ والمطرُ يأخذُه ورفع رأسَه، وقال: يا ربِّ أنت تعلم أني مُلْهٍ ولستُ نائحًا، وعبدُك الذي قد رفعتَه وأحوجتني إلى خدمتِهِ يقول لي: أحسنتَ لا يقول لي: أسأت، وأنا مذ جلستُ أقول له: بنيتَ ولا أقول له: هدمْت، فيحلِفُ بك جرأة عليك أني بغيض، فاحكمْ بيني وبينه فأنت خيرُ الحاكمين. فغلبني الضحكُ وأمرتُ به فتنحّى، وجهدتُ به أن يغنّي فامتنع، حتى حلَفتُ له بحياتك أني أفرشُ له داره يا أمير المؤمنين، وخدعتهُ فلم أُسمِّ له بما أفرشها. فقال له الرشيد: طيِّبٌ واللهِ! الآن تمّ لنا به اللهو، أدعُه فإنه إذا رآك سوف يتنجّزُك[1] الفرشَ لأنك حلفتَ له بحياتي فهو يقتضيك ذاك بحضرتي ليكونَ أوفقَ له؛ فقل له: أنا أفرشُها لك بالبواري[2] وحاكِمْه إليّ. ثم دعا به فحضر؛ فلما استقرّ في المجلس قال لجعفر: الفرشُ الذي حلفتَ بحياة أمير المؤمنين أنك تفرشُ به داري، تقدَّمْ به. فقال له جعفر: اخترْ، إنْ شئتَ فرشتُها لك بالبواريّ وإن شئتَ فبالبَرديّ[3] من الحصر؛ فصاح واضطرب. فقال له الرشيد: وكيف كانت القصة؟ فأخبره، فقال له: أخطأتَ يا أبا صدقة إذ لم تسمِّ النوعَ ولا حدّدتَ القيمة؛ فإذا فرشها لك بالبَرديّ أو بما دون ذلك فقد برَّ في يمينه، وإنما خدعَك ولم تفطن أنت ولا توثّقتَ وضيّعتَ حقّك. فسكت ثم قال: نوفّرُ أيضًا البرديّ والبواريّ عليه أعزّه الله. وغنّى المغنّون حتى انتهى الدّورُ إليه، فأخذ يغنّي غناءَ الملّاحين والبنّائين والسقّائين وما يجري مجراه من الغناء. فقال له الرشيد: أيّ شيء هذا الغناء؟ قال: مَن فُرِش دارُه بالبواريّ والبرديّ فهذا الغناء كثير منه، وكثير أيضًا لمن هذه صلتُه. فضحكَ الرشيدُ وطرب وصفّق وأمر له بألف دينار من ماله، وقال له: افرشْ دارَك بهذه. فقال: وحياتِك يا أمير المؤمنين لا آخذُها أو تحكمَ لي على جعفر بما وعدَني وإلا متُّ

---

(١) يتنجّزك: يطلب إنجازه وقضاء حاجته. (٢) البواري: الحصير من القصب وغيره.
(٣) البردي: نبات كالقصب، كانوا يكتبون عليه قديمًا.

والله أسفًا لفوات ما حصل في طمعي ووُعِدتُ به؛ فحكم له على جعفر بخمسمائة دينار أخرى، فأمر له جعفر بها.

ذكر شيء من نوادر الأُقَيْشر

هو أبو مُعْرِضْ المغيرةُ بنُ عبدِ اللهِ بن معرضِ بنِ عمرو بنِ معرضٍ بن أسدِ بنِ خزيمةَ بن مدركةَ بنِ الياسَ بنِ مضرَ. والأقيشر لقبٌ غُلِبَ عليه لأنه كان أحمرَ الوجهِ أقيشر. قال أبو الفرج الأصفهانيّ: وعُمِّر الأقيشِرُ عمرًا طويلًا، ولعله وُلِدَ في الجاهلية ونشأ في الإسلام، وكان أبعدَ بني أسدَ نسبًا. قال: وكان كوفيًّا خَلِيعًا ماجِنًا مُدمنًا للخمر. وهو الذي يقول لنفسه: [من المتقارب]

فــإنّ أبــا مــعــرضٍ إذ حــســا ... من الرّاح[1] كأسًا على المنبرِ
خطيبٌ لبيبٌ[2] أبو معرِض ... فإنْ لِيم في الخمر لم يصبرِ
أحلّ الحرامَ أبو معرِضٍ ... فصار خليعًا على المُكبرِ
يحبّ اللئامَ ويَلْحى[3] الكرام ... وإن أقصروا عنه لم يُقصِرِ

قال: وشرب الأقيشرُ في بيت خمّارٍ بالحِيرة، فجاءه الشُّرطُ ليأخذوه، فتحرّز منهم وأغلق الباب وقال: لست أشربُ فما سبيلكم عليّ؟ قالوا: قد رأينا العُس[4] في كفّك وأنت تشرب. فقال: إنما شربت من لبنِ لَقْحة[5] لصاحب هذه الدار؛ فما برحوا حتى أخذوا منه درهمين، فقال: [من الرمل]

إنما لقحتُنا باطيَةٌ[6] ... فإذا ما مُزِجتْ كانتْ عَجَبْ
لبنٌ أصفَرُ صافٍ لونُهُ ... ينزه الباسور[7] من عَجْبِ[8] الذَّنبْ
إنما نشربُ من أموالنا ... فَسَلو الشرطيّ ما هذا الغضبْ؟

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ عن أبي عمرو الشيبانيّ وغيرِهِ قال: كان الأقيشرُ لا يسألُ أحدًا أكثرَ من خمسةِ دراهم، يجعل درهمين للشراب ودرهمًا للطعام ودرهمين في كِراء بغلٍ إلى الحيرة. وكان له جار يُكنّى أبا المضاء، له بغلٌ

---

(١) الراح: الخمرة.
(٢) اللبيب: العاقل.
(٣) يلحى: يلعن ويقبّح.
(٤) العسّ: قدح الخمر الكبير.
(٥) اللقحة: الناقة الفتيّة الغزيرة اللّبن.
(٦) الباطية: وعاء الخمر من الزجاج.
(٧) الباسور: ضرب من الحبوب والدمامل تصيب الإنسان في أسفل إسته.
(٨) العجب: الأصل.

يكريه، فكان يعطيه درهمين، ويأخذُ بغلَه فيركبُه إلى الحيرةِ حتى يأتيَ به بيتَ الخمَّار فينزلُ عنه ويربطُه، ثم يجلسُ للشرب حتى يمسي ثم يركبه. وله في ذلك أشعارٌ كثيرة.

قال: وتزوّج الأقيشرُ ابنةَ عمٍّ له يقالُ لها الرَّباب، على أربعةِ آلاف درهم - ويقال: على عشرة آلاف درهم - فأتى قومَه فسألهم فلم يعطوه شيئًا، فأتى ابن رأس البغل وهو دَهْقان[1] الصين، وكان مجوسيًّا[2]، فسأله فأعطاه الصَّدَاق[3] كاملًا؛ فقال: [من المتقارب]

كفاني المجوسيُّ همَّ الرَّباب ... فِدًى للمجوسيّ خالٌ وعمّ
شهدت بأنك رَطْبُ اللّسان ... وأنك بحرٌ جوادٌ خِضَمّ[4]
وأنك سيّدُ أهلِ الجحيم ... وإذا ما تردّيتَ فيمن ظَلَمْ
تجاور هامان[5] في قعرها ... وفرعون والمكتني بالحَكَمْ[6]

فقال له المجوسيّ: ويحك! سألت قومَك فما أعطوك شيئًا، وجئتني فأعطيتُك فجزيتني هذا القول ولم أُفلت من شرّك! قال: أوَ ما ترضى أن جعلتُكَ مع الملوك وقرينَ أبي جهل[7]؟ قال: ثم جاء إلى عكرمةَ بن ربعيٍّ التميميّ، فسأله فلم يعطه شيئًا؛ فقال فيه: [من المتقارب]

سألتُ ربيعة مَنْ شَرُّها ... أبًا ثم أُمًّا فقالوا لِمَهْ
فقلت لأعلمَ مَنْ شَرُّكم ... وأجعلَ للسبّ فيه سِمه[8]
فقالوا لِعِكرمةَ المخزيات ... وماذا يرى الناس في عِكْرمَهْ
فإن يكُ عبدًا زكا[9] ماله ... فما غير ذا فيه من مكرمَهْ

(١) الدهقان: لفظة فارسية، تعني رئيس الإقليم.
(٢) المجوسيّ: الذي يدين بالمجوسيّة، وهي عبارة النار.
(٣) الصداق: مهد المرأة.
(٤) الخضمّ: البحر الكبير.
(٥) هامان: وزير فرعون في عهد موسى عليه السلام، ورد ذكره في القرآن الكريم.
(٦) المكتني بالحكم، المراد به مروان بن الحكم، طريد رسول الله ﷺ.
(٧) أبو جهل، عمّ النبيّ ﷺ، وهو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وكان معاديًا للرسول.
(٨) السِّمَة: العلامة.
(٩) زكا: نما.

قال الأصمعيّ: قال عبد الملك بن مروان للأقيشر: أنشدني أبياتك في الخمر؛ فأنشده قوله: [من الطويل]

تُريك القذى[١] من دونها وهي دونه
لوجهِ أخيها في الإناءِ قطوبُ[٢]
كميتٌ[٣] إذا شُجَّت[٤] وفي الكأس وَرْدةٌ
لها في عظام الشاربين دبيبُ[٥]

فقال له: أحسنتَ واللهِ يا أبا مُعْرِض! لقد أجدتَ في وصفها، وأظنُّك قد شربتَها. فقال: واللهِ يا أمير المؤمنين، إنه ليُريبُني معرفتُك بها. قال: وكان الأُقيشر يأتي إخوانًا له فيسألُهم فيعطونه، فأتى رجلًا منهم فأمرَ له بخمسمائة درهم فأخذها ومضى إلى الحانةِ فدفعها إلى صاحبها، وقال له: أقم لي ما أحتاجُ إليه، ففعل. فانضمَّ إليه رفقاءُ له فلم يزلْ معهم حتى نفدتْ الدراهم؛ فأتاهم بعد إنفاقِها فاحتملوه يومًا ويومًا. فلما أتاهم في اليوم الثالث نظروا إليه من بعيد، فقالوا لصاحب الحانة: اصعدْ بنا إلى الغرفة، وأَعْلِمْ الأقيشر أنّا لم نأْتِ اليوم، ففعل. فلمّا جاء الأقيشرُ أعلمه بما قالوا، فعلم أنه لا فرج له عند صاحب الحانة إلا برهْنٍ، فطرحَ إليه بعض ثيابِه وقال له: أقم لي ما أحتاج إليه، ففعل. فلما أخذ منه الشراب أخذ يقول: [من الخفيف]

يا خليليَّ اسقيانِيَ كأسًا ثمّ كأسًا حتى أَخِرَّ نُعاسا[٦]
إن في الغرفة التي فوق رأسي لأناسًا يُخادِعون أُناسا
يشربون المعتّقَ الراحَ صِرفا[٧] ثم لا يرفعون للزَّورِ[٨] راسا

قال: فلما سمع أصحابُه هذا الشعر، فدَّوْه بآبائهم وأُمّهاتهم، ثم قالوا له: إمّا أن تصعدَ إلينا وإما أن ننزلَ إليك، فصعِد إليهم.

---

(١) والقذى: الغبار أو القشة. (٢) القطوب: الزاوية ما بين عينيها.
(٣) الكميت: صفة للخمرة لونها أسود وأحمر. (٤) شجت: مزجت.
(٥) الدبيب: السريان.
(٦) في هذا البيت، أي الأول، خلل عروضي في الشطر الأول منه، والأفصح أن يقال: فأسقياني.
(٧) صرفًا: خالصة. (٨) الزور: جماعة الزائرين.

قال: وكان يختلفُ إلى رجل من بني تميم وكان يجري عليه في كل شهر عشرةَ دراهمَ، فجاءه مرةً فوجده قد أُصيب بابنهِ، فردّته امرأتُه عنه، ثم عاد بعد ذلك بيومين فردّته عنه أيضًا؛ فكتب إليه بيتي شعرٍ ودفع الرقعةَ إليها وقال: أوصليها إليه؛ فقرأها، فإذا فيها: [من الوافر]

ألا أبلغْ لديك أبا هشامٍ فإنّ الريح أبردُها الشَّمالُ

عِداتُك في الهلال عِداتُ صدقٍ فهل سمِنَتْ كما سمن الهلالُ

فلما قرأ الرقعةَ أمر بردّه، وقال: لقد سمنت وما بقي إلا الهزالُ إن تأخّرت، فأمر له بها وزادها خمسة دراهم.

وكان الأقيشر مع شرفهِ وشِعره يرضيه اليسيرُ ويسخطُه، وأخباره كثيرة ونوادره مشهورة، وفيما أوردناه منها كفاية، ومات الأقيشر قتيلًا. وقيل: إنه مدح عبدَ الله بنَ إسحٰق بنِ طلحةَ بنِ عبيدِ اللهِ فلم يعطهِ شيئًا فهجاه؛ فزعموا أنّ غلمانًا لعبدِ اللهِ بنِ إسحٰق قتلوه؛ فاجتمع بنو أسدٍ وادّعوا عليه قتلَ الأُقيشر، فافتدى منهم بدِيته. وقال ابنُ الكلبيّ[1]: كان الأقيشر مولَعًا بهجاء عبدِ اللهِ بنِ إسحٰقَ ومدحِ أخيه زكريّا. فقال لغلمانه: ألا تريحونني منه! فانطلقوا فجمعوا بعرًا وقصبًا بظهر الكوفة وجعلوه في وسط إِرَةٍ[2]، وأقبل الأقيشرُ سكرانًا من الحِيرة على بغل أبي المضاء المكاري، فأنزلوه عنِ البغل وشدّوه رباطًا ثم وضعوه في تلك الإِرَةِ وألهبوا النار في القصب والبعرِ فمات، ولم يُعْلَم مَنْ قتلَه، والله أعلم.

ذكر شيء من نوادر ابن سَيَّابة

هو إبراهيمُ بن سَيَّابة مولى بني هاشم، كان يقال: إن جدَّه حجّامٌ أعتقه بعضُ الهاشميين. قدّمه إبراهيمُ الموصليّ وابنُه إسحٰقُ لأنه مدحهما فرفعا من قدره وغنَّيا بشعره ونوَّها بذكره. وكان خليعًا[3] ماجنًا حسن النادرة، وله نوادر نذكر منها نُبَذًا فيما رواه أبو الفرج الأصفهانيّ. منها ما رواه عن إسحٰق الموصليّ قال: أتى إبراهيم بن سيّابة وهو سكران ابنًا لسوّارِ بنِ عبد الله القاضي أمردَ، فعانقه وقبَّله؛ وكانت معه

(١) ابن الكلبي، هو أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبيّ، المؤرخ والنسّابة، وصاحب كتاب «الأصنام» و«المنافرات» و«بيوتات قريش» و«ملوك اليمن» و«الكهّان» و«الجنّ» و«المعمّرين» وغير ذلك من عشرات الكتب والمصنّفات، توفي سنة ٢٠٦ هـ. انظر: الفهرست ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) الإرة: موضع النار، والتنور.

(٣) الخليع: الماجن المستهتر.

دايةٌ[١] يقال لها رَحَاص، فقيل لها: إنه لم يقبّله تقبيلَ التسليم، وإنما قبّله شهوة؛ فلحِقتْه الدايةُ فشتمته وأسمعته كلّ ما يكره، وهجره الغلامُ بعد ذلك؛ فقال: [من المجتث]

لـئـن لـشـمـتُـك سِـرًّا فـأبـصـرتـنـي رَحـاصُ
وقـال فـي ذاك قـومٌ عـلى انـتـقـاصـي حِـراصُ
هَـجَـرتَـنـي وأتـتـنـي شـتـمـيـة وانـتـقـاصُ
فـهـاك فـاقـتـصَّ مـنـي إنّ الـجـروحَ قِـصـاصُ[٢]

وقد قيل: إنّ رَحاصَ هذه كانت مغنِّية كان الغلامُ يهواها، وإنه سكر ونام، فقبّله ابنُ سيّابة. فلما انتبه قال للمغنِّية: ليت شعري! ما كان خبرُك مع ابنِ سيّابة؟ فقالت له: سَلْ عن خبركِ أنت معه، وحدّثته بالقصّة؛ فهجره الغلام، فقال هذا الشعر.

وقال إسحٰق بنُ إبراهيم: كان ابن سَيَّابة عندنا يومًا مع جماعة نتحدّث ونتناشدُ وهو يُنشدُ شيئًا من شعره، فتحرّكَ فضرط فضربَ بيده على اسْتِه غيرَ مكترثٍ وقال: إما أنْ تسكتي حتّى أتكلّم، وإما أن تتكلّمي حتى أسكت.

وقال جعفرُ الكاتب: قال لي إبراهيم بنُ سيّابة الشاعرُ: إذا كان عند جيرانك جنازةٌ وليس في بيتك دقيقٌ فلا تحضرِ الجنازةَ، فإن المصيبةَ عندك أكبرُ منها عند القوم، وبيتك أولى بالمأتم من بيتهم. وقال سليمان بنُ يحيىٰ بن معاذ: قدِم عليّ إبراهيمُ بنُ سيّابة بنيسابور[٣] فأنزلته عليّ، فجاء ليلةً من الليالي فجعل يصيح: يا أبا أيّوب، فخشيت أن يكون قد غشيه شيء، فقلت: ما تشاء؟ فقال: [من مخلّع البسيط]

* أعـيـانـيَ الـشـادن[٤] الـربـيـب[٥] *

---

(١) الداية: القابلة.
(٢) في هذا البيت، وتحديدًا في قوله (الجروح قصاص) تضمين مأخوذ من قوله تعالى في الآية ٤٥ من سورة المائدة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ...﴾.
(٣) نيسابور، أو نيشابور، بالشين، مدينة إلى الغرب من مشهد في خراسان. عاصمة خراسان قديمًا، ومركز من مراكز الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى. أسّس فيها نظام الملك مدرسة مشهورة باسم «نظامية»، خرّبها المغول سنة ١٢٢١ م، تعاقبت عليها زلازل كثيرة.
(٤) الشادن: الظبي أول ما يقوى ويستغني عن أُمّه.
(٥) الربيب، من الناس أو الحيوان: الولد يربّيه زوج الأم.

قلت: بماذا؟ فقال:

* أكـتـبُ أشـكـو فـلا يُـجـيـبُ *

فقلت: دَارِه وداوِه، فقال:

مـن أيـن أبـغـي شـفـاء قـلـبـي وإنـمـا دائـيَ الـطـبـيـبُ

فقلت: لا دواء إذًا إلّا أن يفرّجَ الله عزّ وجلّ عنك. فقال:

يـا ربِّ فـرّجْ إذًا وعَـجّـلْ فـإنـك الـسـامـعُ الـمـجـيـبُ

ثم انصرف. وقد تقدّمت هذه الحكاية، والسلام.

ذكر شيء من نوادر مطيع بن إياس الكنانيّ وأخباره

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: هو شاعر من مخضرمي[1] الدولتين الأمويّة والعباسيّة. كان ظريفًا خليعًا ماجنًا حلوَ العشرةِ مليحَ النادرة، قال: وكان متَّهمًا في دينه بالزندقة، وكان مولدُه ومنشؤه بالكوفة، وكان منقطعًا إلى الوليد بن عبد الملك، ثم اتّصل بخدمة الوليد بن يزيد. وكان سببُ ذلك ما حكى عن حكَم الوادي المغنّي، قال: غنّيتُ الوليدَ بنَ يزيدَ وهو غلامٌ حديثُ السنّ بشعر مطيعِ بنِ أياس[2]، وهو: [من منهوك المنسرح]

إكـلـيـلُـهـا ألـوانُ ووجـهـهـا فـتّـانُ
وخـالُـهـا[3] فـريـدٌ لـيـس لـه جـيـرانُ
إذا مـشـت تـثـنّـتْ[4] كـأنـهـا ثـعـبـانُ
قـد جُـدِلـتْ فـجـاءتْ كـأنـهـا عِـنـانُ[5]

فطرِب حتى زحف عن مجلسه إليّ، واستعادني الصوتَ حتى صَحِلَ[6] صوتي؛ ثم قال: ويحك! من يقول هذا؟ فقلتُ: عبدٌ لك يا أمير المؤمنين أرضاه لخدمتك.

---

(١) المخضرم: من يعيش في عصرين متعاقبين.
(٢) مطيع بن أياس: شاعر بغدادي محدث، مدح الوليد بن يزيد والمنصور العباسيّ، امتاز شعره بالرّقة والظرف والمجون، مات سنة ٧٨٣ م.
(٣) الخال: الشامة، أي البثرة السوداء في البدن، وفي الوجه أو الخدّ خاصةً، وهي ما يستحسن ويجمّل في الوجه.
(٤) تثنت: تمايلت.
(٥) العنان: اللجام.
(٦) صحل: بُحّ.

قال: ومن هو؟ قلت: مطيعُ بنُ إياس. قال: وأين هو؟ قلت: بالكوفة؛ فأمر أن يُحْمَلَ إليه مع البريد، فحُمِلَ إليه؛ فسأله عن الشعر فقال: من يقول هذا؟ فقال: عبدُك أنا يا أمير المؤمنين، فقال له: أدنُ مني، فدنا منه فضمّه الوليد إليه وقَبَّل فاه وبين عينيه، وقبَّل مطيعٌ رجليه والأرضَ بين يديه؛ ثم أدناه حتى جلس في أقرب المجالس إليه، واصطبح[١] معه أسبوعًا متواليَ الأيام على هذا الصوت. وكان في خلال الدولةِ الأمويّة ينقطعُ إلى أوليائها وعلمائها، ثم انقطع في الدولة العبّاسيّة إلى جعفر بن أبي جعفر المنصور، فكان معه حتى مات جعفر. ومات مطيع في خلافة الهادي بعد ثلاثة أشهر مضت منها، وله نوادر وأخبارٌ مستظرفةٌ هذا موضعُ ذكرِها، فلنقتصر هٰهنا من أخباره عليها دون غيرها.

قيل: سقطَ لمطيع حائطٌ؛ فقال له بعضُ أصحابه: أحمدِ الله على السلامة. قال: ٱحمدِ الله أنت إذ لم تَرُعْك هدّتُه، ولم يصبْك غبارُه، ولم تغرمْ أجرةَ بنائه.

ومن أخباره ما رواه أبو الفرج الأصفهانيّ بإسناده إلى عبد الملك المروانيّ عن مطيع بن إياس، قال: قال لي حماد عَجْرد[٢] يومًا: هل لك أن أريك «خُشَّة» صديقتي وهي المعروفة بظبية الوادي! قلت: نعم. قال: إنك إن قعدت عندها وخَبُثت عينُك في النظر أفسدتَها عليَّ. فقلت: لا والله لا أتكلّم بكلمة تسوءك ولأسرّنَّك، فمضى بي وقال: والله لئن خالفتَ ما قلت لأخرجنّك، قال: قلت: إن خالفتُ إلى ما تكره فاصنع بي ما أحببتَ. قال: ٱمضِ بنا فمضينا، فأدخلني على أحسن خلق الله وأظرفهم وأحسنهم وجهًا. فلما رأيتها أخذني الزَّمَعُ[٣]، وفطن لي فقال: اسكتْ يا بن الزانية، فسكتُّ قليلًا، فلحظتني ولحظتها لحظة أخرى فغضب ووضع قلنسوتَه عن رأسه، وكانت صلعتُه حمراء كأنها ٱسْتُ قردٍ؛ فلما وضعها وجدت للكلام موضعًا، فقلت: [من الهزج]

وإن الـــسَّـــوْءةَ[٤] الـسّـــوءا ء[٥] يـا حـمّـاد عـن خُـشَّـةْ

(١) اصطبح: شرب الصبوح، وهي خمرة الصباح.
(٢) حماد عجرد: شاعر ماجن، اشتهر بفسقه وتهتكه، من شعراء العصر العبّاسي الأوّل.
(٣) الزمع: القلق، والرّعدة تعتري الإنسان إذا همّ بالأمر.
(٤) السوءة: الفاحشة والخلّة القبيحة والعورة.
(٥) السوءاء: بخلاف الحسناء، الشديدة القبح والسوء.

عـن الأُتْـرجـة[١] الـغـضّـ ـةِ[٢] والـتـفّـاحـةِ الـهـشّـه[٣]

فالتفتَ إليّ وقال: فعلتَها يا بنَ الزانية! فقالت له: أحسن، فوالله ما بلغ صفتَك بعد، فما تريدُ منه! فقال لها: يا زانيةُ! فسبّته وتثاوروا، فشقّت قميصه وبصقت في وجهه وقالت له: ما يُصادقُك ويدعُ مثلَ هذا إلا زانية، وخرجنا وقد لقي كلَّ بلاء، وقال لي: ألم أقل لك يا بن الزانية إنك ستفسد عليّ مجلسي! فأمسكت عن جوابه، وجعل يهجوني ويسبّني ويشكوني إلى أصحابنا؛ فقالوا لي: اُهجُه ودعْنا وإياه؛ فقلت: [من الهزج]

ألا يـا ظـبـيـةَ الـوادي وذات الـجـسـد الـرادي
وزيـنَ الـمـصـرِ والـدارِ وزيـنَ الـحـيّ والـنـادي
وذات الـمِـبـسـم الـعـذبِ وذات الـمِـبـسـم الـبـادي
أمـا بـالله تـسـتـحـيـ ـيـن مـن خـلّة حـمّـادِ
فـحـمّـادٌ فـتـى لـيـس بـذي عـزٍّ فـتـنـقـادي
ولا مـالٍ ولا طِـرْفٍ[٤] ولا حـظٍّ لـمـرتـادِ
فـتـوبـي واتّـقـي الله وبُـتّـي[٥] حـبـلَ عَـجْـرَادِ
فـقـد مُـيّـزتِ بـالـحـسـنِ عـن الـخَـلْق بـإفـراد
وهـذا الـبَـيْـنُ[٦] قـد حُـمّ[٧] فـجـودي لِيَ بـالـزادِ

قال: فأخذ أصحابُنا رِقاعًا فكتبوا الأبيات فيها وألقوها في الطريق، وخرجتُ أنا فلم أدخل عليهم ذلك اليوم، فلما رآها وقرأها قال لهم: يا أولادَ الزنى فعلها ابنُ الزانيةِ وساعدتموه؟ قال: وأخذها حكمُ الواديّ فغنّى بها، فلم يبق بالكوفة سَقّاءٌ ولا طحّانٌ ولا مكارٍ إلا غنّى فيها، ثم غبتُ مدّةً وقدمتُ فأتاني فما سلّم عليّ حتى قال لي:

أمـا بـالله تـسـتـحـيـ ـيـن مـن خـلّة حـمّـادِ

---

(١) الأترجة: واحدة الأترج، وهو الكبّاد، يشبه الليمون.
(٢) الغضّة: الطريّة.
(٣) الهشة: السريعة الانكسار والتفتّت.
(٤) الطرف: المال المحدث، والجواد الشريف.
(٥) بتّي: فكّي.
(٦) البين: الفراق.
(٧) حمّ: أزف ودنا.

قتلتني قتلك الله! والله ما كلمتْني حتى الساعةَ. قال: قلت: اللّهمّ أَدِمْ هجرَها له وسوءَ رأيها وأسفَه عليها وأغوِه بها؛ فشتمني ساعة. قال مطيع: ثم قلت له: قم ٱمضِ بنا حتى أريَك أختي - وكانت لمطيع صديقةٌ يسمّيها أختي وتسمّيه أخي، وكانت مغنّيةً - فلما خرجت إليه، دعوتُ قيِّمةً لها فأسررت إليها في أن تصلح لنا طعامًا وشرابًا، وعرّفتُها أن الذي معي حمَّاد فضحكت. ثم أخذتْ صاحبتي في الغناء وقد علمتْ بموضعه وعرفت، فكان أوّل ما غنّت:

أمـا بـالله تـسـتـحـيـ ـيـن مـن خـلّة حـمّـاد

فقال لها: يا زانية! وأقبل عليّ وقال: وأنتَ يا زاني يا بنَ الزانية! أسررْتَ إلى قيّمتها[1]؟ فقلت: لا والله كذبت، وشاتمْتُه صاحبتي ساعةً ثم قامت فدخلت، وجعل يتغيّظُ[2] عليّ. فقلت: أنت ترى أني أمرتُها أن تغنّيَ بما غنّت؟ فقال: أرى ذلك وأظنّه ظنًّا لا واللهِ ولكنّي أتيقّنه. فحلفتُ له بالطلاقِ على بطلانِ ظنّه وانصرفنا.

وحكى قال يحيىٰ بن زياد المحاربيّ لمطيع، وكان صديقًا له: انطلقْ بنا إلى فلانة صديقتي، فإنّ بيني وبينها مغاضبَةً لتُصلحَ بيننا وبئسَ المصلحُ واللهِ أنتَ. قال: فدخلا عليها، فأقبلا يتعاتبان ومطيعٌ ساكتٌ، حتى إذا أكثرَ قال يحيىٰ: ما يسكُتك؟ أسكتَ اللهُ نأمتك[3]! قال مطيع: [من الخفيف]

أنـتِ مـعـتـلّةٌ عـلـيـه ومـا زا ل مُـهِـيـنًـا لـنـفـسِـه فـي رضـاكِ

فأعجب يحيىٰ وهشّ له. فقال مطيع: [من الخفيف]

فـدعـيـه وواصـلـي ابـنَ إيـاسٍ جُـعِـلـت نـفـسُـه الـغـداةَ فِـداكِ

فقام يحيىٰ إليه بوسادة في البيت فما زال يجلدُ بها رأسَه، ويقول: ألهذا جئتُ بك يا ابن الزانية! ومطيع يُغَوّث[4] حتى ملّ يحيىٰ، والجاريةُ تضحك منهما، ثم تركه.

ورُويَ عن محمد بن الفضل السكونيّ قال: رفعَ صاحبُ الخبر إلى المنصور أن مطيعَ بن إياس زنديقٌ وأنه يلازمُ ابنه جعفر وجماعةً من أهل بيتِهِ، ويوشك أن يُفسدَ أديانَهم أو يُنسَبوا إلى مذهبه. فقال له المهديّ: أنا به عارف، أما الزندقةُ فليس من

(١) قيّمتها: المسؤولة عنها وولّية أمرها.
(٢) يتغيّظ: يغضب.
(٣) نأمتك: صوتك ونفسك.
(٤) يغوّث: يقول: واغوثاه!

أهلها، ولكنه خبيثُ الدين فاسقٌ مستحلٌ للمحارم؛ قال: فأحْضِرْه وٱنهه عن صحبة جعفر وسائر أهله، فأحضره المهديّ وقال له: يا خبيثُ يا فاسق! لقد أفسدتَ أخي ومَن تصحبُه من أهلي، واللهِ لقد بلغني أنهم يتقارعون عليك، ولا يتمُّ لهم سرورٌ إلا بك، وقد غررتَهم وشهّرتَهم في الناس، ولولا أني شهدت لك عند أمير المؤمنين بالبراءةِ مما نُسبتَ إليه من الزندقة، لقد كان أمرَ بضربِ عنقِك! يا ربيعُ ٱضربْه مائة سوطٍ وٱحبسْه. قال: ولِمَ يا سيدي؟ قال: لأنّك سِكّير خمّير قد أفسدتَ أهلي كلَّهم بصحبتك. فقال له: إن أذِنتَ لي وسمعت واحتججت. فقال له: قل؛ فقال: أنا امرؤ شاعر، وسوقي إنما تنفُق مع الملوك وقد كسدت عندكم، وأنا في أيامكم مُطَّرَح[1]، وقد رضيتُ منها مع سَعتها للناس جميعًا بالأكل على مائدة أخيك، لا يتبع ذلك غيره، وأصفيتُه على ذلك شكري وشعري؛ فإن كان ذلك غاليًا عندك تبتُ منه. فأطرق المهديّ ثم رفع رأسه فقال: قد رفع إليّ صاحبُ الخبر أنك تتماجن[2] على السؤّال، وتضحك منهم. قال: لا والله ما ذاك من فعلي ولا شأني ولا جرى منّي قط إلّا مرّة واحدة؛ فإن سائلًا أعمى اعترضني وقد عبرتُ الجسرَ على بغلتي، فظنّني من الجندِ فرفعَ عصاه في وجهي، ثم صاح: اللّهمّ سخّر الخليفةَ لأن يعطيَ للجند أرزاقهم فيشتروا من التجار الأمتعةَ وتربح التجار عليهم فتدرّ أموالهم فتجبُ فيها الزكاة[3] عليهم فيتصدّقوا عليّ منها. فنفرتْ بغلتي من صياحِهِ ورفعِهِ عصاه في وجهي حتى كدتُ أسقط في الماء. فقلت: يا هذا، ما رأيت أكثر فضولًا منك، سَلِ الله أن يرزقَك ولا تجعلْ بينك وبينه هذه الحوالاتِ والوسائطَ التي لا يحتاجُ إليها، فإن هذه المسائلَ فضولٌ. فضحك الناس منه ورفع عليّ في الخبر قولي له هذا. فضحكَ المهديّ وقال: خلّوه ولا يُضرَب ولا يُحْبَس. فقال له: أدخلُ عليك لمَوْجدةٍ[4] وأخرجُ عن رضا وتَبْرأ ساحتي وأنصرف بلا جائزة! قال: لا يجوز هذا، أعطوه مائتي دينار، ولا يعلم أمير المؤمنين فتُجدَّد عنده ذنوبُه؛ وقال له: ٱخرجْ عن بغدادَ ودَعْ صحبةَ جعفر حتى ينساك أميرُ المؤمنين، ثم عدْ إليّ. فقال له: فأين أقصد؟ قال: أكتُب إلى سليمان بن عليّ فيولّيك عملًا ويُحسِن إليك. قال: قد رضِيت. فوفد إلى سليمانَ بكتابِ المهديّ فولّاه الصدقَة[5] بالبصرة، وكان عليها داودُ بنُ أبي هندٍ فعزلَه به.

وأخباره في هذا الباب كثيرة أغضينا عن كثيرٍ منها.

---

(١) مطّرح: منبوذ. (٢) تتماجن: تظهر المجون وفساد الرأي.
(٣) الزكاة: فريضة واجبة تدفع من مال الإنسان المسلم في كل عام.
(٤) موجدة: غضب. (٥) الصدقة: الزكاة.

ذكر شيء من نوادر أبي الشِّبل

هو عاصمُ بن وهبِ بن البَرَاجِم، مولدُه بالكوفة، نشأ وتأدّب بالبصرة، وفد إلى سامَرّاء(١) أيام المتوكّل ومدحه. وكان طيّبًا كثيرَ الغزلِ والنوادر والمجون، فنفق عند المتوكل وخدمه واختصّ به وامتدحه بقوله: [من مجزوء الرمل]

أقبلي فالخير مُقْبِلْ ... واتركي قول المَعَلِّلْ(٢)

وثقي بالنُّجح(٣) إنْ ... أبصرتِ وجهَ المتوكِّلْ

ملِكٌ يُنصِفُ يا ظا ... لمتي فينا ويعدِلْ

فهو الغايةُ والمأ ... مولُ يرجوه المؤمِّلْ

فأمر له بثلاثين ألف درهم، وله أخبارٌ مستظرفةٌ تتضمنُ شعرًا ونوادر تدلّ على ظرفهِ سنذكرُ منها طرفًا؛ فمن ذلك ما حكي عنه: أنه مدحَ مالك بن طوق(٤)، وقدّر أن يعطيه ألفَ درهم، فبعث إليه بصرّةٍ مختومةٍ فيها مائة دينار، فظنّ أنها دراهمُ فردّها إليه وكتب معها: [من الطويل]

فليت الذي جادت به كفُّ مالكٍ ... ومالكَ مدسوسان في اُستِ أُمِّ مالكِ

وكان إلى يوم القيامة في اُستها ... فأيسرُ مفقودٍ وأيسر هالكِ

وكان مالكٌ يومئذ أميرًا على الأهواز(٥)، فلما قرأ الرقعة أمر بإحضاره فأُحْضِر وقال: ما هذا؟ ظلمتَنا واعتديتَ علينا. فقال: قدّرتُ عندك ألفَ درهم فوصلتني بمائة درهم. فقال: افتحْها؛ ففتحها فإذا فيها مائة دينار؛ فقال: أقِلْني أيها الأمير. فقال: قد أقلتك ولك كلُّ ما تحبُّ أبدًا ما بقيت وقصدتني.

قال: وكان له جار طبيبٌ أحمق، فمات فرثاه فقال: [من الخفيف]

قد بكاه بولُ المريض بدمعٍ ... واكفٍ فوق مقلتيه ذروفِ(٦)

---

(١) سامراء: مدينة عراقية بناها الخليفة المعتصم ونقل إليها العاصمة من بغداد.
(٢) المعلّل: من يبيّن علة الشيء ويثبته بالدليل. (٣) النجح: النجاح والظفر.
(٤) مالك بن طوق: هو مالك بن طوق التغلبيّ، أحد الولاة العباسيّين، بنى مدينة الرّحبة على الفرات في عهد المأمون، مات سنة ٨٧٣ م.
(٥) الأهواز: مدينة في جنوب غربي إيران على نهر كارون، وهي عاصمة خوزستان.
(٦) الواكف: السائل بغزارة، ومثله الذروف.

ثم شقّت جيوبَهنّ[١] القواريـ ـرُ[٢] عليه ونُحْنَ نَوْحَ اللّهيف[٣]
يا كسادَ الخيار شنبَر والأقـ ـراص طرًّا ويا كساد السَّفُوفِ[٤]
كنت تمشي مع القويّ فإن جا ء ضعيفٌ لم تكترث بالضعيفِ
لهفُ نفسي على صنوف رقاعا تِ[٥] تولّت منه وعقلٌ سخيف

وقال أبو الشبل: كان خالد بنُ يزيد بنِ هُبَيْرة يشربُ النبيذَ، وكان يغشانا، وكانت له جاريةٌ صفراءُ مغنية يقال لها لَهَب، كانت تغشانا معه، وكنت أعبث بها كثيرًا؛ فقام مولاها يومًا إلى الخابية يستقي نبيذًا، فإذا قميصه قد انشقّ، فقلت فيه: [من البسيط]

قالت له لَهَبٌ يومًا وجاد لها بالشِّعر في باب فعلانٍ ومفعولِ
أمّا القميصُ فقد أزرى الزمانُ به[٦] فليت شعرِيَ ما حالُ السراويل[٧]

قال أبو الشبل: وكانت أمّ خالد هذه ضرّاطةً تضرطُ على صوتِ العيدانِ وغيرها في الإيقاع؛ فقلت فيه: [من المنسرح]

في الحيّ مَنْ لا عدِمت خِلّتهُ فتى إذا ما قطعتُه وَصَلا
له عجوزٌ بالحِبْقِ[٨] أبصر من أبصرتُه ضاربًا ومرتجلا
نادمتُه[٩] مرّة وكنتُ فتى ما زلت أهوى وأشتهي الغزلا
حتى إذا ما أمالها سَكَرٌ يبعث في قلبها لها مثلا
اتّكأتْ يَسرة وقد خرفت أشراجها[١٠] كي تقوّم الرَّمَلا
فلم تزل إستها تطارحني اِسمعْ إلى من يسومني العِللا

وقال محمد بن المرزبان[١١]: كنت أرى أبا الشبل كثيرًا عند أبي، وكان إذا

(١) جيوبهنّ: أعلى ثيابهنّ.
(٢) القوارير: جمع قارورة، وهي الباطيّة من زجاج وغيره.
(٣) اللهيف: الملهوف الحزين.
(٤) السفوف: ضرب من الحلواء.
(٥) الرقاعات: الأوراق المكتوبة.
(٦) أزرى الزمان به: جارَ عليه.
(٧) السراويل: جمع سروال، وهو البنطال.
(٨) الحبق: الضّراط.
(٩) نادمته: كنت نديمًا له وصديقًا في الشراب.
(١٠) الأشراج، جمع شرج، وهو في الإست.
(١١) هو أبو عبد الله محمد بن خلف بن المرزبان، الحافظ وصاحب الأخبار والأشعار والملح، له من الكتب «الحلوى في علوم القرآن» و«أخبار أبي قيس الرقيات» و«المتيّمون والمعصومون»=

حضر أضحكَ الثكلى[١] بنوادره. فقال له أبي يومًا: حدّثنا ببعض نوادرك وطرائفك. قال: نعم، من طرائف أموري أن ابني زنى بجارية سِنديّةٍ[٢] لبعض جيراني، فحبلت وولدت؛ وكانت قيمةُ الجاريةِ عشرين دينارًا. فقال: يا أبتِ، الصبيُّ والله ابني، فساومتُ فيه فقيل لي: خمسون دينارًا. فقلت له: ويلك! كنت تخبرني وهي حبلى فأشتريها بعشرين دينارًا ونربح الفضل بين الثمنين! وأمسكت عن المساومة بالصبي حتى اشتريته من القوم بما أرادوا. ثم أحبلُها ثانيًا فولدت ابنًا آخرَ، فجاء يسألُني أن أبتاعَه؛ فقلت: عليكَ لعنةُ اللهِ، أيُّ شيءٍ حملَك على أن تُحْبِلَ هذه، هلّا عزلتَ عنها! فقال: إني لا أستحلُّ العزل. ثم أقبل على جماعة عندي فجعل يقول: شيخ كبير يأمُرُني بالعزل ويستحلُّه، فقلت له: يا ابنَ الزانية! تستحلّ الزنى وتتحرّجُ من العزل! فضحكنا منه.

ذكر شيء من نوادر حمزة بن بَيْض الحنفي

كان شاعرًا من شعراء الدولة الأمويّة، وهو كوفيّ خليعٌ ماجن. وكان منقطعًا إلى المهلّب بن أبي صُفْرة وولَدِهِ، ثم إلى أبَان بنِ الوليدِ وبلال بن أبي بُرْدة[٣]، واكتسبَ بالشعر من هؤلاء مالًا عظيمًا، يقال: إنه أخذ بالشعر من مال وشاءٍ[٤] ورقيق[٥] وحُمْلان وغير ذلك ألفَ ألفِ درهم، وله نوادر، منها ما حكاه أبو الفرج الأصفهانيّ عنه:

أنه كان يسامرُ عبد الملك بنَ بشرِ بن مروان[٦]، وكان عبدُ الملك يَعبَثُ به عبثًا شديدًا؛ فوجّه إليه ليلةً برسول وقال: خذه على أيّ حالة وجدتَه، وأحلَفَه وغلَّظ

= و«الشراب» و«الجلساء والندماء» و«الهدايا» و«الروض» و«الشتاء والصّيف» و«السودان والبيضان». انظر: الفهرست، ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(١) الثكلى: من فقدت ولدها.

(٢) سندية: منسوبة إلى السّند، في باكستان اليوم، وفي الجنوب الشرقي من إيران.

(٣) بلال بن أبي بردة: أول من أظهر الجور من القضاة في الحكم، كان أمير البصر وقاضيها، عاصر عددًا من الخلفاء الأمويّين، ولما وفد على عمر بن عبد العزيز أنّبه على جوره فلزم سارية من المسجد وجعل يصلّي ويديم الصلاة مستغفرًا ربّه. انظر: الكامل في اللغة والأدب، للمبرّد ١/٢٦٨، مكتبة المعارف، بيروت.

(٤) الشاء، والواحدة منها الشاة، وهي الواحدة من الضأن والمعز والبقر وحمر الوحش والنعام والظباء.

(٥) الرقيق: المملوك، والدقيق أيضًا: جمع رقاقة، وهو الخبز المنبسط.

(٦) هو عبد الله بن بشر بن مروان بن الحكم، أحد ولاة بني أميّة المشهورين.

عليه الأيمان على ذلك؛ فمضى الرسولُ فهجَم عليه فوجده يريدُ أن يدخلَ الخلاء[١]؛ فقال له: أجِب الأمير. فقال: ويحك! إني أكلت طعامًا كثيرًا وشربت نبيذًا حُلْوًا وأخذني بطني. فقال: والله ما تفارقني أوْ أمضيَ بك إليه ولو سلحتَ في ثيابك. فجهد في الخلاص فلم يَقْدِرْ عليه، ومضى به، فوجده قاعدًا في طارمة[٢] له وجاريةٌ جميلةٌ جالسة بين يديه، وكان يتحظّاها[٣]، تسجر النَدَّ[٤]، فجلس حمزةُ يحادثه وهو يعالجُ ما هو فيه. قال حمزة: فعَرضتْ لي ريح، فقلت: أُسَرِّحها وأستريحُ لعل ريحَها لا يظهرُ مع هذا النَدِّ، فأطلقتها، فغلبت واللهِ ريحَ البخور وغَمرته. فقال: ما هذا يا حمزة؟ فقلت: عليّ عهدُ اللهِ وميثاقُه وعليّ المَشْيُ والهَدْيُ[٥] إن كنتُ فعلتُها! وما هذا إلّا عملُ هذه الجاريةُ الفاجرة، فغضِب، وخَجلت الجاريةُ فما قَدَرتْ على الكلام. ثم جاءتني أُخرى فسرّحتها، فسَطَع واللهِ ريحُها. فقال: ما هذا؟ ويلك! أنت والله الآفة. فقلت: امرأتي طالق ثلاثًا إن كنتُ فعلتها. فقال: وهذه اليمينُ لازمةٌ إن كنتُ فعلتها، وما هو إلا عمل هذه الجارية؛ وقال لها: ما قصّتكِ؟ ويلكِ! قُومي إلى الخلاء إن كنت تجدين شيئًا. فزاد خَجَلُها، وطمِعتُ فيها فسرّحتُ الثالثةَ فسطعَ من ريحها ما لم يكن في الحساب. فغضِب عبد الملك حتى كاد يخرجُ من جِلْدِهِ؛ ثم قال: يا حمزة، خذ بيد الزانية فقد وهبتُها لك وأمضِ، فقد نغّصت عليّ ليلتي. فأخذتُ بيدها وخرجتُ. فلقِيني خادمٌ له فقال: ما تريدُ أن تصنعَ؟ فقلت له: أمضي بهذه الجارية. فقال: لا تفعلْ، فوالله لئن فعلتَ لَيُبْغِضنّك بغضًا لا تنتفعُ به بعده أبدًا، وهذه مائتا دينارٍ خذْها ودعْ هذه الجاريةَ فإنّه يتحظّاها، وسيندَمُ على هبتِهِ إيّاها لك. فأبيتُ إلا بخمسمائة دينار. فقال: ليس غير ما ذكرت لك، فأخذتها وتركت الجارية، فلما كان بعد ثلاثٍ دعاني عبدُ الملك، فلما قُربتُ من دارِهِ لقيني الخادمُ وقال لي: هل لك في مائةٍ أخرى وتقول مالا يضرُّك ولعلّه ينفعُك؟ قلت: وما ذاك؟ قال: إذا دخلتَ فادَّعِ الفَسَواتِ الثلاثَ وانسُبْها إلى نفسِك وانضَحْ[٦] عن الجاريةِ ما قَرَفتَها[٧] به. فأخذتُها ودخلتُ على عبد الملك، فلما وقفتُ بين يديه قلت له: الأمانَ حتى أُخبرَك بخبرٍ يسرُّك

(١) الخلاء: الفضاء من الأرض الخالي من السكان، وهنا كناية عن المِرحاض.

(٢) الطارمة: قبّة تصنع من الخشب. (٣) يتحظّاها: يتخذها محظّية، أي جارية.

(٤) الندّ: ضرب من النبات يتبخّر بعوده، وتسجر: توقد وتحرق.

(٥) الهدي: ما يذبح صبيحة العيد الأضحى من شاءٍ أو أنعامٍ. والهدي، ما يذبح أيضًا كفدية أو برًا بقسم ووفاء لنذر.

(٦) انضح: انزع واسلخ. (٧) قرفتها به: اتّهمتها به.

ويُضحكُك. قال: لك الأمان. فقلت: أرأيتَ ليلة كذا وكذا وما جرى؟ قال: نعم. قلت: فعليّ وعليّ إن كان فسا تلك الفَسَوات غيري. فضحِك حتى سقَطَ على قفاه، وقال: ويلك! فلِمَ لَمْ تخبرني؟ قال: فقلت: أردت بذلك خصالاً، منها أني قمتُ فقضيتُ حاجتي وقد كان رسولُكَ منعني من ذلك، ومنها أني أخذتُ جاريتَك، ومنها أني كافأتك على أذاك لي بمثله. قال: وأين الجارية؟ قلت: ما بَرِحَتْ من دارك ولا خرجَتْ حتى سلّمتها إلى فلان الخادم وأخذتُ مائتي دينار. فسُرَّ بذلك وأمر لي بمائتي دينار أخرى، وقال: هذه لجميلِ فعلِك فيَّ وتَرْكِكَ أخذ الجارية. قال حمزة: ودخلتُ إليه يومًا وكان له غلامٌ لم يَرَ الناسُ أنتنَ إبطًا منه، فقال لي: يا حمزةُ، سابِقْ غلامي هذا حتى يفوح صُنَانكما[1]، فأيّكما كان صُنانه أنتنَ فله مائة دينار. فطمِعتُ في المائة ويئستُ منها لما أعلمه من نَتْن إبط الغلام؛ فقلت: أفعل. وتعادينا ساعةً فسبقَني، فسلَحتُ في يدي ثم طليت إبطي بالسُّلاح؛ وقد كان عبد الملك جعل بيننا حكمًا، فلمّا دنا الغلامُ منه وشمّه وثب وقال: هذا والله لا يُشاكلُه شيء، فصِحْتُ به: لا تعجَلْ عليّ بالحكم، مكانك! ثم دنوتُ منه فألقمتُ أنفَه إبطي حتى علمت أنه قد خالط دماغَه وأنا ممسك رأسه تحت يدي؛ فصاح: الموتُ والله! هذا بالكُنُفِ[2] أشبهُ منه بالإبط. فضحِك عبدُ الملك ثم قال: أفحكمت له؟ قال: نعم، فأخذت الدنانير. قال: ودخلت يومًا على سليمانَ بن عبد الملك[3]، فلما مَثَلت بين يديه قلت: [من الوافر]

رأيتُك في المنام شتَنت[4] خزًّا[5] … عليّ بَنَفْسَجًا وقضيتَ دَيْني
فصدِّقْ يا فدتك النفسُ رؤيا … رأتها في المنام لديك عيني

قال سليمان: يا غلامُ، أدخِلْه خِزانةَ الكُسْوة واشتُنْ عليه كلَّ ثوب خزٍّ بنسفجيٍّ، فخرجتُ كأني مِشْجب[6]. ثم قال: كم دَيْنُك؟ قلت: عشرة آلاف؛ فأمر لي بها وما أعلم والله أنّي رأيت من ذلك شيئًا.

---

(١) الصنان: الريح الكريهة.
(٢) الكنف: جمع كنيف، وهو بيت الخلاء والمرحاض.
(٣) سليمان بن عبد الملك: هو الخليفة الأموي السابع، أسس مدينة الرملة بفلسطين، حاصر القسطنطينية، ولم يقوَ على فتحها. توفي في دابق سنة ٩٩ هـ/ ٧١٧ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/ ٦٩.
(٤) شتنت: نسجت ووضعت.
(٥) الخز: ضرب من الحرير.
(٦) المشجب: العمود الذي تعلّق عليه الثياب.

ذكر شيء من نوادر أبي العيناء عفا الله عنه

هو محمدُ بنُ القاسمِ بن خلّادِ بنِ ياسرِ بن سليمانَ، من بني حنيفةَ أهلِ اليمامة. وأُسِر ياسرٌ في سِبإٍ في خلافةِ المنصور، فلما صار في يد المنصور أعتقه؛ فهم موالي بني هاشم. وكان أبو العيناء ضريرَ البصر، يقال: إنّ جدّه الأكبر لقي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فأساء مخاطبته فدعا عليه وعلى ولده بالعمى؛ فكلّ من عَمِي منهم فهو صحيح النسب، وهو ممن اشتهر بالمجون، وله نوادر وحكايات مستظرفة، ومراسلات عجيبة، سأورد منها طَرَفًا، وأُسَطِّر طُرَفًا، فمن ذلك: أنّ بعض الرؤساء قال له: يا أبا العيناء، لو مُتَّ لرقصَ الناسُ طَرَبًا وسرورًا. فقال بديهةً[1]: [من الوافر]

أردتَ مَذَمّتي[2] فأجدتَ مَدْحِي ... بحمد الله ذلك لا بِحَمْدِكْ

فلا تكُ واثقًا أبدًا بعَمْدٍ ... فقد يأتي القضاءُ بغير عَمْدِكْ[3]

ثم قال: أجل! الناس قد ذهبوا، فلو رآني الموتى لطربوا لدخولِ مثلي عليهم، وحلولِ عقلي لديهم، ووصول فضلي إليهم؛ فما زال الموتى يغبِطونكم ويرحمونني بكم.

وقال: واتّصلت أشغالُ أبي الصَّقْر الوزير، فتأخّر توقيعُه عن أبي العيناء برسومه، فكتب إليه: رقعتي، أطال الله بقاء الوزير، رقعة مَنْ عَلِمَ شُغْلَك فاطَّرَحَ عَذْلَك؛ وحقّقَ أمرك فَبَسَط عُذْرَك. أمّا والليلِ إذا عسعسَ[4]، فالبنان لبنات الدِّنان[5]، ومُلامسات الحِسان؛ وأمّا والصبح إذا تنفّس، فالبنان للعِنان، ومؤامرات السلطان؛ فمَنْ أبو العيناء القرنان[6]! فوقّع أبو الصَّقْر تحتَ سطوره: لكل طعام مكان، ولكل مُعْوِزٍ إمكانٌ؛ وقد وقّعنا لك بالرسوم، وجعلنا لك حظًّا من المقسوم؛ وكَفَينا أنفسَنا عُذْرَك الذي هو تعزير[7]، ولسانك الذي هو تحذير. والسلام.

---

(١) بديهة: ارتجالًا.

(٢) مذمّتي: إظهار عيبي ونقصي.

(٣) عمدك: قصدك.

(٤) عسعس: أقبل بظلامه، وفي القرآن الكريم نجد الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ [التكوير: الآية ١٧].

(٥) الدنان: جمع دنّ، وهو خابية الخمرة وجرّتها.

(٦) القرنان: الذي لا نخوة عنده ولا غيرة.

(٧) التعزير: اللوم والتأديب والعقوبة. ويأتي بمعنى: التعظيم، فهو من التضادّ.

ثم لقيه أبو العيناء في صدر موكبِهِ فقال: طاعةُ شِيَمك لسلطان كَرَمك، ألزمتك الصبر على ذنوبي إليك، وتَجَنّي خُلُقي عليك. فقال أبو الصقر: كبير حَسناتك، يستغرق يسير سيّئاتك، فدعا له وانصرف شاكرًا. قال: وبسط أبو العيناء لسانَه على أهله في بعض الدواوين. فقال له فتى من أبناء الكتّاب كانت فيه جرأة: كلّ الناس لك يا أبا العيناء زوجة، وأنت زوجة أبي عليّ البصير. فقال له أبو العيناء: قد ملكنا عِصْمتك بيقين فَحْواك، ثم ننظر في شكوك دَعواك، وقد طلّقت الناس كلهم سواك؛ ذلك أدنى ألّا نعول[١]، وفيك ما يروي الفحول، ويتجاوز السول. قال: ففضحه بهذا الكلام، فلم يُجبه. قال: وكان في بني الجراح فتى خليع ماجن فأراد العبث بأبي العيناء، فنهاه نصحاؤه فأبى؛ فقالوا: شأنك. فقال له: يا أبا العيناء، متي أسلمتَ؟ فقال: حين آمن أهلُك وأبوك الذين لم يؤدّبوك. فقال له الفتى: إذًا قد علمتُ أنك ما أسلمت. فقال أبو العيناء: شهادتُك لأهلك دعوى، وشهادتي عليهم بلوى، وستري أيَّ السلطانين أقوى، وأيّ الشيطانين أغوى؛ وسيعلم أهلُك، ما جنى عليهم جهلُك. قال: فأتاه أبوه فتبرّأ من ذِمّته، ودفعه إليه برُمّته. فقال له أبو العيناء: قد وهبتُ جورَه لعَذْلِك، وتصدّقتُ بحُمقه على عقلك.

ومن أخبار أبي العيناء أيضًا: أنّ محمدَ بنَ عبيدِ اللهِ بنِ خاقانَ[٢] حمله على برذون[٣] زعم أنه غير فاره[٤]، فكتب إلى أبيه: أَعلِم الوزير أعزّه الله تعالى أنّ أبا عليّ محمّدًا أراد أن يبرّني فعقّني، وأن يُرْكِبني فأرجلني! أمر لي بدابّة تقف للنبرة، وتعثِرُ بالبعرة، كالقضيب اليابس عَجفًا[٥]، وكالعاشق المجهود دَنَفًا[٦]؛ يساعد أعلاه لأسفله، حُباقه[٧] مقرون بسُعَاله؛ فلو أمسكَ لترجّيت، أو أفرَد لتعزّيت؛ ولكنه يجمعهما في الطريق المعمور، والمجلس المشهور، كأنه خطيبٌ مُرْشِد، أو شاعر مُنْشِد؛ تضحك من فعله النسوانُ، ويتناغى من فعله الصبيانُ؛ فمن صائحٍ يصيحُ: داوِه بالطباشير، ومن قائل يقول: نقِّ له من الشعير. قد حفظ الأشعار، وروى

(١) نعول: نفتقر.

(٢) هو وزير المقتدر، الخليفة العباسي، أساء التدبير فعُزل، وهو أحد الوزراء الخاقانيين الثلاثة: عبد الله وزير المتوكّل والمعتمد، وهو، أي محمد، وابنه عبد الله، وكان وزيرًا للمقتدر. مات محمد سنة ٩٢٤ م. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢/ ١٤٧.

(٣) البرذون: البغلة.

(٤) الفاره: الخفيف النشيط والحسن الشكل.

(٥) عجفًا: ضعفًا وهزالًا.

(٦) دنفًا: اشتداد مرض وإشراف على الموت من شدّة العشق.

(٧) حباقه: ضراطه.

الأخبار، ولحق العلماء في الأمصار؛ فلو أُعِين بنطق، لروى بحقٍّ وصدق، عن جابر الجُعْفيّ، وعامر الشَّعْبيّ[1]، وإنما أُتِيتُ من كاتبه الأعور، الذي إذا اختار لنفسه أطابَ وأكثر، وإذا اختارَ لغيره أخبثَ وأنزر؛ فإن رأى الوزير أن يُبدلني ويريحني بمركوب يضحكني كما يُضحَك مني، يمحو بحسنه وفراهته[2]، ما سطّره العيبُ بقُبحه ودَمامته، ولست أردّ كرامَهْ، سرجَه ولجامَهْ؛ لأن الوزير أكرمُ من أن يسلب ما يُهديه، أو ينقض ما يمضيه. فوجّه إليه عبيد الله برذونًا من براذينه بسَرْجه ولجامه. ثم اجتمع محمد بنُ عبيدِ اللهِ عند أبيه. فقال عبيدُ اللهِ لأبي العيناء: شكوتَ دابّةَ محمدٍ، وقد أخبرني إنه ليشتريه منك الآن بمائةِ دينار، وما هذا ثمنُه فلا يُشْتَكى. فقال: أعزّ الله الوزيرَ لو لم أكذبْ مستزيدًا، لم أنصرفْ مستفيدًا. وإني وإياه لكما قالت امرأة العزيز[3]: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ[4] ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [يوسف: الآية ٥١]، فضحك عبيدُ الله وقال: حُجّتُك الداحضة[5]، بملاحتك وظَرْفِك أبلغُ من حجّة غيرِك البالغة. ودخل أبو العيناء على أبي الصَّقْر وكان قد تأخّر عنه، فقال: ما أخّرك عنّا؟ قال: سُرِق حماري. قال: وكيف سُرِق؟ قال: لم أكن مع اللصّ فأُخبرك. قال: فلِمَ لَمْ تأتِ على غيره؟ قال: أبعدني عن الشراء قلّةُ يساري[6]، وكرِهت ذِلَّة المُكاري[7]، ومِنّة العواري[8]. قال: وصار يومًا إلى باب صاعدِ بنِ مَخْلد[9]، فقيل له: هو مشغول يصلّي؛ فقال: لكلّ جديد لذّةٌ. وكان صاعدٌ نَصْرانيًا قبل الوزارة، وقال له صاعد يومًا: ما الذي أخّرك عنّا؟ قال: بنتي. قال: وكيف؟ قال: قالت لي: يا أبتِ، قد كنتَ تغدو من عندِنا فتأتي

---

(١) الشعبي: هو عامر بن شراحيل الشعبي، أحد الرواة والتابعين، محدّث حافظ ثقة. عاش في الكوفة. اتّصل بعبد الملك بن مروان فقرّبه وجعله نديمه ورسوله إلى ملك الروم. مات سنة ١٠٣ هـ/ ٧٢١ م.

(٢) فراهته: حسنه وخفّته وشطارته.

(٣) هي راعيل زوجة عزيز مصر وحاكمها، واسمها راعيل، ولقبها زليخا.

(٤) حصحص: ظهر وانجلى.

(٥) الحجة الداحضة: الحجّة الباطلة.

(٦) يساري: ثروتي وغناي.

(٧) المكاري: مكري الدوابّ الذي يؤجّرها أو يسوقها، ويغلب على الحمّار والبغّال.

(٨) العواري: جمع عارية، وهي ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك.

(٩) صاعد بن مخلد: وزير المعتمد بعد عبيد الله بن يحيى بن خاقان، والحسن بن مخلد، وسليمان بن وهب. ثمّ استوزره الموفق ووجهه إلى حرب يعقوب الصفار، فلما صار إلى بلاد فارس اشتدّ سلطانه وتجبّر، فأشخصه الموفق إلى واسط، وقبض عليه وعلى أخيه عبدون النصراني ومات في السجن سنة ٢٧٧ هـ. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣٢٠.

بالخِلْعة السَّرِيّة[١]، والجائزة السنيَّة، ثم أنت الآن تغدو مُسْدِفًا[٢]، وترجع مُعْتِمًا[٣]، فإلى من؟ قلت: إلى أبي العلاء ذي الدرايتين. قالت: أيُعطيك؟ قلت: لا. قالت: أفيشفِّعك؟ قلت: لا. قالت: أيرفعُ مجلسَك؟ قلت: لا. قالت: يا أبتِ لِم تَعْبُدُ ما لا يسمع ولا يُبصرُ ولا يُغني عنك شيئًا!

وقال له رجل من بني هاشم: بلغني أنك بغّاء[٤]، قال: ولم أنكرت ذلك مع قول رسول الله ﷺ: «مولى القوم منهم»، قال: إنك دعيّ[٥] فينا. قال: بِبغائي صحّحَ نسبي فيكم. وسأل أبو العيناء الجاحظَ كتابًا إلى محمد بن عبد الملك[٦] في شفاعةٍ لصاحبٍ له؛ فكتب الكتاب وناوله الرجل، فعاد به إلى أبي العيناء، وقال: قد أسعف. قال: فهل قرأته؟ قال: لا، لأنه مختوم. قال: ويحك! فُضّه[٧] لا يكون صحيفةَ المتلمّس[٨]، ففضّه فإذا فيه: مُوَصِّل كتابي سألني فيه أبوالعيناء، وقد عرفتَ سفهَه[٩] وبذاءَ[١٠] لسانِه، وما أراه لمعروفك أهلًا، فإن أحسنتَ إليه فلا تحسبه عليّ يدًا، وإن لم تحسن إليه لم أعُدّه عليك ذنبًا، والسلام. فركب أبو العيناء إلى الجاحظ وقال له: قد قرأتُ الكتاب يا أبا عثمان، فخجِل الجاحظ وقال: يا أبا العيناء، هذه علامتي فيمن أعتني به. قال: فإذا بلغك أن صاحبي قد شتمك فاعلم أنها علامته فيمن شكر معروفه. وقال أبو العيناء: مررتُ يومًا بدرب بسامَرّاء؛ فقال لي غلامي: يا مولاي، في الدرب حَمَلٌ سمينٌ والدربُ خالٍ، فأمرته أن يأخذَه وغطّيته بطيلَساني[١١] وصرتُ به إلى منزلي؛ فلما كان من الغد جاءتني رُقعة من بعض رؤساء ذلك الدرب مكتوب فيها: جُعلت فداك، ضاع لنا بالأمس حَمَل، فأخبرني صبيان دَرْبنا أنك أنت سَرَقتَه، فأْمُرْ بردِّه متفضّلًا. قال أبو العيناء: فكتبت إليه: أي سبحان الله! ما أعجبَ هذا الأمر! مشايخ دَرْبنا يزعمون أنك بَغّاء وأُكذّبهم

---

(١) الخلعة السريّة: الخلعة، ما تخلعه من الثياب ونحوها. والسرية: الثمينة.
(٢) مسدفًا: مظلمًا، في السدفة. (٣) معتمًا: في العتمة.
(٤) بغّاء: فاجر. (٥) دعيّ: من لا نسب له صريحًا.
(٦) هو محمد بن عبد الملك بن الزيات، وزير المعتصم والواثق العباسيَّيْن. عمل ضدّ المتوكل فانتقم منه، وأماته في السجن سنة ٨٤٧ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٨ هـ.
(٧) فضّه: افتحه.
(٨) المتلمّس: شاعر جاهلي من البحرين، والمتلمّس لقب له. واسمه جرير بن عبد المسيح، خال طرفة بن العبد، له ديوان شعر، رواه الأصمعي.
(٩) السفه: الخفّة والطيش. (١٠) البذاء: الفحش.
(١١) الطيلسان: الثوب أو الوشاح يلبس على الكتف، أو يحيط بالبدن، وهو غير مفصّل أو مخيط.

ولا أُصدّقهم، وتُصدّقُ أنت صبيانَ دربكم أني سرقت الحمل! قال: فسكت وما عاودني. ولأبي العيناء أخبار كثيرة وحكايات مشهورة قد أوردنا فيها ما يدخل في هذا الباب وتركنا ما سواه.

ذكر ما ورد في كَراهة المَزْح

رُوي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «مَنْ مَزَح استُخِفَّ به»، وقال حكيم: خير المزاح لا يُنال، وشرُّه لا يُقال؛ سكراتُ الموتِ به مُحدِقة، وعيونُ الآجال إليه محدِّقة. وقال آخر: تجنّب شؤمَ الهزل ونكدَ المزاح؛ فإنّهما بابان إذا فُتحا لم يُغْلَقا إلا بعد عسر، وفحلان إذا لَقَحا[1] لم ينتجا غير ضُرّ. وقالوا: المُزاح يضع قدر الشريف، ويُذهب هيبةَ الجليل. وقالوا: لا تقل ما يسوءك عاجله، ويضرّك آجله. وقالوا: إيّاك وما يُسْتقبَح من الكلام، فإنه يُنَفّر عنك الكرام، ويُجَسِّر[2] عليك اللّئام. وقال عمر بن عبد العزيز[3]: اتّقوا المزاح، فإنها حَمْقة[4] تورث ضغينة[5]. وقال حكيم لابنه: يا بنيّ، إيّاك والمزاح؛ فإنه يذهب ببهاء الوجه ويحِطّ من المروءة[6].

قال شاعر: [من الكامل]

إكْـرَهْ لـنـفـسِـك مـا لِغَـيْـرِكَ تـكـرَهُ ... وافـعـلْ لـنـفـسِـك فـعـلَ مَـنْ يـتـنـزَّهُ
وارفَع بصمْتِكَ عَنْكَ سُبّاتِ الوَرى[7] ... خـوفَ الـجـواب فـإنّـه بِـكَ أشْـبَـهُ
ودَعِ الـفـكـاهـةَ بـالـمـزاحِ فـإنـهـا ... تُودي[8] وتُسقِطُ مَنْ بها يتفكّهُ[9]

وقيل: [من الطويل]

ألَا رُبَّ قولٍ قد جرى مِنْ مُمازحٍ ... فساقَ إليه الموتَ في طَرَف الحبْل
فإنّ مزاحَ المَرْءِ في غير حينه ... دليلٌ على فَرْطِ الحَماقَةِ والجَهْل

---

(١) لقحا: أصل الذكر منهما الأنثى. (٢) يجسّر: يجرّئ.
(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان، الخليفة الأموي الثامن. اهتمّ بالإصلاح، وعرف عنه العدل. مات سنة ١٠١ هـ/ ٧٢٠ م. انظر: شذرات الذهب ١/١١٩.
(٤) الحمقة: المرّة من حمق وحمقت إذا قلّ أو فسد رأيها.
(٥) الضغينة: الحقد.
(٦) المروءة: آداب نفسيّة تحمل المرء على اتّباع محاسن الأخلاق والعادات.
(٧) الورى: الخلق والناس. (٨) تودي: تسقط.
(٩) يتفكّه: يتخذها فاكهة وفكاهة وتسلية.

وقيل: [من الطويل]

فـــإيـــاكَ إيّـــاكَ الـــمَـــزَاحَ فـــإنّـــه
يُجَرِّي[١] عليك الطفلَ والرجُلَ والنَّذْلَا[٢]
ويُـــذْهِـــبُ مـــاءَ الـــوَجْـــهِ بـــعـــد بـــهـــائِه
ويـــورثُ بـــعـــد الـــعِـــزّ صـــاحـــبَـــه ذُلّا

وقال بعضُ البلغاء: المزاح خَرَف، والاقتصاد فيه ظَرْف، والإفراط فيه ندامة. وقالوا: من كَثُر مزحُه لم يسلمْ من استخفافٍ به أو حقدٍ عليه. ويقال: أكثرُ أسباب القطيعةِ المزاح، وإن كان لا غنى للنفس عنه للجَمام[٣]، فليكن بمقدار الملح في الطعام. قال أبو الفتح البستيّ[٤] رحمه الله: [من الطويل]

أفِدْ طبعَك المكدودَ[٥] بالهمّ راحةً تُراحُ وعَلّله[٦] بشيءٍ مِنَ المَزْحِ
ولكن إذا أعطيته المزحَ فليكن بمقدار ما يُعطَى الطعامُ مِنَ المِلْحِ

وقيل: [من الكامل]

إمزَحْ بِمِقدار الطَّلاقةِ[٧] واجتنِبْ مزحًا تُضاف به إلى سوْء الأَدَبْ
لا تُغضبنَّ أخًا إذا مازحتَه إن المزاحَ على مقدّمةِ الغضَبْ

وقيل: [من الكامل]

مازِحْ صديقك ما أحبَّ مزاحًا وتَوَقَّ منه في المَزاحِ جِماحًا[٨]
فلربما مَزَح الصديقُ بِمَزْحةٍ كانت لِبِدْء عداوةٍ مِفْتَاحا

وقال سعيد بن العاص[٩] لولده: يا بنيّ، اقتصد في مزحك؛ فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويُجرِّىء السفهاء. ويقال: المزاح أوّله فَرَح، وآخره

---

(١) يجرّي: أصلها يجرّىء. (٢) النذل: الحقير.
(٣) الجمام: الراحة.
(٤) أبو الفتح البستي: هو أبو الفتح علي البستي، من مدينة بُسْت الفارسية، أديب وشاعر. أشهر شعره نونيته المعروفة بعنوان «الحكم». مات سنة ١٠١٠ م.
(٥) المكدود: المتعب. (٦) علّله: اسقه سقيًا بعد سقي.
(٧) الطلاقة: الهشاشة والبشاشة والابتسام. (٨) الجماح: تجاوز الحدّ في الغضب.
(٩) سعيد بن العاص: صحابي من الأمراء والولاة الفاتحين، ولّاه عثمان الكوفة ثم المدينة. ولي طبرستان. مات سنة ٥٩ هـ/ ٦٧٩ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٥٩.

تَرَح[١]. قال أبو العتاهية[٢]: [من الكامل]

وترى الفتى يَلْقَى أخاه وخِدْنَه[٣] في بعض مَنطقِهِ بما لا يُغْفَرُ
ويقول كنتُ مُلاعبًا وممازحًا هيهاتَ! نارُك في الحشا تتسعّرُ
ألقيتَها وطَفِقت[٤] تضحك لاهيًا وفؤاده مما به يتفطّر[٥]
أوَ ما علمتَ ومِثلُ جَهْلكَ غالبٌ أنّ المُزَاحَ هو السِّبابُ الأكبرُ

فهذه نبذة مما قيل في الفكاهات والمجون، يفرح لها قلب المحزون، وتزول عنه الشجون[٦]، فلنذكر ما قيل مما يناسب هذا الباب من أشعار المزّاحين.

ذِكْر شيء من الشعر المناسب لهذا الباب والداخِل فيه

وسنورد في هذا الفصل من أشعار هذا الفن، ما رَفَلت[٧] معانيه في حُلَل[٨] أنفاسها على صفحات أطراسها[٩]، وأُهِلت مغانيه[١٠] بما أودعه لسانُ القلم صدرَ قرطاسها من بديع إيناسها. يُضحك سامعَه وإن كان ثَكِلًا[١١]، ويستوفيه وإن كان عَجِلًا. هذا مع ما فيه من فُحْشِ القول الذي إذا تأمّلته في موضعه كان أزين من عقود اللآلي، وإن لمحتَه في غيره كان أقفرَ من ظُلَم الليالي. نسأل الله المسامحةَ لكاتبه وقائله، ومستمعه وناقله؛ فمن ذلك ما كتب به ابن حجّاج[١٢] لمن شرب دواء: [من الخفيف]

يا أبا أحمد بنفسِيَ أفْدِيـ ـكَ وأهْلي مِنْ سائرِ الأسْواءِ

---

(١) الترح: بخلاف الفرح، وهو الحزن والشقاء.
(٢) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن القاسم، الشاعر العباسي المشهور. نشأ بالكوفة، وكني بأبي العتاهية لميله إلى التعتّه والمجون، ثم زهد في الدنيا فكان معظم شعره في الزهد. اتّصل بالخليفة المهدي ثم الهادي ثم الرشيد، فنال عنده حظوة كبيرة. مات سنة ٨٢٥ م. انظر: الكامل في اللغة ١/ ٢٦٩، وانظر: الفهرست، ص ٢٢٨.
(٣) الخدن: الصديق.
(٤) طفقت: أخذت.
(٥) يتفطّر: يتشقّق.
(٦) الشجون: الأحزان.
(٧) رفلت: جرّت ذيلها وتبخترت.
(٨) الحلل: الثياب الفاخرة.
(٩) الأطراس: جمع طرس، وهو الصحيفة.
(١٠) أهلت مغانيه: صارت آهلة. والمغاني: المباني.
(١١) الثكل: من فقد ولده.
(١٢) هو أبو الأقرع، أحد صعاليك وفتاك العرب في العهد الأموي، خرج على عبد الملك بن مروان، وصحب عبد الله بن الزبير. ثم عفا عنه عبد الملك. توفي سنة ٧٠٨ م.

كيف كان انحطاطُ جَعْسك[١] في طا ... عـةِ شـرب الـدواء يـوم الـدواءِ
كيـف أمسـي سِبـالُ مَبْعَرك النّذْ ... ل غـريـقًا فـي الـمـرّة الـصفـراء[٢]

وقال الحسن بن هانيء[٣]: [من السريع]

لَلَطـمـةٌ يـلطِـمـنـي أمـرَدٌ[٤] ... تـأخـذ منّي الـعيـن والـفـكّـا
أطـيـبُ مـن تُـفـاحةٍ مـن يَـدَيْ ... ذي لِحـيـةٍ مُـحْـشـوةٍ مـسـكـا

وقال أبو عبد الله محمد بن الحسن الحجاج[٥]: [من المنسرح]

قُومي تنحّيْ فلستِ من شاني ... قُومِي اْذهبي لا يراكِ شيطاني
لا كان دهرٌ عليك حصّنني ... ولا زمانٌ إليكِ ألجاني
قعدتِ تفسين فوق طِنْفستي[٦] ... ما بين راحي[٧] وبين ريحاني
فما عَدِمنا من الكنيف[٨] وقد ... حَضَرتِ إلا بناتِ وَرْدَانِ[٩]

وقال أبو بكر الخوارزمي[١٠]: [من المتقارب]

فسا الشيخ سهوًا وفي كفّه ... شرابٌ فلُمْناه لومًا قبيحا
فقال ليَ الدَّخلُ والخرجُ لي ... فأدخلتُ راحًا وأخرجتُ ريحا

وقال ابن سكّرة الهاشميّ[١١]: [من السريع]

وبات في السطح معي صاحبٌ ... من أكرم الناس ذوي الفضل
أفسو فيفسو فهو لي مُسْعِدٌ ... وإنما أُمْلِي ويَسْتَمْلي

---

(١) الجعس: الخرء.
(٢) المرّة الصفراء: إحدى الطبائع الأربعة وأخلاطها.
(٣) الحسن بن هانيء: هو أبو نواس، الشاعر العباسي المشهور، عرف بمجونه وخلاعته وشربه الخمرة حتى أبعد الحدود، جعله الأمين شاعره، واتصل بالبرامكة. تاب في آخر حياته، مات سنة ٨١٤ م. انظر: الفهرست ص ٢٢٨.
(٤) الأمرد من الفتيان: من لم ينبت الشعر في وجهه بعد.
(٥) هو شاعر بغدادي، اشتهر بالخلاعة والهزل وسخف القول والشعر. مات سنة ١٠٠١ م.
(٦) الطنفسة: البساط.
(٧) الراح: الخمرة.
(٨) الكنيف: المرحاض.
(٩) بنات وردان: الصراصير.
(١٠) هو الشاعر والعالم والنسّابة واللغوي: اتصل بالصاحب بن عباد واستقرّ بنيسابور، له «الرسائل» وديوان شعر. مات سنة ٩٩٣ م.
(١١) ابن سكرة: من الشعراء المحدثين في العصر العباسي، اشتهر بمجونه وعبثه.

الباب الرابع
من القسم الثالث من الفنّ الثاني
في الخمر وتحريمها وآفاتها وجناياتها وأسمائها، وأخبار مَن تنزّه عنها في الجاهلية ومن حُدّ[١] فيها من الأشراف، ومَن اشتهر بها، ولبس ثوبَ الخلاعة بسببها، وما قيل فيها من جيّد الشعر، وما قيل في وصف آلاتها وآنيتها، وما قيل في مبادرة اللذّات، وما وُصفتْ به المجالسُ وما يجري هذا المجرى

ذكر ما قيل في الخمر وتحريمها

أجمع الناسُ على أنّ الخمرَ المحرَّمةَ في كتابِ الله عزّ وجلّ هي المتَّخَذةُ من عصيرِ العِنب بعد أن يَغلي ويقذِف بالزَّبَد من غير أن يمسّها نارٌ. وإذا انقلبت بنفسها وتخلّلت طهُرت من غير أن يُتسبّب في ذلك بشيءٍ يُلقَى فيها. وطهارتها إذا غلبت عليها الحموضةُ وفارقتها النشوة. والخمرُ المتَّخذةُ أيضًا من التمر، لقول النبيّ ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة[٢] رضي الله عنه: «الخمر من هاتين الشجرتين: النخلةِ والعنبةِ». وفي حديثٍ آخر: «من هاتين الشجرتين: الكَرْمةِ والنخلةِ». وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت عمر رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ يقول: «أمّا بعد، أيها الناسُ، إنه نزل تحريمُ الخمر وهي من خمسةٍ، من التمر والعنب والعسل والحنطة والشعير». والخمرُ ما خامرَ العقلَ. ولا خلاف بين أحدٍ من الأئمّة في أن الخمرَ حرامٌ، لما ورد في ذلك من الكتاب والسنّة. أما ما ورد في كتاب الله عزّ وجلّ فأربع آيات، منها ما يقتضي الإباحة، ومنها ما يقتضي الكراهة والتحريم، فأوّل ما نزل فيها بمكّة قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: الآية ٦٧]، فكان المسلمون يشربونها يومئذٍ وهي حلالٌ لهم، ثم أنزل الله عزّ وجلّ بالمدينة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ

(١) حدّ فيها: أقيم عليه الحدّ، وهو الجلد بالسّياط.

(٢) أبو هريرة، هو عبد الرحمٰن بن صخر الأزدي، من رواة الحديث المشهورين. توفي في المدينة سنة ٥٩ هـ/ ٦٧٨ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٦٣.

وَٱلْمَيْسِرِ[١] قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٩]؛ نزلت هذه الآية في عمرَ بنِ الخطّاب ومعاذِ بن جبلٍ[٢] ونفرٍ من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أفتِنا في الخمر والميسر فإنهما مَذْهَبَةٌ للعقل مَسْلبةٌ للمال؛ فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية؛ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ ربكم تقدّم في تحريم الخمر»، فتركها قوم للإثم الكبير وقالوا: لا حاجة لنا في شربها ولا في شيء فيه إثمٌ كبير، وشربَها قومٌ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٩]، وكانوا يستمتعون بمنافعها ويتجنّبون مآثمها؛ إلى أن صنع عبد الرحمٰن بن عوف[٣] طعامًا فدعا ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا وحضرت صلاةُ المغرب، فقدّموا بعضَهم ليصلّي بهم؛ فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، إلى آخر السورة بحذف «لا»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النِّساء: الآية ٤٣]، فحرّم السكر في أوقات الصلاة. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّ الله عزّ وجلّ تقاربَ في النهي عن شرب الخمر وما أراه إلّا سيحرّمها، فلما نزلت هذه الآية تركها قومٌ، وقالوا: لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة، وقال قوم: نشربها ونجلس في بيوتنا؛ فكانوا يتركونها وقتَ الصلاةِ ويشربونها في غيرِ حين الصلاة؛ إلى أن شربها رجلٌ من المسلمين، فجعل ينوح على قَتْلَى بَدرٍ[٤] ويقول: [من الوافر]

تُـحـيّـا بـالـسـلامـة أمُّ بـكـرٍ	وهل لي بَعْدَ رَهْطِك[٥] من سلامِ
ذَريـنـي[٦] أصـطـبـحْ بِـكـرًا فـإنّـي	رأيت الموت كَفّتَ[٧] عن هِشام
وَوَدّ بـنـو الـمُـغـيـرة لـو فَـدَوْهُ	بـألـفٍ مـن رِجـالٍ أو سَـوامِ[٨]

---

(١) الميسر: القمار.

(٢) معاذ بن جبل: من الصحابة المشهورين، اشترك في غزو الشام، ومات بطاعون عمواس سنة ١٨ هـ/ ٦٣٩ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٢٩.

(٣) عبد الرحمٰن بن عوف: صحابي من بني زُهرة، وهو أحد الستّة الذين كانوا من أهل الشورى. مات سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٣٨.

(٤) بدر، أول معركة كبيرة وقعت بين المسلمين والمشركين، وهي إلى الجنوب الغربي من المدينة، فانتصر المسلمون على المشركين وذلك في السنة الثانية من الهجرة. انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ٢/ ٦٠٦، تحقيق: السقّا الإبياري، شلبي، دار الكنوز الأدبية.

(٥) الرهط: الجماعة.

(٦) ذريني: اتركيني.

(٧) كفّت: ضمّ.

(٨) السوام: الماشية والإبل التي ترعى.

وفي أبيات أُخَر، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فجاء فَزِعًا يجرّ رداءه حتى انتهى إليه، ورفع شنًّا[1] كان في يده ليضربه؛ فلما عاينه الرجل قال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، والله لا أطعَمها أبدًا؛ ثم نزلت آية التحريم وهي قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: الآية ٩١]، وروي أن هذه الآية نزلت في شأنِ حمزةَ بن عبد المطّلب[2]، وكان نزولها وتحريمُ الخمرِ في شهرِ ربيعِ الأوّل سنةَ أربعِ من الهجرة.

وكان مِن خبرِ حمزةَ بنِ عبد المطّلب ما رواه مسلمُ بنُ الحجّاجِ[3] بن مسلم في صحيحه عن عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، قال: أصبتُ شارفًا[4] مع رسول الله ﷺ في مَغْنَم يومَ بدر، وأعطاني رسول الله ﷺ شارفًا أُخرى من الخُمُس. قال عليّ: فلمّا أردت أن أبتني[5] بفاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ واعدتُ رجلًا صَوّاغًا من بني قَيْنُقاع[6] يرتحل معي فنأتي بإذْخِرٍ[7] أردت أن أبيعه من الصوّاغين فأستعينُ به على وليمة عُرْسي. فبينا أنا أجمع لشارفَيّ متاعًا من الأقتاب[8] والغرائرِ والحبال، وشارفاي مُناختان إلى جنب حُجرة رجلٍ من الأنصار ورجعت حين جمعتُ ما جمعتُ، فإذا شارفاي قد اجتُبّت أسنمتهما[9] وبُقِرت[10] خواصرهما وأُخِذ من أكبادهما، فلم أملِكْ نفسي حين رأيت ذلك المنظر منهما أن قلت: مَنْ فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزةُ بنُ عبدِ المطّلب وهو في هذا البيت في شَرْبٍ من الأنصار،

(١) الشّنّ: القربة الصغيرة الخَلَق.
(٢) حمزة بن عبد المطلب، عم النبيّ ﷺ، استشهد في معركة أُحدٍ إلى الشمال من المدينة، في السنة الثالثة الهجرية، قتله وحشي، بإغراء من هند زوج أبي سفيان، فأكلت من كبده. انظر: شذرات الذهب ١/ ١٠.
(٣) أحد أئمّة الحديث من أهل نيسابور، اشتهر بكتابه «الصحيح» وهو معوّل عند أهل السّنة، وله كتاب «الأسماء والكنى» وكتاب «الطبقات». مات سنة ٢٦١ هـ/ ٨٧٥ م. انظر: الفهرست ص ٣٢٢.
(٤) الشارف من الإبل: المسنّة الهَرِمة.
(٥) ابتني: يضمني معها بناء واحد فتصير زوجته.
(٦) بنو قينقاع: إحدى قبائل العرب، وكانوا من اليهود، سكنوا المدينة المنوّرة.
(٧) الإذخر: نبات طيّب الرائحة.
(٨) الأقتاب: جمع قتب، وهو الرّحل من خشب، يوضع فوق ظهر الجمل، ويقال له الرّحل.
(٩) اجتبّت أسنمتها: نزعت. والأسنمة، جمع سنام، وهو في أعلى ظهر الجمل.
(١٠) بقرت: طعنت.

غنّته قَيْنة[١] وأصحابَهُ، فقالت في غنائها:

* ألاَ يـا حـمـزَ لـلـشُّـرُفِ الـنِّـواءِ *

لم يذكر مسلم في صحيحه من الشعر غير ما ذكرناه. والأبيات التي غنّت بها: [من الوافر]

ألا يـا حـمْـزُ لـلشـرُفِ[٢] الـنِّـواءِ ... وهُـنّ مـعَـقّـلاتٌ[٣] بـالـفِـنـاءِ
ضَعِ السكّين في اللّبّات[٤] منها ... فـضـرِّجْـهُـنَّ حـمـزةُ بـالـدمـاءِ
وعـجِّـلْ مِـنْ شَـرائـحـهـا كـبابًا ... ملهوجةً[٥] على وهج الصِّلاءِ[٦]
وأصلِحْ مـن أطـايـبـهـا طـبـيـخًا ... لـشَـرْبِـك مـن قَـديـدٍ أو شِـواءِ
فـأنـت أبـا عـمـارَةِ الـمُـرَجَّـى ... لـكـشف الـضـرِّ عـنـهـا والـبـلاءِ

فقام حمزةُ بالسيف فاجتَبَّ أسنمتهما وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما. فقال عليّ: فانطلقت حتى أدخل على رسول الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة[٧]، قال: فعرَف رسول الله ﷺ في وجهي الذي لقِيت، فقال رسول الله ﷺ: «ما لك؟» قلت: يا رسول الله، ما رأيتُ كاليوم قطّ، عدا حمزةُ على ناقتي، فاجتبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما وها هو ذا في بيتٍ معه شَرْبٌ[٨]. فدعا رسول الله ﷺ بردائه فارتداه ثم انطلق يمشي واتّبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء الباب الذي فيه حمزةُ؛ فاستأذن فأذنوا له، فإذا هم شَرْبٌ؛ فطفِق رسول الله ﷺ يلومُ حمزةَ فيما فعل، وإذا حمزةُ محمرّةٌ عيناه؛ فنظر حمزةُ إلى رسول الله ﷺ ثم صعّدَ النظرَ إلى ركبتيه ثم صعّد النظر إلى سرّته ثم صعّد النظر فنظر إلى وجهه، فقال حمزةُ: وهل أنتم إلا عبيدٌ لأبي! فعرف رسول الله ﷺ أنه ثَمِلٌ[٩]، فنكص[١٠] رسول الله ﷺ على عقبيه القَهْقرى وخرج وخرجنا معه. وفي حديثٍ آخر: أنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ: «إنّ عمّك قد

---

(١) القينة: المغنّية.
(٢) الشُّرف: جمع شارف، وهي الناقة المسنّة.
(٣) معقّلات: مربوطات بالحبال.
(٤) اللبات، جمع لبّة، وهي موضع القلادة من الصدر، وهي النّحر أيضًا.
(٥) ملهوجة: غير ناضجة.
(٦) الصّلاء: النار العظيمة.
(٧) زيد بن حارثة، صحابي أعتقه النبيّ ﷺ وجعله أميرًا في غزوة مؤتة، فاستشهد فيها سنة ٨ هـ/ ٦٢٩ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ١٨.
(٨) الشرب: جماعة الشاربين.
(٩) ثمل: سكران، يترنّح في مشيه ويهذي في كلامه.
(١٠) نكص على عقبيه: رجع عمّا كان عليه.

ثَمِلَ وهما لك عليّ»، فغرمهما رسول الله ﷺ لعليّ، فلما أصبحَ حمزةُ غدا على رسول الله ﷺ، فقال: «مَهْ[١] يا عمّ، فقد سألتُ فعفا عنك»، قالوا: واتّخذ عتبان بن مالك صنيعًا ودعا رجالًا من المسلمين، منهم سعد بن أبي وقّاص[٢]، وكان قد شوَى لهم رأسَ بعيرٍ فأكلوا منه وشربوا الخمرَ حتى أخذت منهم، ثم إنهم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعارَ، وأنشد سعدُ قصيدةً فيها هجاء الأنصار وفخرٌ لقومه؛ فقام رجلٌ من الأنصارِ فأخذ لَحْيَ[٣] البعيرِ[٤] فضرب به رأس سعدٍ فشجّه شجّةً مُوضِحةً. فانطلق سعدٌ إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الأنصار، فقال عمر رضي الله عنه: اللّهمّ بَيِّنْ لنا رأيك في الخمر بيانًا شافيًا؛ فأنزل الله عزّ وجلّ تحريم الخمر في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآية إلى ﴿مُّنتَهُونَ﴾ [الآية ٩١]. فقال عمر: انتهينا يا ربّ. وقيل: إنها حُرِّمتْ بعد غزوة الأحزاب[٥] بأيام في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، والله أعلم. قال أنسٌ[٦] رضي الله عنه: حُرِّمتْ ولم يكن للعرب يومئذ عيشٌ أعجبُ منها، وما حُرِّم عليهم شيء أشدُّ من الخمر، قال:فأخرجنا الحِباب[٧] إلى الطريق فصببنا ما فيها، فمنّا من كسر حُبَّه، ومنّا من غسله بالماء والطّين، ولقد غودرت أزقّة المدينة بعد ذلك حِينًا، كلّما مُطِرت استبان فيها لون الخمر وفاحت ريحُها.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: كنتُ ساقي القوم يوم حُرِّمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلا فَضِيخ البسر[٨] والتمر، فإذا منادٍ ينادي، فقال القوم: أُخرج فانظر، فإذا منادٍ ينادي: ألَا إنّ الخمر قد حُرِّمَتْ، قال: فجَرَت في سكك المدينة. فقال لي أبو طلحة: أُخرج فاهْرِقها فهرقتُها[٩]. فقالوا أو قال

(١) مه: مهلًا.

(٢) سعد بن أبي وقاص: من قريش وبني زهرة خاصةً، صحابي، قاد جيوش المسلمين في فارس والعراق وانتصر على رستم في واقعة القادسية، بنى الكوفة ومات سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٥ م. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١/ ٦١.

(٣) اللحى: منبت اللحية. (٤) البعير: الجمل.

(٥) غزوة الأحزاب، ويقال لها أيضًا غزوة الخندق، وفيها انتصر المسلمون على المشركين، وقتل عليّ بن أبي طالب عمرو بن ودّ العامري، وفيها أيضًا أشير على النبيّ ﷺ بحفر الخندق حول المسلمين. انظر: السيرة النبويّة ٤/ ٢١٤ وما بعدها.

(٦) أنس، هو أنس بن مالك، الصحابي وخادم الرسول ﷺ، مات سنة ٩٣ هـ/ ٧١١ م.

(٧) الحباب، جمع حبّ، وهو وعاء الخمرة وغيرها.

(٨) فضيخ البسر: شراب يتّخذ من البسر، وهو التمر.

(٩) هرقتها: صببتها.

بعضهم: قُتِل فلان! قُتِل فلان! وهي في بطونهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المَائدة: الآية ٩٣].

* * *

وأمّا ما ورد في تحريمها في كتاب الله وبيّنته السُّنَّة[١]، فالأحاديث متضافرةٌ[٢] في تحريمها؛ فمن ذلك ما رُوي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من مات وهو مدمنُ خمرٍ[٣] لقي الله وهو كعابدِ وثن»[٤]. وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنّةَ مدمنُ خمرٍ». وأمّا من زعم أنها تُباحُ للتَّداوي بها فيردّ عليه ذلك ما صحّ عن رسول الله ﷺ أن طارق بنَ سويدٍ الجُعْفيّ سأل النبيّ ﷺ عن الخمر فنهاه أو كَرِه أن يصنعَها، وقال: إنما أصنعُها للدواء؛ فقال: «إنها ليست بدواء ولكنه داء»، وعنه ﷺ وقد سأله رجلٌ قدِم من جَيشان (وجَيشان من اليمن)، فسأل النبيَّ ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذُّرةِ يقال له المِزْر؛ فقال النبيّ ﷺ: «أَوَ مُسْكِرٌ هو؟» قال: نعم، قال رسول الله ﷺ: «كل مسكرٍ حرامٌ إنَّ على الله عهدًا لمن يشربُ المسكر أن يسقيَهُ من طينةِ الخبال»، فقالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «عَرَقُ أهل النار». وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «كلّ مسكرٍ خمرٌ وكلّ مسكرٍ حرامٌ ومَنْ شربَ الخمرَ في الدنيا فمات وهو يُدمنُها لم يتبْ لم يشرَبْهَا في الآخرة»، وفي لفظ: «حُرِمَها في الآخرة فلم يُسْقَها»، وفي لفظٍ: «إلا أن يتوب». وعن عبد الله بنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: حُرِّمتِ الخمرُ قليلُها وكثيرُها وما أُسْكِرَ من كلّ شرابٍ. وعنه رضي الله عنه: مَن سرّه أن يُحرِّمَ ما حرّمَ اللهُ ورسولُهُ فليحرمِ النبيذ. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزّاني حين يَزْني وهو مؤمن، ولا يشرب الشاربُ حين يشرب وهو مؤمنٌ، ولا يسرق السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمن»، أخرجه البخاريُّ[٥] في صحيحه والله سبحانه وتعالىٰ أعلم، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل.

---

(١) السّنّة، هي سنة النبيّ ﷺ، وما أتى به من قولٍ أو عمل، وتعتبر المصدر الثاني بعد القرآن في مصادر التشريع الإسلامي.

(٢) متضافرة: كثيرة.

(٣) مدمن خمر: لا ينقطع عنها البتّة.

(٤) الوثن: الصنم، الإلـٰه المعبود.

(٥) البخاري: هو أبو عبد الله المحدّث المشهور، ينسب إلى بخارى التي ولد بها. اشتهر بكتابه «الجامع الصحيح»، وله «التاريخ» و «الضعفاء» في تراجم الرجال، مات سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م. انظر: الفهرست ص ٣٢١.

ذِكْر ما قيل في إباحة المطبوخ

والمطبوخُ يسمّى الطِّلاءَ وهو الذي طُبِخَ حتى ذهب ثُلُثاه وبقي ثلثه، سُمِّيَ بذلك لأنه شبيهٌ بطِلاءِ الإبلِ في ثِخَنِه[١] وسواده. وقد اختلف العلماء في المطبوخ، فقال بعضهم: كلّ عصيرٍ طُبِخَ حتى ذهب نصفُه فهو حلالٌ إلا أنه يُكرَه، وإن طُبِخَ حتى ذهب ثلثاه وبقي ثلثه فهو حلالٌ مباحٌ شربُهُ وبيعُهُ إلا أن السكر منه حرام. وحجّتهم في ذلك ما روي: أن عمرَ بنَ الخطّابِ رضي الله عنه كتب إلى بعض عمّاله[٢]: أن أَرزق المسلمين من الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه. وعن عبد الله بن يزيدٍ الخطميّ قال: كتب إلينا عمر بنُ الخطاب رضي الله عنه: أمّا بعد، فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيبُ الشيطان في عود الكَرْم[٣]، فإن له اثنين ولكم واحد. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنّ نوحًا عليه السلام لمّا نازعه الشيطانُ في عود الكرم، فقال: هذا لي، وقال: هذا لي؛ فاصطلحا على أنّ لنوحٍ ثلثَها وللشيطانِ ثلثيها. وسئل سعيدُ بن المسيب[٤]: ما الشراب الذي أحلّه عمر رضي الله عنه؟ فقال: الذي يطبخُ حتى يذهبَ ثلثاه ويبقى ثلثُه. وحكي أن أبا موسى الأشعريّ[٥] وأبا الدرداء[٦] كانا يشربان من الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه. وعلى الجملة فمجموع هذه الأخبار في مُثَلَّث لم يسكر البتّة. ودليل ذلك ما حُكِي عن عبد الله بن عبد الملك بن الطفيل الخزرجيّ قال: كتب إلينا عمرُ بن عبد العزيز: ألّا تشربوا من الطِّلاء حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه، وكلّ مسكرٍ حرامٌ. هذا الذي عليه أكثر العلماء. وقال قوم: إذا طُبِخَ العصيرُ أدنَى الطبخِ صار حلالًا، وهو قول إسماعيلَ بنِ عُلَيّة وبشر المِرّيسيّ وجماعةٍ من أهل العراق. وذهب بعضهم إلى أن الطِّلاء الذي رُخِّص فيه إنما هو الرُّبُّ والدِّبسُ، والله عزّ وجلّ أعلم.

---

(١) ثخنه: غلظه. (٢) عماله: ولاته.

(٣) الكرم: واحدته الكرمة، وهي شجرة العنب يتّخذ منه الخمر.

(٤) سعيد بن المسيّب: أحد فقهاء المدينة السبعة، توفي سنة ٩٤ هـ/ ٧١٢ م. انظر: شذرات الذهب ١/١٠٢ ـ ١٠٣.

(٥) أبو موسى الأشعري: أحد الذين حكموا في صفّين بين عليّ ومعاوية، وكان من قبل الإمام علي بن أبي طالب. توفي سنة ٤٤ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/٥٣.

(٦) أبو الدرداء: عويمر بن مالك الصحابي الخزرجي الأنصاريّ، من رواة الحديث، وكان قاضي دمشق. مات سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م. انظر: شذرات الذهب ١/٣٩.

ذِكْر آفات الخمر وجِناياتها

وآفاتُ الخمر وجناياتها كثيرةٌ، لأنها أُمُّ الكبائر. وأوّلُ آفاتِها أنها تُذْهِبُ العقلَ، وأفضلُ ما في الإنسان عقلُه، وتحسّنُ القبيحَ وتقبّحُ الحسَنَ. قال أبو نُوَاس الحسنُ بنُ هانىءٍ عفا الله عنه ورحمه وغفرَ له ما أسلف: [من مجزوء الرمل]

إسقني حتى تراني ... حَسَنًا عندي القبيحُ

وقال أيضًا: [من مجزوء الرمل]

إسقني صِرْفًا[1] حُمَيّا[2] ... تترك الشيخَ صبيّا
وتريه الغيّ[3] رُشْدًا ... وتُريه الرُّشد غيّا

وقال أبو الطيّب[4]: [من المتقارب]

رأيتُ المُدامةَ[5] غلّابةً ... تُهيِّج للمرء أشواقَهُ
تسيء من المرءِ تأديبَه ... ولكن تُحَسِّن أخلاقَهُ
وأنْفَسُ[6] ما للفتى لبُّهُ[7] ... وذو اللُّبِّ يكره إنفاقَهُ
وقد مِتُّ أمسِ بها مِيتةً ... وما يشتهي الموتَ مَنْ ذاقَهُ

قالوا: وإنما قيل لمُشارب الرجل نديمٌ، من الندامة؛ لأن الرجل معاقرُ الكأس إذا سكرَ تكلّم بما يندَمُ عليه وفعل ما يندم عليه، فقيل لمن شاربه «نادَمه» لأنه فعل مثل فعله فهو نديم له؛ كما يقال: جالسه فهو جليس له. والمعاقر: المدمِن، كأنه لزم عُقْرَ الشيء أي فِنَاءه. وقد شُهِر أصحابُ الشراب بسوء العهد وقلّة الحِفاظ، وقالوا: صاحبُ الشرابِ صديقُك ما استغنيتَ عنه حتى تفتقر، وما عُوفيت حتى تُنْكَب، وما غَلَت دِنانُك حتى تُنْزَف، وما رأَوْك بعيونهم حتى يفقدوك. قال بعض الشعراء عفا الله تعالى عنه: [من الطويل]

أرى كلّ قومٍ يحفَظون حريمَهم[8] ... وليس لأصحابِ النّبيذ حريمُ

---

(١) صرفًا: خالصًا.
(٢) الحميّا: صفة للخمرة.
(٣) الغيّ: بخلاف الرشد، وهو الضلالة.
(٤) أبو الطيب: كنية أحمد بن الحسين المتنبّي، الشاعر العباسي المشهور، كانت وفاته سنة ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م. انظر: شذرات الذهب ٣/ ١٣.
(٥) المدامة: الخمرة.
(٦) أنفس: أثمن.
(٧) لبّه: عقله.
(٨) الحريم: العيال.

إذا جئتَهم حيَّوْك ألفًا ورحَّبوا | وإن غبتَ عنهم ساعةً فذميمُ
إخاؤهُمُ ما دارت الكأسُ بينهم | وكلُّهُمُ رَثُّ الوصال سؤومُ[١]
فهذا بياني لم أقل بجهالةٍ | ولكنني بالفاسقين عليمُ

قيل: سقى قومٌ أعرابيّةً مسكرًا، فقالت: أيشرب نساؤكم هذا الشراب؟ قالوا: نعم. قالت: فما يدري أحدُكم مَنْ أبوه. وقال قُصَيّ بن كلاب[٢] لبَنِيه: اِجتنبوا الخمر فإنه يُصلحُ الأبدان ويفسدُ الأذهان. وقيل لعديّ بن حاتم[٣]: ما لك لا تشرب النبيذ؟ قال: معاذَ الله! أُصبحُ حليمَ قومٍ وأُمسي سفيهَهُم. وقيل لأعرابيّ: ما لك لا تشرب النبيذ؟ قال: لا أشرب ما يشربُ عقلي. وقيل لعثمانَ بن عفّان: ما منعك من شرب الخمر في الجاهليّة ولا حرج عليك؟ قال: إني رأيتها تُذْهِب العقل جملةً وما رأيت شيئًا يَذهَب جملةً ويعود جملة. وقال عبد العزيز بن مروان[٤] لنُصَيْب بن رَباح: هل لك فيما يُثمر المحادثة؟ يريد المنادمة، فقال: أصلح الله الأمير! الشَّعْرُ مفلفلٌ واللون مُرْمَدٌّ[٥]، ولم أقعدْ إليك بكرم عنصر ولا بحسن منظَر، وإنما هو عقلي ولساني؛ فإن رأيت ألّا تفرّقَ بينهما فافعل. ودخل نُصَيْبٌ هذا على عبد الملك بن مروان فأنشده فاستحسن عبدُ الملك شِعْرَه فوصلَه؛ ثم دعا بالطعام فطَعِم معه. فقال له عبد الملك: هل لك أن تُنادِم عليه؟ قال: يا أمير المؤمنين، تأمّلْني. قال: قد أراك. قال: يا أمير المؤمنين، جلدي أسود وخَلْقي مشوَّه ووجهي قبيح ولست في منصب، وإنما بلغ بي مجالستَكَ، ومؤاكلتَكَ عقلي، وأنا أكره أن أُدْخِل عليه ما يَنْقُصُه، فأعجبه كلامه وأعفاه.

وقال الحسن: لو كان العقل عَرَضًا لتغالى الناسُ في ثمنه؛ فالعجب لمن يشتري بماله شيئًا ليشربَه فيُذهب عقله!

---

(١) السؤوم: الشديد السّأم.

(٢) قصي بن كلاب، أحد أجداد الرسول ﷺ، سيّد قريش في زمانه، جمع قومه في مكة وجعل داره للنّدوة، وكانت له سدانة الكعبة.

(٣) عدي بن حاتم: ابن حاتم الطائي، صحابي شهد الجمل وصفّين والنهروان مع عليّ بن أبي طالب. مات بالكوفة سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٧ م.

(٤) عبد العزيز بن مروان: أمير أموي، تولّى مصر في عهد والده مروان الأول وأخيه عبد الملك مدة عشرين سنة، وهو والد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، مات سنة ٨٥ هـ/ ٧٠٤ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٩٥.

(٥) مرمدّ: هائج.

وقال الوليد بن عبد الملكِ[١] للحجّاج بن يوسف[٢] في وَفْدة وفدها عليه وقد أكلا: هل لك في الشراب؟ قال: يا أمير المؤمنين، ليس بحرام ما أحللتَ، ولكن أمنع أهل عملي، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح[٣]، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ [هُود: الآية ٨٨].

وقالوا: للنبيذِ حدّان، حدٌّ لا همَّ معه، وحدٌّ لا عقلَ معه؛ فعليك بالأوّل واتّقِ الثاني.

ومن آفاتِ[٤] الخمر افتضاحُ شاربها بريحها عند من يَحْتشمُ منه ويتّقيه ويخافه فلا يستطيعُ مع وجود ريحها إنكارَ شربها. والوُلاةُ تَحُدّ بالاستِنْكَاه[٥]؛ لأن خِمَارها[٦] يثبتُ في الفم اليومَ واليومين بعدَ تركِها، فمن شربها ساعةً وهو يحتشمُ من الناس أن يظهر ذلك عليه احتاج إلىٰ الانقطاع في بيته بعد زوال السكر وأَوْبة العقل[٧] حتى تزول الرائحة. وقد تحايلَ الذين يشربون الخمر على قطع ريحها من الفم وعالجوا ذلك بأدوية صنعوها يستعملونها بعد شربها، فأجودُ ما صنعوه من هذه الأدوية أنْ يُؤخذَ من المرِّ والبَسْبَاسَةِ والسُّعدِ والجَنَاحِ والقرَنْفُلِ[٨] أجزاءٌ متساويةٌ وجزءانِ من الصّمغِ، ويُدَقّ ذلك ويُجْبَل بماء الورد ويستعمل منه، فإنه يقطع رائحةَ الخمر من الفم، كما زعموا. وقد نظم بعض الشعراء هذه المفرداتِ في أربعة أبياتٍ، فقال:
[من مخلّع البسيط]

مُـرٌّ وبـسـبـاسـةٌ وسُـعـدٌ إلـى جَـنَـاحٍ ومـاءِ وَرِدِ
يـنـظِـمُـهـا[٩] الـصـمـغُ إنْ تـلاه قَـرنـفُـلُ الـهِـنـد نـظْـمَ عِـقـدِ

---

(١) الوليد بن عبد الملك: الخليفة الأموي السادس، في عهده فتحت سمرقند وبخارى وفرغانة وخوارزم والهند وطنجة والأندلس. شيّد الجامع الأموي في دمشق والمسجد والأقصى في القدس. مات سنة ٩٦ هـ/ ٧١٥ م. انظر: تاريخ الخلفاء، لابن قتيبة ٢/ ٤٤ وما بعدها.

(٢) هو الحجاج بن يوسف الثقفي القائد والخطيب، ولد في الطائف، ولّاه عبد الملك بن مروان إمرة الجيش فقضى على ثورة عبد الله بن الزبير، وقمع ثورة ابن الأشعث. أسّس مدينة واسط، وكانت سيرته وحياته مصبوغة بالدم حتى لقّب بالسفّاك والسفّاح. مات سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/ ٢٥ وما بعدها.

(٣) العبد الصالح: كناية عن النبيّ شعيب.

(٤) آفات: عِلَل.

(٥) الاستنكاه: شمّ ريح الفم.

(٦) خمارها: أثر رائحتها.

(٧) أوبة العقل: رجعته.

(٨) المرّ والبسباسة والسعد والجناح والقرنفل من النباتات الطيّبة الرائحة.

(٩) ينظمها: يسلكها ويربطها.

أجــزاؤهــا كــلُّهــا سَــواءٌ والـصـمـغ جزآن، لا تـعـدّي
فـيــه لــذي مِــرّةٍ شــفــاءٌ وصونُ[1] عِـرْضٍ وحـفـظُ ودٍّ

ذكر أسماء الخمر من حين تُعْصَر إلى أن تُشْرَب

الخمر إذا عُصِر فاسْمُ ما يسيل منه قبلَ أن تطأه الرجلُ: السُّلَافُ؛ وأصله من السَّلَف وهو المتقدّمُ من كلّ شيء، وهو في مثل ذلك الخُرطومُ أيضًا. ويقال للذي يُعصر بالأقدام: العصيرُ، والموضع الذي يُعْصَر فيه: المَعصرة. والنَّطْلُ: ما عُصِرَ فيه السلافُ؛ ويقال للعاصر: الناطِلِ، ثم يُترَكُ العصيرُ حتى يغليَ فإذا غلا فهو خمر، وقيل: سمّيت خمرًا لأنها تخامر العقولَ فتخالطُها. وقالوا: لأنها تُخْمَرُ في الإناء، أي تُغطَّى وهي مؤنثة. ويقال لها: القهوة، لأنها تُقْهِي عن الطعام والشراب، يقال: أقهَى عن الطعام وأقهم عنه إذا لم يشتهه. ومن أسمائها: الشَّمولُ، سمّيت بذلك لأن لها عَصْفَةً كعصفةِ الشَّمال، وقيل: لأنها تشمَلُ القومَ بريحِها. ومنها: السُّلَاف والسُّلافة والخرطوم وقد تقدّم معناها. ومنها: القَرْقَفُ لأنّ شاربَها يُقَرْقِف إذا شربها، أي يَرْعد، يقال: قَرْقَف وقَفْقَفَ. وقال أبو عمرو: القرقف اسم للخمر غير صفة وأنكر قولَهم سمّيت بها لأنها تُرْعِد. ومنها: الراحُ لأنها تُكسب صاحبَها الأريحيّة أي خفّة العطاء. ومنها: العُقارُ لأنها عاقرت الدّنَّ، وقيل: لأنها تعقِر شاربَها من قول العرب: كلأُ بني فلانٍ عقارٌ، أي يعقِرُ الماشية. ومن أسمائها: المُدامةُ والمدامُ لأنها داومتِ الظَّرف الذي انتُبذت فيه. والرحيقُ ومعناه الخالص من الغش. وقيل: الصافي، وقيل: العتيق، والكُمَيْتُ سمّيت بذلك للونها إذ كانت تضربُ إلى السواد. والجِرْيالُ وهو صِبغٌ أحمرُ سمّيت بذلك للونها أيضًا. والسبيئةُ والسِّباءُ وهي المشتراة وأصلها مَسْبوءَة، يقال: سبأتُ الخمرَ إذا اشتريتُها. والمشعشَعَةُ وهي الممزوجة. والصهباءُ وهي التي عُصِرَتْ من العنب الأبيض. والشَّموسُ شبّهت بالدابّة التي تَجمحُ براكبها. والخَندريسُ وهي القديمة. والحانيّة: منسوبة إلى الحانة. والماذيّة: الليِّنة يقال: عسلٌ ماذيٌّ إذا كان ليِّنًا. والعانيّة: منسوبة إلى عانة. والسُّخَامية: الليِّنة من قولهم: قطن سُخَامٌ أي ليِّن وثوبٌ سُخَامٌ. قال الراجز: [من الرجز]

كأنه بالصَّحْصَحان[2] الأنجلِ[3] قطنٌ سُخَاميّ بأيْدِي غُزَّلِ[4]

---

(١) الصون: الحفظ.
(٢) الصحصحان: ما استوى من الأرض.
(٣) الأنجل: الواسع العين.
(٤) الغزّل: جماعة الغزّالين.

والمَزَّةُ والمُزَّاءُ لطعمها. والإسفَنْطُ، قال الأصمعيّ: هو بالروميّة. والغربُ ومعناه الحدُّ، وغَرْبُ كلّ شيء حدّه. ولعلها سُمّيت بذلك لحدّتها. والحُمَيَّا، وحُمَيَّا كلّ شيء سَوْرته وحدّته. والمُصْطَارُ: الخلّة، ويقال: المُضطارُ بالضاد أيضًا. والخَمْطَةُ: المتغيّرة الطعم. والمعتّقة: التي قد طال مكثُها. والإثمُ: اسم لها لعله وقع عليها لما في شربها من الإثم. والحمق كذلك. قال الشاعر: [من الوافر]

شربتُ الإثم حتى ضلّ[1] عقلي كذاك الإثم يفعل بالعقولِ

والمُعْرَق: الممزوج قليلًا، يقال: عَرَقٌ من ماء أي ليس بكثير. ومن أسمائها: القِنْدِيدُ والفَيْهَجُ وأمّ زَنْبق والمقطَّبُ والطّوْسُ والسَّلْسَال والسَّلسَل والزَّرْجُون والكَلْفاء والجَرْباء والعانسةُ والطَّابَةُ والنَّاجُودُ والكأسُ والطِّلاء، قال عَبِيدُ بن الأبرص[2]: [من المتقارب]

هي الخَمْرُ صرفًا[3] تكنّى الطلا ء كالذئب يُسمّى أبا جعدةِ[4]

والباذِق والبُخْتُجُ: فارسيّان. والجَهْوريّ. والمَقْدِيّ منسوبةٌ إلى قريةٍ من قُرَى الشام. والمزاء من قولك: هذا أَمْزَى من هذا أي أفضل. والنبيذ. والبِتْعُ: نبيذ العسل والسُّكُرْكَةُ من الذرة. والجِعَة من الشعير. والفَضِيخ من البسر. والمِزْر من الحبوب.

ذكر أخبار مَن تنزّه عنها في الجاهليّة وتركها ترفّعًا عنها

كان ممّن تركها في الجاهلية عثمانُ بن عفّان رضي الله عنه وعبدُ المطّلب بن هاشم[5] وعبد الله بن جدعان التيميّ، وكان سيّدًا جوادًا من سادات قريش، وسبب تركه لها أنه شرب مع أُميّة بن أبي الصّلت الثقفيّ فأصبحت عينُ أُميّة مخضرّةً فخافَ عليها الذهاب، فسأله عبد الله: ما بال عينِك؟ فقال: أنت صاحبُها أصبتها البارحة،

(١) ضلّ: تاه وشرد.
(٢) عبيد بن الأبرص: شاعر جاهلي حكيم، وداهية. أحد أصحاب المعلّقات، قتله النعمان بن المنذر في يوم بؤسه. مات نحو سنة ٦٠٠ م. انظر: الأعلام ٤/ ٣٤٠.
(٣) صرفًا: خالصة. (٤) أبو جعدة: كنية الذئب.
(٥) عبد المطلب بن هاشم: جد النبيّ ﷺ، ومن كفله في صغره ورعاه بعد موت أبيه عبد الله، كان زعيم قريش في الجاهلية، وكانت له الرّفادة والسقاية، مات نحو سنة ٥٧٩ م. انظر: السيرة النبوية ١/ ١٤٧.

قال: وبلغ منّي الشراب ما أبلغ معه من جليسي هذا المبلغ، فأعطاه عشرة آلاف درهم، وقال: الخمر عليّ حرام، لا أذوقها أبدًا، وقال فيها: [من الوافر]

شَرِبتُ الخمر حتى قال صَحْبي ألستَ عن السُّقاة بمُستفيقِ؟

وحتى ما أُوسَّد[1] في مبيتٍ أنام به سوى التُّرب السحيقِ

وممّن حرّمها في الجاهليّة: قيسُ بن عاصم المنقريّ[2]، والسبب في ذلك أنه سكر فغمَز عكنة[3] ابنته أوأخته فهربت منه، فلمّا صحا أخبروه فحرّم الخمر على نفسه، وقال في ذلك: [من الوافر]

وجدتُ الخمرَ جامحةً[4] وفيها خصالٌ تفضح الرجلَ الكريما

فلا واللهِ أشربُها حياتي ولا أدعو لها أبدًا نديما[5]

ولا أُعطي لها ثمنًا حياتي ولا أُشفي بها أبدًا سقيما[6]

فإنّ الخمرَ تفضحُ شاربيها وتجشمهم[7] بها أمرًا عظيما

إذا دارت حُميّاها[8] تعلّت طوالعُ تَسْفَه الرجلَ الحليما

ومنهم: عامر بن الظَّرِب العَدْوانيّ[9]، قال: [من البسيط]

سآّلةٌ[10] للفتى ما ليس في يده ذَهّابةٌ[11] بعقول القوم والمالِ

أقسمتُ بالله أسقيها وأشربها حتى يفرّق تربُ القبرِ أوصالي[12]

ومنهم: صفوانُ بن أميّةَ بنِ مُحرَّثٍ الكتاميّ، وعُفَيفُ بنُ معديكرب الكنديّ والأسلوم بن نامي من همدان ومِقْيَس بن عديّ السهميّ، وكان سكر فجعل يخطُّ ببوله: أنَعَامةٌ أو بعيرًا، فلما أفاق وأخبر بذلك حرّمها.

---

(١) أوسّد: يوضع لي وسادة.

(٢) من شعراء الجاهلية، أسلم في وفد تميم، وكانت وفاته نحو ٢٠ هـ/ ٦٤٠ م.

(٣) العكنة: ما انطوى وتثنى من لحم البطن.

(٤) جامحة: هائجة.

(٥) النديم: الرفيق في الشراب.

(٦) السقيم: المريض.

(٧) وتجشمهم: تكلّفهم على مشقّة.

(٨) حميّاها: سورتها.

(٩) من شعراء الجاهلية وفرسانها وخطبائها المشهورين، وفد مع قومه على كسرى وكان من المبرزين، وقيل: إن الذي وفد عمرو بن مسعود العدواني، انظر خبر وفادته في: العقد الفريد ١/ ١٠٥.

(١٠) السآّلة: الكثيرة السؤال.

(١١) الذهّابة: الكثيرة الذهاب.

(١٢) أوصالي: أعضائي.

ومنهم: العبّاس بنُ مرداس السلَميّ[١] قيل له: لم تركتَ الشرابَ وهو يزيد في جرأتك وسماحتك؟ فقال: أكره أن أُصبحَ سيّدَ قومي وأُمسيَ سفيهَهم.

ومنهم: سعيدُ بن ربيعةَ بنِ عبدِ شمسٍ وورقةُ بنُ نوفل[٢] والوليد بن المغيرة.
وقال زيد بن ظبيان: [من البسيط]

بئس الشراب شراب حين تشربه يوهي[٣] العظام وطورًا يوهي العصبِ
إنـي أخـاف مـليـكـي أن يـعـذّبـنـي وفي العشيرة أن يُزرى[٤] على حسبي

وقال رجل لسعيد بن سلم: ألا تشرب النبيذ؟ فقال: تركت كثيره لله تعالى وقليلَه للناس.

ذكر مَن حُدَّ فيها من الأشراف ومَن شربها منهم ومَن اشتهر بها ولبس فيها ثوب الخلاعة ومَن افتخر بشربها

فأمّا من حُدَّ فيها من الأشراف، فالوليدُ بن عُقْبة بنِ أبي مُعَيط وهو أخو عثمانَ بنِ عفّان لأمّهِ، شهد عليه أهلُ الكوفة أنه صلّى بهم الصّبحَ ثلاثَ ركعاتٍ وهو سكرانٌ ثم التفتَ إليهم فقال: وإن شئتم زدتكم، فجلده عبدُ الله بن جعفرٍ بين يديْ عثمان رضي الله عنه، وسنذكر الواقعة إن شاء الله تعالى بجملتها في الباب الثاني من القسم الخامس من الفن الخامس في التاريخ في خلافة عثمان رضي الله عنه.

ومنهم: عبيدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطاب شرب بمصر فحدّه بها عمرو بن العاص سرًّا، فلمّا قدم على أبيه جلده حدًّا آخر علانية.

ومنهم: عبدُ الرحمٰنِ بنُ عمرَ بنِ الخطّاب المعروف بأبي شَحْمة، حدّه أبوه في الشراب فمات تحت حدِّه.

ومنهم: عاصمُ بنُ عمر بن الخطّاب، حدّه بعضُ ولاةِ المدينة.

ومنهم: قُدامةُ بنُ مظعونٍ، حدّه عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه بشهادة عَلْقمة الخصيّ وغيره.

---

(١) العباس بن مرداس: شاعر من بني سليم، أسلم وقومه. مات نحو سنة ٦٣٩ م.
(٢) ورقة بن نوفل بن أسد: من حكماء الجاهلية، ابن عمّ خديجة أولى أزواج النبيّ ﷺ، قيل: كان حنيفيًّا، وقيل: كان نصرانيًّا. مات نحو سنة ٦١١ م.
(٣) يوهي: يضعف.
(٤) يزرى: يُعاب.

ومنهم: عبدُ الله بنُ عروةَ بنِ الزبير، حدّه هشام بنُ إسماعيل المخزوميّ.

ومنهم: عبدُ العزيز بن مروان، حدّه عمرو بن سعيد الأَشْدَق.

ومنهم: أبو مِحْجَن الثقفي[١] واسمه عمرو بن حبيب، وكان مغرمًا بالشراب، حدّه عمر مرارًا في الخمر، وحدّه سعيد بن أبي وقّاص مرارًا وشهد القادسيّة[٢] وأبلى بلاء حسنًا، ثم حلَف بعد القادسيّة ألا يذوقَ الخمرَ أبدًا ومات تائبًا عنها، وأنشد رجل عند عبد الله بن مسلم بن قتيبة قوله: [من الطويل]

إذا مِتُّ فادفنّي إلى جنب كَرمةٍ[٣] ... تُروِّي عظامي بعد موتي عروقُها

ولا تدفننّي في الفلاة فإنّني ... أخاف إذا ما مِتّ أن لّا أذوقها

فقال عبد الله: حدّثني من رأى قبره بأرمينية[٤] بين شجرات كرم يخرجُ إليه الفتيانُ ويشربون عنده ويتناشدون شعره، فإذا جاءت كأسُه صبّوها على قبره.

ومنهم: إبراهيم بن هَرْمة[٥] وكان مغرمًا بالشراب، حدّه جماعة من عمّال المدينة فلما طال ذلك عليه رحل إلى أبي جعفر المنصور، وقيل: إنما رحل إلى المهديّ وامتدحه بقصيدته التي يقول فيها: [من الطويل]

له لحظاتٌ في حِفافَيْ[٦] سريره ... إذا كرَّها فيها عِقابٌ ونائلُ

له تربةٌ بيضاءُ من آل هاشم ... إذا اسودَّ من لؤم التراب القبائلُ

فاستحسن شعرَه وقال له: سَلْ حاجتَك، فقال: تأمرُ لي بكتاب إلى عامل المدينة ألّا يحدّني على شراب، فقال له: ويلك! لو سألتني عزلَ عاملِ المدينة وتوليتكَ

---

(١) أبو محجن الثقفي: شاعر مخضرم، أدرك الإسلام فأسلم، وحارب في المغازي، كان فارسًا شجاعًا لكنه كان ميّالًا بل مسرفًا في شرب الخمرة، له أشعار في الخمريّات والمفاخر، مات نحو ٦٥٠ م.

(٢) القادسيّة: موضع في العراق غربي النَّجف، فيه حدثت معركة القادسيّة التي انتصر فيها العرب بقيادة سعد بن أبي وقاص على الفرس بقيادة رستم، وذلك في سنة ١٥ هـ/ ٦٣٥ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٢٨.

(٣) الكرمة: شجرة العنب التي يتّخذ من ثمرها الخمر.

(٤) أرمينية: مقاطعة جبلية في غرب آسيا بين الأناضول وأنجاد إيران جنوبي القوقاز.

(٥) إبراهيم بن هرمة: شاعر مخضرم الدولتين الأموية والعباسية، نشأ في المدينة ومدح المنصور وابنه المهديّ. مات سنة ٧٩٢ م.

(٦) حفافي سريره: جانبَيْه.

مكانَه لفعلتُ؛ قال: يا أمير المؤمنين، ولو عزلته ووليتني مكانه أما كنت تعزلني أيضًا وتولّي غيري! قال: بلى، قال: فكنت أرجِع إلى سيرتي الأُولى فأُحَدّ، فقال المهديّ لوزرائه: ما تقولون في حاجة ابنِ هرمةَ وما عندكم فيها من التلطّف؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، إنه سأل ما لا سبيلَ إليه، إسقاطُ حدٍّ من حدود الله عزّ وجلّ، فقال المهديّ: له حيلةٌ إذا أعيتكم الحيلُ فيه، اكتبوا إلى عامل المدينة: مَنْ أتاك بابن هرمة سكرانًا فاضربْه مائةَ سوطٍ واجلد ابنَ هرمةَ ثمانين، فكان إذا شرب ومشى في أزقّة المدينةِ يقول: مَنْ يشتري مائةً بثمانين؟

* * *

وأمّا مَن شربها منهم واشتهر بها، جماعةٌ من الأكابر والأعيان والخلفاء.

منهم: يزيدُ بنُ معاويةَ[١] شُهر بشربها، وكان يقال له: يزيد الخمور، روى هشام بنُ الكلبيّ عن أبيه قال: وجَّهَ معاويةُ جيشًا إلى أرض الروم فأصابهم الجُدَرِيّ، وعند يزيد امرأتُه أُمُّ كلثوم بنتُ عبدِ الله بن عامر فسكر وأنشأ يقول: [من البسيط]

إذا ارتَفَقْتُ[٢] على الأنماطِ[٣] في غُرفٍ   بـدَيْـر مُـرَّان[٤] عـنـدي أمُّ كـلـثـوم

فـمـا أبـالـي الـذي لاقـت جـيـوشُـهُـمُ   بالغَذْقَذُونَةِ[٥] من حُمَّى ومن مُومِ[٦]

فبلغ الخبر معاوية، فقال: أنت هٰهنا! إلْحق بهم، وسيَّره إلى قتال الروم.

ومنهم: عبدُ الملك بن مروان، وكان يُسمَّى: حمامةَ المسجد، لاجتهاده في العبادة، هذا قبل أن يليَ الخلافةَ، فلما أفضت الخلافةُ إليه شرب، فقال له سعيدُ بن المسيّب: بلغني يا أمير المؤمنين، أنك شربتَ الطلاءَ، قال: إي والله والدماء.

---

(١) يزيد بن معاوية: الخليفة الأموي الثاني، أمّه ميسون، اشتهر بالخلاعة والمجون، وميله إلى النساء والخمرة. توفي قرب حمص سنة ٦٠ هـ/ ٦٨١ م. انظر خبر وفاته مفصّلًا في: تاريخ الخلفاء، لابن قتيبة ١/ ١٧٣.

(٢) ارتفقت: اتّكأت.

(٣) الأنماط: جمع نمط، وهو ضرب من البُسُط.

(٤) دير مرّان: بالقرب من دمشق.

(٥) الغذقذونه: اسم موضع بعينه ببلاد الشام. (٦) الموم: الجدري.

ومنهم: يزيدُ بنُ عبد الملك[١] بن مروان وهو صاحب حَبَابة[٢] وسَلَّامة[٣]، وأخباره مشهورة.

ومنهم: ابنه الوليدُ بنُ يزيد بن عبد الملك[٤] ذهب به الشراب كلَّ مذهب حتى خُلع وقُتل؛ وله في ذلك حكايات وأشعار. منها: أنه سمع بشُرّاعة بنِ الزَّنْدَبوذ الكوفيّ، وكان من أهلِ البطالة المشهورين باللعبِ واللهو وإدمان الشراب، فاستدعاه بالكوفة إلى دمشق فحمل إليه فلما دخل عليه قال له: يا شرّاعة، ما أرسلت إليك لأسألك عن كتاب الله ولا سنّة نبيّه، قال: لو سألتني عنهما لوجدتني فيهما حمارًا، قال: وإنما أرسلت إليك لأسألك عن القهوة، قال: أنا دهقانها[٥] الخبير، ولقمانُها[٦] الحكيم، وطبيبُها الماهر؛ قال: فأخبِرْني عن الشراب، قال: سَلْ عمّا بدا لك، قال: ما تقول في الماء؟ قال: لا بدّ منه، والحمار شريكي فيه. قال: فاللّبن؟ قال: ما رأيتُه إلا استحييتُ من طولِ ما أرضعتْني أمّي به، قال: فالسَّوِيق؟ قال: شرابُ الحزينِ والمستعجلِ والمريض. قال: فشرابُ التمر؟ قال: سريعُ الامتلاء، سريعُ الانفشاش. قال: فنبيذُ الزبيب؟ قال: حاموا به على الشراب، قال: فالخمر؟ قال: تلك والله صديقة روحي، قال: وأنتَ واللهِ صديقُ روحي، قال: فأيُّ المجالسِ أحسن؟ قال: ما شرب فيه على وجه السماء؛ ومن شعر الوليد: [من الطويل]

خذوا ملككم لا ثبّت الله ملككم ... ثباتًا يساوي ما حييت عقالا
دعوا لِيَ سلمَى والنبيذَ وقينةً ... وكأسًا، ألا حسبي بذلك مالا
أبا الملك أرجو أن أخلّد فيكُمُ ... ألا ربَّ مُلك قد أزيل فزالا

---

(١) يزيد بن عبد الملك: الخليفة الأموي التاسع، خلف عمر بن عبد العزيز. انصرف إلى اللّهو، ومات بإربد، ودُفن بدمشق سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٤ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/١٠٣.

(٢) حبّابة: جارية مغنية، كانت ليزيد بن عبد الملك، يقال إنها شرقت بحبّة عنب أو رمّان فماتت ومات يزيد بعدها بأيّام حزنًا عليها.

(٣) سلامة: شاعرة مغنّية، من جواري يزيد بن عبد الملك.

(٤) الوليد بن يزيد بن عبد الملك: الخليفة الأموي الحادي عشر، خلف عمّه هشامًا. عاش في البادية منصرفًا إلى الشعر والخمر والغناء، خلع وقتل سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٣ م. انظر تاريخ الخلفاء ٢/١١٠.

(٥) دهقانها: سيّدها وقائدها.

(٦) لقمانها: يريد قمان، النبي الذي اشتهر بحكمته، وقد خصّه القرآن الكريم بسورة من سوره المائة والأربع عشر سورة.

ومنهم: المأمونُ بنُ الرشيد وشُهِر بالشراب وله فيه أخبار، منها: أنه شرب هو ويحيىٰ بن أكثم القاضي(١) وعبد الله بن طاهر(٢)، فتعامل المأمون وابنُ طاهرٍ على سكر يحيىٰ، فأشار إلى الساقي فأسكره، وكان بين أيديهم رِزَمٌ من الورد والرياحين، فأمر المأمونُ فشُقّ ليحيىٰ لحدٌ(٣) من الورد والرياحين وصيَّروه فيه، وعمل بيتي شعر ودعا قينة فجلست عند رأس يحيىٰ وغنَّت بالشعر: [من البسيط]

دعوته وهو حيٌّ لا حياةَ به ... مكفَّنًا في ثيابٍ من رياحينِ
فقلت قم قال رجلي لا تطاوعني ... فقلت خذ قال كفّي لا تواتيني

فانتبه يحيىٰ لرنّة العود وصوت الجارية فقال: [من البسيط]

يا سيّدي وأميرَ الناس كلّهم ... قد جارَ(٤) في حكمه من كان يسقيني
إني غفلتُ عن الساقي فصيَّرني ... كما تراني سليبَ العقلِ والدِّينِ
فانظر لنفسك قاضٍ إنني رجل ... ألراحُ(٥) يقتلني والرَّوح يُحييني

ومنهم: العباسُ بنُ عليّ بن عبد الله بن العباس وهو عمّ المنصور، كان يأخذ الكأس بيده ويقول: أما العقل فتُتلفين، وأما المروءة فتَمحقين، وأما الدِّين فتُفسدين، ويسكتُ ساعةً ثم يقول: وأما النَّفس فتُسَخِّين، وأما القلب فتُشَجِّعين، وأما الهمّ فتطردين، أفتراك مني تُفلتين! ثم يشربُها.

ومنهم: بلالُ بن أبي بُردة فُضح بالشراب وفيه يقول يحيىٰ بن نوفل الحميريّ: [من المتقارب]

وأمّا بلالٌ فذاك الذي ... يميل الشرابُ به حيثُ مالا
يبيت يمصُّ عتيقَ الشراب ... كمصِّ الوليد يخاف الفِصالا
ويصبح مضطربًا ناعسًا ... تخال من السُّكْر فيه احولالا
ويمشي ضعيفًا كمشي النزيفِ(٦) ... تخالُ به حين يمشي شِكالا(٧)

---

(١) يحيىٰ بن أكثم: فقيه وقاض، ولد في مرو بخراسان، صار قاضي القضاة ببغداد في أيام المأمون. عزله المتوكّل ومات سنة ٢٤٢ هـ/ ٨٥٧ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣١٤.

(٢) عبد الله بن طاهر: من أشهر ولاة المأمون، وطّد الأمن في مصر، خلف أخاه طلحة في حكم خراسان سنة ٨٢٨ م، توفي سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م. انظر: الفهرست ص ١٧٠.

(٣) اللّحد: جانب القبر.

(٤) جار: خالف الصواب.

(٥) الراح: الخمرة.

(٦) النزيف: من سال دمه.

(٧) الشكال في القدمين: شدّهما وعدم قدرتهما على المشي.

ومنهم: عبدُ الرحمٰن بنُ عبدِ الله الثقفيّ قاضي الكوفة وفُضِح بمنادمة سعدِ بن هَبّارٍ وفيه يقول حارثة بن بدر: [من البسيط]

نهارُه في قضايا غيرِ عادلةٍ | وليلُهُ في هَوَى سعد بن هَبّارِ

ومنهم: آدمُ بنُ عبدِ العزيز بنِ عمرَ بنِ عبد العزيز، وهو الذي يقول: [من مجزوء الرمل]

هاك فاشرب يا خليلي | في مَدَى الليل الطويلِ
قهوةً[1] في ظلّ كرمٍ | سُبِيَتْ من نهر نيلِ
في لسانِ المرء منها | مثلُ لَذْعِ الزنجبيلِ[2]
إنما أذهبَ مالي | طولُ إدمانِ الشَّمولِ[3]
وحنينُ العُودِ تثنيه | يدا ظبيٍ كحيلِ
فالطويلُ العُنقِ الأهيفُ[4] | كالسيفِ الصقيلِ
يا خليليَّ اسقياني | واهتفا بالشمس زُولي[5]
قل لمن لامك فيها | من نصيحٍ أو عذولِ
يَبْقَ بين الباب والدار | على نَغْبِ الطلولِ[6]

وقيل لأبيه عبد العزيز بن عمر: إنّ بنيك يشربون الخمر، فقال: صفوهم لي، فقالوا: أما فلانٌ إذا شربَ خرق ثيابَه وثيابَ نديمه، فقال: سوف يدَعُ هذا شربَها، قالوا: وأما فلان فإذا شربها تقيّأ في ثيابه، قال: وهذا سوف يدعُها، قالوا: وأما آدمُ فإذا شربها فأسكنُ ما يكون لا ينالُ أحدًا بسوء، قال: هذا لا يدعُها أبدًا.

ومنهم: حارثةُ بنُ زيدٍ العَدْوانيّ - رجل من تميم - دخل يومًا على زيادِ ابن أبيه[7] وبوجهه أثر، فقال له زياد: ما هذا الأثرُ بوجهك؟ فقال: أصلحَ الله الأمير

---

(١) القهوة: الخمرة.
(٢) الزنجبيل: ضرب من النبات في عروقه فوائد طبيّة، ونكهة طيّبة.
(٣) الشمول: الخمرة.
(٤) الأهيف: الناحل الطويل والدقيق الخصر.
(٥) زولي: اذهبي وغيبي.
(٦) الطلول: الديار الدارسة، والنعب عليها: النحيب، والإصاتة بصوت البوم.
(٧) زياد بن أبيه: أمير وقائد، نسبه غير صريح فلقّب بابن أبيه، ألحقه معاوية بنسبه وولّاه الكوفة، ثم البصرة. كان خطيبًا وحسن الإدارة. مات سنة ٥٣ هـ/ ٦٧٣ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٥٩.

ركبت فرسي الأشقرَ فجمح بي حتى صدمني الحائطُ، فقال: أما إنك لو ركبتَ فرسكَ الأشهبَ لم يصبْك مكروه. ولحارثةَ فيها أشعارٌ كثيرة وأخبارٌ مع الأحنف بن قيسٍ، وكان الأحنفُ ينهاه عنها وهو لا ينتهي ويجيبُه بشعر في مدحها، وقيل: إن حارثةَ هذا أدركَ النبيّ ﷺ بالسنّ في حال صباه وحداثته.

ومنهم: والبةُ بنُ الحُبَاب الأسديّ[1]، وهو الذي ربّى أبا نُوَاس وأدّبه وعلّمه الفتوّة وقول الشعر. حكى أن المنصورَ قال له يومًا: ادخلْ إلى محمد ـ يعني المهديّ ـ وحدِّثه، فدخل عليه، فأوّل ما أنشده قوله: [من السريع]

قولا لعمرو لا تكنْ ناسيًا ... وسقِّني لا تحبسنْ كاسيا

وازْدُدْ على الهيثمِ مثلَ الذي ... هجتَ به ويحك وَسْواسِيا

وقل لساقينا على خلوةٍ ... أدنِ[2] كذا رأسَك من راسيا

فبلغ ذلك المنصور، فقال: لا تعيدوه إليه أردنا أن نصلحه فأراد هو أن يفسده.

ومنهم: أبو الهنديّ وهو عبد المؤمن بن عبد القدّوس بن شبث بن رِبعيّ اليربوعيّ، حجّ به نصرُ بن سيّار[3] فلما وردَ الحرمَ، قال له نصر: إنك بفِناء بيت الله الحرامِ ومحلّ حرمِه فدعِ الشرابَ، فلما زال عنه وضعه بين يديه وجعل يشربُ ويبكي، ويقول: [من الطويل]

رضيعُ مدامٍ[4] فارق الراحُ رُوعَه[5] ... فظلّ عليها مستهلّ المدامِعِ

أديرا عليّ الكأسَ إني فقدتها ... كما فَقَد المفطومُ دَرَّ المراضعِ

ومرّ به نصر بنُ سيّارٍ وهو يميلُ سكرًا، فقال له: أفسدت شرفك، فقال: لو لم أُفسدْ شرفي لم تكن أنت اليوم والي خراسان.

ومنهم: سعيدُ بن وهب وكان شاعرًا بصريًّا.

---

(١) والبة بن الحباب: شاعر غزل ماجن، كوفي النشأة، مات سنة ٧٨٦ م.

(٢) أدن: قرّب.

(٣) نصر بن سيّار: أمير وشاعر عربي، حكم خراسان من قبل الأمويّين، قضى عليه أبو مسلم الخراساني، توفي سنة ١٣١ هـ/ ٧٤٨ م.

(٤) المدام والراح: صفتان للخمرة. (٥) روعه: قلبه.

ومنهم: الحسين بن الضحّاك[١] النديم صاحبَ الحسنَ بنَ هانىءٍ وكان خليعًا ماجنًا مليح الشعر، وهو الذي يقول: [من الطويل]

ألا إنما الدُّنيا وصالُ حبيبِ وأخذُك من مشمولةٍ[٢] بنصيبِ
وعيشُك بين المُسمعاتِ ممتَّعا بفنّيْن من عزف وشدوِ مصيبِ
وأنسٌ وإنسان تلذُّ بقربه وبذلةُ معشوقٍ ونومُ رقيبِ
وعدِّيَ ساعاتِ النهارِ ورِقْبتي إلى الشمس لما آذنت[٣] بمغيبِ

ومنهم: يحيىٰ بن زياد وهو الذي يقول: [من الطويل]

أعاذِلُ ليتَ البحرَ خمرٌ وليتني مدى الدهر حوتٌ ساكن لُجَّةَ[٤] البحرِ
فأُضحي وأُمسي لا أُفارق لجّة أُروِّي بها عظمي وأُشفي بها صدري
طوال الليالي، ليس عنّي بناضبٍ ولا ناقصٍ حتى أصيرَ إلى الحشرِ[٥]

ومنهم: أبو نُوَاس الحسنُ بنُ هانىءٍ ممّن اشتهر بالشرابِ واللّهوِ والطربِ ومنادمة القيان، وله في الخمر تشبيهات حسنةٌ وحكايات ظريفةٌ، نذكر هٰهنا من أخباره طرفًا:

حكي أنَّ مسلمَ بنَ الوليدَ[٦] عاتبه وقال: يا أبا نواس، قد خلعت عذارَك وأطلت الإكبابَ على المجون حتى غلب على لبّك وما كذلك يفعل الأدباء! فأطرق ثم قال: [من المتقارب]

فأوّلُ شربك طرحُ الرداء وآخرُ شربك طرحُ الإزارِ[٧]
وما هنّأتك الملاهي بمثل إماتة مجدٍ وإحياءِ عارِ
وما جادَ دَهْرٌ بلذّاته على من يَضَنّ[٨] بخلع العذارِ[٩]

---

(١) الحسين بن الضحاك: شاعر عباسي لقّب بالخليع، نادم الخلفاء وصاحب أبا نواس، عُرِف بالمجون، له خمريات وغزليات مشهورة، مات سنة ٨٤٦ م.
(٢) المشمولة: صفة للخمرة.
(٣) آذنت: شارفت.
(٤) لجّة البحر: معظم مائه.
(٥) الحشر: الموقف في القيامة.
(٦) مسلم بن الوليد: شاعر عباسي، خليع، لقّب بصريع الغواني، اتصل بالخلفاء والولاة، تولى البريد بجرجان، مات سنة ٨٢٣ م.
(٧) الإزار: ما يؤتزر به من الثياب.
(٨) يضنّ: يبخل.
(٩) خلع العذار: التخلّي عن الحياء، والعذار: جانب الوجه.

فانصرف مسلم وقد أيسَ من فلاحه وهو يقول: جوابٌ حاضر، من كهلٍ فاجر، ومما يُحفظ من أخباره، ويُروى من أشعاره في ذلك: أنه بلَغ إخوانه عنه أنه ترك الشراب واللذّاتِ وأخذ في الزهد والصلاة في أوقاتها، فاجتمعوا إليه وأقبلوا يهنِّئونه، فوضع بين يديه باطِيَةً وجعل لا يدخل إليه أحد يهنّئه إلا شرب بين يديه رطلًا وأنشد: [من البسيط]

قالوا نزعتَ ولمّا يعلموا وطري[١]
في كلّ أغيد[٢] ساجي[٣] الطرف[٤] ميّاسِ[٥]

كيف النزوع وقلبي قد تقسّمه
لحظُ العيون وقرع السنّ بالكاسِ

لا خير في العيش إلا في المجون مع الـ
ـأكفاء[٦] والراح والريحان والآسِ[٧]

ومسمع يتغنّى والكؤوس لها
حثٌّ علينا بأخماسٍ وأسداسِ

يا مُوريَ الزند[٨] قد أكبت[٩] قوادحُه[١٠]
اِقبِس[١١] إذا شئت من قلبي بمقباسِ[١٢]

ما أقبح الناسَ في عيني وأسمجَهم
إذا نظرتُ فلم أُبصِرْك في الناس

وحدّث الفضل بنُ سلمةَ عن الثوريّ، قال: خرج الحسن بن هانىء ومعه مُطَيطٌ صاحبُه، حتى أتيار دار خمّار. فقال الحسنُ لمطيط: ادخل بنا نمزح بهذا الخمّار. فدخلا فسلّما فردّ عليهما؛ فقال له الحسن: أعندك خمرٌ عتيقةٌ يا خمّار؟ فقال: عندي

---

(١) الوطر: الغاية.
(٢) الأغيد: من فيه غيد، أي لِين وطراوة.
(٣) الساجي: الهادىء.
(٤) الطرف: العين.
(٥) الميّاس: المترنّح.
(٦) الأكفاء: النظراء.
(٧) الآس والريحان: من الزهور.
(٨) موري الزند: من يشعل النار.
(٩) أكبت: أخلفت.
(١٠) القوادح: جمع قادحة، وهي التي بها تضرم النار وتشتعل.
(١١) اقبس: اطلب النار.
(١٢) المقباس: الآلة التي تقبس بها النار.

منها أجناس، فأيها تريد؟ قال: التي يقول فيها الشاعر: [من الخفيف]

حُجبَتْ خيفةً وصِينتْ فجاءت كجلاءِ العروس بعد الصِّيانِ[1]
وكأنّ الأكفَّ تُصْبَغُ من ضو ءِ سناها بالوَرْسِ[2] والزعفرانِ

فملأ له الخمّار قَدَحًا من خمر صفراء، كأنها ذهبٌ محلولٌ؛ فشربه الحسن وقال: أحسنُ من هذا أُريد. فقال له الخمار: أيّ جنسٍ تريد؟ قال: التي يقول فيها الشاعر: [من الخفيف]

دفعتها أيدي الهواجر[3] حتّى صيَّرتْ جسمَها كجسم الهواءِ
فهي كالنُّور في الإناء وكالنّا ر إذا ما تَصيرُ في الأحشاءِ

فملا له الخمارُ قدحًا من خمر كأنّها العقيقُ، فشربه وقال: أرفع من هذا أُريد. فقال: أيّ جنس؟ قال: التي يقول فيها الشاعر: [من الكامل]

وإذا حَسَا[4] منها الوضيعُ ثلاثةً سَمُحَ الوضيعُ[5] كفعلِ ذي القَدرِ
في لون ماء الغيث إلا أنها بين الضلوعِ كواقد الجمر

فملأ له قَدَحًا من خمرٍ بيضاء، كأنها ماءُ المُزْنِ. فشرب الحسن وقال للخمار: أتعرفُني؟ قال: إي والله يا سيّدي، أنا أعرَفُ الناسِ بك. قال: من أنا؟ قال: أنت الذي يسكرُ من غير وزن. فضحك الحسنُ وقال لمطيطٍ: ادفعْ إليه ما بقي عندك من النفقه، فأعطاه مائة درهم وانصرف.

وقال الحسينُ بن الضحّاك: كنتُ مع أبي نُوَاس بمكةَ عام عجٍّ، فسمع صبيًا يقرأ: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠]، فقال أبو نُوَاس؛ في مثل هذا يجيء للخمر صفةٌ حسنة؛ ففكّر ساعةً ثم أنشدني: [من الطويل]

وسيّارةٍ[6] ضلّت عن القصد بعد ما ترادفهم أفقٌ من الليل مظلمُ
فأصغوا إلى صوتٍ ونحن عصابةٌ وفينا فتًى من سكره يترنّمُ

(١) الصّيان: الحفظ.
(٢) الورس: ضرب من النبت أو الزهر الأصفر يشبه الزعفران.
(٣) الهواجر: جمع هاجرة، وهي شدة الحرّ في منتصف النهار.
(٤) حسا: شرب. (٥) الوضيع: الحقير.
(٦) السيّارة: جماعة المسافرين.

فلاحتْ لهم منّا على النأي قهوة[١] كأن سناها[٢] ضوءُ نارٍ تضرَّمُ[٣]
إذا ما حسوناها أقاموا مكانهم وإن مُزجتْ حثُّوا[٤] الركاب ويمّمُوا[٥]

قال: فحُدّث بهذا الحديث محمدُ بنُ الحسين فقال: لا ولا كرامة، ما سرقه من القرآن؛ ولكن من قول الشاعر: [من الطويل]

وليلٍ بهيمٍ[٦] كلّما قلت غوّرتْ[٧] كواكبُهُ عادت لنا تتذيّلُ
به الركبُ إمّا أومضَ البرقُ يمّموا وإن لم يَلُحْ فالقوم بالسير جُهَّلُ

وقال أبو نُوَاس فيها: [من الطويل]

ألا دارِها بالماء حتى تُلينَها فما تُكرَمُ الصهباءُ[٨] حتى تُهينَها
أُغالي بها حتى إذا ما مَلِلْتُها أهنتُ لإكرام النديم مصونَها

وقال أيضًا: [من الكامل]

نَبّهتُهُ والليلُ ملتبسٌ به وأزحتُ عنه خُثَاثَهُ[٩] فانزاحا
قال ابغِني المصباحَ، قلتُ له اتّئدْ[١٠] حسبي وحسبُك ضوؤُها مِصباحا
فسكبت منها في الزجاجة شَربةً كانت له حتى الصباحِ صباحا
من قهوةٍ جاءتْك قبلَ مِزاجها عطلًا[١١] فألبسها المِزاجُ وشاحا
شكَّ البِزالُ[١٢] فؤادَها فكأنّها أبدت إليك بريحها تُفاحا

وقال أيضًا: [من السريع]

رُدّا عليَّ الكأسَ، إنكما لا تدريان الكأسَ ما تُجدي[١٣]
خوّفتماني اللهَ جَهدَكما وكخيفَتِيه رجاؤه عندي
لا تعذُلَا في الراح إنّكما في غفلةٍ عن كنه ما تُسدي[١٤]

---

(١) القهوة: الخمرة.
(٢) سناها: ضوؤها.
(٣) تضرّم: تتوقّد وتشتعل.
(٤) حثّوا: أهابوا بها لتسرع الخطو.
(٥) يمّموا: قصدوا.
(٦) البهيم: الشديد السواد.
(٧) غوّرت: غابت.
(٨) الصهباء: الخمرة.
(٩) خثاثه: رقاده.
(١٠) اتّئد: تمهّل.
(١١) العطل: الخالية من الزينة.
(١٢) البزال: المفتاح يبزل به الزقّ، أي يشقّ.
(١٣) تجدي: تعود بالنفع.
(١٤) تسدي: تعطي.

لو نلتما ما نلتُ ما مُزِجتْ   إلا بدمعكما من الوجدِ
ما مثل نُعماها إذا اشتملت   إلا اشتمالُ فمٍ على خدِّ
إن كنتما لا تشربان معي   خوف الإلٰه شربتُها وحدي

وأخبار الحسن بن هانىء فيها كثيرة، وفيما أوردناه منها كفاية.

ومنهم: الثَّرْوانيّ، كان شاعرًا مطبوعًا بليغًا، من أهل الخلاعة المشهورين.

وكان آخرُ أمرِه أنْ أُصيبَ في حانة خمّار بين زِقَّيْ[1] خمرٍ وهو ميْتٌ، وهو القائل فيها: [من البسيط]

كَرَّ الشرابُ على نَشْوانَ[2] مُضْطَجِعٍ[3]   قد هبَّ يشربُها والدِّيكُ لم يَصِحِ
والليلُ في عسكرٍ حُمرٍ بَوَارِقُهُ   من النجوم، وضوءُ الصُّبحِ لم يضحِ[4]
والعيشُ لا عيشَ إلا أن تُباكِرُها   نشوانَ تقتُلُ همَّ النفسِ بالفرحِ
حتى يظَلَّ الذي قد باتَ يشربُها   ولا مراحَ[5] به يختالُ كالمَرِحِ

ومنهم: مُطِيعِ بن إياس[6]، وكان شاعرًا أديبًا ظريفًا مشتهرًا بالخلاعة واللّعب. وكان أصحابُه على ذلك، وهم يحيىٰ بن زيادٍ، ووالبةُ بن الحُبابِ، وحمّادُ عجرد.

ومنهم: أبو عبدِ الرحمٰن العَطَوِيّ، كان شاعرًا فصيحًا، لا يكاد يتقدّمُه أحدٌ لجزالة ألفاظه وحلاوةِ معانيه. وكان مولعًا بالخمر مشتهرًا بها مُدمنًا عليها، أكثرُ أشعاره فيها؛ فمن شعره: [من البسيط]

أخطبْ لكأسِك نَدْمانًا[7] تُسَرُّ به   أوْ لا فنادِمْ عليها حِكمةَ الكُتُبِ
أُخطبهُ حرًّا كريمًا ذا مُحافظةٍ   تَرى مودّتَهُ مِنْ أقربِ النَّسَبِ

---

(١) زقي: مثنى زق، وهو وعاء الخمرة.
(٢) النشوان: الملتذ.
(٣) المضطجع: المتحدّد للنوم.
(٤) يضح: يطلع ويتضح.
(٥) المراح: السرور والاختيال.
(٦) مطيع بن إياس: شاعر بغدادي ماجن، مدح الوليد بن يزيد والمنصور، في شعره حداثة ورقّة وظرف. مات سنة ٧٨٣ م.
(٧) الندمان: النديم وزميل الشراب.

وقال أيضًا: [من الوافر]

وكم قالوا تَمَنَّ، فقلتُ كأسًا ... يطوف بها قضيبٌ[١] في كثيبِ

ونَدْمانًا يُساقطني حديثًا ... كصدقِ الوعد أو غضِّ الرقيبِ

ومنهم: أبو هفّان، وكان شاعرًا محسنًا، وخليعًا ماجنًا. حُكي أنه شربَ مع أحمدَ بن أبي طاهرٍ[٢] حتى فنيَ ما عندهما، وكانا بجوارِ العلاءِ بنِ أيّوب. فقال ابن أبي طاهر لأبي هفّان: تماوتْ حتى نحتالَ على أبي العلاء في أن ينيلَنا شيئًا. فمضى إليه ابنُ أبي طاهر فقال: أصلحك الله! نزلنا جوارَك فوجب حقّنا عليك، وقد مات أبو هفّان وليس له كَفَن. فقال لوكيله: امضِ معه وشاهدْ أمره وادفعْ إليه كَفَنًا، فأتاه فوجده مُلقًى عليه ثوبٌ فنقر أنفه فضرط. فقال: ما هذا؟ فقال: أصلحك الله عَجَّلْتَ له صعقةَ القبر فإنّه مات وعليه دين؛ فضحك وأمر له بدنانير.

ومنهم: الأقيشر، وكان مغرمًا بالشراب مُدمنًا عليه، وهو القائل: [من الطويل]

ومُقْعَدِ قومٍ قد مَشَى مِنْ شرابنا ... وأعمى سقيناه ثلاثًا فأبصرا

كميتٌ كأن العنبرَ الوردَ ريحُه ... ومسحوقَ هنديٍّ من المِسْك أذفرا[٣]

ومنهم: النعمانُ بنُ عليّ بن نَضْلة، وكان عاملًا لعمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه على مَيْسان[٤]، وكان مدمنَ الشراب؛ وهو القائل: [من الطويل]

ألا أبلِغِ الحسْناءَ أنّ خليلَها ... بمَيْسان يُسْقَى في زُجاجٍ وحَنتمِ[٥]

فإنْ كنتَ نَدماني فبالأكبر اسقِني ... ولا تسقِني بالأصغر المتثلِّمِ[٦]

لعلّ أميرَ المؤمنين يسوءه ... تَنَادُمُنا بالجَوْسَقِ[٧] المتهدِّمِ

فبلغ الشعر عمرَ رضي الله عنه.

---

(١) القضيب: كناية عن الساقي الذي يشبه القضيب بقدّه، ومثله الكثيب، إشارة إلى مؤخرته التي تشبه الكثيب من الرمل وغيره.

(٢) هو أحمد بن طيفور بن أبي طاهر، المؤرخ البغدادي، وصاحب «تاريخ بغداد» مات سنة ٨٩٣ م.

(٣) الأذفر: الشديد الرائحة الذكيّة.

(٤) ميسان: مقاطعة في جنوب العراق على حدود بلاد فارس.

(٥) الحنتم: الجرّة. (٦) المتثلم: المتصدع.

(٧) الجوسق: القصر.

فكتب إليه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: الآيات ١ - ٣]، أمّا بعد، فقد بلغني قولك:

لعلَّ أميرَ المؤمنين يسوءه   تنادُمُنا بالجَوْسَقِ المتهدِّمِ

وأيمُ الله لقد ساءني! وعَزَله. فلمّا قدِم عليه سأله، فقال: والله ما كان من هذا شيء، وما كان إلا فَضْل شِعرٍ وجدتُه وما شربتُها قطُّ. فقال عمر: أظنّ ذلك، ولكن لا تعمل لي عملًا أبدًا. فنزل البصرة، ولم يزل يغزو مع المسلمين حتى مات رحمه الله.

ومنهم: عمارةُ بنُ الوليدِ بنِ المغيرة، خطب امرأةً من قومه، فقالت: لا أتزوّجُك حتى تدعَ الخمر والزّنى. فقال: أمّا الزّنى فإني أدعه، وأما الخمر فوجدي بها شديد. ثم اشتدّ وجده بالمرأة فعاود طلبها؛ فقالت: حتى يحلف بطلاقي يوم يزني أو يشرب خمرًا، فحلف لها وتزوّجها. ومكث حينًا لا يشرب، إلى أن مرّ بخمّار وعنده قومٌ يشربون وقَيْنةٌ تغنّيهم وهو على ناقةٍ؛ فطرب إليهم وارتاح ورمى بثيابه إلى الخمّار، وقال: اسقِهم بها؛ ونحر لهم ناقته، ومكث أيامًا يطعمُهم ويسقيهم حتى أنفد[1] ما معه. ثم رجع إلى امرأته، فلامته، فأنشأ يقول: [من الطويل]

أقلّي عليَّ اللّومَ يا أُمَّ سالم   وكُفّي فإن العيش ليس بدائِمِ
أسرَّكِ لمّا صرَّعَ[2] القومَ نشوةٌ   خروجي منهم سالمًا غير غارِمِ[3]
سليمًا كأنّي لم أكُنْ كنتُ منهُمُ   وليسَ الخِداعُ مِنْ تَصافِي التنادُمِ

ثم قال: الحَقي بأهلكِ، وعاد إلى ما كان عليه.

* * *

وأمّا من افتخر بشربها وسِبائها[4]، فقد كانت العرب تفتخر بسبائها، وتضيفه إلى عظيم غنائها، وتقرنه بمذكور بلائها. وشاهد ذلك قول امرىء القيس[5]: [من

(١) أنفد: أهلك وصرف.   (٢) صرّع: أهلك.
(٣) غارم: مديون.   (٤) سبائها: شرائها.
(٥) امرؤ القيس: شاعر جاهلي قديم، صاحب المعلّقة الأولى المشهورة، وضعه ابن سلام في رأس الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين. ابن ملك، حاول أن يثأر لمقتل أبيه فأخفق ومات في طريق العودة من القسطنطينية.

الطويل]

كـأنّـيَ لـم أركـبْ جـوادًا لـلذَّةٍ ولم أتبطَّنْ كاعِبًا[1] ذاتَ خَلخالِ
ولم أسبا الزِّقَّ الرويَّ ولم أقل لخيليَ كُرِّي كَرَّةً بعدَ إجفالِ

فقَرن جودَه في سِباء الزقّ ببسالته في كرّ الخيل. ولمّا أنشد أبو الطيّب المتنبي سيف الدولة بن حمدان[2] قصيدته التي يقول فيها: [من الطويل]

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كأنك في جفن الردَى[3] وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى[4] هزيمةً ووجهُك وضّاحٌ[5] وثغرُكَ باسمُ

فقال له سيف الدولة: إنتقدنا عليك يا أبا الطيّب هذين البيتين كما انتُقِد على امرىء القيس بيتاه، وذكرهما، قال: وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما لا يلتئم شطرا هذين البيتين: كان ينبغي لامرىء القيس أن يقول:

كأنّيَ لم أركب جوادًا ولم أقل لخيليَ كرّي[6] كرّة بعد إجفالِ
ولم أسبأ الزقّ الرويّ لـلذّةٍ ولم أتبطّن كاعبًا ذات خلخال

وأن تقول أنت:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ ووجهك وضّاحٌ وثغرك باسمُ
تمرّ بك الأبطال كَلْمَى هزيمةً كأنك في جفن الردَى وهو نائمُ

فقال: أيّد الله مولانا! إن كان صحّ أنّ الذي استدرك على امرىء القيس أعلمَ منه بالشعر فقد أخطأ امرؤُ القيس وأخطأتُ أنا، والثوبُ لا يعرفُه البزّاز[7] معرفةَ الحائك؛ لأن البزّاز يعرفُ جملتَه والحائكُ يعرف جملته وتفاريقَه، لأنه هو الذي أخرجه من الغزليّة إلى الثوبيّة. وإنما قرن امرؤ القيس لذّةَ النساءِ بلذّة الركوب للصيد، وقرن السماحةَ في سباءِ الخمر للأضياف بالشجاعة في مُنازلةِ الأعداء؛ وأنا لما ذكرتُ الموتَ في أوّل البيت أتبعتُه بذكر الردَى وهو الموت ليجانسَهُ. ولما كان الجريحُ

(١) الكاعب: الفتاة التي كعب نهداها، أي ظهرا.
(٢) سيف الدولة: لقب لأمير حلب رئيس الدولة الحمدانية، واسمه علي بن حمدان، انقطع إليه أبو الطيب المتنبّي فمدحه بغرر الأشعار.
(٣) الردى: الموت.
(٤) كلمى: جرحى.
(٥) وضاح: مشرق، منير.
(٦) كرّي: اقدمي بسرعة.
(٧) البزاز: بائع الثياب.

المنهزمُ لا يخلو من أن يكون عبوسًا وعينُه باكيةٌ، قلت:

* ووجـهـك وضّـاح وثـغـرك بـاسـم *

لأجمع بين الأضداد في المعنى وإن لم يتَّسِع اللفظُ لجميعِها، فأُعجب سيفُ الدولة بقوله ووصله.

وقال لَقِيط بن زُرارة: [من الوافر]

شربتُ الخمرَ حتى خلتُ أنّي   أبو قابوسَ أو عبدُ المَدَان[1]

وقال حسّان بن ثابت الأنصاريّ[2] عفا الله عنه ورحمه: [من الوافر]

إذا ما الأشرِباتُ[3] ذُكِرنَ يومًا   فهنّ لِطَيِّب الراح[4] الفِداءُ

ونشربها فتتركنا ملوكًا   وأُسْدًا ما ينهنهها[5] اللّقاءُ

حُكِيَ أن حسَّان بن ثابتٍ عنّف جماعةً من الفتيان على شرب الخمر وسوء تنادمهم عليها وأنهم يُضرَبُون عليها ضربَ الإبل ولا يرجعون عنها؛ فقالوا: إنا إذا هممنا بالإقلاع عنها ذكرنا قولك:

ونشربُها فتَتْرِكُنا ملوكًا   وأسْدًا ما يُنَهْنهها اللقاءُ

فعاودناها.

وقال الأخطل[6] يخاطب عبد الملك بن مروان: [من الطويل]

إذا ما نديمي علّني[7] ثم علّني   ثلاثَ زجاجات لهنّ هديرُ

خرجتُ أجرُّ الذيلَ حتى كأنّني   عليك أميرَ المؤمنين أميرُ

---

(١) أبو قابوس، ملك من ملوك المناذرة اللخميّين. ولقيط بن زرارة: فارس مشهور قُتل يوم جبلة. انظر خبره في: الكامل في اللغة ١/ ٧٢.

(٢) حسان بن ثابت: شاعر مخضرم من أهل المدينة، مدح الغساسنة في الجاهلية، أسلم ولقّب بشاعر الرسول ﷺ، هجا قريشًا، وله ديوان مطبوع. توفي سنة ٦٧٤ م.

(٣) الأشربات: جمع شراب.

(٤) الراح: الخمرة.

(٥) ينهنهنا: يمنعنا.

(٦) الأخطل: غياث التغلبي، شاعر نصراني أموي، له نقائض مع جرير، مدح الأمويين وهجا أعداءهم. توفي سنة ٧١٠ م.

(٧) علّني: سقاني ثانيةً.

وقال آخر: [من الطويل]

إذا صدَمَتْني الكأسُ أبدَت محاسِني ولم يخشَ نَدْماني أذايَ ولا بُخْلِي
ولستُ بفَحَّاشٍ[١] عليه وإنْ أسَا وما شكلُ مَنْ آذى نداماه مِن شَكْلِي

وقال آخر: [من الطويل]

شَرِبنا من الدّاذِي[٢] حتى كأنّنا ملوكٌ لهم بَرُّ العِراقَيْن[٣] والبَحْرُ
فلمّا انجلَتْ شمسُ النهار رأيتُنا تَوَلَّى الغِنى عنّا وعاوَدَنا الفقرُ

ومثله للمُنَخَّل اليَشْكريّ[٤]: [من مجزوء الكامل]

فإذا سكِرْتُ فإنّني ربُّ الخوَرْنق والسَّدِير[٥]
وإذا صحوتُ فإنّني ربُّ الشُّوَيْهَةِ[٦] والبعيرِ[٧]

وقال عنترةُ[٨]: [من الكامل]

وإذا سكرتُ فإنّني مستهلك مالي، وعِرضي وافرٌ لم يُكْلَم[٩]
وإذا صحوتُ فما أُقَصِّر عن نَدًى[١٠] وكما علمتِ شمائلي[١١] وتَكَرُّمي

أخذه البحتريّ[١٢] وزاد عليه في قوله: [من الطويل]

وما زلتَ خِلّا[١٣] للندامى إذا انتشوا وراحوا بُدورًا يستحثّون[١٤] أنجما
تكرّمتَ من قبْلِ الكُؤوسِ عليهمُ فما اسطعن أن يُحدثن فيك تكرُّما

---

(١) الفحّاش: الشديد الفحش والبذاءة. (٢) الداذي: شراب معروف بشدّة إسكاره.
(٣) العراقان: دجلة والفرات.
(٤) المنخّل اليشكري: ابن مسعود بن عامر بن ربيعة، شاعر جاهلي قديم نادم النعمان بن المنذر.
(٥) الخورنق والسدير: قصران فارسيّان مشهوران في العراق.
(٦) الشويهة: الشاة الصغيرة. (٧) البعير: الجمل.
(٨) عنترة: هو عنترة بن شداد العبسي، من مشاهير شعراء الجاهلية وفرسانها، ومن أصحاب المعلّقات. اشتهر ببطولته وكريم أخلاقه. أحبّ ابنة عبلة وله فيها شعر غزلي جيّد، توفي نحو ٦١٥ م.
(٩) يكلم: يجرح. (١٠) الندى: الجود والكرم.
(١١) الشمائل: الأخلاق الفاضلة.
(١٢) البحتري: أبو عبادة البحتري، شاعر عباسي عربي طائي، ولد في منبج ومدح المتوكّل ووزيره الفتح بن خاقان، اشتهر بوصف الطبيعة. شعره حسن الديباجة، له ديوان شعر مشهور. وله «ديوان الحماسة» على غرار «ديوان الحماسة» أبي تمام، مات سنة ٨٩٧ م.
(١٣) الخلّ: الصديق. (١٤) يستحثّون: يستعجلون.

والزيادةُ أنَّ عنترةَ ذكر أنه يستهلك مالَه إذا سكر، والبحتري ذكر أن ممدوحه يتكرّمُ قبل الكؤوس فيبالغ حتى لا تستطيع الكؤوس أن تزيده تكرُّمًا.

وكان الأعشى[١] ميمون بن قيس مشهورًا بتَعاطي الخمر مشغوفًا بها كثير الذِّكر لها في شعره، ومن اشتهاره بها قال المفضّل بين قدماء الشعراء: أشعرهُم امرؤ القيس إذا ركب، والنابغةُ إذا رهب، وزُهَيْر إذا رغِب، والأعشى إذا طَرِب. وقصد الأعشى رسول الله ﷺ ليُسلم وامتدحَه بقصيدته التي أوّلها:

ألم تغتمض عيناك ليلةَ أرْمَدَا[٢] وبِتَّ كما باتَ السليمُ[٣] مسهّدا[٤]

فاعترضه في طريقه من أراد منعَه، فقالوا له: إنه يحرّم عليك الزّنى والخمر. فقال: أمّا الزنى فقد كَبِرتُ فلا حاجةَ لي فيه، وأما الخمر فلا أستطيعُ تركَها. وعاد لينظر في أمره، وقيل: إنّه قال: أعود فأشربها سنةً وأرجع، فمات قبلَ الحول.

قالوا: ونظر الحسن بن وهب[٥] إلى رجل يَعبِس في كأسه، فقال: ما أنصفتَها، تضحك في وجهك وتعبِس في وجهها. ومن ذلك قول الشريف الرضيّ[٦]: [من البسيط]

كالخمر يعبِس حَاسِيها على مِقةٍ[٧] والكأسُ تجلو عليه ثغرَ مبتسمِ

---

(١) الأعشى، ميمون بن قيس: يقال له الأعشى الكبير أو أعشى قيس، لقّب بصناجة العرب. له ديوان شعري، وهو صاحب معلّقة مشهورة، توفي سنة ٦٢٩ م.

(٢) أرمد: أصيب بالرمد، والأرمد: ما كان بلون الرماد، وليلة أرمد مشهورة.

(٣) السليم: اللديغ، سمي بذلك على سبيل الفأل.

(٤) المسهّد: السهران.

(٥) الحسن بن وهب: شاعر وكاتب ومتطرف، عاصر أبا تمام، ولما مات رثاه. انظر: مروج الذهب ٤/ ٧٥.

(٦) الشريف الرضي: محمد بن الحسين، من كبار الشعراء العباسيين، عاش في بغداد، وكانت له نقابة الأشراف الطالبيين، في شعره عذوبة وجزالة وبداوة واعتداد بالنفس. أشهر شعره «الحجازيات» و«الإخوانيات»، وهو الذي جمع كتاب «نهج البلاغة» للإمام عليّ بن أبي طالب، كما أن له «المجازات النبويّة»، توفي سنة ١٠١٦ م.

(٧) المقة: البغض.

وهو مأخوذ من قول عبد الله بن المعتزّ[١] حيث يقول: [من الكامل]

ما أنصف النَّدمانُ كأسَ مُدَامةٍ ... ضَحِكتْ إليه فشمّها بتعبُّس

ذكر شيء مما قيل فيها من جيّد الشعر

قد أوسع الشعراءُ في هذا المعنى وأطنبوا فيه وتنوّعوا، فمنهم من مدحها ومنهم من وصفَها وشبّهها، ومنهم من ذكرَ أفعالَها وتغزّل فيها. وسنورد في هذا الموضع نبذةً مما طالعناه في ذلك؛ إذ لو أوردنا مجموعَ ما وقفنا عليه لطال، ولاتّسعتْ فيه دائرةُ المقال.

* * *

فأمّا ما قيل فيها على سبيل المدح لها، فمن ذلك قولُ ابنِ الروميّ[٢]، حيث يقول: [من الكامل]

تالله ما أدري بأيّة عِلّةٍ ... يدعون هذا الراحَ[٣] باسم الراحِ؟

ألريحها ولرَوْحها تحت الحشا ... أمْ لارتياح نديمِها المرتاحِ؟

إنْ حُرّمت فبحقِّها مِنْ خمرةٍ ... ما كان مِثلُ حريمِها بمُباحِ

أوْ حُلّلتْ فبِحَقّها مِن نَشوةٍ ... تُشفي سِقامَ[٤] قلوبُنا بصِحاحِ

وقال أيضًا: [من البسيط]

خمرٌ إذا ما نديمي ظلّ يَكْرَعها[٥] ... أخشى عليه من اللألاء[٦] يحترقُ

لو رامَ[٧] يحلِفُ أنَّ الشمس ما غَرَبت ... في فيه كذّبه في وجهه الشَّفَقُ[٨]

---

(١) عبد الله بن المعتزّ: هو أبو العباس عبد الله، أمير عباسي، شاعر وأديب، ولي الخلافة يومًا وبعض يوم بعد أن خلع المقتدر، ولقّب بالمرتضى بالله. له ديوان شعري مشهور، وهو صاحب كتاب «طبقات الشعراء» وكتاب «البديع» مات خنقًا سنة ٩٠٨ م. انظر: مروج الذهب ٤/ ٢٩٣.

(٢) ابن الرومي: هو علي ابن العباس الشاعر البغدادي المشهور، ولد في بغداد من أب رومي وأم فارسيّة. شعره غريب الأسلوب والفنّ. غلب عليه التشاؤم والطيرة، اشتهر بجمال شعره الوصفي للطبيعة، كما غلب عليه الهجاء. له ديوان شعر مشهور. توفي سنة ٨٩٦ م.

(٣) الراح: الخمرة.

(٤) السقام: المرض.

(٥) يكرعها: يشربها.

(٦) اللألاء: النور والضوء.

(٧) رام: عزم ونوى.

(٨) الشفق: بقية ضوء الشمس وحمرتها في أوّل الليل.

ومثله قول الطليق المرواني[١]: [من الرمل]

فإذا ما غَرَبتْ في فَمِهِ أطلعتْ في الخدّ منه شَفَقَا

وقال الناجم: [من البسيط]

وقَهوةٍ[٢] كشُعاعِ الشَّمْسِ صافيةٍ مِثْل السَّرابِ[٣] تُرَى من رِقَّةٍ شَبَحَا

إذا تعاطَيْتَها لم تدرِ مِنْ فرحٍ راحًا بلا قدَحٍ أُعطِيتَ أم قَدَحا؟

وقال الناشيء[٤]: [من السريع]

يا رُبَّما كأسٍ تناولتُها تَسْحَب ذَيْلًا من تَلاليها[٥]

كأنَّها النّارُ ولكنَّها مُنعِّم واللهِ صاليها[٦]

* * *

ومما قيل في وصفها وتشبيهها؛ فمن ذلك ما قاله يزيد بن معاوية: [من الكامل]

ومُدامةٍ[٧] حمراءَ في قارورةٍ زَرقاءَ تحملُها يدٌ بيضاءُ

فالخمر شمسٌ والحَبابُ[٨] كواكبٌ والكفُّ قُطْبٌ والإناءُ سماءُ

وقال السرويّ: [من الخفيف]

عُنِيَتْ بالمُدامةِ الشُّعراءُ وَصفوها وذاك عِندي عناءُ

كيف تحصيلُ عِلْمها وهي موتٌ وحياةٌ وعِلَّةٌ وشفاءُ

فهي في باطن الجوانحِ نارٌ وهي في ظاهر المحاجرِ[٩] ماءُ

حُلوةٌ مرّةٌ فما أحَدٌ يَدْ رِي أداءٌ خُصُوصُها أم دواءُ

---

(١) الطليق المرواني: مروان بن عبد الرحمٰن بن مروان بن عبد الرحمٰن الناصر، أديب وشاعر، كان في بني أُمية كابن المعتزّ في بني العباس لجهة جودة الشعر وحسن التشبيه، توفي نحو سنة ٤٠٠ هـ.

(٢) القهوة: الخمرة.

(٣) السراب: الآل، وما يرى كالماء عند اشتداد الهاجرة.

(٤) الناشيء: شاعر عباسي مجيد، اسمه علي، عاش في بغداد، ومدح أهل البيت. توفي سنة ٩٧٥ م.

(٥) تلاليها: إشراقها.

(٦) صاليها: خادمها، ومن يمسّها.

(٧) المدامة: الخمرة.

(٨) الحباب: الفقاقيع على سطح الخمر أو الماء.

(٩) المحاجر: جمع محجر، وهو محجر العين، وموضع استقرارها.

وقال البحتريّ: [من الكامل]

إشربْ على زَهْرِ الرياضِ يشوبُه | زهرُ الخدودِ وزهرةُ الصهباءِ[١]
من قهوةٍ[٢] تُنْسِي الهمومَ وتبعث الـ | ـشوقَ الذي قد ضلّ في الأحشاءِ
يُخفي الزجاجةَ لونُها فكأنها | في الكفّ قائمةٌ بغير إناءِ
ولها نسيمٌ كالرّياض تنفّستْ | في أوجه الأرواحِ والأنداءِ
وفواقعٌ مثل الدموع تردّدت | في صحن خدّ الكاعبِ[٣] الحسناءِ
يسقيكها رشأٌ[٤] يكاد يردّها | سكرى بفترةِ مقلةٍ[٥] حوراءِ[٦]
يسعى بها وبمثلها من طَرْفِهِ | عَوْدًا وإبداءً على الندماءِ

وقال الوأواء الدمشقيّ[٧]: [من الكامل]

فأمزُج بمائك نار كأسك واسقني | فلقد مزجتُ مدامعي بدماءِ
واشرَبْ على زَهْر الرّياض مُدامةً | تَنْفِي الهمومَ بعاجِلِ السرّاءِ[٨]
لَطُفتْ فصارتْ من لطيف محلّها | تجري كجري الروحِ في الأعضاءِ
وكأنّ مِخْنَقَةً[٩] عليها جوهرٌ | ما بين نارِ أُذكِيَتْ وهواءِ
وكأنها وكأنّ حاملَ كأسها | إذ قامَ يجلوها على النُّدماءِ
شمس الضُّحى رقَصتْ فنقّط وجهَها | بدرُ الدجى بكواكب الجوزاءِ[١٠]

وقال أبو نُوَاس: [من المنسرح]

أقول لما تحاكيها شبهًا | أيّهما للتشابه الذهبُ
هما سواءٌ وفرقُ بينهما | أنهما جامدٌ ومُنسكبُ

---

(١) الصهباء: الخمرة.
(٢) القهوة: الخمرة.
(٣) الكاعب: الفتاة التي ظهر نهداها.
(٤) الرشأ: ولد الغزال.
(٥) المقلة: العين.
(٦) الحوراء: الشديدة سواد العين.
(٧) الوأواء الدمشقي: محمد بن أحمد الغسّاني الدمشقيّ، كنيته أبو الفرج، وهو من الشعراء المطبوعين، حلو الألفاظ، ومعانيه رقيقة، مات سنة ٣٨٥ هـ.
(٨) السرّاء: بخلاف الضرّاء، وهي النعيم.
(٩) المخنقة: القلادة.
(١٠) الجوزاء: مجموعة من النجوم تعرف باسم كوكبة الجبّار.

وله أيضًا: [من الطويل]

إذا عَبَّ[١] فيها شارِبُ القوم خِلْتَه يُقبِّلُ في داجٍ مِنَ اللّيل كوكبا
تُرى حيثُما كانت مِنَ البيت مَشرِقًا وما لم تكن فيه مِنَ البيت مَغْرِبا
يدور بها ساقٍ أغنّ[٢] ترى له على مُسْتدار الأذن صُدْغًا مُعقْرَبًا
سقاهُمْ ومنّاني بعينَيْه مُنيةً فكانت إلى نفسي ألذَّ وأطيبا

ومثل البيت الأوّل قول ابن المعتزّ: [من البسيط]

كأنّه قائمٌ والكأسُ في يَدِه هِلالُ أوّلِ شهرٍ غابَ في شَفَقِ

وقال ابن الروميّ: [من الكامل]

ومهفهفٍ[٣] تمّت محاسنُه حتى تجاوز منتهى النّفسِ
أبصرتُه والكأسُ بين فمٍ منه وبين أنامِلٍ خمسِ
فكأنه والكأسُ في فمِهِ قمرٌ يقبّل عارض[٤] الشمس

وقال الحسين بن الضحّاك[٥]: [من المنسرح]

كأنما نُضْبَ كأسِه قمرٌ يكرَع[٦] في بعض أنجم الفلكِ

وقال آخر: [من المديد]

واكتست من فضّةٍ دُرَرًا خلتُها من تحتها ذهبا
ككميت اللون قلّدها فارسٌ من لؤلؤ حَبَبا[٧]

وقال آخر: [من الكامل]

تغشى بياض شاربها فتخالها بيمين مختضبِ[٨]
دارت وعين الشمس غائبة فحسبتُ عينَ الشمس لم تغب

---

(١) عب: شرب من غير مصّ. (٢) الأغنّ: من في صوته غنّة وحسن.
(٣) المهفهف: الضامر البطن الدقيق الخصر.
(٤) العارض: صفحة الخدّ، وهنا صفحة الشمس.
(٥) الحسين بن الضحّاك: من كبار الشعراء في العهد العباسي، من أهل البصرة، لقّب بالخليع. نادم الخلفاء، وكان صاحبًا لأبي نواس، غلب عليه المجون والغزل والخمريّات. توفي سنة ٨٦٤ م.
(٦) يكرع: يصبّ عبًّا. (٧) الحبب: الفقاقيع.
(٨) في الشطر الأول من هذا البيت نقص واضح.

وقال آخر: [من المنسرح]

حمراء وردِيّة مشعشعة كأنّها في إنائها لهبُ
صهباء صِرْفًا لو مسّها حجرٌ من جامد الصخر مسّه طربُ

وقال آخر: [من الخفيف]

قلت والراح في أكفّ النّدامَى كنجوم تلوحُ في أبراجِ
أمُدامًا خرطتُمُ[١] لمُدامٍ أم زجاجًا سبكتُمُ[٢] لزجاجِ

وقال الحسن بن وهب: [من مجزوء الرجز]

وقهوةٍ صافيةٍ كالمِسْك لمّا نَفَحا
شربتُ من دِنانها[٣] من كلّ دنٍّ قَدَحا
فعدتُ لا تحملني أعوادُ سرجي مرَحا[٤]
من شدة السكر الذي على فؤادي طفحا[٥]

وقال ابن المعتزّ: [من الطويل]

خليليّ قد طاب الشرابُ المبرَّدُ
وقد عدتُ بعد النسُك[٦] والعَوْدُ أحمدُ[٧]
فهاتِ عُقارًا من قميصِ زجاجةٍ
كياقوتةٍ في دُرَّةٍ تتوقَّدُ
يصوغ عليها الماءُ شُبّاكَ فضةٍ
له حَلَقٌ بيضٌ تُحَلّ وتُعقَدُ

وقال التنوخيّ[٨]: [من المتقارب]

وراحٍ مِنَ الشمس مخلوقةٍ بدتْ لكَ في قَدَحٍ مِنْ نهارِ

---

(١) خرطتم: جمعتم، وسوّيتم وثقّفتم.
(٢) سبكتم: أذبتم وصببتم.
(٣) الدنان: أوعية الخمر.
(٤) مرحًا: فرحًا ونشاطًا.
(٥) طفح: فاض.
(٦) النسك: الانقطاع إلى العبادة.
(٧) العود أحمد: مثل مشهور، وأوّل من قاله خداش بن حابس التميمي. انظر: مجمع الأمثال، للميداني ٢/ ٣٥، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنّة المحمدية، ١٩٥٥.
(٨) التنوخي: أبو علي المحسن، قاض وشاعر وأديب بصري، تعلم على أبي الفرج الأصبهاني والصولي. من كتبه «نشوار المحاضرة» و«الفرج بعد الشدّة». مات سنة ٩٩٤ م.

هـواءٌ ولـكـنـه سـاكـنٌ ... ومـاءٌ ولـكـنـه غـيـرُ جـاري
إذا مـا تـأمّـلْتَـه وهـي فـيـه ... تـأمّـلـتَ مـاءً مـحـيـطًا بـنـارِ
فـهـذا الـنـهـايـةُ فـي الابـيـضـاضِ ... وهـذا الـنـهـايـةُ فـي الاحـمـرارِ
ومـا كـان فـي الـحـكـم أن يُوجَدَا ... لـفـرطِ تَـنـافـيـهـمـا والـنِّـفـارِ[١]
ولـكـن تـجـاوَرَ سـطـحـاهـمـا الـ ... ـبـسـيـطـان فـأتـلـفـا بـالـجِـوارِ
كـأنّ الـمـديـرَ لـهـا بـالـيـمـين ... إذا مـال بـالـسَّـقْـي أو بـالـيـسـارِ
تـدرَّعَ[٢] ثـوبًـا مـن الـيـاسـمِـين ... لـه فـردُ كُـمٍّ مـن الـجُـلَّـنـارِ[٣]

وقال ابن وكيع التِّنِّيسيّ[٤]: [من الخفيف]

حَـمَـلَـتْ كـفُّـه إلـى شـفـتـيـه ... كـأسَـه والـظـلامُ مُـرْخَـى الإزارِ
فـالـتـقـى لـؤلـؤًا حَـبـابٍ وثـغـرٍ ... وعـقـيـقـانِ[٥] مِـن فَـمٍ وعُـقـارِ[٦]

وقال آخر: [من المنسرح]

قُمْ فاسقني قد تبلّج الغَسَقُ[٧] ... مـن قـهـوةٍ[٨] في الـزجـاج تـأتَـلِقُ
كـأنّـنـا والـكـؤوس نـأخـذهـا ... نـشـرب نـارًا ولـيـس نـحـتـرق

وقال أبو نواس: [من الخفيف]

غـنِّـنـا بـالـطـلول[٩] كـيـف بَـلـيـنـا ... واسقِنا نُعْطِكَ الجزاء الثَّمينا
مـنْ سُلافٍ[١٠] كأنها كلّ شيءٍ ... يـتـمـنّـى مـخـيَّـرٌ أن يَـكـونـا
أكـلَ الـدهـرُ مـا تـجـسَّـم مـنـهـا ... وتـبـقّـى لَـنـا بُـهـا الـمـكـنـونـا[١١]
فـإذا مـا اجـتـلـيـتَـهـا فـهـبـاءٌ[١٢] ... تـمْـنع الـكـفَّ مـا تُـبيح الـعـيـونـا
ثم شُجَّتْ[١٣] فاستضحكت عن لآلٍ ... لـو تـجـمّـعـنَ فـي يـدٍ لاقـتُـنـيـنـا

---

(١) النفار: البعد أو التباعد وعدم الائتلاف. (٢) تدرّع: لبس.
(٣) الجلنار: زهر الرمّان، واللفظة في الأصل فارسية، ثم عرّبت.
(٤) ابن وكيع، الحسن التنيسي، شاعر مصري له ديوان شعر، وكتاب «المصنف»، بيّن فيه سرقات المتنبي. مات سنة ١٠٠٣ م.
(٥) العقيقان: مثنى العقيق، وهو حجر كريم. (٦) العقار: الخمرة.
(٧) الغسق: الظلام. (٨) القهوة: الخمرة.
(٩) الطلول: الديار الدارسة. (١٠) السلاف: الخمرة المعتقة.
(١١) المكنون: المستور. (١٢) الهباء: الغبار.
(١٣) شجّت: صُدعت.

فـي كـؤوسٍ كـأنـهـنّ نـجـومٌ جـاريـاتٌ، بُـروجـهـا أيـديـنـا
طـالـعـاتٌ مـع الـسـقـاة عـلـيـنـا فـإذا مـا غَـرَبـنَ يـغـرُبـنَ فـيـنـا
لو ترى الشَّرْبَ[١] حَوْلها مِنْ بعيدٍ قلتَ قومٌ من قَرَّةٍ[٢] يصطلونا[٣]

وقال ابن المعتزّ: [من المتقارب]

وخـمـارةٍ مـن بـنـاتِ الـمـجـوسِ ترى الدَّنَّ[٤] في بيتها شائلا[٥]
وزَنَّـا لـهـا ذَهَـبًـا جـامـدًا فـكـالـت لـنـا ذَهَـبًـا سـائـلا

❋ ❋ ❋

وأمّا ما قيل في أفعالها، فمن ذلك قول أبي تمّام الطائيّ[٦]: [من الطويل]

وكـأسٍ كـمـعـسـول الأمـانـي شـربـتُـهـا
ولـكـنـهـا أجـلَتْ وقـد شَـرِبـتْ عـقـلـي
إذا عُـوتـبـت بـالـمـاء كـان اعـتـذارُهـا
لـهـيـبًـا كـوَقْـع الـنـار فـي الـحـطَـب الـجَـزْلِ[٧]
إذا الـيـدُ نـالَتْـهـا بـوَتْـرٍ[٨] تـوفَّـرت
عـلـى ضِـغْـنـهـا[٩] ثـم اسـتـقـادت[١٠] مـن الـرِّجـل

ومثله قول ديك الجنّ[١١] واسمه عبد السلام: [من الطويل]

فقام تكاد الكأسُ تَخْضِب كفَّه وتحسَبه مِنْ وجنتيه استعارَها
مُشَعْشعة[١٢] مِنْ كفّ ظبي كأنّما تـنـاولـهـا مـن خـدّه فـأدارَهـا
فظِلنا بأيدينا نُتعتِع[١٣] رُوحَها وتأخِذُ من أقدامِنا الراحُ ثارَها

---

(١) الشرب: جماعة الشاربين.
(٢) القرّة: شدّة البرد.
(٣) يصطلون: يستدفئون.
(٤) الدّن: وعاء الخمرة وزقّها.
(٥) الشائل: السائل، واللبن من الناقة، وهو الناقة التي تشيل ذنبها، أي تدفعه.
(٦) أبو تمام: حبيب بن أوس الطائي، شاعر عباسي نشأ في دمشق، وتوفي في الموصل سنة ٨٤٥ م. مدح الخلفاء والمتوكّل خاصّة، في شعره نزعة تجديديّة وإغراب في الطعن والأسلوب والبديع. له ديوان شعر، وهو صاحب كتاب «الحماسة».
(٧) الجزل: اليابس.
(٨) الوتر: الثأر.
(٩) الضغن: الحقد.
(١٠) استقادت: أخذت ثأرها.
(١١) ديك الجنّ: عبد السلام الحمصي، من أهل حمص، شاعر مجيد. عُرِف بمجونه، مات سنة ٨٤٩ م.
(١٢) مشعشعة: مضيئة.
(١٣) نتعتع: نحرّك.

وقريبٌ من المعنى الأوّل قول أبي بكر الخالديّ[1]: [من البسيط]

كانت لها أرجُل الأعلاج[2] واترةً بالدوس فانتصفَت من أرؤس العربِ

أخذ هذا المعنى أبو غالب الإصباعيّ الكاتب، فقال: [من الكامل]

عقرَتْهمُ[3] معقورةٌ لو سالَمَتْ شُرَّابها ما سُمِّيتْ بعُقارِ
لَانَتْ لهم حتى انتشَوْا وتمكَّنتْ منهم فصَاحَت فيهمُ بالثارِ
ذَكَرَتْ حقائدَها القديمةَ إذ غدت صَرْعَى تُداسُ بأرجلِ العُصَّارِ

وقال آخر: [من الخفيف]

أسروها وجهَ النهار من الدّنّ[4] فأمسَوْا وهم لها أُسَراءُ

وقال عبد الصمد بن بابك عفا الله عنه: [من الطويل]

عُقارٌ عليها مِنْ دَمِ الصَبّ[5] نفْضَةٌ ومِنْ عَبَرات المُسْتَهَام فَواقِعُ
مُعوّدةٌ غصبَ العقول كأنّما لها عِنْد ألْبابِ[6] الرجال وَدَائِعُ

* * *

وأمّا ما وُصفت به غير ما قدّمناه، فمن ذلك قول أبي الفضل يحيىٰ بن سلامة الحصكفيّ (والحصكفيّ نسبة إلى حصن كيفا): [من المديد]

وخليعٍ بتُّ أعتِبُه ويَرى عَتبِي[7] مِنَ العبَثِ
قلتُ إنَّ الخمرَ مَخْبَثةٌ قال حَاشَاها من الخَبثِ
قلتُ منها القَيْء، قال أَجَلْ طَهُرت عن مَخْرَج الحَدَثِ[8]
قلتُ فالأرفاث[9] تتبعُها قال طِيبُ العيش في الرفث
وسَأسْلُوها فقُلتُ متى قال عند الكونِ في الجدثِ[10]

---

(١) أبو بكر محمد بن هاشم من الموصل في قرية اسمها الخالدية، شاعر وأديب وحافظ. انظر: الفهرست ص ٢٤٠.
(٢) الأعلاج: جمع علج، وهو الكافر من الأعاجم.
(٣) عقرتهم: أسكرتهم.
(٤) الدنّ: زقّ الخمرة.
(٥) الصبّ: العاشق المتبول.
(٦) الألباب: العقول.
(٧) العتب: الرّضا.
(٨) الحدث: الخرء والبول والرّيح.
(٩) الأرفاث: جمع رفث، وهو الفسوق.
(١٠) الجدث: القبر.

وقال آخر: [من الكامل]

ثـقُـلَتْ زُجـاجـاتٌ أتـتـنـا فُـرَّغـا حتى إذا مُلئت بصِرْفِ الرَّاحِ[١]
خفَّتْ فكادَتْ أن تطيرَ بما حَوَتْ وكـذا الـجُسوم تَخِفُّ بـالأرواحِ

وقريب من المعنى قول الآخر: [من الوافر]

وزنَّـا الـكـأس فـارغـةً ومَـلأى فـكـان الـوزنُ بـيـنـهـمـا سـواء

وقال أبو نواس: [من مجزوء الرمل]

قـهـوةٌ[٢] أُغـمِـيَ عـنـهـا نـاظـرًا رَيْـبِ الـمـنـونِ
عُـتِّـقـتْ فـي الـدنّ حـتّـى هـي فـي رِقّـة دِيـنـي
ثـم شُـجَّـت[٣] فـأدارت فـوقـهـا مـثـلَ الـعـيـونِ
حَـدَقًـا تـرنـو[٤] إلـيـنـا لـم تُـحَـجَّـزْ بـجـفـونِ
ذهـبًـا يُـثـمـر دُرًّا كـلَّ إبَّـانٍ وَحِـيـنِ
مِـنْ يـدَيْ سـاقٍ عـلـيـه حـلّـةٌ مـن يـاسـمـيـنِ
غـايـةٍ فـي الـظَّرْفِ والـشكـ ـل وفـردٍ فـي الـمـجـونِ

وقال: [من المديد]

ذُدْ بـمـاء الـكَـرْمِ والـعـنـبِ خـطـراتِ الـهـمِّ والـنُّـوَبِ[٥]
قـهـوةٌ لـو أنـهـا نـطـقَـتْ ذكـرَتْ سـامًـا[٦] أبـا الـعـربِ
وهـي تـكـسـو كـفَّ شـاربِـهـا دسـتـبـانـاتٍ[٧] مـن الـذهـبِ

وقال تاج الملوك بن أيّوب[٨]: [من الطويل]

وكم ليلةٍ فيها وَصَلْنا غبُوقَنا[٩] وكم مِنْ صباحٍ كان فيه صَبوحُ[١٠]

---

(١) عرف الراح: خالص الخمرة.
(٢) القهوة: الخمرة.
(٣) وشجّت: طعنت بالمبزال.
(٤) وترنو: تنظر.
(٥) النوب: غير الدهر وصروفه.
(٦) هو سام بن نوح، النبيّ.
(٧) الدستبانات: جمع دستبانة، وهي الإسوارة.
(٨) تاج الملوك: هو بوري بن أيوب بن شاذي بن مروان، مجد الدين أبو سعيد، أخو صلاح الدين الأيوبي، له ديوان شعر رقيق. مات بطعنة قرب حلب أثناء حصار صلاح الدين لها، وذلك سنة ٥٧٩ هـ.
(٩) الغبوق: خمرة المساء.
(١٠) والصبوح: خمرة الصباح.

تُـدارُ عـلـيـنـا مـن أكُـفِّ سُـقـاتـنـا عُـقـارٌ مِـن الـهـمِّ الـطـويـلِ تُـريـحُ
تلوحُ لنا كالشمسِ في كفِّ أغيدٍ يـلوحُ لِعَيـنـي البَـدرُ حيـن يـلوحُ
مُـدامٌ تُـحـاكـي خـدَّه ورُضـابَـه[1] ونكـهتَه في الطِّيبِ حين تفوحُ
ولكن لها أفعالُ عينيه في الحَشَا فـكـلُّ حـشًـا فـيـهـا عـلـيـه جَـريـحُ

وقال أيضًا: [من الرجز]

والـكـأس أُعـطـاهـا عـقـيـقًـا أحْـمـرا قانِ، فأُعطيها لُجَيْنًا[2] يَقَقَا[3]
من قـهـوةٍ مـا الـعـيشُ إلا أن أُرَى مُصْطَبِحًا[4] في شُربها مُغْتَبِقا[5]
أشـربـهـا شُـرْبًـا هـنـيـئًـا مـن يـدَيْ غُـصـنٍ رشـيـقٍ وغـزالٍ أرشـقَـا

* * *

ومما قيل فيها إذا مُزجت بالماء، فمن ذلك قول أبي نواس: [من الطويل]

وصفراءُ قبل المَزْجِ بيضاءُ بعده كأن شُعَاع الشمس يلقاكَ دونَها
ترَى العينَ تستعفيك من لمعانِها وتحسُر[6] حتى ما تُقِلّ[7] جفونَها

ومنه أخذ ديك الجنّ فقال: [من الطويل]

وحـمـراءُ قـبـل الـمـزج صـفـراءُ بـعـده بـدَتْ بين ثوبَيْ نرجِسٍ وشَقائقِ[8]
حكَتْ وَجْنَةَ المعشوق صِرْفًا فسلّطوا عليها مزاجًا فاكتستْ لونَ عاشقِ

وقال أبو هلال العسكريّ[9]: [من الكامل]

راحٌ إذا مـا الـلّيـلُ مـدَّ رواقَـه لاحَـتْ تُـطـرِّزُ حُـلّـةَ الـظـلـمـاءِ
حتى إذا مُزجتْ أراكَ حَبابُها[10] زَهَـراتِ أرْضٍ أو نـجـومَ سـمـاءِ

---

(١) رضابه: ريقه. (٢) اللجين: الفضّة.
(٣) اليقق: الأبيض. (٤) مصطحبًا: شاربًا إياها في الصباح.
(٥) مغتبقًا: شاربًا إياها في الغبوق، وهو المساء والعتمة.
(٦) تحسر: تغمض وترجع. (٧) تقلّ: تحمل.
(٨) النرجس والشقائق: من الورود والرياحين.
(٩) هو أبو هلال الحسن، الأديب والشاعر، له كتاب «الصناعتين» و«جمهرة الأمثال» و«الفروق» في اللغة، إضافة إلى ديوان شعر مطبوع. مات سنة ١٠٠٥ م.
(١٠) حبابها: الفقاقيع على سطح الخمرة.

وقال أيضًا: [من الوافر]

وكأسٍ تمتطي[١] أطرافَ كفٍّ   كأنَّ بنانها[٢] من أُرجوانِ[٣]
أنازِعُها على العلّات شَرْبًا   لهنَّ مَضاحِكٌ من أُقحُوانِ
يلوحُ على مفارقِها حَبابٌ   كأنصافِ الفرائدِ[٤] والجُمانِ[٥]
وطالعني الغلامُ بها سُحَيْرًا   فزاد على الكواكب كوكبان
ووافَقها بخدٍّ أُرجُوانٍ   وخالفها بفرعٍ[٦] أدجوانِ[٧]

قوله:

* كأنصافِ الفرائد والجمان *

مأخوذ من قول ابن الروميّ: [من المنسرح]

لها صَريحٌ[٨] كأنه ذهبٌ   ورغوةٌ كاللآلىء الفُلُق

وقال أبو نواس: [من الكامل]

فإذا علاها الماءُ ألبسها   حببًا شبيهَ جَلاجلِ[٩] الحِجْلِ[١٠]
حتى إذا سكَنتْ جوانحُها   كتبتْ بمثلِ أكارع[١١] النمل

وهو مأخوذ من قول الأوّل، ويقال: إنه ليزيد بن معاوية: [من الطويل]

وكأسٍ سباها التَّجْرُ[١٢] مِنْ أرضِ بابلٍ[١٣]
كرقّة ماء الحُزْنِ في الأعيُنِ النُّجلِ[١٤]
إذا شجَّها الساقي حسِبتَ حَبابَها
عيونُ الدَّبا[١٥] من تحت أجنحةِ النملِ

---

(١) تمتطي: تركب.
(٢) البنان: طرف الإصبع.
(٣) الأرجوان: مادة صبغية حمراء، وهو أيضًا شجر له زهر شديد الحمرة، وكذلك هو الثوب المصبوغ بالأرجوان.
(٤) الفرائد: جمع فريدة، وهي الجوهرة النفيسة.
(٥) الجمان: اللؤلؤ.
(٦) الفرع: الشعر.
(٧) الأدجوان: الشديد الدجنة والسواد.
(٨) الصريح: الخالص ممّا يشوبه.
(٩) الجلاجل: جمع جلجل، وهو الجرس.
(١٠) الحجل: ما تزيّن به المرأة رجلها.
(١١) الأكارع: الأرجل.
(١٢) التجر: جماعة التجّار.
(١٣) بابل: في العراق أضحت خرابًا.
(١٤) النجل: الواسعة.
(١٥) الدبا: صغار الجراد.

وقال أبو نواس أيضًا: [من البسيط]

قامت تُريني وأمرُ الليلِ مُجتمعٌ صُبْحًا تولَّد بين الماء واللّهبِ
كأنّ صُغرَى وكُبْرَى مِنْ فقاقِعِها حَصْباءُ[1] دُرٌ على أرضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقال ابن المعتزّ: [من المنسرح]

لـلماء فـيـهـا كـتـابـةٌ عـجـبٌ كمثْلِ نقشٍ في فَصّ[2] ياقوتِ[3]

وقال العسكريّ: [من الرمل]

ذاب في الكأس عقيقٌ[4] فجرى وطَـفَـا الـدُّرُ عـلـيـه فـسـبَـخْ
نـصَبَ الساقي على أقدَاحـهـا شَبَكَ الفِضَةِ تـصطادُ الفرحْ

وقال ابن الساعاتي[5]: [من البسيط]

ولـيـلةٍ بـاتَ بـدرُ التـمّ سـاقِـيَـنَا يُديرُ في فَلَكٍ من شُربِها شُهُبَا
بِكرٌ إذا فُرعتْ بالماء كان بِنا جِدًّا وإن كان في كاساتها لَعِبَا
حمراءُ من خجلٍ حتى إذا مُزجتْ لم تدرِ ما خَجَلًا تحمرُ أم غَضَبَا
تَزيد بالباردِ السَّلْسَال[6] جَذْوتُها[7] وما سَمِعْتُ بماءٍ مُحدِثٍ لَهَبَا
تكسو النديمَ إذا ما ذَاقَها وَضَحًا[8] حتى كأنّ شعاعَ الشمس قد شَرِبا

وقال آخر: [من البسيط]

فنَبَّهتْني وساقي القوم يمزجُها فصار في البيت للمِصْباحِ مِصْباحُ
قلنا على علمنا والشكُّ يغلبُنا أراحُـنـا نـارُنـا أم نـارُنـا الـرَّاحُ

وقال ابن وكيع التِّنِّيسي[9]: [من الطويل]

وصفراءُ من ماءِ الكُرومِ كأنَّها فِـراقُ عـدوٌ أو لـقـاءُ صـديـقِ

---

(١) الحصباء: صغار الحجارة.
(٢) الفض: الحجر.
(٣) الياقوت: من الأحجار الكريمة.
(٤) العقيق: من الحجارة الكريمة.
(٥) ابن الساعاتي: أحمد، ولد في بعلبك، وعاش في بغداد، فقيه وشاعر. مات سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م.
(٦) السلسال: العذب.
(٧) جذوتها: نارها.
(٨) الوضح: البياض.
(٩) الشعر لابن وكيع، وقد سبق التعريف به.

كأنّ الحُبابَ المستديرَ بطوقِها ... كواكِبُ دُرّ في سَماءِ عَقيقِ
صبَبْتُ عليها الماءَ حتى تعوّضت ... قميصَ بهارٍ[1] من قميص شقيقِ[2]

وقال آخر: [من البسيط]

حمراء ما اعتصموا بالماء حين طفت[3] ... إلا وقد حَسِبوها أنها لهبُ

وقال الخالديّان[4]: [من المنسرح]

فهاتِها كالعروسِ محمرّة الـ ... ـخدَّين في مِعْجَرٍ[5] من الحبَبِ
كادت تكون الهواءَ في أرج الـ ... ـعنبر لو لم تكن من العنبِ
من كفّ راضٍ عن الصدودِ وقد ... غضِبتُ في حبّه على الغضبِ
فلو ترى المأسَ حين يمزجُها ... رأيت شيئًا من أعجب العجبِ
نار حواها المِزاج يُلْهبها المـ ... ـاءُ ودُرٌّ يدور في لهبِ

ذكر ما قيل في مُبادرة اللذّات ومجالس الشَّراب وطيّها

قال أحمد بن أبي فَنَن: [من الرمل]

جـدِّد الـلَّذّات فـالـيـومُ جـديـدُ ... وامضِ فيما تشتهي كيف تُريدُ
والـهُ مـا أمـكـنَ يـومٌ صـالـحٌ ... إنَّ يومَ الشرِّ ـ لا كان ـ عتيدُ[6]

وقال ديك الجنّ: [من الطويل]

تمتّع من الدّنيا فإنك فاني ... وإنّك في أيدي الحوادث عاني[7]
ولا تُنْظِرنّ اليومَ لهوًا إلى غدٍ ... ومن لغدٍ من حادثٍ بأمانِ

(١) البهار: نبت طيّب الرائحة.
(٢) الشقيق واحد شقائق النعمان، النبت والزهر المعروف.
(٣) طفت: ظهرت في أعلى الإناء أو الكأس.
(٤) الخالديان: أخوان شاعران وهما: سعيد بن هاشم المتوفّى سنة ٩٨١ م، ومحمد المتوفّى سنة ٩٩٠ م. كانت بينهما وبين السريّ الرّفاء مهاجاة. اشتركا في نظم الشعر، وتأليف الكتب ومنها «الأشباه والنظائر» أو ما يعرف بحماسة الخالديّين، وهما من الخالدية من قرى الموصل. انظر: الفهرست ص ٢٤٠.
(٥) المعجر: ثوب تلفّه المرأة على استدارة رأسها.
(٦) العتيد: الحاضر والآتي.
(٧) العاني: الأسير والعبد.

فإني رأيتُ الدهرَ يُسرع بالفتى ويـنـقـلـه حـالـيـن مـخـتـلـفـان
فأمّا الذي يمضي فأحلامُ نائمٍ وأمّـا الـذي يـبـقـى لـه فـأمـانـي

وقال ابن المعتزّ من أبيات: [من الطويل]

وبـادِرْ[1] بـأيّـام الـسُّرور فـإنـهـا سِـراعٌ وأيـامُ الـهـمـوم بِـطـاءُ
وخلِّ عِتابَ الحادثاتِ لِوَجْهِهَا فـإن عِـتـابَ الـحـادثـاتِ عَـنَـاءُ
تعالَوْا فسقّوا أنفُسًا قبل موتِها لـيـأتِـيَ مـا يـأتـي وهـنَّ رِواءُ[2]

وقال أحمد الماردانيّ: [من الرمل]

عاقِرِ الرَّاحَ ودَعْ نَعْتَ الطلَلْ[3] واغضِ من لامَكَ فيها وعَذَلْ[4]
غـادِهَـا واسْـعَ لـهـا واغْـرَ بـهـا وإذا قيل: تَصَابَى[5]، قُلْ أجَلْ
إنـمـا دنـيـاك ـ فـاعـلـم ـ سـاعـةٌ أنـت فـيـهـا وسِـوى ذاك أمَـلْ

وقال ابن بسّام[6]: [من مجزوء الكامل]

واصِـلْ خـلـيـلَـك إنـمـا الـ ـدُّنـيـا مـواصَـلـةُ الـخـلـيـلِ
وانْـعَـمْ ولا تـتـعـجّـلْ الـ ـمـكـروهَ مِـنْ قَـبْـلِ الـنُّـزولِ
بـادِرْ بـمـا تـهـوى فـمـا تـدري مـتـى وَقـتُ الـرحـيـل
وارفُـضْ مـقـالـةَ لائـمٍ إنَّ الـمَـلامَ مـن الـفُـضـولِ[7]

ومما وصفتْ به مجالس الشرب؛ فمن ذلك قول أبي نواس: [من الكامل]

في مجلسٍ ضحك السرورُ به عـن نـاجـذيـه[8] وحُـلَّـت الـخُـمُـرُ

وقال ديك الجنّ: [من السريع]

كـأنّـمـا الـبـيـتُ بـريـحـانـةٍ ثـوبٌ من الـسـنـدس[9] مشقوقُ

---

(١) بادر: أسرع.
(٢) رواء: مرتوية ريًا غير عطشى.
(٣) الطَّلَل: ما بقي من المنازل بعد درسها.
(٤) عذل: لام.
(٥) تصابى: جهل وعمل ما لا يليق بالكبير.
(٦) هو عليّ بن بسام الشنتريني صاحب كتاب «الذخيرة» وفيها تاريخ الأدب العربي في الأندلس، مات سنة ١١٤٧ م.
(٧) الفضول: الدخول في ما لا يعني صاحب الكلام.
(٨) الناجذان: الضّرسان، والمفرد ناجذ.
(٩) السندس: ضرب من رقيق الدّيباج.

وقال السريّ[١]: [من الطويل]

ألَسْتَ ترى رَكْبَ الغَمامِ يُساقُ
وأدمُعُهُ بينَ الرِياضِ تُراقُ

وقد رَقَّ جِلْبابُ[٢] النسيم على الثَّرى[٣]
ولكِنْ جلابيبُ الغيوم صِفاقُ[٤]

وعندي مِنَ الرَّيحانِ نوعٌ تجسّه
وكأسٌ كرَقْراق الخَلُوقِ[٥] دِهاقُ[٦]

وذو أدبٍ جلَّتْ صنائعُ كفِّه
ولكِنْ معاني الشعر منه دِقاقُ

له أبدًا من نَثْرِه ونِظَامه
بدائعُ حَلْيٍ ما لهنَّ حِقاقُ

وأغيدُ مهتزٌّ، على صحن خدّه
غلائلُ[٧] من صِبْغ الحياءِ رِقاقُ

أحاطَتْ عيونُ العاشقين بخصره
فهنّ له دون النِّطاق نطاقُ[٨]

وقد نظم المنثور فهو قلائد
علينا، وعقدٌ مُذْهَبٌ وخِناقُ[٩]

وغرفتنا بين السحائب تلتقي
لهنّ علينا كِلّةٌ[١٠] ورِواقُ

تقسَّم زُوَّارٌ من الهند سَقْفَها
خِفافٌ على قلب الكريم رِشاقُ

---

(١) هو السريّ الرّفاء: الشاعر الموصلي، مدح سيف الدولة الحمداني ثم مدح في بغداد الوزراء والأعيان. تميّز بعذوبة ألفاظه والبراعة في الوصف والتشبيه. له ديوان شعر مطبوع، مات سنة ٩٧٦ م.

(٢) الجلباب: الثوب.
(٣) الثرى: أديم الأرض.
(٤) صفاق: غلاظ.
(٥) الخلوق: الطّيب.
(٦) دهاق: ملأى.
(٧) الغلائل: جمع غلالة، وهي البطانة.
(٨) النطاق: ما يشدّ به وسط الجسم.
(٩) الخناق: القلادة.
(١٠) الكلّة: الستر الرقيق.

أعاجمُ تلتذُّ الخصامَ كأنها
كواعبُ[1] زَنْج راعهنّ طَلاقُ
أنِسْنَ بنا أَنَس الإماءِ[2] تحبّبتْ
وشيمتُها غَدْرٌ بنا وإباقُ[3]
مُواصِلةٌ والوردُ في شجراته
مفارقةٌ إن حانَ منه فِراقُ
فزُرْ فِتْيةً، بَرْدُ الشرابِ لَدَيهمُ
حميمٌ[4] إذا فارقْتَهم وغَسَاقُ[5]

قوله: [من الوافر]

أحاطت عيون العاشقين بخصره فهن له دون النطاق نطاقُ

مأخوذ من قول المتنبّي: [من الوافر]

وخصرٍ تثبُتُ الأحْداقُ فيه كأنّ عليه من حَدَقٍ نِطاقَا

وقال أبو هلال العسكريّ: [من السريع]

وليلٍ ابتعتُ به لذّةً وبعتُ فيه العقلَ والدّينا
أصاب فيه الوصلُ قلبَ الجوى[6] وبات فيه الهمُّ مِسكينا
وقد خلَطْنا بنسيم الصَّبا نسيمَ راحٍ ورياحينا
وأكْؤس الراحِ نجومٌ إذا لاحَتْ بأيدينا هوتْ فينا
تَضْحَك في الكأس أباريقُنا وحَسبما تضحَك تُبكينا

* * *

ومما قيل في طيّ مجالس الشراب؛ فمن ذلك قول بعض الشعراء: [من الكامل]

حُكم العُقارِ إذا قصدتَ لشربها في لذّةٍ من مُسمِع وقيانِ[7]
ألّا تعود لذِكْر ما أبصرتَ من أُحدوثةٍ من شاربٍ سكرانِ

(١) كواعب: نسوة كعبت نهودهنّ وظهرت.
(٢) الإماء: الجواري.
(٣) الإباق: هروب العبد من سيّده.
(٤) الحميم: الشديد اللّظى.
(٥) الغساق: الشديد البرد.
(٦) الجوى: المتبول من الحبّ.
(٧) القيان: المغنّيات.

وقال آخر: [من الوافر]

إذا ذُكِر النبيذُ فليس حقًّا إعادةُ ما يكون على النبيذِ
إعادة ما يكون من السَّكَارى يكدّر[١] صفوةَ العيش اللذيذِ

وقال آخر: [من البسيط]

تَنازعوا لذّة الصهباء[٢] بينهُمُ وأوجَبوا لرضيع الكأسِ ما يجِب
لا يحفظون على السَّكران زَلَّتَهُ[٣] ولا يُريبُك مِنْ أخلاقِهم رِيَبُ[٤]

ذكر ما قيل في وصف آلات الشراب وأوانيها

من ذلك ما قيل في وصف مَعصرة الخمر:

قال أبو الفرج الببَّغاء[٥]: [من مجزوء الوافر]

ومعصرةٍ أنختُ[٦] بها وقَرنُ الشمس لم يَغِبِ
فخِلْتُ قرارها بالرا ح[٧] بعضَ معادنِ الذهبِ
وقد ذَرَفتْ لِفَقْد الكَرْ م فيها أعينُ العنبِ
وجَاشَ[٨] عُبابُ واديها بمنهلٍّ ومُنْسَكِبِ[٩]
وياقوتُ العصير بها يلاعبُ لؤلؤَ الحبَبِ
فيا عجبًا لعاصرها وما يفنَى به عجبي
وكيف يعيش وهو يخو ض في بحرٍ من اللّهبِ

وقال ابن المعتزّ يصف الدِّنان: [من الخفيف]

ودِنانٍ كمثلِ صفٍّ رجالٍ قد أقيموا ليرقصوا دَسْتَبَنْدَا[١٠]

(١) يكدّر: يجعله كدرًا غير صافٍ. (٢) الصهباء: الخمرة.
(٣) الذلّة: الخطأ والهفوة. (٤) الريب: الشكوك.
(٥) أبو الفرج الببغاء، واسمه عبد الواحد، شاعر عباسي مدح سيف الدولة في حلب. له ديوان شعري مطبوع، مات سنة ١٠٠٧ م.
(٦) أنخت بها: أقمت. (٧) الراح: الخمرة.
(٨) جاش: هاج واضطرب.
(٩) المنهلّ والمنسكب: صفتان للمطر النازل من السماء.
(١٠) دستبند: ضرب من الرقص، واللفظة فارسية تتألّف من دست، وهي اليد، وبند، وهو العبد.

وقال القَطاميّ[١] يصف جِرَار الخمر: [من البسيط]

واسْتَوْدَعَتْها رَواقيدُ[٢] مقيَّرةٌ[٣] دُكْنٌ[٤] الظواهرِ قد بُرْنِس[٥] بالطّينِ
مكافِحاتٌ لحرِّ الشمس قائمةٌ كأنهنّ نَبيطٌ[٦] في تبابِينِ[٧]

وقال العلويّ الأصفهانيّ: [من الطويل]

مخدَّرةٌ[٨] مكنونةٌ قد تَقَشَّفتْ كراهبةٍ بين الحسانِ الأوانسِ
وأترابُها يلبَسن بِيضَ غلائلٍ هي العُزْيُ مغرورٌ بها كلُّ لابسِ
مشعَّثَةٌ[٩] مَرْهاء[١٠] ما خِلْتُ أنّني أرى مثلَها عذراءَ في زيّ عانسِ[١١]

* * *

ومما قيل في الراووق؛ قال بعض الشعراء: [من الرجز]

كأنّما الرّاووق[١٢] وانتصابُه خُرطومُ فيلٍ سقطتْ أنيابُهُ
والبيتُ منه عَطِرٌ ترابُهُ كأنّ مِسْكًا فُتِّقتْ[١٣] عِيابُهُ[١٤]

وقال آخر: [من الرجز]

سماءُ لاذٍ[١٥]، قَطْرُها رحيقُ رحبُ الذّرى ينحطّ فيه الضِّيقُ
ماءُ عقيقٍ لو جرى العقيقُ حتى إذا ألهبها التّصفيقُ

* صِحْنا إلى جيرانِنا: الحريقُ *

---

(١) القطامي: عمير بن شييم التغلبيّ، شاعر اشتهر بغزله وتشبيبه الرقيق. له ديوان شعر مطبوع. مات سنة ٧٤٧ م.
(٢) الرواقيد: دنان الخمر.
(٣) المقيّرة: المطليّة بالقار، أي الزفت والقطران.
(٤) دكن: سود.
(٥) برنسن: لبسن البرانس، وهي الثياب ذوات القبّعات للرّأس.
(٦) النبيط: أخلاط الناس وعامّتهم. (٧) التباين: السراويل التي تستر العورة.
(٨) المخدرة: المستورة، ومثلها المكنونة. (٩) مشعثة: غبراء.
(١٠) المرهاء: التي ابيضّت حماليقها من ترك الكحل.
(١١) العانس من النساء: التي مضى عليها زمن طويل ولمّا تتزوّج بعد.
(١٢) الراووق: المصفاة للشراب، وهو الكأس أيضًا.
(١٣) فتّقت: مزّقت.
(١٤) عيابه: جمع عيبة، وهي الوعاء من جلد وغيره.
(١٥) اللاذ: ضرب من الثياب الحريرية الحمر.

ومما وُصفت به زقاق الخمر؛ فمن ذلك قول الأخطل[١]: [من الطويل]

أناخوا فجرّوا شاصياتٍ[٢] كأنّها رجالٌ من السودان لم يَتَسَربلوا[٣]

وقال أبو الهنديّ[٤] وأجاد في شعره: [من الرمل]

أتلفَ المالَ وما جمّعتُه طلبُ اللّذّاتِ من ماء العنبْ

واستِباءُ الزقّ من حانوتها شائلُ الرجلينِ مَغضوب[٥] الذنبْ

كلّما كُبّ لشَرْبٍ خلتَه حبشيًا قُطِعتْ منه الرُّكَبْ

وقال ابن المعتزّ: [من مجزوء الرمل]

وتراها وهي صَرْعَى[٦] فُرَّغًا بين الندامَى[٧]

مثلَ أبطالِ حروبٍ قُتِلوا فيها كِرامَا

وقال العلويّ الأصفهانيّ: [من البسيط]

عجبتُ مِنْ حبشيٍّ لا حَراكَ به

لا يُدرك الثأر إلا وهْو مذبوحُ

طَوْرًا يُرَى وهو بين الشَّرب[٨] مضطجعٌ[٩]

رَخو الصِّفاقِ[١٠] وطَوْرًا وهو مشبوحُ[١١]

ومما وُصفت به الأباريقُ؛ فمن ذلك قول شُبرمة بن الطفيل: [من الطويل]

كأنّ أباريقَ الشَّمول[١٢] عشيّةً إوَزٌّ بأعلى الطفِّ[١٣] عُوجُ الحناجِرِ

---

(١) الأخطل: غياث التغلبي، والأخطل لقب له، شاعر نصراني من كبار شعراء الأمويّين. اشتهر بمدحهم وهجاء أعدائهم. له نقائض هجائية مع جرير. توفي سنة ٧١٠ م.
(٢) الشاصيات: القرب.
(٣) يتسربلوا: يلبسوا سراويلهم.
(٤) أبو الهندي: غالب بن عبد القدّوس، الرياحي اليربوعي، أحد مخضرمي العهدين الأموي والعباسي. شاعر مطبوع رقيق العبارة. انظر: الأعلام ٥/٣٠٣.
(٥) معضوب: مقطوع.
(٦) صرعى: منكبّة على وجهها.
(٧) الندامى: جماعة الشاربين.
(٨) الشرب: جماعة الشاربين.
(٩) مضطجع: ممدّد.
(١٠) الصفاق: جلد البطن.
(١١) مشبوح: ملقى ومعلّق كالمصلوب.
(١٢) الشمول: الخمرة.
(١٣) الطفّ: ما أشرف من الأرض.

وقال آخر: [من الكامل]

يا رُبَّ مجلِسِ فتيةٍ نادمتُهم ... من عبدِ شمسٍ[١] في ذُرى العلياءِ
وكأنما إبريقُهم مِنْ حُسنِهِ ... ظبيٌ على شَرَفٍ أمامَ ظباءِ

وقال ابن المعتزّ: [من الكامل]

وكأنّ إبريقَ المدام لديهمُ ... ظبيٌ على شَرَفٍ أنافَ[٢] مدلَّهَا[٣]
لمّا استحثّته السُّقاة جثى لها ... فبكى على قدح النديم وقهقها[٤]

وقال إسحٰق الموصليّ: [من الطويل]

كأن أباريقَ المدام لديهمُ ... ظباءٌ بأعلى الرَّقْمتين[٥] قِيامُ
وقد شربوا حتى كأنّ رقابَهم ... من اللِّين لم يُخْلَقْ لهنّ عِظامُ

وكلّهم نظروا إلى قول عَلْقمة بن عَبَدَة[٦]: [من البسيط]

كأنّ إبريقهم ظبيٌ على شَرَفٍ ... مُفَدَّمٌ[٧] بسَبا[٨] الكَتّان ملثومُ[٩]

وقال محمد بن هانىء من أبيات: [من الخفيف]

والأباريقُ كالظباء العواطي[١٠]
أوجستْ[١١] نبأةً[١٢] الخيولِ العتاقِ[١٣]
مُصغياتٌ إلى الغناءِ مُطلّا
تٌ عليه كثيرةُ الإطراقِ[١٤]

---

(١) عبد شمس، أحد أجداد الأمويين، وهو أخو هاشم جدّ النبي ﷺ.
(٢) أناف: أشرف. (٣) مدلّهَا: متميّزًا.
(٤) قهقه: ضحك بصوت عالٍ.
(٥) الرقمتان: اسم موضع، وهما أيضًا جانبا الوادي.
(٦) علقمة بن عبدة: ويلقب بالضحل، شاعر جاهلي، مدح المناذرة في الحيرة، كما مدح الحارث الغسّاني، له ديوان شعر مطبوع. توفي نحو ٥٩٨ م.
(٧) مفدّم: مغطّى. (٨) السّبا: السّتر.
(٩) ملثوم: مثله، مغطّى.
(١٠) العواطي: جمع عاطية، وهي التي تحدّ عنقها لتتناول ما على الشجر من ثمار وخلافه.
(١١) أوجست: أحسّت. (١٢) النبأة: الصوت الخفيّ.
(١٣) العتاق: الأصيلة. (١٤) الإطراق: السكوت والنظر إلى الأرض.

وهـي شُـمُّ الأنـوفِ[١] يـشـمـخـن كـبـرًا
ثـم يَـرْغـفـن بـالـدّمِ الـمُـهـراق[٢]

وقال أبو نواس عفا الله عنه: [من الكامل]

والكوب يضحك كالغزال مسبِّحًا عند الركوع بلثْغَةِ[٣] الفَأْفاءِ[٤]
وكأنّ أقداح الرحيق إذا جَرَتْ وَسْط الظلامِ كواكبُ الجوزاءِ[٥]

وقال بشّار بن بُرْد: [من البسيط]

كأنّ إبريقَنا والقَطْرُ من فمه طيرٌ تناول ياقوتًا[٦] بمِنْقَارِ

ومما وُصفت به الكاساتُ والأقداحُ؛ فمن ذلك قول ابن المعتزّ: [من السريع]

غدا بها صفراءَ كَرْخيّة[٧] تخالُها في كأسِها تتّقِدْ
وتحسبُ الماءَ زجاجًا لها وتحسبُ الأقداحَ ماءً جَمَدْ

وقال ابن المعتزّ أيضًا عفا الله عنه: [من الوافر]

وكأسٍ تُحْجَبُ الأبصارُ عنها فليس لناظرٍ فيها طريقُ
كأن غمامةً بيضاءَ بيني وبين الكأسِ تخرِقُها البرُوقُ

وقال أبو الفرح الببّغاء: [من المنسرح]

من كلّ جسم كأنه عَرَضٌ يكاد لُطفًا باللّحظ يُنْتَهَبُ
كأنما صاغه النِّفاقُ فما يخلصُ منه صدقٌ ولا كذبُ

---

(١) شمّ الأنوف: كناية عن العلوّ والسموّ. (٢) المهراق: المراق.
(٣) اللثغة: عدم نطق الحرف كما يجب، وخلطه بحرف آخر، كنطق الراء ياءً، مثلًا، أو غينًا.
(٤) الفأفاء: من يتلجلج في كلامه.
(٥) الجوزاء: كوكبة في السماء الشمالية تعرف بكوكبة الجبار.
(٦) الياقوت: حجر كريم.
(٧) الكرخية: المنسوبة إلى الكرخ، غربي بغداد.

وقال الرقّاء: [من المتقارب]

كـأنّ الـكـؤوسَ بـفـضـلاتـهـا مـتـوّجـةً بـأكـالـيـل نـورِ
جـيـوبٌ مـن الـوَشْـي مَـزْرورةٌ[1] يلوح عليها بياضُ النُّحُورِ[2]

وقال آخر: [من الكامل]

وكأنّما الأقداحُ مترَعَةُ[3] الحَشَا بين الشُّروب كواكبُ الجوزاءِ
وكـأنـهـا يـاقـوتـةٌ فَـضـلاتُـهـا مـخـروطـةٌ مـن دُرّة بـيـضـاءِ

وقال المعوَّج: [من الطويل]

يعاطيك كأسًا غيرَ مَلأى كأنها إذا مُزجتْ أحداقُ دِرعٍ مُزرَّدِ[4]
كـأنّ أعـالـيـهـا بـيـاضُ سَـوالـفٍ يـلـوح عـلـى تـوريـدِ خـدّ مـورَّدِ

وقال أبو نواس: [من الكامل]

وكـأنـمـا الـروضُ الـسـماءُ ونهرُه فيه المجرّةُ[5] والكؤوسُ الأنجمُ

وقال الثعالبيّ[6]: [من السريع]

يـا واصـف الـكـأس بـتـشـبـيـهـهـا دونـك وصـفًـا عـالِيَ الـقَـدْرِ
كـأنّ عـيـنَ الـشـمـس قـد أُفْـرِغَـتْ فـي قـالَـبٍ صِـيـغ مـن الـبَـدْرِ

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

أقـول لـلـكـأس إذا تـبـدّتْ بـكـفّ أحْـوَى[7] أغـنّ[8] أحـورْ
أخْـربـتِ بـيـتـي وبـيـتَ غـيـري وأصـلُ ذا كـعـبُـكِ الـمـدوَّرْ

(١) مزرورة: مشدودة.
(٢) النحور: الأعناق في أسفلها.
(٣) مترعة: ملأى.
(٤) مزرّد: فيها زرد.
(٥) المجرّة: سحابة من ملايين النجوم تبدو بيضاء كاللّطخة.
(٦) هو أبو منصور الثعالبي، أديب ومؤرّخ وشاعر عباسي من أهل نيسابور، له «يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر» و«فقه اللغة» و«الأمثال» و«لطائف المعارف». توفي سنة ١٠٣٨ م.
(٧) الأحوى: الذي في لثته حوّة، وهي السواد والخضرة.
(٨) الأغنّ: الذي في صوته غنّة.

الباب الخامس

من القسم الثالث من الفنّ الثاني في النُّدمان والسُّقاة

قال سهل بنُ هارون[١]: ينبغي للنديم أن يكون كأنما خُلق من قلب الملك يتصرّف بشهواته ويتقلّب بإرادته، لا يَمَلُّ المعاشرة، ولا يَسْأَم المسامرة[٢]؛ إذا انتشى يحفظ، وإذا صحا يَيقَظُ، ويكون كاتِمًا لسرِّه، ناشرًا لبرِّه؛ قالوا:

فاخَرَ كاتبٌ نديمًا، فقال الكاتب: أنا معونة، وأنت مؤونة؛ وأنا للجدّ، وأنت للهزل؛ وأنا للشدّة، وأنت للرخاء؛ وأنا للحرب، وأنت للسِّلم. فقال النديم: أنا للنّعمة، وأنت للخدمة؛ وأنا للحُظوة، وأنت للمهنة؛ تقوم وأنا قاعد، وتحتشمُ وأنا مؤانِس؛ تدأبُ[٣] لراحتي، وتشقى لما فيه سعادتي؛ فأنا شريك وأنت مُعِين، كما أنك تابع وأنا قرين. فلم يحرِ الكاتبُ جوابًا، والله أعلم.

وسُئل إسحـٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصليّ رحمه الله عن الندماء، فقال:

واحدٌ غَمٌّ، واثنان هَمٌّ، وثلاثةٌ قِوَامٌ[٤]، وأربعةٌ تَمَامٌ، وخمسةٌ مجلِسٌ، وستَّةٌ زحامٌ، وسبعةٌ جَيْشٌ، وثمانيةٌ عَسْكرٌ، وتسعةٌ اضربْ طبلَك، وعشرة ٱلقَ بهم مَن شئتَ.

وقال الجمّاز: النبيذ حرام على اثني عشر نفسًا، مَن غنَّى الخطأ، واتّكأ على اليمينِ، وأكثرَ من أكل البقل[٥]، وكسر الزجاجَ، وسرق الريحانَ، وبلَّ ما بين يديه، وطلب العَشاء، وقطع البَم[٦]، وحبس أوّلَ قدحٍ، وأكثر الحديثَ، وامتخط في منديل الشراب، وبات في موضع لا يُحْتَمَلُ المبيتُ فيه.

قال أبو هلال العسكريّ: [من الخفيف]

ما أُعافُ[٧] النبيذَ خيفةَ إثم إنما عفتُه لفقدِ النّديمِ
ليس في اللّهو والمدامةِ حظٌّ لكريم دون النديم الكريمِ

---

(١) سهل بن هارون: كاتب بليغ من واضعي القصص على ألسنة الحيوان، عاش في البصرة وخدم الخليفة الرشيد، اتّصف بنزعته الشعوبية الفارسية. له «ثعلة وعفراء» و«النمر والثعلب» و«الإخوان» و«المسائل» و«تدبير الملك والسياسة». توفي سنة ٨٣٠ م.

(٢) المسامرة: أحاديث الليل في السهر.

(٣) تدأب: تعمل بلا توقّف.

(٤) القوام: النظام والعدل.

(٥) البقل: من النباتات والمأكولات العشبية.

(٦) البم: وتر من أوتار العود.

(٧) أعاف: أكره وأملّ.

فتخيَّرْ قبلَ النبيذ نديمًا ... ذا خلالٍ[1] معطَّراتِ النسيمِ
وجَمَالٍ إذا نظرتَ بديعٍ ... وضميرٍ إذا اختبرتَ سليمِ

وقال آخر: [من الوافر]

أرى للكأس حقًّا لا أراه ... لغير الكأسِ إلا للنديمِ
هو القطبُ الذي دارتْ عليه ... رحى[2] اللّذّاتِ في الزمنِ القديمِ

وقال آخر: [من مجزوء الوافر]

ونَدْمانٍ أخي ثقةٍ ... كأنَّ حديثَه حَبَرَهْ[3]
يسرُّك حسنُ ظاهرِهِ ... وتَحْمَد منه مُخْتَبَرَهْ
ويستر عيبَ صاحِبِهِ ... ويسترُ أنه سَتَرَهْ

وقال آخر: [من الخفيف]

ونديم حلوِ الحديثِ يُجاريـ ... ـك بما تشتهيه في مَيدانِكْ
ألمعيَّ[4] كأنّ قلبَك في أضـ ... ـلاعه أو كلامَهُ في لسانِكْ

وقال يحيىٰ بن زياد: [من الطويل]

ولستُ له في فضلة الكأسِ قائلًا ... لأصرفه عنها: تحسَّ[5] وقد أبَى
ولكن أحيِّيه وأُكرِمُ وجهَهُ ... وأشربُ ما أبقَى وأسقيه ما اشتهَى
ولستُ إذا ما نام عندي بموقظٍ ... ولا مُسمِعٍ يقظانَ شيئًا من الأذَى

وقال آخر: [من الخفيف]

ليس من شأنه إذا دارتِ الكأ ... س فأزرى[6] إدمانُها بالحلومِ
قولُ ما يُسخط النديمَ وإن أسـ ... ـخطَه عند ذاك قولُ النديمِ

وقال عبد الرحمٰن العَطَويّ رحمه الله: [من البسيط]

أُخْطُبْ لكأسكَ نَدمانًا تُسَرُّ به ... أوْ لا فنادِمْ عليها حِكمةَ الكُتُبِ
أخطُبْه حرًّا كريمًا ذا محافظةٍ ... ترى مودّتَه من أقربِ النَّسَبِ

---

(١) الخلال: الصفات.
(٢) الرحى: الطاحون.
(٣) الحبرة: ضرب من برود اليمن.
(٤) الألمعي: ذو المواهب والمناقب.
(٥) تحسّ: اشربه شيئًا بعد شيء.
(٦) أزرى: عاب وشان.

وقال أبو نُوَاس: [من الوافر]

وندمانٍ[١] يَرَى عيبًا عليه ... بأن يمشي وليس به انتشاءُ[٢]

إذا نبّهْته من نوم سكرٍ ... كفاه مرّةً منك النداءُ

فليس بقائلٍ لك: إيهِ[٣] دعني ... ولا مستخبرًا لك ما تشاءُ

ولكن سَقِّني ويقول أيضًا ... عليك الصِّرْفَ إن أعياك ماءُ

إذا ما أدْرَكَته الظهرُ صلّى ... ولا عصرٌ عليه ولا عِشاءُ

يصلّي هذه في وقت هذي ... وكلّ صلاتِهِ أبدًا قضاءُ

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

نبَّهت نُدْماني فهبّوا ... بعد المنام لما استحبّوا

هذا أجاب وذا أنا ... ب وذا يسير وذاك يحبو

أنشدتهم بيتًا يعـ ... ـلِّم ذا الصبابةِ كيف يصبو[٤]

«ما العيشُ إلّا أنْ تُحِـ ... ـبّ وأن يحبَّك مَن تُحبُّ»

فتطرّبوا والأرْيَحِـ ... ـيَّةُ[٥] شأنُها طرَبٌ وشربُ

وقال أبو عُبادة البحتريُّ عفا الله تعالى عنه: [من الخفيف]

ونديمٍ نبّهتُه ودُجى الليـ ... ـل وضوءُ الصباح يعتلِجانِ[٦]

قم نبادرْ بها الصيامَ فقد أقـ ... ـمرَ ذاك الهلالُ من شعبانِ[٧]

وقال أيضًا: [من السريع]

بات نديمًا ليَ حتى الصباح ... أغيدُ مجدولُ مكانِ الوشاحْ[٨]

كأنّما يبسِمُ عن لؤلؤٍ ... مُنَضّدٍ[٩] أو بَرَدٍ أو أَقَاحْ[١٠]

---

(١) الندمان: النديم. (٢) الانتشاء: النشاط واللذّة.
(٣) إيه: بمعنى كفّ.
(٤) يصبو: يميل إلى الصبابة، وهي الجهل والعشق.
(٥) الأريحيّة: الارتياح إلى النّدى والنشاط إلى المعروف.
(٦) يعتلجان: يصطرعان.
(٧) شعبان: الشهر العربي الذي يسبق رمضان شهر الصيام.
(٨) الوشاح: الثوب الرقيق يلفّ به الخصر. (٩) منضّد: مرتّب.
(١٠) الأقاح: جمع أقحوان، من النّور والزهر.

يُساقِطُ الوردَ علينا وقد تبلّجَ[١] الصبحُ، نسيمُ الرياح

إنْ لان عِطْفاه[٢] قسَا قلبُه أو ثَبّت الخلخالَ جالَ الوشاحْ

أمزُجُ كأسي بِجَنَى رِيقِه وإنما أمزُجُ راحًا براحْ[٣]

ومنهم من كره النديم وآثر الانفراد. قال إبراهيم الموصليّ عفا الله تعالى عنه ورحمه:

دخلت يومًا على الفضل بن يحيىٰ فصادفتُه يشربُ وعنده كلبٌ، فقلت له: تنادمُ كلبًا! قال: نعم، يمنعُني أذاه، ويكُفُّ عني أذى سواه، ويشكر قليلي، ويحفظ مَبيتي ومَقيلي[٤]. وأنشد: [من الطويل]

وأشرب وحدي من كراهتِيَ[٥] الأذى
مخافةَ شرّ أو سِبابِ لئيمِ

انتهى، وأستغفر الله العظيم.

* * *

ومما قيل في السُّقاة؛ فمن ذلك قول الصنوبريّ[٦] عفا الله عنه: [من مجزوء الكامل]

ومُوَرّد الخدّيْنِ يخـ طِرُ حينَ يخطرُ في موَرَّدْ

يسقيكَ من جفنِ اللُّجيـ ـنِ[٧] إذا سَقاكَ دموعَ عَسْجَدْ[٨]

حتى تظنَّ النجمَ ينـ ـزلُ أو تظنَّ الأرض تصعَدْ

فإذا سقاك بعينه وبفيه ثم سقاك باليدْ

حيّاك بالياقوت ثم الدُّرّ من تحت الزَّبَرجَدْ[٩]

---

(١) تبلّج: ظهر وصار أبيض.
(٢) العطفان: الجانبان.
(٣) الراح: الخمرة.
(٤) مقيلي: مكان قيلولتي ومبيتي ونومي.
(٥) الكراهية: البغض.
(٦) الصنوبري: واسمه أحمد، شاعر عباسي، عاش في بلاط سيف الدولة بحلب، له شعر في وصف الطبيعة، جمل جدًا، اسم ديوانه «الروضيّات». توفي سنة ٩٤٦ م.
(٧) اللجين: الفضّة، كناية عن الدمع.
(٨) العسجد: الذهب والجوهر.
(٩) الزبرجد: من الأحجار الكريمة.

وقال ديك الجنّ[١]: [من الوافر]

ومُزْرٍ[٢] بالقضيبِ إذا تثنّى[٣] ومزهاةٍ[٤] على القمرِ التّمامِ

سقاني ثمّ قبّلني وأوْمَا بطرفٍ سُقْمُه يشفي سَقامِي

فبِتُّ له على النّدمان أسقَى مُدامًا في مُدامٍ في مدامِ[٥]

وقال ابن المعتزّ: [من الطويل]

تدور علينا الراحُ من كفّ شادنٍ[٦] له لحظُ عينٍ يشتكي السقمَ مُدنَفُ[٧]

كأنّ سلافَ الخمر[٨] من ماء خدّه وعنقودَها من شعره الجعدِ يُقطَفُ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

بين أقداحهم حديثٌ قصيرٌ هو سحرٌ وما سواه الكلامُ

فكأنّ السُّقاةَ بين الندامَى ألِفاتٌ[٩] بين السطور قِيامُ

وقال أحمد بنُ أبي فَنَن: [من مجزوء الوافر]

بكفّ مُقَرْطقٍ[١٠] خَنِثٍ[١١] تطيبُ بطيبِه الرِّيَبُ

تراها وهي في كفّيـ ـه من خَدّيه تَلتهبُ

وقال الصنوبريّ: [من المتقارب]

وساقٍ إذا همّ نَدْمانُنا بأن يُزْجِيَ[١٢] الكأسَ لم يُزْجِهِ

كلعبة عاجٍ على فرشه وليثِ عَرينٍ[١٣] على سَرْجِهِ[١٤]

---

(١) هو عبد السلام، ديك الجنّ الحمصي، من الشعراء المجيدين. عرف بمجونه. مات سنة ٨٤٩ م.

(٢) المزري: العائب، وهنا بمعنى الصائب الظريف.

(٣) تثنى: تلوّى، والقضيب: كناية عن القدّ.

(٤) مزهاة: مصدر يحيى من زها إذا علا وتكبّر.

(٥) المدام: الخمرة.

(٦) الشادن: ولد الظبي.

(٧) المدنف: المعتل من الحبّ.

(٨) سلاف الخمر: ما كان معتقًا منها.

(٩) الألفات: جمع ألف، وهي الحرف الأبجدي المعروف.

(١٠) المقرطق: من لبس الثياب من القرطق، كناية عن الغلام الساقي.

(١١) الخنث: من فيه خنوثة، أي أنوثة.

(١٢) يزجي: يبعث ويعطي.

(١٣) العرين: بيت الأسد.

(١٤) سرج الفرس: ما يوضع فوق ظهرها تحت الفارس.

لطيفِ الممنطق[١] مهتزِّه ثقيلِ المؤزَّرِ[٢] مرتجِّه
سقاني بعينيه أضعافَ ما سقاني بكفّيه من غُنْجِهِ[٣]

وقال آخر: [من البسيط]

يا ساقيَ القومِ إنْ دارَتْ إليَّ فلا تمزُجْ فإني بدمعي مازجٌ كاسي
ويا فتى الحيّ إنْ غنَّيتَ من طَرَبِ فغنِّ: واحَرَبَا[٤] مِن قلبه القاسي

وقال ابن المعتزّ: [من الطويل]

وعاقدِ زُنّارٍ على غُصُنِ الآسِ[٥] دقيقِ المعاني مُخْطَفِ الخصرِ[٦] ميّاسِ[٧]
سقاني عُقَارًا صَبَّ فيها مِزاجَها فأضحك عن ثَغْرِ الحَبابِ فَم الكاسِ

وقال أيضًا: [من مجزوء الخفيف]

قام كالغصن في النقا[٨] يمزُج الشمْسَ بالقمرْ
وسقاني المدامَ والليـ ـلُ بالصّبحِ مؤتزرْ
والثُّريا[٩] كنَوْرِ[١٠] غصـ ـنٍ على الغرب قد نُثِرْ

وقال البحتريّ: [من الهزج]

وفي القهوة[١١] أشكالٌ من الساقي وألوانُ
حَبابٌ مثلُ ما يَضْحَـ ـكُ عنه وهو جذلانُ[١٢]
ويُسْكِر مثل ما يُسْكـ ـرُ طَرْفٌ[١٣] منه وَسْنانُ[١٤]
وطعمُ الرّيق إن جاد به والصبُّ هَيمانُ
لنا من كفّه راحٌ ومن ريّاه[١٥] ريحانُ

---

(١) الممنطق: موضع النطاق.
(٢) المؤزّر: موضع الإزار من الجسم.
(٣) الغنج: الدلال.
(٤) واحربا: للتعجّب والاستغاثة.
(٥) الآس: ضرب من النبت الطيّب الرائحة.
(٦) مخطف الخصر: دقيقه.
(٧) الميّاس: المتمايل بزهو وعجب.
(٨) النّقا: كثيب الرّمل.
(٩) الثريّا: ستة أنجم صغار مجتمعة في كوكبة الجبار أو أمامها تحديدًا.
(١٠) النّور: الزهر.
(١١) القهوة: الخمرة.
(١٢) جذلان: فرح مسرور.
(١٣) الطرف: العين.
(١٤) الوسنان: النعسان.
(١٥) ريّاه: ريحه الطيّبة.

وقال أبو القاسم الهُبيريّ الكاتب رحمة الله تعالى عليه: [من الوافر]

سقانا الراحَ ساقٍ، كلُّ راحٍ سوى ألحاظ عينيه سرابُ
يدير الكأسَ مبتسمًا علينا فما ندري أثغرٌ أم حَبابُ؟
وقد سَفر(١) الدجى عن ثوب فجرٍ مُنيرٍ مثل ما سَفَر النِّقابُ
فخلتُ الصُّبح في أثر الثُّريّا بشيرًا جاء في يده كتابُ

وقال أبو الشِّيص(٢): [من المتقارب]

يطوف علينا به أحورٌ(٣) يداه من الكأس مَخْضُوبتانِ(٤)
غزالٌ تَميل بأعطافِهِ قَنَاةٌ تعطَّفُ كالخَيْزُرانِ

وقال أبو بكر محمد بن عمّار(٥): [من الكامل]

وهَوِيتُه يَسْقِي المُدامَ كأنّه قمرٌ يَطُوفُ بكوكَبٍ في حِنْدِسِ(٦)
متأرِّجُ الحَركاتِ تندَى(٧) ريحُهُ كالغصن هزّته الصَّبا(٨) بتنفّسِ
يسعى بكأسٍ في أنامل سَوْسَنٍ ويُدير أُخرى في مَحَاجز نَرْجِسِ(٩)

وقال المعوّج يصف ساقيه: [من المنسرح]

لا عيشَ إلّا من كفّ ساقيةٍ ذاتِ دلالٍ في طرفها مَرَضُ
كأنما الكأسُ حين تمزجُها نجومُ ليلٍ تعلو وتنخفضُ

وقال آخر يصف امرأة ساقيةً: [من الوافر]

وساقيةٍ كأنّ بمَفرِقيها أكاليلًا على طبقاتِ وَرْدِ
لها طِيبُ المُنى وصَفاءُ لونٍ وحُمرةُ وَجْنَةٍ ومَذاقُ شَهْدِ(١٠)

---

(١) سفر: أظهر وبان.
(٢) أبو الشيص: محمد، الشاعر العباسي المطبوع، من الكوفة. مدح أمير الرقّة عقبة الخزاعي. عَمي في آخر حياته، اشتهر بمراثيه في عينيه. له شعر خمري ومدحي. مات سنة ٨١١ م.
(٣) الأحور: الشديد سواد العينين. (٤) مخضوبتان: مصبوغتان.
(٥) هو أبو بكر، ابن عمار الشاعر الأندلسي المشهور، عاصر ابن زيدون، واستوزره المعتمد بن عباد ثم قتله سنة ١٣٦٧ م.
(٦) الحندس: الظلام. (٧) تندى: تفيض بالندى.
(٨) الصّبا: ريح ناعمة.
(٩) السوسن والنرجس: من النوريّات الذكية الرائحة والحسنة الشكل والمنظر.
(١٠) الشهد: العسل.

وقال ديك الجنّ يصف ساقيًا وساقيةً: [من الكامل]

أفديكما مِن حامِلَيْ قَدَحَيْنِ ... قمرين في غصنين في دِعْصَينِ[1]

رُودٌ[2] منعّمةٌ ومهضوم الحشا[3] ... للناظرين مُنًى وقُرّة عَيْنِ

قامت مؤنّثةً وقام مؤنّثًا ... فتَنَاهبا الألحاظَ بالنَّظرَيْنِ

صُبّا عليّ الراحَ إنّ هلالَنا ... قد صبَّ نعمَتَه على الثّقلَيْنِ[4]

وإليّ كأسَكما على ما خُيِّلَتْ ... بالتِّبر[5] معجونًا بماء لُجيْنِ[6]

الباب السادس

من القسم الثالث من الفنّ الثاني

في الغناء والسماعِ، وما ورد في ذلك من الحَظْرِ[7] والإباحةِ، وما استدلّ به مَنْ رأى ذلك؛ ومن سمع الغناءَ من الصّحابةِ رضوانِ الله عليهم أجمعين، ومن التابعين ومن الأئمّة والعبّاد والزهّاد، ومن غنّى من الخلفاء وأبنائهم والأشراف والقُوّاد والأكابر، وأخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسيّة إلى العربيّة، ومن أخذ عنهم، ومن اشتهر بالغناء وأخبار القيان.

ذكر ما ورد في الغناء من الحَظْر والإباحة

قد تكلم الناسُ في الغناء في التحريم والإباحة واختلفت أقوالُهم وتباعدت مذاهبُهم وتباينت استدلالاتُهم؛ فمنهم من رأى كراهته وأنكر استماعَه، واستدلّ على تحريمه؛ ومنهم مَن رأى خلافَ ذلك مطلقًا وأباحه وصمّم على إباحته؛ ومنهم من فرّق بين أن يكونَ الغناءُ مجرّدًا أو أضيف إليه آلةٌ كالعود والطّنبورِ وغيرهما من الآلات ذوات الأوتارِ والدّفوف والمعازف والقصبِ، فأباحه على انفراده وكرهه إذا انضاف إلى غيره وحرّم سماع الآلات مطلقًا. ولكلّ طائفةٍ من أربابِ هذه المقالات أدلّةٌ استدلّت بها. وقد رأينا أن نُثبتَ في هذا الموضع نبذةً من أقوالهم على سبيل الاختصارِ وحذف النظائر المطوّلةِ، فنقول وبالله التوفيق.

* * *

(١) الدعصين: مثنى دعص وهو التلّ من الرمل المتماسك الأجزاء.
(٢) الرّود: الشابة الحسناء.
(٣) مهضوم الحشا: دقيقة الخصر.
(٤) الثقلان: الإنس والجنّ.
(٥) التبر: الذهب مخلوطًا بالتراب.
(٦) اللجين: الفضّة.
(٧) الحظر: المنع، وهو بخلاف الإباحة.

أمّا ما قيل في تحريم الغناء وما استدلَّ به مَن رأى ذلك، فإنهم استدلّوا على التحريم بالكتاب والسنّةِ وأقوال الصحابةِ والتابعينَ والأئمةِ من علماء المسلمين. أما دليلُهم من الكتاب العزيزِ فقولُ الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١ - ٣]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القَصَص: الآية ٥٥]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفُرقان: الآية ٧٢]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ [لقمان: الآية ٦]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: الآية ٦٤]، وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النجم: الآيات ٥٩ - ٦١]. قال ابن عباس: ﴿سَٰمِدُونَ﴾ هو الغناء بلغة حِمْيَر، وقال مجاهد: هو الغناء بقول أهل اليمن، سمَد فلانٌ إذا غنّى. ورُوي عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال في هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: إنه الغناء، ومن طريق آخر: إنه الغناء وأشباهُه. ورُوي عن عبد الله بن مسعود[1] رضي الله عنه: هو ـ والذي لا إلـه إلّا هو ـ الغناء. وعن مجاهد رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال: صوته الغناء والمزامير. وعنه في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفُرقان: الآية ٧٢]، قال: الغناء.

وأمّا دليلُهم من السُّنّة، فما روي عن عائشةَ رضي الله عنها أنّها قالت: إن الله عزّ وجلّ حرّم القينةَ وبيعَها وثمنَها وتعليمها والاستماعَ إليها، ثم قرأتْ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الآية. وروى أبو أُمامةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما رفع أحدٌ صوته بغناء إلّا بعث الله عزّ وجلّ إليه شيطانَيْن على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يُمسكَ». وروى أبو الزبير عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كان إبليسُ أوّل مَن ناح وأوّل من تغنّى». وعن عبد الرحمٰن بن عوفٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نُهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين: صوتٍ عند نعمةٍ، وصوتٍ عندَ مصيبة».

---

(١) هو عبد الله بن مسعود، الصحابي والمحدث من السابقين إلى الإسلام. لزم النبيّ ﷺ مدة حياته، وكان متقنًا لتلاوة القرآن الكريم. توفي سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م.

وأمّا أقوالُ الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، فقد روي عن عثمانَ بنِ عفّان رضي الله عنه أنّه قال: ما تغنّيت قطّ، فتبرّأ من الغناء وتبجّح[١] بتركه. ورُوي عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنّه قال: الغناءُ يُنبتُ النفاقَ في القلب كما ينبتُ الماءُ البقلَ. ورُوي أنّ ابن عمر رضي الله عنهما مرّ على قوم محرمين ومعهم قوم ورجلٌ يغنّي، فقال: ألا لا أسمع والله لكم، ألا لا أسمع والله لكم. ورُوي عن عبد الله بن دينار قال: مرّ ابن عمرَ رضي الله عنهما بجارية صغيرةٍ تغنّي، فقال: لو ترك الشيطان أحدًا ترك هذه. وعن إسحٰق بن عيسى قال: سألت مالكَ بن أنسٍ[٢] رضي الله عنه عما ترخّص فيه بعض أهل المدينة من الغناء، فقال: ما يفعله عندنا إلا الفُسّاق. وقال الشعبيّ: لُعِن المغنّي والمُغنّى له. وقال الحكم بنُ عتيبةَ: حبُّ السماع يُنبتُ النفاقَ في القلب. ورُوي أن رجلًا سأل القاسمَ بنَ محمد فقال: ما تقول في الغناء، أحرامٌ هو؟ فأعاد عليه؛ فقال له في الثالثة: إذا كان يومُ القيامة فأُتي بالحقّ والباطل أين يكون الغناء؟ قال: مع الباطل. قال القاسم: فأَفتِ نفسك. وقال الفُضَيْلُ بنُ عياض: الغناء رُقْية[٣] الزنى. وقال بعضهم: الغناء رائد من روّاد الفجور. وقال الضحّاك: الغناء مَفْسَدةٌ للقلب، مَسْخَطةٌ للرّبّ. وقال يزيد بن الوليدِ مع اشتهاره بما اشتهر به: يا بني أُميّةَ، إيّاكم والغناءَ؛ فإنه يُنقصُ الحياءَ ويزيدُ في الشهوة ويهدمُ المروءةَ، وإنه ليَنوبُ عن الخمرِ ويفعل ما يفعله السكرُ؛ فإن كنتم لا شكّ فاعلين فجنّبوه النساءُ؛ فإن الغناءَ رُقْية الزّنى. وإني لأقول ذلك فيه على أنه أحبّ إليّ من كلّ لذّة، وأشهى إلى نفسي من الماء إلى ذي الغُلّة[٤] الصادي[٥]، ولكن الحقّ أحقّ أن يُقال.

وأمّا أقوالُ الأئمةِ رحمهم الله تعالى فقد قال الإمامُ الشافعيّ[٦] رضي الله عنه في كتاب أدب القضاة: الغناء لهوٌ مكروه يشبه الباطلَ. وقال: من استكثر منه فهو سفيه

---

(١) تبجّح: تفاخر.

(٢) مالك بن أنس، أحد الأئمّة المشهورين، مؤسس المالكية أحد المذاهب الفقهية السنيّة. ولد وتوفي في المدينة سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م. له «الموطّأ» وفيه جماع آرائه الفقهيّة، كما أن له «الردّ على الدهريّة» و«المدوّنة الكبرى». انظر: شذرات الذهب ١/ ٢٨٩.

(٣) الرقية: ما يستعان به من الكلام للشفاء من المرض.

(٤) الغلّة: العطش. (٥) الصادي: العطشان.

(٦) الشافعي: محمد بن إدريس، مؤسس المذهب السنيّ الفقهي المعروف باسمه. ولد في غزة ونشأ في مكّة ولازم الإمام مالكًا في المدينة ودرس عليه. له من الكتب «الأمّ» و«المسند في الحديث» و«السّنن» و«الرسالة» في الأصول. مات سنة ٢٠٤ هـ/ ٨٢٠ م. انظر: الفهرست ص ٢٩٤.

تُرَدّ شهادته. قال القاضي حسين بن محمّد: وأمّا سماعُه من المرأة التي ليست بمَحْرم، فإن أصحاب الشافعيّ قالوا: لا يجوز بحال سواء كانت بارزة أو من وراءِ حجابٍ وسواء كانت حرّة أو مملوكة. وقال الشافعيّ: وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه(١) تُرَدّ شهادتُه. ثم غلّظ القولَ فيه وقال: هو دياثةٌ(٢)، وقال: وإنما جعل صاحبها سفيهًا لأنه دعَا الناس إلى الباطل، ومن دعا إلى باطل كان سفيهًا فاسقًا. وقال مالك بن أنس: إذا اشترى جارية فوجدها مغنّية كان له ردّها بالعيب، قال: وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيمَ بنَ سعد وحدَه. وكره أبو حنيفة(٣) ذلك وجعل سماع الغناء من الذنوب، قال: وذلك مذهب سائر أهل الكوفة وسفيان الثوريّ(٤)، وحمّاد بن سَلَمة، وإبراهيم النّخعيّ، والشعبيّ وغيرهم لا خلاف بينهم في ذلك. قال: ولا يُعْرَف أيضًا بين أهل البصرة خلاف في كراهة ذلك والمنع منه. وقال بعض الزهّاد: والغناء يورث العناد في قوم، ويورث التكذيب في قوم، ويورث القساوة في قوم.

وقال بعضهم عن حاله عند السماع: [من الوافر]

أتذكرُ وقتنا وقد اجتمعنا	على طِيبِ الغناءِ إلى الصباحِ
ودارت بيننا كأسُ الأغاني	فأسكرتِ النفوسَ بغير راحِ
فلم تَرَ فيهمُ إلا نشاوَى	سرورًا والسرور هناك صاحي
إذا لبَّى أخو اللذّاتِ فيه	منادي اللهوِ حيّ على السماحِ
ولم يملك سوى المُهجاتِ شيئًا	أرَقْناها لألحاظٍ(٥) مِلاحِ

هذا ملخّص ما ذكروه في تحريم الغناء، وقد استدلّ مَن أباحه بما يناقض ما تقدّم على ما نذكر ذلك إن شاء الله في إباحة الغناء.

---

(١) السفيه: القاصر. (٢) الدياثة: الصّغار والذلّة.

(٣) أبو حنيفة: هو النعمان بن ثابت، صاحب المذهب الفقهي السنّي المشهور. ولد في الكوفة ودرّس فيها. استدعاه المنصور لتولّي القضاء في بغداد، فرفض فحبسه إلى أن مات سنة ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م. له من الكتب «الفقه الأكبر» و«المسند»، أخذ بالقياس والرأي. انظر: الفهرست ص ٢٨٤.

(٤) سفيان الثوري: أبو عبد الله، أحد الأئمّة المجتهدين، له «الجامع الكبير» و«الجامع الصغير» في الحديث. مات سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م. انظر: الفهرست ص ٣١٤.

(٥) الألحاظ: العيون.

ذكر ما ورد في إباحة الغناء والسماع والضرب بالآلة

وقد تكلّم الناسُ في إباحة الغناء وسماع الأصوات والنغمات والآلات، وهي الدفُّ واليراعُ والقصبُ والأوتارُ على اختلافها من العودِ والطُّنبور وغيره، وأباحوا ذلك واستدلّوا عليه وضعّفوا الأحاديث الواردة في تحريمه، وتكلّموا على رجالها وجرّحوهم وبسطوا في ذلك المصنفات ووسّعوا القول وشرحوا الأدلّة. وطالعت من ذلك عدّة تصانيفَ في هذا الفنّ مجرَّدةً له ومضافةً إلى غيره من العلوم. وكان ممّن تكلّم في ذلك وجرّد له تصنيفًا الشيخُ الإمام الحافظُ أبو الفضل محمدُ بنُ طاهرِ بن عليّ المقدسيّ رحمه الله تعالى، فقال في ذلك ما ذكر مختصره ومعناه:

اعلم أن الله تعالى بعث محمّدًا ﷺ بالحنيفيّة السمحةِ إلى الكافّة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧]، فبلّغ رسول الله ﷺ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأُمّة، وسنَّ وشرّع، وأمر ونهى، كما أمر ﷺ؛ فليس لأحدٍ بعده وبعد الخلفاء الراشدين الذين أمر رسول الله ﷺ بالاقتداء بهم والاتّباع لسنّتهم أن يحرّم ما أحلّ الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ إلا بدليل ناطق من آية محكمة، أو سنّة ماضية صحيحة، أو إجماع من الأمّة على مقالته.

وأمّا الاستدلالُ بالموضوعات والغرائبِ والأفرادِ من رواية المكذّبين والمجرّحين الذين لا تقوم بروايتهم حجّةٌ، وبأقاويل مَنْ فسّر القرآن على حسب مراده ورأيه، فلا يُرْجَع إلى قولهم ولا يُسلك طريقُهم؛ إذ لو جاز ذلك لم يكن قول أحد من الناس أولى من قول غيره، وإنما يُلْزم بقول من أُيّد بالوحي والتنزيل، وعُصِم[1] من التغيير والتبديل. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النّجم: الآيتان ٣، ٤]، فعلمنا أنه ﷺ لم يأمر ولم ينهَ عن أمرٍ إلا بوحي من الله تعالىٰ. وكذلك كان ﷺ إذا سُئِل عن أمرٍ لم ينزل فيه وحيٌ توقّف حتى يأتيه الوحي، وليست هذه المنزلة لغيره فيلزم قبول قوله.

---

(١) عُصم: حُفظ.

ذكر ما استدلّوا به على إباحة الغناء من الأحاديث النبويّة

قد استدلّوا على إباحة الغناء بأحاديثَ صحيحةٍ عن رسول الله ﷺ، منها ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: دخل عَلَيَّ أبو بكر رضي الله عنه وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنّيان بما تقاولتْ به الأنصارُ يوم بُعاثٍ[1] وليستا بمغنّيتين؛ فقال أبو بكر: أمِزْمارُ الشيطان في بيت رسول الله ﷺ! وذلك يوم عيد. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا». ومن طريقٍ آخر عنها رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنّيان بغناء بُعَاثٍ؛ فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني، وقال: مِزْمَارَةُ الشيطان عند النبيّ ﷺ! فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «دعهما»، فلما غفَل غمزتُهما فخرجتا، وكان يومُ عيدٍ يلعب فيه السودانُ بالدَّرَق[2] والحِرَاب، فإمّا سألتُ رسول الله ﷺ، وإمّا قال: «تَشتهِين تَنْظُرينَ»، فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدّي على خدّه وهو يقول: «دونكم يا بني أَرْفِدَةَ»[3]، حتى إذا مَلِلت قال: «حسبُكِ؟» قلت: نعم، قال: «فاذهبي». ومن طريق آخر عنها رضي الله عنها: أنّ أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيّام مِنًى تُدَفِّفان وتضربان والنبيّ ﷺ متغشٍّ بثوبه؛ فانتهرهما أبو بكر؛ فكشف النبيّ ﷺ عن وجهه وقال: «دعهما يا أبا بكر، فإنها أيامُ عيد». وتلك الأيام أيامُ مِنًى[4]. وقالت عائشة: رأيت النبيّ ﷺ يسترني وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر، فقال النبيّ ﷺ: «دعهم أَمْنًا بني أَرْفِدَةَ» (يعني من الأمن). قال أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم[5] رحمه الله عند ذكر هذه الأحاديث: أين يقع إنكار مَنْ أنكر مِنْ إنكار سَيِّدَيْ هذه الأمّة بعد نبيّها ﷺ: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما! وقد أنكر عليه الصّلاة والسلام عليهما إنكارهما، فرجعا عن رأيهما إلى قوله ﷺ. وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كانت

---

(١) يوم بُعاث: من أيام العرب وحروبهم. كان بين الأوس والخزرج التي جرت سنة ٦١٧ م. وبعاث، قرب المدينة.

(٢) الدّرق: التروس من جلد، والمفرد درقة. (٣) بنو أرفدة: قوم من الزنوج الأحباش.

(٤) أيام مِنًى، هي الأيام التي تلي عرفة في موسم الحجّ.

(٥) ابن حزم: هو علي بن أحمد، الشاعر والفيلسوف والمؤرّخ والمتكلّم الأندلسي. ولد في قرطبة وانصرف إلى التأليف. وله من الكتب «طوق الحمامة» في الأدب، و«الفصل في المِلل والنِّحل» في التاريخ والديانات، و«جمهرة الأنساب» و«الإحكام في أصول الأحكام» في الفقه، مات سنة ١٠٦٤ م.

جاريةٌ من الأنصار في حِجْري فزَفَفْتُها؛ فدخل رسول الله ﷺ ولم يسمع غناء، فقال: «يا عائشةُ، ألَا تبعثين معها مَنْ يُغَنِّي فإن هذا الحيَّ من الأنصار يحبّون الغناء». وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نكح بعضُ الأنصار بعضَ أهل عائشة فأهدتها إلى قُبَاء؛ فقال لها رسول الله ﷺ: «أهديتِ عروسَكِ؟» قالت: نعم، قال: «فأرسلتِ معها بغِناء، فإن الأنصار يُحبّونه»؟ قالت: لا، قال: «فأدركيها يا زينب» (امرأة كانت تغنِّي بالمدينة)، رواه أبو الزبير محمد بن الزبير بن مسلم المكيّ عن جابر. وعنه أيضًا قال: أنكحَتْ عائشةُ رضي الله عنها ذاتَ قرابة لها رجلًا من الأنصار؛ فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أهديتُم الفتاةَ»؟ قالوا: نعم، قال: «أرسلتم معها»؟ - قال أبو طلحة راوي الحديث: ذهب عنّي - فقالت: لا، فقال رسول الله ﷺ: «إن الأنصار قوم فيهم غَزَلٌ فلو بعثتم معها من يقول: [من الهزج]

أتيناكم أتيناكم فحيّانا وحيّاكم»

ورُوي عن فَضالةَ بنِ عُبَيْدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أَشَدُّ أَذَنًا إلى الرجل الحسَن الصوت بالقرآن يَجْهَر به من صاحب القَيْنة إلى قَيْنته». قال أبو عبد الله الحاكم في كتابه المستدرك: هذا حديث صحيح على شرط البخاريّ ومسلم، ولم يخرّجاه؛ وقد خرّجه الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه[1] القزوينيّ في سُنَنه. قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسيّ رحمه الله تعالىٰ: ووجه الاحتجاج من هذا الحديث هو أنّ رسول الله ﷺ أثبت أن الله تعالى يستمع إلى حَسَنِ الصوت بالقرآن كما يستمع صاحب القَيْنَة إلى قَيْنته، فأثبت دليل السماع؛ إذ لا يجوز أن يقيس على استماع محرّم. قال: ولهذا الحديث أصل في الصحيحين أخرجاه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيّ يتغنّى بالقرآن»، هذا ما ورد في السّماع.

* * *

وأمّا ما ورد في الضرب بالآلة؛ فمن ذلك ما ورد في الدُّفّ. رُوي عن محمد بن حاطب قال: قال رسول الله ﷺ: «فصل ما بين الحلال والحرام الدُّفّ والصوت في النكاح»، قال الحافظ أبو الفضل رحمه الله تعالى: هذا حديث صحيحٌ ألزم أبو الحسن

(١) ابن ماجة: محمد، المحدث والإمام، من قزوين، له كتاب «السنن» وهو أحد الكتب السنّة في الحديث. مات سنة ٢٧٣ هـ/ ٨٨٧ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٢٦٤.

الدارقطنيّ مسلمًا إخراجَه في الصحيح، وقال: وقد روى عنه (يعني محمد بن حاطب) أبو مالك الأشجعيّ وسِمَاك بن حرب وابن عون ويوسف بن سعد وغيرهم. قال: وأخرج هذا الحديث أبو عبد الرحمـٰن النسائيّ[١] وأبو عبد الله بن ماجه في سُنَنهما. ورَوى الحافظ أبو الفضل بسند رفعه إلى جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سمع صوت دفّ فقال: «ما هذا؟» فقيل: فلان تزوّج. فقال: «هذا نكاح ليس بالسِّفاح»، وقد ضعّف أبو الفضل إسناد هذا الحديث، وقال: إنما أخرجته على ضعف إسناده لأنه شاهد الحديث الصحيح المتقدّم. وروى أبو الفضل أيضًا بسنده إلى خالد بن ذَكْوان عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ قالت: جاء رسول الله ﷺ فدخل عليَّ صبيحةَ بُنِيَ عَلَيَّ، فجلس على فراشي كمجلسك منّي، فجعلتْ جُوَيْرياتٌ[٢] يَضرِبْنَ بدُفّ لهنّ ويندُبن مَن قُتِل من آبائي يوم بدر إلى أن قالت إحداهنّ: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد؛ فقال: «دَعِي هذا وقولي الذي كنتِ تقولين قبله»، وهذا حديث صحيح أخرجه البخاريّ قال: وقد رواه حمّاد بن سلمة عن خالد بن ذكوان أتمّ من هذا، قال: كنّا بالمدينة يوم عاشوراء وكان الجواري يضربن بالدُّفّ ويغنّين، فدخلنا على الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذٍ، فذكرنا لها ذلك، فقالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ صبيحةَ عُرْسي وعندي جاريتان تُغنّيان وتندُبان آبائي الذين قُتلوا يوم بدر، وتقولان فيما تقولان: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد، فقال: «أمّا هذا فلا تقولوه لا يعلم ما في غدٍ إلا الله عزّ وجلّ». وعن عائشةَ رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سافر سفرًا، فنَذَرت جاريةٌ من قريشٍ لئن ردّه الله تعالى أن تضرب في بيت عائشة بدُفّ، فلما رجع رسول الله ﷺ جاءت الجارية فقالت عائشةُ لرسول الله ﷺ: فلانة ابنةُ فلانٍ نذرتْ لئن ردّك الله تعالى أن تضرب في بيتي بدُفّ؛ قال: «فَلْتَضْرِبْ». قال أبو الفضل: وهذا إسناد مُتّصل ورجاله ثِقاتٌ، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا نَذْرَ في معصية الله»، فلو كان ضربُ الدفّ معصيةً لأمر بالتكفير عن نذرها أو مَنَعَها من فعله. ورُوي عن الشعبيّ قال: مرّ عياض الأشعريّ في يوم عيد، فقال: ما لي لا أراهم يُقَلِّسون فإنّه من السنّة! والتقليس: الضرب بالدفّ، قاله هُشَيْم.

* * *

---

(١) النسائي: أحمد بن علي والحافظ، ولد بنسا في خراسان. وتوفي بمكّة سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م. أشهر كتبه كتاب «السنن الكبرى» وله «المجتبى» و«السنن الصغرى» و«الضعفاء والمتروكون» في رجال الحديث. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) جويريات: جوارٍ صغار.

وأمّا ما ورد في اليَرَاع، فقد احتجّ بعضُهم بحديث عبد الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما وهو ما خرّجه أبو داود سليمانُ بنِ الأشعثِ السِّجِسْتانيّ[١] في سُنَنه قال: حدّثنا أحمد بن عبد الله الغُدَانيّ، حدّثنا مسلم، حدّثنا سعيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى عن نافع، قال: سمع ابن عمر رضي الله عنهما مزمارًا، فوضع إصبعيه على أذنيه ونأى عن الطريق، وقال لي: يا نافع، هل تسمع شيئًا؟ قلت: لا، قال: فرفع إصبعيه من أذنيه وقال: كنت مع رسول الله ﷺ فسمع مثل هذا فصنع مثلَ هذا. قال أبو عبد الله اللؤلئيّ: سمعت أبا داود يقول: هذا الحديث منكر. وقال الحافظ محمد بن طاهر: هذا حديث خرّجه أبو داود في سُننه هكذا، وقد أنكره. وقد ورد من غير هذا الطريق أن ابن عمر رضي الله عنهما سمع راعيًا وذكره. وفساد هذا الحديث من وجهين، أحدهما: فساد طريق الإسناد؛ فإن سليمان هذا هو الأشدق الدمشقيّ تكلّم فيه أهل النقل وتفرّد بهذا الحديث عن نافعٍ ولم يَرْوِه عنه غيرُه. وقال البخاريّ: سليمانُ بن موسى عنده مناكيرُ. والثاني قول عبد الله بنِ عمرَ لنافعٍ رضي الله عنهم: أتسمع؟ ولو كان ذلك منهيًا عنه لم يأمره بالاستماع. وقوله: كنت مع رسول الله ﷺ فسمع مثل هذا فصنع مثل هذا. ولو كان حرامًا لنهاه عنه وصرّح بتحريمه؛ لأنه الشارع المأمور بالبيان. قالت عائشة رضي الله عنها: عَلّقتُ على سَهْوةٍ[٢] لي سِتْرًا فيه تصاويرُ، فلما رآه رسول الله ﷺ تَلَوّن وجهُه وهَتَكه[٣]. وسمع النبيُّ ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحلف بآبائه فنهاه عن ذلك. ورأى يزيدَ بنَ طَخْفة مضطجعًا على بطنه فنهاه، وقال: «هذه ضِجْعة يُبْغِضُها الله عزّ وجلّ»، وسمع ﷺ رجلًا يلعن ناقته، فوقف فقال: «لا يَتْبَعُنا ملعون»؛ فنزل عنها وأرسلها. قال الحافظ المقدسيّ: وتأخيرُ البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال، فثبت فسادُ هذا الحديث إسنادًا ومتنًا.

* * *

وأمّا ما ورد في القصب والأوتار، ويقال له التغيير، ويقال له القطقطةُ أيضًا، ولا فرقَ بينه وبين الأوتار؛ إذ لم يوجد في إباحته وتحريمه أثرٌ لا صحيحٌ ولا

(١) أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، من أئمّة الحديث. استقرّ في البصرة، وهو صاحب كتاب «السنن» من الكتب الستّة في الحديث. مات سنة ٢٧٥ هـ/ ٨٨٩ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) السهوة: العمود والمشجب والكوّة. (٣) هتكه: مزّقه.

سقيم؛ وإنما استباح المتقدّمون استماعَه لأنه مما لم يرد الشرع بتحريمه، وكان أصله الإباحة.

وأمّا الأوتار، فالقولُ فيها القولُ في القصب، لم يرد الشرعُ بتحليلها ولا تحريمها. قال: وكل ما أوردوه في التحريم فغير ثابتٍ عن رسول الله ﷺ، ولا خلافَ بين أهل المدينة في إباحة سماعِه. ومن الدليل على إباحته أن إبراهيمَ بنَ سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمٰنِ بن عوفٍ مع جلالته وفقهه وثقته كان يُفتي بحِلّه، وقد ضرب بالعود ـ وسنذكر خبره في ذلك بعد هذا إن شاء الله تعالى ـ ولم تسقط عدالتُه بفعله عند أهل العلم، فكيف تسقط عدالةُ المستمع! وكان يبالغ في هذا الأمر أتمّ مبالغة. وقد أجمعت الأئمّة على عدالته واتفق البخاريُّ ومسلمٌ على إخراج حديثه في الصحيح؛ وقد عُلِمَ من مذهبه إباحةُ سماع الأوتار. والأئمّة الذين رووا عنه أهلُ الحلّ والعقد في الآفاق إنما سمعوا منه وروَوْا عنه بعد استماعهم غناءه وعِلْمِهم أنه يُبيحه، ومنهم الإمام أحمدُ بنُ حنبلٍ، سمع منه ببغداد بعد حلفه أنه لا يحدّث حديثًا إلا بعد أن يُغنّي على عود، وذلك أنه لا شكّ سمع غناءه ثم سمع حديثه. قال: وهذا أمر لم يرد عن رسول الله ﷺ في تحليله ولا تحريمه نصّ يُرجع إليه، فكان حكمه كحكم الإباحة. وإنما تركه مَن تركه من المتقدّمين تورّعًا كما تركوا لُبْسَ اللّين وأكلَ الطّيب وشربَ البارد والاجتماع بالنسوان الحسان؛ ومعلوم أن هذا كلّه حلالٌ. وقد ترك رسول الله ﷺ أكلَ الضبّ[1] وسُئل عنه أحرامٌ هو؟ قال: «لا ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه»، وأُكِلَ على مائدته ﷺ. وقد رُوي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنّه قال: إذا رأيتَ أهلَ المدينة اجتمعوا على شيء، فاعلم أنه سنّة. وقد رُوي عن محمد بن سِيرين[2] رحمه الله أنّ رجلًا قدِم المدينة بجَوَارٍ، فنزل على ابن عمر وفيهنّ جارية تضرِب؛ فجاء رجل فساومه فلم يهوَ منهنّ شيئًا. فقال: انطلقْ إلى رجل هو أمثل لك بيعًا من هذا؛ فأتى إلى عبدَ الله بنَ جعفرٍ فعرضهنّ عليه؛ فأمر جارية قال: خذي، فأخذت العود حتى ظنّ ابن عمر أنه قد نظر إلى ذلك؛ فقال ابن عمر: حسبك سائر اليوم من مزمور الشيطان، قال: فبايعه. ثم جاء الرجل إلى ابن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمٰن، إني

(١) الضبّ: حيوان صحراوي يشبه الحرذون، لكنه أكبر منه بكثير، يضرب المثل بذنبه فيقال: أعقد من ذنب الضبّ. وبيته له عدة منافذ. والعرب في جاهليّتها كانت تأكله.

(٢) محمد بن سيرين: العالم بالتأويل وتفسير الرؤيا، له كتاب مشهور في هذا العلم. مات في البصرة سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٩ م. انظر: شذرات الذهب ١٣٨/١٣٩.

غُبنت[١] بسبعمائة درهم، فأتى ابن عمرَ إلى ابنِ جعفر فقال: إنه قد غُبن بسبعمائة درهم، فإمّا أن تُعطيها إيّاه وإمّا أن تردّ عليه بيعه؛ فقال: بل نعطيها إيّاه. وهذه الحكاية ذكرها أبو محمد بن حَزْم واستدلّ بها على إباحته، فقال: فهذا عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما قد سمعا الغناء بالعود، وإن كان ابن عمر كره ما ليس من الجِدّ فلم يَنْهَ عنه، وقد سفر[٢] في بيع مغنّية كما ترى، ولو كان حرامًا ما استجاز ذلك أصلًا.

* * *

وأمّا ما ورد في المزامير والملاهي، قال الشيخ الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسيّ: وأمّا القول في المزامير والملاهي، فقد وردت الأحاديث الصحيحة بجواز استماعها؛ فمن ذلك ما رواه بسند رفعه إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممتُ بشيء مما كان أهلُ الجاهليّة يفعلونه غيرَ مرّتين كلّ ذلك يحول الله عزّ وجلّ بيني وبين ما أُريده من ذلك، ثم ما هممتُ بعدها بشيء حتى أكرمني الله برسالته، فإني قلت لغلام من قريش ليلةً وكان يرعى معي في أعلى مكّة لو أنك أبصرتَ غنمي حتى أدخلَ مكّةَ فأَسْمُرَ بها كما يَسْمُر الشبابُ، قال: أفعل، فخرجت أريد ذلك حتى جئت أوّلَ دارٍ من ديار مكّةَ سمعت عَزْفًا بالدفوف والمزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلانٌ تزوّج فلانةَ بنتَ فلانٍ فجلستُ أنظرُ إليهم، فضرب الله عزّ وجلّ على أُذني فنمت فما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ماذا فعلت؟قلت: ما صنعت شيئًا ثم خبّرته الخبر، فقال: ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، فقال: أفعلْ، فخرجت حتى دخلت مكّة فسمعت حين دخلت مكة مثل ما سمعت تلك الليلة فسألت عنه، فقالوا: فلان نكح فلانةً، فجلست أنظر فضرب الله على أذني فما أيقظني إلّا مسّ الشمس، فخرجت إلى صاحبي فأخبرته الخبر ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله تعالى برسالته». قال الحافظ أبو الفضل: وكان هذا قبلَ النبوّةِ والرسالة ونزولِ الأحكام والفرقِ بينَ الحلال والحرام؛ فإن الشرعَ لمّا ورد أمره الله تعالىٰ بالإبلاغ والإنذار فأقرّه على ما كان عليه في الجاهلية، ولم يحرّمه كما حرّم غيره. قال: والدليل على أنه باقٍ على الإباحة قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً

(١) غبنت: وقع عليّ الغبن، أي الخسارة.
(٢) سفر: عمل سفيرًا ووسيطًا بين البائع والمشتري.

﴿أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجُمُعَة: الآية ١١]. ثم بيَّن الدليل على ذلك بما رواه بسنده إلى جابر قال: كان رسول الله ﷺ يخطب قائمًا، ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائمًا، يخطب خطبتين. فكانت الجواري إذا أنكحوهنّ يمرّون فيضربون بالدفّ والمزامير فيتسلّلُ الناسُ ويَدَعُونَ رسول الله ﷺ قائمًا، فعاتبهم الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجُمُعَة: الآية ١١]، وقال: هذا حديث صحيح أخرجه مسلم في كتابه عن عبد الله بن حُمَيْد عن خالد بن مَخْلد عن سليمان بن بلال. والله عزّ وجلّ عطف اللهوَ على التجارة وحُكْم المعطوف حُكْم ما عطف عليه، والإجماع على تحليل التجارة، فثبت أن هذا الحكم مما أقرّه الشرع على ما كان عليه في الجاهليّة لأنه غير محتمَل أن يكون رسول الله ﷺ حرّمه، ثم يُمَرّ به على باب المسجد يوم الجمعة ثم يعاتب الله عزّ وجلّ مَن تركَ رسوله ﷺ قائمًا ثم خرج ينظر إليه ويستمع، ولم ينزل في تحريمه آية ولا سنّ رسول الله ﷺ سنّة، فعلمنا بذلك بقاءه على حاله.

قال: ويزيد ذلك بيانًا ووضوحًا حديثُ عائشةَ رضي الله عنها في المرأة التي زفّتها وقد تقدّم ذكر الحديث. وروي أيضًا بسند رفعه عن زوج دُرَّةَ بنتِ أبي لَهَبٍ قال: دخل عليّ رسول الله ﷺ حين تزوّجتُ درّةَ فقال: «هل من لهو».

ذكر ما ورد في توهين ما استدلّوا به على تحريم الغناء والسّماع

قد ذكر الحافظ أبو الفضل المقدسيّ رحمه الله تعالى الأحاديث التي استدلّوا بها على تحريمه، وفسّروا بها الآيات والأحاديث التي استدلّوا بها على تحريمه مما قدّمنا ذكر ذلك في حججهم ومما لم نذكره مما يُستدلّ به على تحريمه وكراهته وضعف رجالها. وتكلّم الإمام أبو حامد الغزاليّ[1] رحمه الله أيضًا في ذلك ووهّن احتجاجهم إذا ثبت الحديث على ما نذكر ذلك.

---

(١) أبو حامد الغزالي: واسمه محمد، فيلسوف ومتكلّم ومتصوّف. لقّب بحجّة الإسلام. درّس في نظامية بغداد. له من الكتب «تهافت الفلاسفة» يردّ فيه على الفلاسفة. وله «إحياء علوم الدين» و«المنقذ من الضلال» و«الاقتصاد في الاعتقاد» و«الأسماء الحسنى». مات سنة ٥٠٥ هـ.

قال الحافظ أبو الفضل:

أمّا ما احتجّوا به من الآيات في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: الآية ٦] الآية. وما أوردوه في ذلك من الأسانيد إلى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم، فنظرت في جميعها فلم أرَ فيها طريقًا يثبت إلّا واحدًا منها رواه يوسف بن موسى القطّان عن جرير بن عبد الحميد عن عَطَاء بن السّائب عن سَعيد بن جُبَير عن ابن عباسٍ رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾، قال: الغناء وأشباهُه، وسائرها لا يخلو من رواية ضعيف لا تقوم بروايته حجّة.

قال: ورأيت في بعضها رواية عطيّة العَوْفيّ عن ابن عباس من حديث غير ثابت أصلًا ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾، قال: باطل الحديث وهو الغناء ونحوه؛ وهو أن رجلًا من قريش اشترى جارية مغنّيةً فنزلت فيه، قال: وهذا وإن لم يصحّ عندي الاحتجاج بسندهم فيَلْزمهم قَبُولُه لأنهم احتجّوا به فيكون في حقّ هذا الرجل بعينِه.

وقد ورد في الآية تفسير ثالثٌ يلزمُهم قبوله على أصلهم، وذكر حديثًا رفعه إلى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع النبيّ ﷺ يقول في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: «اللعب والباطل وتَشِحّ نفسه أن يتصدّق بدرهم»، قال: وهذا أيضًا غير ثابت عندي، وإنما أوردت هذين التفسيرين مناقضةً[1] لما أوردوه فيما تمسّكوا به.

قال: ولن أركن إلى هذا أبدًا ولا أقنع به ولا أحتجّ عليه ولا أُلزمهم إيّاه، بل أقول: صحّ عن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما إجماع أهل السنّة على أن السنّة تقضي على الكتاب، وأن الكتاب لا يقضي على السنّة، وقد جاءت السنّة الصحيحة: أن النبيّ ﷺ استمع للغناء وأمر باستماعه، وقد أوردنا في ذلك من الأحاديث ما تقدّم إيرادُه. قال: وجوابٌ ثانٍ يقال لهٰؤلاء القوم المحتجّين بهذه التفاسير: هل عَلِم هؤلاءِ الصحابةِ الذين أوردتم أقاويلَهم من هذه الآية ما علمه رسول الله ﷺ أو لم يعلمه؟ فإن قالوا: لم يعلمه وعلِمه هؤلاء، كان جهلًا عظيمًا بل كفراً؛ وإن قالوا: عَلِمه، قلنا: نُقِلَ إلينا عنه في تفسير هذه الآية مثلُ ما نُقِلَ عن هؤلاء من الصحابة، وتأخيرُ البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال. ومن المحال أن يكون تفسيرُ قولهِ عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ

(١) مناقضة: مخالفة.

ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [لقمان: الآية ٦] هو الغناء،ويقول رسول الله ﷺ: «أما كان معكنّ لَهْوٌ فإن الأنصار يعجبهم اللّهْو».

وقال أحمد بن حنبلٍ رحمه الله: ثلاثة ليس لها أصل: المَغازي، والملاحم، والتفسير.

وقال أبو حاتم محمد بن حسان في كتاب الضعفاء: الله عزّ وجلّ يؤتي رسوله ﷺ تفسير كلامه وتأويل ما أنزل عليه حيث قال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: الآية ٤٤].

ومن المخلّ المحال[1] أن يأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يبيِّن لخلقه مراده حيث جعله موضع الإبانة عن كلامه ومفسّرًا لهم حتى يفهموا مراد الله عزّ وجلّ، فلا يفعل ذلك رسول الله ﷺ؛ بل أبان مراد الله عزّ وجلّ من الآي وفسّر لأُمّته، ما تهمّ الحاجة إليه، وبيَّن سنّته ﷺ؛ فمن تَتَبَّع السنن وحفظها وأحكمها فقد عرف تفسير كتاب الله عزّ وجلّ وأغناه الله تعالى عن الكلبيّ وذويه، وما لم يُبيّن رسول الله ﷺ لأُمّته في معاني الآي التي أنزلت عليه مع أمر الله عزّ وجلّ له بذلك، وجاز ذلك كان لمن بعده من أُمّته أجوز، وترك التفسير لما تركه رسول الله ﷺ أحرى.

قال: ومن أعظم الدلائل على أن الله تعالى لم يرد بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ القرآن كلّه أن النبيّ ﷺ نزل عليه من الكتاب متشابه من الآي، فالآيات التي ليس فيها أحكام لم يبيّن كيفيتها لأُمّته؛ فلما فعل ذلك رسول الله ﷺ دلّ ذلك على أن المراد من قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ كان بعض القرآن لا الكلّ.

وقال الإمام أبو حامد الغزاليّ رحمه الله في هذه الآية: وأمّا شراء لهوِ الحديثِ بالدّين استبدالًا به ليضلّ به عن سبيل الله فهو حرام مذمومٌ، وليس النزاع فيه. وليس كلُّ غناءٍ بدلًا عن الدِّين مشترى به ومُضِلّا عن سبيل الله وهو المراد في الآية، ولو قرأ القرآن: ليضلّ بِهِ عن سبيل الله لكان حرامًا.

حُكي عن بعض المنافقين: أنه كان يؤمّ الناسَ ولا يقرأ إلا سورة «عَبَسَ» لما فيها من العتاب مع رسول الله ﷺ، فهمّ عمرُ بقتله، ورأى فعله حرامًا لما فيه من الإضلال، فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم.

(١) المخلّ المحال: الباطل.

وقال الثعلبيّ في أحد أقواله عن تفسير هذه الآية عن الكلبيّ ومُقاتِل: نزلت في النُّضَير بنِ الحارثِ بن عَلْقمةَ بن كَلَدَة بنِ عبدِ الدّار بن قُصَيّ؛ كان يتّجرُ فيخرج إلى فارسَ فيشتري أخبارَ الأعاجم فيرويها ويُحدِّثُ بها قريشًا، ويقول: إن محمدًا يحدّثكم بحديث عادٍ وثمودَ وأنا أحدّثكم بحديث رستمَ واسفنديارَ وأخبارِ الأكاسرةِ، فيستملحون حديثَه ويتركون استماعَ القرآن.

واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۝٦١﴾ [النّجم: الآيات ٥٩ - ٦١]، قال ابن عبّاس: هو الغناء بلغة حِمْيَر ـ يعني السمود ـ قال الغزاليّ رحمه الله: فنقول: ينبغي أن يَحْرُم الضحك وعدم البكاء أيضًا؛ لأن الآية تشتمل عليه، فإن قيل: إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم فهذا أيضًا مخصوص بأشعارهم وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝٢٢٤﴾ [الشُّعَراء: الآية ٢٢٤]، وأراد به شعراء الكفّارِ، ولم يدلّ ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه.

واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: الآية ٣]، قال الثعلبيّ: قال الحسن، عن المعاصِي. وقال ابن عباس: الحَلِفُ الكاذب. وقال مُقاتِل: الشّتم والأذى. وقال غيرهم: ما لا يحلُّ من القول والفعل. قال: وقيل اللغوُ الذي لا فائدة فيه.

واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القَصَص: الآية ٥٥]، قال الثعلبيّ: أي القبيح من القول، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفُرقان: الآية ٧٢]، قال مقاتل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا، وبقوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: الآية ٦٤]، قال ابن عباس ومُجاهد وقتادةُ: بدعائك إلى معصية الله تعالى، وكلّ داعٍ إلى معصيةِ الله تعالى فهو من جنودِ إبليس.

وأمّا ما احتجّوا به من الحديث، فإنهم احتجّوا بحديث رُوِيَ عن أبي أُمامةَ الباهليّ رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «لا يحلّ بيعُ المغنّيات ولا شراؤهنّ ولا تحلّ التجارةُ فيهنّ وأثمانُهنّ حرامٌ، والاستماعُ إليهنّ حرام». قال الحافظ أبو الفضل المقدسيُّ رحمه الله: هذا حديث رواه عُبَيْدُ الله بن زَحْرٍ عن عليّ بنِ يزيدَ عن القاسم عن أبي أُمامةَ، قال: والصّحابة كلُّهم عدول. وأما عُبَيْد الله بن زَهْر وعليّ والقاسم فهم في الرواية سواءٌ لا يُحتجُّ بحديث واحد منهم إذا انفرد بالرواية عن ثقةٍ، فكيف

إذا روى عن مثلِه. أما عُبَيْدُ الله بنُ زَحْر فيقال: إنه من أهل مصر. قال أبو مُسْهِر الغسّاني: عُبَيْد الله بن زَحْر صاحبُ كلِّ معضلة ليس على حديثه اعتماد. وقال عثمان بنُ سعيدٍ الدارميّ: قلت ليَحيىٰ بنِ مَعِين: عبيد الله بن زحر كيف حديثُه؟ قال: كل حديثُه ضعيفٌ، قلت: عن عليّ بن يزيد وغيره؟ قال: نعم. وقال عباس الدُّوريّ عن يحيىٰ: عبيد الله بن زحر ليس بشيء. وقال أبو حاتم في كتاب الضعفاء والمتروكين: عبيد الله بن زحر مُنْكَر الحديث جدًّا، روى الموضوعاتِ عن الثِّقاتِ وإذا روى عن عليّ بن يزيد أتى بالظلمات، وإذا اجتمع في إسنادٍ عُبَيْدُ الله بن زَحْر وعليُّ بن يزيد والقاسمُ بنُ عبدِ الرحمٰن لا يكون متنُ ذلك الحديث إلا ممّا عملت أيديهم فلا يحلّ الاحتجاج بهذه الصحيفة.

قال المقدسيّ: وهذا الحديث قد اجتمعوا في إسناده، قال: وأما عليّ بن يزيدَ فهو من أهل دمشق يُكنى بأبي عبد الملكِ روى عن القاسم، قال النّسائيُّ في كتاب الضعفاء: عليّ بن يزيد متروكُ الحديث. وقال أبو عبد الرحمٰن بن حيّان: عليّ بن يزيد مطروحٌ منكرُ الحديثِ جدًّا. وأما القاسم بن عبد الرحمٰن ويُكنى بأبي عبدِ الرحمٰن فقال يحيىٰ بن مَعين: القاسم بنُ عبد الرحمٰن لا يَسْوَى شيئًا. وقال أحمد بن حنبل[1]، وذكر القاسم مولى يزيد بن معاوية فقال: منكر الحديث. وقال أبو حاتم بن حَسّان: القاسم يروي عنه أهل الشأم، كان يروي عن الصحابة المعضلاتِ ويأتي عن الثقاتِ بالأسانيد المقلوبات، حتى كان يَسْبِق إلى القلب أنه المعتمِدُ لها.

قال المقدسيّ: فهذا شرح أحوالِ رواةِ الحديثِ الذي احتجّوا به في التحريم، هل تجوز روايتُه كما ذكره الأئمّةُ حتى يستدلّ به في التحليل والتحريم.

واحتجّوا بما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «أمرني ربّي عزّ وجلّ بنفي الطنبور والمزمار»، وهو حديث رواه إبراهيمُ بنُ اليَسَع بن الأشعث المكيّ وإسماعيل بنُ هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها. وإبراهيم هذا ـ قال البخاريّ ـ: منكر الحديث. وقال النسائيّ: المكيّ ضعيف.

---

(١) أحمد بن حنبل: أحد أئمّة المسلمين السنيين الأربعة الكبار، من أهل بغداد. اتّصف بشدّة تمسّكه بالنزعة السلفية ومخالفته للرأي. قاوم المعتزلة في مشكلة خلق القرآن فأصيب بالمحنة على عهد المأمون، ثم على عهد المعتصم. سجن في بغداد وعذّب. عفا عنه المتوكّل. أشهر آثاره «المسند» في الحديث. مات سنة٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٩٦ ـ ٩٧.

واحتجّوا بما رُوي عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: نهى رسول الله ﷺ عن ضرب الدُّفّ ولعب الصَّنْج وصوت الزمّارة، وهو حديث رواه عبد الله بن ميمونٍ عن مَطَرِ بنِ سالم عن عليٍّ قال: وعبد الله هو القدّاح ذاهب الحديث؛ ومطر هذا شبه المجهول.

واحتجّوا بما رُوي عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: نهاني رسول الله ﷺ عن المغنّيات والنوّاحات وعن شرائهنّ وبيعهنّ والتجارة فيهنّ، وقال: «كسبُهنّ حرام»، قال: وهذا حديث رواه عليّ بن يزيد الصُّدَائيّ عن الحارث بن نَبْهانَ عن أبي إسحٰقَ السَّبِيعِيّ عن الحارث عن عليّ رضي الله عنه قال: والحارث بن نَبْهان ليس بشيء ولا يُكتبُ حديثُه، قاله يحيىٰ بن مَعِين. وقال البخاريّ: الحارث منكر الحديث. وقال أحمد بن حنبل: الحارث رجل صالح ولم يكن يَعْرِفُ الحديثَ ولا يحفظ، منكر الحديث. وقال النسائيّ: الحارث بن نَبْهان متروك الحديث، لم يروِه عن أبي إسحٰق عمرو بن عبد الله السَّبيعي وغيره ولا رواه عنه غير عليّ بن يزيد الصُّدائيّ. وعلى هذا قال أحمد بن عديّ: أحاديثه لا تشبه أحاديثَ الثّقات. والحارث الذي روى عن عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه هو الحارث بن عبد الله أبو زهير الخارفي الأعور، أجمعَ أهل النقل على كذبه، والحمل في هذا الحديث على الحارث بن نبهان، وإن كان في الإسناد من الضعفاء غيره.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «صوتان معلونان في الدنيا والآخرة: صَوتُ مِزمارٍ عند نعمة وصَوتُ نُدبة عند مصيبة»، وهذا حديث رواه محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومحمد بن زياد هذا هو الطحّان اليَشْكُرِيّ. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عنه فقال: أعورٌ كذّابٌ خبيثٌ يضعُ الحديث. وقال يحيىٰ بن معين: أجمع الناس على طرح هؤلاء النفرِ لا يعتدّ بهم، منهم محمد بن زياد. وكان أبو يوسف الصَّيْدلانيّ يقول: قَدِم محمد بن زياد الرَّقَّة بعد موت ميمون بن مهران.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ: أنه ذكر خسفًا[1] ومسخًا[2] وقذفًا[3] يكون في هذه الأمّة، قالوا: يا رسول الله إنهم يقولون: لا إلٰه إلّا الله، قال: «نعم إذا

---

(١) الخسف: جعل عالي الأرض سافلها وسافلها عاليها.

(٢) المسخ: قلب بعض الناس حيوانات كالخنزير أو الضبّ وغيرهما.

(٣) القذف: قد يكون بالنيازك والشهب وغيرهما.

أَظْهَرُوا النَّرْدَ والمعازِفَ وشربَ الخمور ولبسَ الحرير»، قال: وهذا حديث رواه عثمان بن مَطَر عن عبد الغفور عن عبد العزيز بن سَعِيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ، قال: وعثمان هو الشيبانيّ من أهل البصرة وكان ضريرًا. قال يحيىٰ بن مَعِين: ليس بشيء. وقال البخاريّ: متروك الحديث.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «بعثني ربّي عزّ وجلّ بمحق المزامير والمعازف والأوثانِ[1] التي كانت تُعْبَدُ في الجاهلية والخمر وأقسم ربّي عزّ وجلّ بعزّته ألا يشربها عبدٌ في الدنيا» الحديث. قال: وهذا حديث رواه محمد بن الفُرات عن أبي إسحٰق السَّبِيعيّ عن الحارث الأعور عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ومحمد بن الفُرات هذا من أهل الكوفة. قال أبو بكر بن أبي شَيْبة: هذا شيخ كذّاب. وقال يحيىٰ بن معين: ليس بشيء. وقال النسائيّ: متروك. وقد تقدّم ذكر السبيعيّ والحارث الأعور، ومضى الكلام عليه.

واحتجّوا بما رُوي عن أبي هريرةَ رضي الله عنه مسندًا: «إن الغِناءَ يُنْبِتُ النفاقَ في القلب»، وهو حديث عبد الرحمٰن بن عبد الله العُمَريّ ابن أخي عُبَيْدُ الله بن عمر عن أبيه عن سَعِيد بن أبي سَعِيد المَقْبُرِيّ عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ، وعبد الرحمٰن هذا، قال أحمد بن حنبل: ليس يَسْوَى حديثه شيئًا، سمعت منه ثم تركناه وكان وَلِيَ قضاءَ المدينة، أحاديثه مناكيرُ وكان كذّابًا. قال النسائيّ: وهو متروك الحديث.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مَنْ استَمع إلى قِيَانٍ صُبَّ في أذنيه الآنُك»[2]، وهو حديث رواه أبو نُعَيْم الحلبيّ عن عبد الله بن المنذر عن مالك عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك. وأبو نعيم اسمه عُبَيْد بن هشام من أهل حلب ضعيف، ولم يبلغ عن ابن المبارك، مرسل.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لعن الله النائحةَ والمُسْتَمِعَةَ والمغنّي والمغنّى له»، وهو حديث رواه عمرو بن يزيد المدائنيّ عن الحسن البصريّ عن أبي هريرة، وعمرو هذا قال أبو أحمد بن عديّ[3]: منكر الحديث، والحسن لم يسمع من أبي هريرة شيئًا. وقال ابن عديّ: هذا الحديث غير محفوظ.

---

(١) الأوثان: الأصنام. (٢) الآنك: الرصاص.

(٣) ويعرف بابن عدي الجرجاني الحافظ، صاحب كتاب «الكامل في معرفة ضعفاء المحدّثين وعِلل الحديث». مات سنة ٣٦٥ هـ.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «النظرُ إلى المغنّية حرام وغِناؤُها حرام وثمنُها حرام»، وهو حديث يزيدَ بنِ عبد الملك بن المغيرة بن نوفل النوفليّ المدنيّ عن يزيد بن خُصَيفةَ عن السائب بن يَزيدَ عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ. ويزيد الأوّل قال النسائيّ: متروك الحديث. وقال أحمد بن حنبل: عنده مناكير. وقال يحيىٰ بن معين: يزيد بن عبد الملك ليس بذاك.

واحتجّوا بما رُوي عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا عملت أمّتي خمسَ عشرةَ خصلةً حلّ فيها البلاء»، وذكرها وقال في جملتها: «واتّخذت القيانَ والمعازفَ»، وهو حديث رواه فرجُ بنُ فَضالةَ الشيبانيّ من أهل حِمْص عن يحيىٰ بن سعيد الأنصاريّ عن محمد بن عليّ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. قال عبد الرحمٰن بن مهديّ: أحاديث الفرج عن يحيىٰ بن سعيد منكرة. وقال يحيىٰ بن معين: فرج ضعيف. وقال أبو حاتم بن حَسّان: فرج بن فَضالة كان يَقْلِبُ الأحاديث الصحيحة ويلصق المتونَ الواهيةَ بالأسانيد الصحيحة، لا يحلُّ الاحتجاجُ به.

واحتجُوا بحديث جابرٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيد عبد الرحمٰن فذكر حديثًا، قال فيه: «نُهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين صوتٍ عند مصيبة وصوتٍ عند نعمة لعب ولهو ومزامير الشيطان»، وهذا حديث رواه محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن عطاء عن جابر، وأنكر عليه هذا الحديث وضُعِّف لأجله. قال أبو حاتم بن حَسّان: كان رديء الحفظ كثير الوهم فاحش الخطأ يروي الشيء على وجه الوهم ويستحق الترك. وتركه أحمد بن حنبل ويحيىٰ بن معين.

واحتجّوا بأنه ﷺ سمع صوتًا فقال: «انظروا مَن هذا»، فنظرتُ فإذا معاويةُ وعمرو يتغنّيان، الحديث؛ وفيه: «اللّهمّ اركُسْهما[1] في الفتنة رَكْسًا»، وهو حديث رواه يزيد بن أبي زياد عن سليمان عن عمرو بن الأحوص عن أبي بَرْزَةَ الأسلميّ. ويزيدُ هذا من أهل الكوفة، وكان الكَذَبة يلقّنونه على وَفْق اعتقادهم فيتلقّاها ويُحَدِّثُ بها ضَعَفَةَ أهل النقل، وقد رُوي هذا الحديث من طريق آخر ليس فيه معاوية هذا، وأنه ابن التابوت.

قال المقدسيّ: ولم يصحَّ عن النبيّ ﷺ أنه ذكر أحدًا من أصحابه إلّا بخير.

---

(١) اركسهما: أوقعهما ولا تنجهما.

واحتجّوا بما رُوي عن أبي سَعِيد الخُدْريّ[١] رضي الله عنه رفع الحديث، أن النبيّ ﷺ قال: «يكون في آخر هذه الأمّة خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ في مُتّخِذي القِيانِ وشاربي الخمور ولابسي الحرير»، وهو حديث رواه زياد بن أبي زياد الجَصّاص عن أبي نَضْرةَ عن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه، وزياد هذا متروك الحديث.

واحتجّوا بحديث رُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وله قَيْنَةٌ فلا تصلّوا عليه»، وهو حديث رُوي بإسناد مجهول عن خارجةَ بنِ مصعبٍ عن داودَ بن أبي هندٍ عن الشعبيّ عن عليّ، وخارجةُ متروك الحديث من أهل سَرْخَس[٢].

واحتجّوا بما روى عبد الرحمٰن بن الجَنَديّ قال: قال عبدُ الله بن بُسْر صاحب النبيّ ﷺ: يا ابنَ الجنديّ، فقلت: لبّيك يا أبا صفوان، قال: والله ليُسمخَنَّ قوم وإنهم لفي شرب الخمور وضرب المعازِف حتى يكونوا قردة أو خنازير. والحديث موقوف وابن الجنديّ مجهول. والنبيّ ﷺ سأل ربّه ألّا يعذّب أمّته بما عذّب به الأُمَمَ قبلها فأعطاه ذلك.

واحتجّوا بما رُوي عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه وقد تقدّم بعضُه، وفيه زيادة أخرى أن النبيّ ﷺ قال: «لا يَحلّ بيعُ المغنّيات ولا شراؤهنّ ولا الجلوسُ إليهنّ»، ثم قال: «والذي نفسي بيده ما رَفع رجلٌ عقيرته[٣] بغِناءٍ إلا ارتدف[٤] على ذلك شيطانٌ على عاتقه[٥] هذا وشيطانٌ على عاتقه هذا حتى يسكتَ»، وهذا حديث قد تقدّم أوّله من حديث عُبَيْد الله بن زَحْر، وهذه الزيادة من رواية مَسْلَمة بن عليّ الدمشقيّ عن يحيىٰ بن الحارث عن القاسم بن عبد الرحمٰن عن أبي أُمامة. ومسلمة هذا، قال ابن معين: ليس بشيء. وقال البخاريّ: منكر الحديث. وقد تقدّم القول في القاسم بن عبد الرحمٰن.

واحتجّوا بحديث رُوي عن عبد الله بن مسعود من رواية سَلّام بنِ مِسكين قال: حدّثني شيخٌ سمعَ أبا وائلٍ يقول: سمعت ابن مسعودٍ يقول: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) أبو سعيد الخدري: من جلّة المحدّثين والصحابة الذين شهدوا الكثير ممّا فعله الرسول ﷺ، وأقرّه أو نهى عنه.

(٢) سرخس: مدينة إيرانية قديمة بين مرو ومشهد.

(٣) عقيرته: العقيرة في الأصل ذنب الدويبة والهامّة، وهأ: بمعنى الصوت

(٤) ارتدف: كان رديفه، أي الشخص الآخر وراءه أو إلى جانبه.

(٥) عاتقه: ما بين عنقه ومنكبه.

يقول: «الغِناءُ يُنبِتُ النفاقَ في القلب»، هكذا رواه سَلاّمٌ عن شيخ مجهول لا يُعرفُ. ورواه جرير بن عبد الحميد عن ليث بن أبي سليم عن محمد بن عبد الرحمٰن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود وقوله، ولم يذكر النبيّ ﷺ. ورواه الثقاتُ عن شعبةَ بن الحجّاج عن مغيرةَ عن إبراهيمَ، قوله، ولم يذكر أحدًا تقدّمه فيه وهذا أصحّ الأقاويل فيه من قول إبراهيم. قال الغزالي رحمه الله تعالىٰ: قول ابن مسعود: يُنْبِتُ النفاقَ أراد به في حقّ المغنّي فإنه في حقّه ينبت النفاق إذ غرضُه كلُّه أن يعرضَ نفسه على غيره ويروّجَ صوته عليه، ولا يزال ينافق ويتودّد إلى الناس ليرغبوا في غنائه، وذلك أيضًا لا يوجب تحريمًا، فإن لبس الثّياب الجميلة وركوب الخيل المُهَمْلَجَة[1] وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث[2] والأنعام[3] والزرع يُنبِت الرياءَ والنفاقَ في القلب ولا يُطْلَقُ القولَ بتحريم ذلك كلّه؛ فليس السبب في ظهور النفاق في القلب المعاصي فقط، بل المباحات التي هي مواقع نظرِ الخلقِ أكثرُ تأثيرًا. ولذلك نزل ابنُ عمر رضي الله عنهما عن فرس هَملجَ تحته وقطع ذَنَبه لأنه استشعر في نفسه الخيلاء[4] لحسنِ مشْيَته، فهذا النفاق من المباحات.

واحتجّوا بحديث رُوي عن صفوان بن أُميّة قال: كنّا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ جاءه عمرو بن قُرَّةَ فقال: يا نبيّ الله إنّ الله عزّ وجلّ كتب عليّ الشِّقوةَ ولا أَرَانِي أُرْزَقُ إلّا من دُفّي بكفّي أفتأذن لي في الغناء من غير فاحشة؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا إذنَ ولا كرامةَ ولا نُعْمَةَ»، وذكر حديثًا طويلًا، وهو حديث رواه عبد الرزّاق بن همّام الصَّنْعاني عن يحيىٰ بن العَلاء عن بشرِ بن نُمَيْرٍ عن مكحولٍ قال: حدّثني يزيد بن عبد الملك عن صفوان بن أُميّة. ويحيىٰ بن العلاء هذا مدنيّ الأصل رازيّ[5]. قال يحيىٰ بن معين: يكنى أبا عمرو ليس بثقة. وقال عمرو بن علي الصيرفيّ: يحيىٰ بن العلاء متروك الحديث، والله أعلم.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنه نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمّارة، وهو حديثٌ نقله سليمانُ بنُ أبي سليمانَ الداوديّ البصريّ عن محمد بن بشر عن أبي هريرةَ، وسليمان هذا متروك الحديث غير ثقة.

---

(١) المهملجة: الحسنة السير.
(٢) الحرث: الأرض المحروثة، والزرع، ومتاع الدنيا من مال وبنين وغير ذلك.
(٣) الأنعام: جمع نَعَم، وهي الإبل خاصةً، والإبل والبقر والغنم عامّةً.
(٤) الخيلاء: التيه والزهو، والتبختر والكبر.
(٥) رازيّ: نسبة إلى الرّيّ، المدينة القديمة في شمال إيران.

واحتجّوا بقول عثمان رضي الله عنه: ما تغنّيتُ ولا تمنّيتُ ولا مَسستُ ذكري بيميني منذ بايعتُ النبيَّ ﷺ. وهذا حديث رواه صقر بنُ عبد الرحمٰن عن أبيه عن مالكِ بن مِغْوَلٍ عن عبد الله بن إدريس عن المختار بن فُلْفُلٍ عن أنس بن مالك في حديث القُفّ والصّيد.

قال المقدسيّ: هذا حديث لم أرَ فيه تحاملًا، ورأيته ذكر من هذا أشياء لم يأتِ بها غيره تُوجبُ تركَ حديثه والله أعلم. وقال الغزاليّ رحمه الله تعالى وذكر هذا الحديث: قلنا فليكن التمنّي ومَسّ الذكر باليمين حرامًا إن كان هذا دليلَ تحريم الغناء، فمن أين ثبت أن عثمان كان لا يترك إلّا الحرام.

قال الحافظ أبو الفضل المقدسيّ رحمه الله تعالى: فهذه الأحاديث وأمثالها احتجّ بها من أنكر السماع جهلًا منهم بصناعة علم الحديث ومعرفته، فترى الواحدَ منهم إذا رأى حديثً مكتوبًا في كتاب جعله لنفسه مذهبًا واحتجّ به على مخالفه، وهذا غلط عظيم بل جهلٌ جسيم. هذا ملخّصُ ما أورده رحمه الله تعالى، وفيه من الزيادات ما هو منسوب إلى الثعلبيّ والغزاليّ على ما بيّناه في مواضعه.

وقد تكلّم الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزاليّ الطوسيّ رحمه الله تعالى على السماع في كتابه المترجم بـ «إحياء علوم الدّين»، وبيَّنَ دليل الإباحة وذكر بعد ذلك آداب السّماع وآثاره في القلب والجوارح؛ فقال:

اِعلم أنَّ السماعَ هو أوّلُ الأمر، ويُثمر السماعُ حالةً في القلب تسمَّى الوجدَ ويُثمر الوجدُ تحريكَ الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمّى الاضطراب، وإمّا موزونة فتسمّى التصفيق والرقص. ثم بدأ بحكم السماع وبيّن الدليلَ على إباحته ثم ذكر ما تمسّك به القائلون بتحريمه، وأجاب عن ذلك بما نذكره أو مختصره إن شاء الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى: نقل أبو طالب المكيّ إباحةَ السماع عن جماعة، وقال: سمِع من الصحابة عبد الله بن جعفر، وابن الزُّبَيْر، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية وغيرهم. وقد فعل ذلك كثير من السلف صحابيّ وتابعيّ[1]. قال: ولم يزل الحجازيّون عندنا بمكّة يسمعون السماعَ في أفضل أيام السنة، وهي الأيام المعدودات

(١) الصحابيّ، من صحب رسول الله ﷺ في حياته وشاهده، والتابعي: من لم يصحبه، ولم يشاهده، لكنه أخذ هذا مباشرة وسمعه من الصحابة.

التي أمر الله عزّ وجلّ عباده فيها بذكره كأيام التشريق[(١)]، ولم يزل أهل المدينة ومكّة مواظبين على السماع إلى زماننا هذا فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوارٍ يُسمِعْنَ الناسَ التلحينَ قد أعدّهنّ للصوفيّة؛ قال: وكان لعطاء جاريتان تُلَحِّنانِ وكان إخوانه يستمعون إليهما. قال: وقيل لأبي الحسن بن سالم: كيف تُنكر السماعَ وقد كان الجُنيد[(٢)] وسَرِيّ السَّقَطِيّ[(٣)] وذو النون[(٤)] يسمعون! فقال: كيف أُنْكِرُ السماعَ وأجازه وسمعه مَنْ هو خير منّي. وقد كان عبد الله بن جعفر الطيّار يسمع، وإنما أُنْكِر اللهوَ واللَّعِبَ في السّماع.

ورُوي عن يحيىٰ بن معاذ أنّه قال: فقدنا ثلاثة أشياء فلا نراها ولا أراها تزداد إلا قِلّة: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

قال الغزاليّ: ورأيت في بعض الكتب هذا بعينه محكيًا عن المحاسبيّ وفيه ما يدلّ على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه[(٥)] وجدّه في الدّين وتشميره[(٦)].

وحكي عن مِمْشاد الدِّينَورِيّ أنّه قال: رأيت النبيَّ ﷺ في النوم فقلت: يا رسول الله، هل تنكر من هذا السماع شيئًا؟ فقال: «ما أنكر منه شيئًا ولكنْ قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن». قال الغزاليّ: وعن ابن جُرَيْج أنه كان يرخّصُ في السّماعِ فقيل له: تُقدّمه يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيّئاتك؟ فقال: لا في الحسنات ولا في السيّئات لأنه شبيه باللغو، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٥]؛ ثم بيّن الغزاليّ رحمه الله الدليل على إباحة

---

(١) أيام التشريق: وعددها اثنان أو ثلاثة، وتكون بمنًى عقب النفرة من عرفات إلى المزدلفة فمنًى، وهي تبدأ صبيحة عيد الأضحى في العاشر من ذي الحجّة.

(٢) الجنيد: أبو القاسم، صوفي بغداديّ، تتلمذ على خاله السري السقطي، وهو صاحب طريقة صوفية تُعرف باسمه. مات سنة ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م. انظر: الفهرست ص ٢٦٤.

(٣) هو سريّ بن المغلس السقطي، من رجال المتصوّفة البغداديّين. كان أستاذ الجنيد وخاله معًا. مات سنة ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٢٧.

(٤) ذو النون: هو أبو الغيض ثوبان المعروف بذي النون المصري، من كبار رجال المتصوّفة، وهو نوبيّ الأصل. أدخل حال الوجد والحبّ المطلق في التصوّف، وهو أوّل من تكلّم في ترتيب الأحوال ودرجات مقامات أهل الولاية. اتّهم بالزندقة وسجن في بغداد ثم أطلق سراحه. توفي في مصر بالجيزة سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٠٧.

(٥) تصاونه: تحفّظه.

(٦) التشمير إلى الشيء: القيام إليه والسعي بجدّ ونشاط.

السماع فقال: اعلم أن قول القائل: السماع حرام، معناه أن الله تعالى يعاقب عليه وهذا أمر لا يُعرفُ بمجرّد العقل بل بالسمع، ومعرفة الشرعيّات محصورة في النصّ أو القياس[١] على المنصوص. قال: وأعني بالنصّ ما أظهره رسول الله ﷺ بقوله أو فعله، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله، فإن لم يكن فيه نصٌّ ولم يستقم فيه قياسٌ على منصوص بطَل القولُ بتحريمه ويبقى فعلًا لا حرج فيه كسائر المباحات، ولا يدلّ على تحريم السماع نصّ ولا قياس. قال: وقد دلّ القياس والنصّ جميعًا على إباحة السماع.

أمّا القياس، فهو أن الغناء اجتمع فيه معانٍ ينبغي أن يُبحثَ عن أفرادها ثم عن مجموعها، فإن فيه سماعَ صوتٍ طيّبٍ موزون مفهوم المعنى محرِّكٍ للقلب؛ فالوصف الأعمّ أنه صوتٌ طيّب، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره. والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وأصوات سائر الحيوانات.

أما سماع الصَّوتِ الطيّبِ من حيثُ إنه طيّبٌ فلا ينبغي أن يُحرَّمَ بل هو حلال بالنصّ والقياس.

أمّا القياس فإنه يَرجِع إلى تلذّذ حاسّةِ السمع بإدراك ما هو مخصوصٌ به، وللإنسان عقل وخمسُ حواسّ ولكلّ حاسَّةٍ إدراك. وفي مُدْركَات تلك الحاسّة ما يُستلذّ؛ فلذّة البصر في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجاري والوجهِ الحسنِ وسائر الألوانِ الجميلة وهي في مقابلة ما يُكره من الألوان الكدِرَة القبيحة. وللشمّ الروائح الطيّبةُ وهي في مقابلة الأنتانِ المستكرهة. وللذّوق الطعومُ اللذيذةُ كالدُّسُومةِ والحلاوةِ والحموضةِ وهي في مقابلة المرارةِ والمَزازةِ المستبشعة. وللمسّ لذّةُ اللّينِ والنعومةِ والملاسة وهي في مقابلة الخشونةِ والضّراسة، وللعقل لذّةُ العلم والمعرفة وهي في مقابلة الجهل والبلادة؛ فكذلك الأصواتُ المدركةُ بالسمعِ تنقسم إلى مستلذّةٍ كصوت العنادلِ[٢] والمزامير، ومستكرهة كنهيق الحُمُر وغيرها، فما أظهر قياسَ هذه الحاسّة ولذّتها على سائر الحواس ولذّاتها.

---

(١) القياس: لغةً: حمل الشيء على نظيره، وفي الفقه: هو حمل فرع على أصل لعلّة مشتركة بينهما، كالحكم بتحريم شراب مسكر حملًا على الخمر، وذلك لاشتراكهما في علّة التحريم، وهي الإسكار. وإجمالًا فإن القياس، مصدر من مصادر التشريع أخذ به أبو حنيفة أصلًا، ثم تبعه آخرون.

(٢) العنادل: جمع عندليب، وهو ضرب من الطيور الحسنة الصوت.

وأمّا النصّ فيدلّ على إباحة سماع الصوت الحسن امتنانُ اللهِ على عباده به؛ إذ قال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فَاطِر: الآية ١]، فقيل: هو حسن الصوت. وفي الحديث: «ما بعث الله نبيًّا إلا حسنَ الصوت»، وقال رسول الله ﷺ: «للهُ أشدُّ أَذَنًا للرجلِ الحسنِ الصوتِ بالقرآنِ من صاحب القَيْنةِ إلى قَيْنتهِ»، وفي الحديث في معرض المدح لداودَ عليه السلام: «أنه كان حسنَ الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزّبُور حتى كان يجتمع الإنس والجنّ والوحش والطير لسماع صوته، وكان يُحملُ من مجلسه أربعمائة جنازة وما يقرب من ذلك في الأوقات». وقال رسول الله ﷺ في مدح أبي موسى الأشعريّ: «لقد أُعطِي مزمارًا من مزاميرِ آلِ داود»، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: الآية ١٩]، يدلّ بمفهومه على مدح الصوت الحسَن. ولو جاز أن يقال: إنما أُبيحَ ذلك بشرط أن يكون في القرآن للزمه أن يُحَرِّمَ سماعَ صوت العندليب لأنه ليس بقرآن. وإذا جاز سماع صوتٍ غُفْلٍ لا معنى له، فلم لا يجوز سماعُ صوتٍ يُفهم منه الحكمةُ والمعاني الصحيحة! وإن من الشعر لحكمة. قال: فهذا نظر في الصوت من حيث إنه طيّبٌ حسن.

الدرجة الثانية: النظر في الصوت الطيّب الموزون، فإنّ الوزن وراءَ الحسنِ، فكم من صوتٍ حسنٍ خارجٌ عن الوزن، وكم من صوت موزون غيرُ مستطاب. والأصوات الموزونةُ باعتبارِ مخارجِها ثلاثة، فإنها إمّا أن تكونَ من جماد؛ كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيبِ والطبل وغيره. وإمّا أن تخرج من حنجرةِ حيوانٍ، وذلك الحيوانُ إما إنسانٌ وإما غيرُه، فصوتُ العَنَادلِ والقَمَاريّ[١] وذوات السّجع[٢] من الطيور مع طيبها موزونةٌ متناسبةُ المَطَالِع والمقاطع فلذلك يُستلذّ سَمَاعُها. والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات، وإنما وُضعت المزاميرُ على صورةِ الحناجر وهي تشبيه الصَّنْعةِ بالخِلْقة. وما من شيءٍ تَوصّل أهلُ الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلّا وله مثالٌ في الخلقةِ التي استأثر الله تعالىٰ باختراعها، منه تعلّم الصُّنّاعُ وبه قصدوا الاقتداء؛ فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يَحْرُمَ لكونها طيّبةً أو موزونةً فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان؛ فينبغي أن يُقاس على صوت العندليب الأصواتُ الخارجةُ من سائر الأجسام باختيار الآدميّ كالذي يخرج من حلْقهِ أو من القضيبِ والطبلِ والدُّفّ وغيره. ولا يستثنى من هذا إلا الملاهي والأوتار والمزامير؛ إذ ورد الشرع

---

(١) القماري: جمع قمرية، وهي ضرب من الحمام البرّي ذي الصوت الحسن.

(٢) السجع: الغناء والترديد في الصوت.

بالمنع منها لا للذّتها؛ إذ لو كان للذّة لقيس عليها كل ما يلتذّ به الإنسان ولكن حُرِّمت الخمورُ واقتضت ضراوة[1] الناس بها المبالغة في الفِطام[2] عنها حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدِّنان[3]، فحرِّم معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط. وكان تحريمه من قبيل الإتباع كما حُرِّمت الخلوة[4] لأنها مقدّمة الجماع. وحُرِّم النظر إلى الفخذ لاتّصاله بالسّوأتين[5]. وحُرِّم قليل الخمر وإنْ كان لا يُسكِرُ لأنه يدعو إلى المسكر، وما من حرام إلّا وله حَرَم يُطِيفُ به. وحكم الحُرْمَة ينسحب على حريمه ليكون حِمًى للحرام ووِقايةً له وحِظَارًا[6] مانعًا حوله؛ كما قال ﷺ: «إن لِكُلِّ ملِكٍ حِمًى وإنّ حِمَى الله مَحَارِمُهُ»، فهي محرّمة تبعًا لتحريم الخمر.

الدرجة الثالثة: الموزون المفهوم وهو الشعر، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان فيُقطَعُ بإباحةِ ذلك لأنه ما زاد إلّا كونه مفهومًا. والكلام المفهوم غير حرام. والصوت الطيّب الموزونُ غيرُ حرام، فإذا لم يَحْرُم الآحادُ فمن أين يَحرُم المجموعُ؛ نعم يُنظر فيما يُفهم منه، فإن كان فيه أمر محظور حَرُم نثره ونظمُه وحَرُم التصويت به سواء كان بألحان أو لم يكن.

والحقّ فيه ما قاله الشافعيّ رحمه الله؛ إذ قال: الشعرُ كلامٌ فحسَنه حسنٌ وقبيحُه قبيح. ومهما جاز إنشادُ الشعرِ بغير صوتٍ وألحانٍ جازَ مع الألحان، فإن إفراد المباحات إذا اجتمعت كان مباحًا، ومهما انضمّ مباحٌ إلى مباح لم يحرم إلّا إذا تضمّن المجموعُ محظورًا لا تتضمّنه الآحاد، ولا محظورًا هاهنا. وكيف يُنكر إنشادُ الشعر وقد أُنشد بينَ يديّ رسول الله ﷺ، وقال ﷺ: «إنّ من الشِّعرِ لحِكْمَةً»، وساق رحمه الله في هذا الموضع الأحاديث الصحيحة التي تضمّنت إنشادَ الشعر والحُدَاء به وهي أشهر من أن يُحتَاج إلى سردها. ثم قال بعد سياق الأحاديث: ولم يزل الحُدَاء وراء الجمال من عادة العرب في زمان سيّدنا رسول الله ﷺ وزمان الصحابة، وما هو إلّا أشعار تُؤدَّى بأصواتٍ طيّبة وألحانٍ موزونةٍ. ولم يُنقلْ عن أحد من الصحابةِ إنكارُه، بل ربما كانوا يلتمسون ذلك تارةً لتحريك الجِمالِ وتارةً

(١) الضراوة: الاعتياد والاجتراء على الشيء. (٢) الفطام: الانقطاع.
(٣) الدنان: أوعية الخمرة وزقاقها، والمفرد: الدّنّ.
(٤) الخلوة: الانفراد.
(٥) السّوأتان: القبل والدّبر، أي فرج المرء ومؤخرته أو إسته.
(٦) الحظار: ما يحظر بينك وبين الآخر وما يحول بينكما كالحائط وسواه.

للاستلذاذِ، فلا يجوز أن يُحَرَّمَ من حيث إنه كلام مفهوم مؤدًّى بأصواتٍ طيِّبة وألحانٍ موزونة.

الدرجة الرابعة: النظر فيه من حيث إنه محرِّكٌ للقلب ومُهيِّجٌ لما هو الغالب عليه، قال أبو حامد: فأقول: للهِ سبحانه وتعالىٰ سرٌّ في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثِّرُ فيها تأثيرًا عجيبًا؛ فمن الأصوات ما يُفرِحُ ومنها ما يُحْزِنُ ومنها ما يُنَوِّم ومنها ما يُضحِكُ ويُطْرِبَ ومنها ما يَسْتَخْرِجُ من الأعضاء حركاتٍ على وزنها باليد والرجل والرأس. ولا ينبغي أن يُظنّ أن ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جارٍ في الأوتار حتى قيل: من لم يُحركه الربيعُ وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المِزَاج ليس له علاج. وكيف يكون ذلك بفهم المعنى، وتأثيره مشاهدٌ في الصبيّ في مهده فإنه يُسكته الصوتُ الطيِّبُ عن بكائه، وتنصرف نفسه عما يُبْكِيه إلى الإصغاء إليه. والجملُ مع بلادة طبعه يتأثر بالحُدَاءِ تأثيرًا يَستخِفُّ معه الأحمالَ الثقيلةَ ويستقصِرُ لقوّة نشاطه في سماعه المسافاتِ الطويلةَ، وينبعث فيه من النشاط ما يُسكره ويُولِهه[1]؛ فتراها إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال إذا سمعت مُنادِي الحداء تَمدّ أعناقَها وتُصْغِي إلى الحادي ناصبةً آذانها وتُسرعُ في سيرها حتى تتزعزعَ عليها أحمالُها ومحاملُها، وربما تُتْلِفُ أنفسَها في شدّة السير وثقل الحمل وهي لا تَشْعُر به لنشاطها.

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدِّينَوَري المعروف بالرَّقِّي، قال:

كنت في البادية فوافيتُ قبيلةً من قبائل العرب فأضافني رجل منهم وأدخلني خباءً فرأيت في الخباء عبدًا أسودَ مقيّدًا بقيد، ورأيت جمالًا قد ماتت بين يدي البيت وقد بقي منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه يَنزِعُ رُوحَه. فقال لي الغلام: أنت ضيفٌ ولك حقٌّ فتشفَّعْ في حقّي إلى مولاي فإنه مُكْرِمٌ لضيفه فلا يردّ شفاعتك فعساه يحلّ القيدَ عنّي. فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت: لا آكل ما لم أُشَفَّعْ في هذا العبد، فقال: إن هذا العبدَ قد أفقرني وأهلك جميع مالي؛ فقلت: ماذا فعل؟ فقال: إن له صوتًا طيِّبًا، وإني كنت أعِيش من ظهور هذه الجمالِ فحمَّلها أحمالًا ثِقالًا وكان يَحْدُو بها حتى قطعتْ مسيرةَ ثلاثَ ليالٍ في ليلةٍ من طِيبِ نغمته، فلما حُطَّت أحمالًا مَوَّتَتْ كُلُّها إلا هذا الجمل الواحد، ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبتُه لك، قال: فأحببت أن أسمعَ صوته، فلما أصبحنا أمره أن

(١) يولهه: يوقعه في الوله، وهو التحيّر وشدّة الوجد والحزن وذهاب العقل.

يَحْدُوَ[١] على جمل يَستقي الماءَ من بئرٍ هناك، فلما رفع صوتَه هام[٢] ذلك الجملُ وقطع حباله ووقعتُ أنا على وجهي، فما أظنّ أنّي قط سمعتُ صوتًا أطيبَ منه.

قال: فإذًا تأثيرُ السّماع في القلب محسوسٌ، ومن لم يحرّكه السماعُ فهو ناقص مائلٌ عن الاعتدالِ بعيدٌ عن الروحانيّة، زائد في غِلَظِ الطبعِ وكثافته على الجمال والطيور، بل على سائر البهائم فإن جميعها تتأثّر بالنغمات الموزونة. ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلوب لم يجز أن يُحْكَمَ فيه مطلقًا بإباحة ولا تحريم، بل يختلفُ ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات، فحكمه حكم ما في القلب.

قال أبو سليمان: السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه، ولكن يُحرّك ما هو فيه.

ذكر أقسام السماع وبواعثه

وأقسامُ السّماعِ تختلفُ باختلاف الأحوال، فإن منه ما هو مستحبّ وما هو مباحٌ وما هو مكروه وما هو حرام. أمّا المستحبُّ فهو لمن غلب عليه حبُّ الله تعالى ولم يُحرّك السماع منه إلا الصّفاتِ المحمودةَ. وأمّا المباح، فهو لمن لا حظّ له من السماع إلا التلذّذُ بالصوتِ الحسن، وأمّا المكروه فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ولكن يتخذُه عادةً له في أكثر الأوقات على سبيل اللّهو. وأما الحرام فهو لأكثر الناس من الشباب ومن غلبت عليه شهوةُ الدنيا، فلا يُحرّك السماعُ منهم إلا ما هو الغالبُ على قلوبهم من الصفات المذمومة. وقد تكلّم على هذه الأقسام الإمام أبو حامد الغزاليّ فقال رحمه الله ما مختصره ومعناه:

الكلمات المسجّعةُ[٣] الموزونةُ تُعتادُ في مواضعَ لأغراض مخصوصةٍ تَرتبطُ بها آثارٌ في القلب، وهي سبعة مواضع:

الأوّل: غِناء الحَجيج[٤] فإنهم يدورون أوّلًا في البلاد بالطبل والغناء، وذلك مباح لما فيه من التشويق إلى الحجّ وأداء الفريضة وشهود المشاعر.

(١) يحدو: يرفع صوته بالحداء، أي الغناء الموقّع.
(٢) هام: شرد وتاه وضلّ.
(٣) المسجّعة: فيها سجع وفواصل متشابهة تصلح للغناء.
(٤) الحجيج: جماعة الحجّاج الذين يؤدّون فريضة الحجّ في مكّة وما حولها.

الثاني: ما يعتاده الغُزاةُ[١] لتحريض الناسِ على الغزو وهو مباحٌ أيضًا لما فيه من استثارةِ النفسِ وتحريكها على الغزو وإثارة الغضب على الكفّار وتحسين الشجاعة وتقبيح الفرار.

الثالث: ما يرتجزه[٢] الشّجعانُ عند اللقاءِ في الحرب وهو مباحٌ ومندوب لما فيه من تشجيع النفس وتحريك النشاط للقتال والتمدّح بالشجاعةِ والنّجدةِ، وقد فعله غيرُ واحد من الصحابة رضوانُ الله عليهم، منهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ وخالدُ بنُ الوليد وغيرُهما.

الرابع: أصوات النِّياحة ونغماتُها وتأثيرُها في تهييج البكاء وملازمة الحزن والكآبة، وهذا قسمان: محمود ومذموم.

فأمّا المذموم فالحزن على ما فات، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: الآية ٢٣]. والحزن على الأموات من هذا القبيل، فإنه يُغْضِبُ اللهَ جلّ جلاله وتأسُّفٌ على ما لا تدارك فيه.

وأمّا المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه وبكاؤه على خطاياه، والبكاء والتباكي[٣] والحزن والتحازن[٤] على ذلك محمود؛ لأنه يبعث على التشمير[٥] للتدارك. ولذلك كانت نياحةُ داودَ عليه السلام محمودةً، فقد كان يَحْزَنُ ويُحْزِنُ ويَبكِي ويُبْكِي حتى كانت الجنائز تُرفَع من مجالس نياحته، وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه، وذلك محمود لأن المُفضي[٦] إلى المحمود محمود. وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيِّب الصوتِ أن يُنْشِدَ على المنبر بألحانه الأشعارَ المحزِنةَ المرقِّقَة للقلب، ولا أن يَبكِي ويتباكى لِيَتوصَّل به إلى بكاء غيره وإثارة حزنه.

الخامس: السماع في أوقات السرور تأكيدًا للسرور وتهييجًا له إن كان ذلك السرورُ مُباحًا كالغِناء في أيام العيد وفي العُرْس وفي وقت قدوم الغائب ووقت الوليمة

---

(١) الغزاة: جمع غازٍ، وهو افتتاح البلدان بقصد نشر راية الإسلام.
(٢) يرتجزه: يقولونه رجزًا، أي على بحر الرجز.
(٣) التباكي: التظاهر بالبكاء، أو محاولة البكاء.
(٤) التحازن: التظاهر بالحزن أو محاولة إظهار الحزن.
(٥) التشمير: النهوض والقيام. (٦) المفضي: المؤدّي.

والعقيقة[١] وعند الولادة والخِتان[٢] وعند حفظ القرآن، وكل ذلك معتاد لأجل إظهار السرور. قال: ووجه جوازه أنّ من الألحان ما يُثير الفرحَ والسرورَ والطربَ وكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه، ويدلّ على هذا إنشادهم بالدفّ والألحان عند مَقْدَم النبيّ ﷺ يقولون: [من مجزوء الرمل]

طَـلَعَ الـبَـدْرُ عـلـيـنـا مِـنْ ثَـنِـيَّـاتِ[٣] الـوَدَاعِ
وَجَـبَ الـشـكـرُ عـلـيـنـا مـــا دعـــا للهِ داعِـــي

فإظهارُ هذا السرور بالنغمات والشعر والرقص والحركات محمودٌ. فقد نُقل عن جماعة من الصحابة أنهم حَجَلوا[٤] في سرور أصابهم كما سيأتي في أحكام الرقص وهو جائز في قدوم كل غائب وكل ما يجوز الفرح به شرعًا. ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام.

السادس: سماع العُشّاق تحريكًا للشوق وتهييجًا للعشق وتسليةً للنفس؛ فإن كان في حال مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيده اللذّة، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق. والشوق وإن كان مؤلمًا ففيه نوعُ لذّة إذا انضاف إليه رجاء الوصال؛ فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم، وقوّة لذّة الرجاء بحسب قوّة الشوق والحبّ للشيء المرجوّ، ففي هذا السماع تهييج للعشق وتحريك للشوق وتحصيل للذّة الرجاء المقدّر في الوصال مع الإطناب[٥] في وصف حسن المحبوب. قال:

وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يُباحُ وِصالُه كمن يَعشق زوجتَه أو سُرِّيته[٦] فَيُصْغِي إلى غِنائها لتتضاعفَ لذّتُه في لقائها، فيحظى بالمشاهدة البصرُ وبالسماع الأُذُنُ ويَفهمُ لطائفَ معاني الوصال والفرق القلبُ، فتترادف أسباب اللذّة؛ فهذا نوع تَمتُّع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها، وما متاع الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وهذا منه. وكذلك إن غُصِبت منه جاريةٌ أو حِيلَ بينه وبينها بسبب من الأسباب، فله أن يُحرِّكَ بالسماع شوقَه وأن يَستثيرَ به لذّةَ رجاء الوصال، فإن باعها أو طلّقها حرم

(١) العقيقة: وهي ما يذبح من الشّاء بعد ولادة الولد وحلق شعره، فيتصدّق بوزن شعره، وتهدى الشاة للفقراء، أو يعطون ثلثها، ويهدى الثلث الثاني، والثالث لمن يقدم العقيقة. ويكون هذا في الغالب في اليوم السابع من الولادة.
(٢) الختان: قطع قلفة قضيب الذكر من الصبيان. (٣) الثنيات: الطرق في الجبل، جمع ثنيّة.
(٤) حجلوا: رفعوا رجلًا وقفزوا من الفرح. (٥) الإطناب: الإسهاب وكثرة التفصيل والشرح.
(٦) السّرية: المرأة المملوكة يتخذها الرجل محظيّة عنده.

عليه ذلك بعده إذ لا يجوز تحريكُ الشوقِ حيثُ لا يجوز تحقيقُه بالوصل واللقاء. وأما من يتمثّل في نفسه صورةَ صبيّ أو امرأة لا يجوز له النظر إليها، وكان يُنزّل ما يسمع على ما يتمثّل في نفسه فهو حرام؛ لأنه محرّك للفكر في الأفعال المحظورة ومهيّج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه، لا لأمر يرجع إلى نفس السماع. وقد سئل بعض الحكماء عن العشق فقال: دخانٌ يصعدُ إلى دماغِ الإنسان يزيلُه الجماعُ ويهيِّجه السماع.

السابع: سماعُ مَن أحبَّ الله سبحانه وتعالىٰ وعشقَه واشتاق إلى لقائه، فلا ينظُر إلى شيء إلّا رآه فيه، ولا يقرعُ سمعَه قارعٌ إلا سمعه منه أو فيه؛ فالسماع في حقّه مهيِّج لشوقه، ومؤكِّد لعشقه وحبِّه، ومُورِ زنادَ[1] قلبه، ومُستخرِجٌ منه أحوالًا من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها يعرفها مَنْ ذاقها ويُنْكِرُها مَنْ كَلَّ حِسُّه عن ذَوَاقها؛ وتُسمَّى تلك الأحوال بلسان الصوفيّة وَجْدًا ـ مأخوذ من الوجود ـ وللصوفية على هذا كلامٌ يطول شرحه ليس هذا موضعَ إيراده، والله أعلم.

ذكر العوارض التي يحرمُ معها السماع

قال أبو حامدٍ رحمه الله تعالى: والسماعُ يحرمُ بخمسةِ عوارضَ: عارض في المُسْمِع وعارض في آلة السماع، وعارض في نظم الصوت، وعارض في نفس المُستمِع أو في مواطنه؛ لأن أركان السماع هي المُسْمِعُ والمستَمِعُ وآلة السماع.

العارض الأوّل: أن يكون المُسْمِعُ امرأةً لا يَحلّ النظرُ إليها وتُخْشى الفتنةُ من سماعِها، وفي معناها الصبيّ الذي تُخْشى فتنتُه، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة، وليس ذلك لأجل الغناء بل لو كانت المرأةُ بحيثُ تَفْتِنُ بصوتِها في المحاورة في غير ألحانٍ فلا يجوزُ محاورتُها ومحادثتُها ولا سماعُ صوتها في القرآن أيضًا، وكذلك الصبيّ الذي تُخَافُ فتنتُه. فإن قلتَ: فهل تقول: إن ذلك حرام بكل حالٍ حسمًا للباب، أو لا يحرم إلا حيث تُخافُ الفتنةُ. فأقول: هذه مسألة محتملة من حيثُ الفقه يتجاذبها أصلان:

---

(١) الزناد: ما تورى به النيران، وكان عبارة عن حجر من صوّان يحكّ بمثله، ومورٍ: مشعل، من أورى النار، إذا أوقدها وأشعلها.

أحدهما: أن الخلوةَ بالأجنبيّة والنظرَ إلى وجهها حرامٌ سواء خيفت منها الفتنةُ أو لم تُخَفْ لأنها مَظِنَّةُ[١] الفتنة على الجملة، فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصورة.

والثاني: أن النظرَ إلى الصبيانِ مباحٌ إلا عندَ خوف الفتنةِ فلا يُلحقُ الصبيانُ بالنساء في عموم الحَسْم، بل يَنْبغي أن يُفَصَّلَ فيه الحالُ. وصوتُ المرأة دائرٌ بين هذين الأصلين، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب، ولكن بينهما فرق إذ الشهوةُ تدعو إلى النظر في أوّل هيجانها ولا تدعو إلى سماع الصوت. وليس تحريك النظر لشهوة المماسّةِ[٢] كتحريكِ السماع بل هو أشدّ. وصوتُ المرأة في غير الغناء ليس بعورةٍ[٣] ولكنْ للغناء مزيدُ أثرٍ في تحريك الشهوة، فقياسُ هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنّهم لم يُؤمروا بالاحتجابِ كما لم تُؤمر النساءُ بسَتْر الأصوات، فينبغي أن يُتَّبَع مَثارُ الفتن ويُقصَرَ التحريمُ عليه، هذا هو الأقيسُ عندي. قال: ويتأيّد بحديث الجاريتين المغنّيتين في بيت عائشةَ رضي الله عنها إذ يُعلم أن النبيّ ﷺ كان يَسمعُ صوتَهما ولم يحترز عنه، ولكن لم تكن الفتنةُ مخوفةً عليه فلذلك لم يَحْتَرِز. فإذًا يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شابًا وشيخًا، ولا يبعد أن يختلف الأمرُ في مثل هذا بالأحوال. فإنّا نقول: للشيخ أن يُقَبِّلَ زوجتَه وهو صائمٌ وليس للشابّ ذلك. والقبلةُ تدعو إلى الوِقَاع في الصوم وهو محظور[٤]. والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام، فيَختلِفُ ذلك أيضًا بالأشخاص.

العارض الثاني في الآلة: بأن تكون من شعائر أهل الشّربِ أو المخنّثين[٥] وهي المزاميرُ والأوتارُ وطبل الكوبة، فهذه ثلاثة أنواع وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدُّفّ، وإن كان فيه الجلاجلُ[٦] وكالطبل والشاهين[٧] والضرب بالقضيب وسائر الآلات.

---

(١) المظنّة: موضع الشيء ومألفه الذي يُظنّ كونه فيه، وهي المرجع التي ينشد فيها الباحث طلبته.

(٢) المماسّة: اللّمس.

(٣) العورة: كل ما يستره المرء استنكافًا أو حياءً.

(٤) محظور: ممنوع.

(٥) المخنّثون: الذين يظهرون صفات الأنوثة من الرجال.

(٦) الجلاجل: جمع جلّ، وهو الجرس الصغير.

(٧) الشاهين: من السباع، وهو ليس بلفظ عربيّ.

العارض الثالث في نظم الصوت: وهو الشعر، فإن كان فيه شيء من الخَنا[١] والفحش والهجاء أو هو كذبٌ على الله عزّ وجلّ أو على رسوله أو على الصحابة كما رتّبه الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان، والمستمِعُ شريكُ القائل، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها فإنه لا يجوز وصفُ المرأة بين يدي الرجل. وأمّا هجاء الكفّار وأهل البدع فذلك جائز.

فقد كان حسان بنُ ثابتٍ يُنافِحُ[٢] عن رسول الله ﷺ ويُهَاجِي الكفارَ، وأمره رسول الله ﷺ بذلك.

فأمّا النسيبُ وهو التشبيبُ بوصفِ الخدودِ والأصداغ[٣] وحسن القدِّ والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر. والصحيحُ أنه لا يحرم نَظمُه وإنشادُه بلَحْنٍ وغير لَحْن، وعلى المستمع ألّا يُنَزِّلَه على امرأة معيّنةٍ إلّا على من تحلّ له من زوجة أو جارية، فإن نزّله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإجالة الفكر فيه. ومَنْ هذا وَصْفُه فينبغي أن يَجتنِبَ السماعَ رأسًا، فإن مَنْ غلب عليه عشقٌ نزَّل كلَّ ما يسمعه عليه سواء كان اللفظُ مناسبًا أو لم يكن، إذ ما مِن لفظٍ إلا ويُمكنُ تنزيلُه على معانٍ بطريق الاستعارةِ، فالذي غلب عليه عِشقُ مخلوقٍ ينبغي أن يَحترِز من السماع بأيّ لفظٍ كان، والذي غلب عليه حبُّ اللهِ تعالى فلا تَضرّه الألفاظ ولا تمنعُه عن فهم المعاني اللطيفة المتعلّقة بمجاري همّته الشريفة.

العارض الرابع في المستمِع: وهو أن تكون الشهوةُ غالبةً عليه وكان في غِرّةِ[٤] الشباب، وكانت هذه الصفةُ أغلبَ مِن غيرها عليه، فالسماعُ حرامٌ عليه سواء غلب على قلبه حبّ شخصٍ معيّنٍ أو لم يغلب؛ فإنه كيفما كان فلا يسمعُ وصفَ الصُّدْغ والخدّ والوصال والفراق إلا ويُحرّكُ ذلك شهوَتَه ويُنزّله على صورة معيّنة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتدّ[٥] بواعثُ الشرّ. وذلك هو النُّصرةُ لحزب الشيطان والتخذيلُ للعقل المانع منه الذي هو حزب الله تعالى. والقتال في القلب دائم بين جنود الشيطان وهي الشهواتُ، وبين حزب الله وهو نورُ العقل إلّا في قلب قد فتحه أحد الجُنْدين واستولى عليه بالكليّة. وغالبُ القلوب قد فتحها جندُ الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسبابَ القتال لإزعاجه فكيف يجوز تكثيرُ

(١) الخنا: الفحش في الكلام. (٢) ينافح: يدافع.
(٣) الأصداغ: جمع صدغ، وهو جانب الرأس، والشعر الذي يستره.
(٤) غرّة الشباب: عنفوانه وشدّته. (٥) تحتدّ: تشتدّ.

أسلحتِهِ وتشحيذُ[١] سيوفِهِ وأسنّته[٢]، والسماع مُشَحِّذ لأسلحة جند الشيطان في حقّ مثل هذا الشخص، فليخرجْ مثل هذا عن جميع السماع فإنه يَسْتَضِريه[٣]، والله أعلم.

العارض الخامس: أن يكون الشخص من عوامّ الخلق ولم يغلب عليه حبُّ الله فيكون السماع له محبوبًا ولا غلبت عليه الشهوة، فيكون في حقّه محظورًا، ولكنه أبيح في حقّه كسائر أنواع اللذّات المباحة إلّا أنه اتّخذه دَيْدَنة[٤] وهِجِّيراه[٥] وقصر عليه أكثر أوقاته، فهذا هو السّفيه الذي تُردّ شهادتُه فإنّ المواظبة على اللهو جناية، وكما أن الصغيرة بالإصرارِ والمداومةِ تَصيرُ كبيرةً؛ فبعض المباحاتِ بالمداومة يصير صغيرةً وهو كالمواظبة على متابعة الزنوج والحبشةِ والنظر إلى لعبهم على الدوام، فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعًا؛ إذ فعله رسول الله ﷺ. ومن هذا القبيل اللَّعِبُ بالشِّطْرَنْج[٦] فإنه مباح، ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهةً شديدة، ومهما كان الغرضُ اللعبَ والتلذّذ باللهو، فلذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب؛ إذ راحة القلب معالجةٌ له في بعض الأوقات لتنبعث دواعيه. هذا ملخص ما أورده في أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته، ثم ذكر بعد ذلك آثار السماع وآدابه.

ذكر آثار السّماع وآدابه

قال أبو حامد رحمه الله: إعلمْ أن أوّل درجةِ السماعِ فهمُ المسموع وتنزيلُه على معنى يقع للمستمِع ثم يُثْمِرُ الفهمُ الوجدَ. ويُثمر الوجدُ الحركةَ بالجوارح، فلْيُنظر إلى هذه المقامات الثلاثة:

المقام الأوّل: في الفهم، وهو مختلفٌ باختلاف أحوال المُسْتَمِع، وللمستمِع أربعة أحوالٍ:

إحداها: أن يكون سماعه بمجرّد الطبع أي لا حظّ له في السماع إلا استلذاذُ الألحان والنغمات، فهذا مباحٌ وهو أخسُّ رُتَبِ السماع؛ إذ الإبلُ شريكةٌ له فيه، وكذا سائرُ البهائم. ولكل حيوان نوعُ تلذّذٍ بالأصوات الطيّبة.

---

(١) تشحيذ: سنّ.
(٢) الأسنّة: جمع سنان، وهو رأس الرمح.
(٣) يستضريه: يخدعه من حيث لا يعلم.
(٤) ديدنه: عادته.
(٥) هجّيراه: دأبه وشأنه.
(٦) الشطرنج: لعبة تمثل جيشين متحاربين يتألّف كل منهما من ستّ عشرة قطعة تمثل الملك والوزير والخيّالة والقلاع والفيلة والجنود، وتلعب على رقعة مرسوم عليها أربعة وستون مربّعًا.

الحالة الثانية: أن يسمع بفهم ولكن يُنَزِّله على صورة إما معيّنةٍ أو غير معيّنة، وهو سماعُ الشبابِ وأربابِ الشهوة ويكون تَنزيلُهم المسموعَ على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم. وهذه الحالة أخسّ[١] من أن يُتَكَلّم فيها إلا ببيان خِسّتها والنهي عنها.

الحالة الثالثة: أن يُنَزِّلَ ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملة الله تعالى وتقلّب أحواله في التمكّن منه مرّة وبُعْدِه منه أخرى، وهذا سماع المُريدين لا سيّما المبتدئين؛ فإن للمريد لا محالة مرادًا هو مَقْصدُه، ومَقْصدُه معرفةُ الله تعالى ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة بالسرّ وكشف الغطاء، وله في مَقْصدِه طريقٌ هو سالكه، ومعاملاتٌ هو مثابرٌ عليها، وحالاتٌ تستقبله في معاملاته. فإذا سمع ذكرَ عتاب أو خطاب أو قبول أو ردٍّ أو وصلٍ أو هجر أو قُرْب أو بُعْد أو تلهُّفٍ على فائت أو تعطّشٍ إلى مُنتظَرٍ أو شوق إلى وارد أو طمع أو يأس أو وحشة أو استئناس أو وفاء بالوعد أو نقض[٢] للعهد أو خوفَ فراق أو فرحٍ بوصال أو ذِكْرُ ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب أو هُمول[٣] العبرَات أو تَرادُفِ الحَسرات أو طولِ الفراق أو عِدة الوصال أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار؛ فلا بدّ أن يوافق بعضُها حالَ المريد في طلبه، فيجري ذلك مَجْرَى القَدّاح الذي يُوري[٤] زنادَ قلبه، فتشتعلُ به نيرانُه، ويقوَى به انبعاثُ الشوق وهيجانه، وتَهْجُمُ عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته، ويكون له مجالٌ رَحْبٌ في تنزيل الألفاظ على أحواله. وليس على المستمع مراعاةُ مراد الشاعر من كلامه؛ بل لِكلّ كلام وجوهٌ ولكلّ ذي فهم في اقتباس المعنى منه حظٌّ. وضرَب الإمام الغزالي لذلك أمثلة يطول شرحُها.

الحالة الرابعة: سماعُ مَنْ جاوز الأحوالَ والمقاماتِ فعَزَب[٥] عن فهم ما سوى الله تعالى حتى عَزَبَ عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها، وكان كالمدهوش الغائص في عين الشهود الذي يُضاهي[٦] حالهُ حال النِّسْوة اللاتي قَطّعْنَ أيديهنّ في مشاهدة جمال يُوسُفَ حتى بُهِتْن[٧] وسقط إحساسُهنَّ[٨]. وعن مثل هذه الحالة تُعَبِّر الصوفية بأنه فنِي

(١) أخسّ: أدنى وأحقر.
(٢) نقض العهد: الإخلال به.
(٣) همول: مسيل.
(٤) يوري: يشعل.
(٥) عزب: نأى وبَعُد.
(٦) يضاهي: يشابه ويناظر ويماثل.
(٧) بهتن: دهشن.
(٨) إشارة إلى قوله تعالى في سورة يوسف، الآية ٣١: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا=

عن نفسه، ومهما فَنِيَ عن نفسه فهو عن غيره أفنى؛ فكأنّه فَنِيَ عن كلّ شيء إلّا عن الواحد المشهود، وفَنِيَ أيضًا عن الشهود فإنّ القلب إن التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مُشاهِدٌ فقد غَفَلَ عن المشهود، فالمستهترُ[1] بالمرئيّ لا التفات له في حال استغراقه إلى رؤيته ولا إلى عينه التي بها رؤيته ولا إلى قلبه الذي به لذّته؛ فالسكران لا خُبْر له في سكره، والملتذّ لا خبْر له في التذاذه، إنما خُبْره من الملتذّ به فقط، ولكن هذا في الغالب يكون كالبرق الخاطف الذي لا يثبت ولا يدوم وإن دام لم تُطقه القوة البشريّة، فربّما يضطرب تحت أعبائه اضطرابًا تهلك فيه نفسُه كما رُوِيَ عن أبي الحسن النورِي أنه سمع هذا البيت:

ما زِلتُ أنْزِل من ودَادَكِ منزلًا ... تتحيَّرُ الألبابُ دونَ نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه ووقع في أَجَمَة[2] قَصَبٍ قد قُطِعت وبقيت أصولُها مثل السيوف فصار يعدو فيها، ويعيد البيت إلى الغداة والدم يجري من رجليه حتى ورِمت قدماه وساقاه ومات بعد أيام رحمه الله.

قال أبو حامد: وهذه درجة الصدّيقين في الفهم والوجد وهي أعلى الدرجات، لأن السماع على الأحوال وهي ممتزجة بصفاتِ البشريةِ نوعُ قُصُور، وإنما الكمالُ أن يفنى بالكليّةِ عن نفسه وأحواله. أعني أنه ينساها فلا يبقى له التفاتٌ إليها كما لم يكن للنِّسْوَةِ التفاتٌ إلى اليد والسِّكّين، فيسمع بالله، ولله، وفي الله، ومن الله؛ وهذه رتبة مَنْ خاض لُجَّةَ[3] الحقائقِ وعَبَر ساحل الأحوال والأعمالِ واتّحد بصفاء التوحيد وتحقّق بمحضِ[4] الإخلاص فلم يبق فيه منه شيء أصلًا، بل خَمَدَت[5] بالكليّة بَشَرِيَّته وفَنِي التفاتُه إلى صفات البشريّة رأسًا. قال: ولستُ أعني بفنائه فناءَ جسده بل فناء قلبه، ولستُ أعني بالقلب اللحم والدَّم بل سِرٌّ لطيفٌ له إلى القلب الظاهر نسبةٌ خفِيَّة وراءها سرُّ الرُّوح الذي هو من أمر الله عَرَفها مَنْ عَرَفها وجَهِلها من جَهِلها ولذلك السرّ وجودٌ. وصورة ذلك الوجود ما يحضُرُ فيه فإذا حضر فيه غيرُه فكأنه لا وجود إلّا للحاضر، ومثاله المرآةُ المجلُوَّةُ؛ إذ ليس لها لَوْنٌ في نفسها بل لونُها لَوْنُ

= بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾.

(١) المستهتر بالشيء: المولع به.

(٢) الشجر الكثير الملتفّ.

(٣) اللجّة: معظم الماء وغيره.

(٤) بمحض الإخلاص: بمطلق الإخلاص والصدق فيه.

(٥) خمدت: سكنت.

الحاضر فيها. وكذلك الزجاجةُ فإنها تحكي لَوْنَ قرارِها ولونها لَوْن الحاضر فيها وليس لها في نفسها صورةٌ، بل صورتها قَبُول الصُّوَر ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان. قال: وهذه مَغَاصَةٌ[١] من مغاصات علوم المكاشَفَة منها نشأ خَيَالُ من ادّعى الحلول والاتّحاد[٢]؛ هذا مُلَخّص ما أورده في مقام الفهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

المقام الثاني: بعد الفهم والتنزيل والوجدُ.

قال الإمام الغزاليّ رحمه الله تعالى:

وللناس كلامٌ طويلٌ في حقيقة الوجدِ أعني الصوفيّةَ والحكماءَ الناظرين في وجه مناسبة السّماع للأرواح، فلننقلْ من أقوالهم ألفاظًا ثم لنكشفْ عن الحقيقةِ فيه.

أمّا الصوفيّةُ، فقد قال ذو النون المصريّ[٣] رحمه الله في السماع: إنه واردُ حقٍّ جاء يُزعج القلوبَ إلى الحقّ، فمن أصغى إليه بحقٍّ تَحَقَّق، ومن أصغى إليه بنفسٍ تَزَنْدَق[٤]؛ فكأنّه عبّر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحقّ وهو الذي يجدُه عند ورود وارد السماعِ، إذ سَمَّى السماعَ واردَ حقّ. وقال أبو الحسين الدرّاج مُخْبِرًا عمّا وَجَده في السماع:

والوجدُ عبارةٌ عما يُوجَدُ عند السماع، وقال: جال بِي السماع في ميادين البهاء، فأوجدني وجود الحقّ عند العطاء، فسقاني بكأس الصفاء، فأدركت به منازل الرِّضاء، وأخرجني إلى رياض النزهة والفضاء.

وقال الشِّبْليُّ[٥]: السماع ظاهره فِتْنة وباطنه عِبْرة[٦]، فمن عَرَف الإشارة حلّ له استماع العِبْرة، وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرّض للبليّة. وأقوال الصوفيّة في هذا النوع كثيرة.

---

(١) المغاصة: موضع الغوص.

(٢) الحلول: الاعتقاد بأن الله تعالى موجود في كل شيء حتى يصبح الشيء والله واحدًا. والاتّحاد: الاعتقاد بأنه والله حيّز واحد.

(٣) ذو النون المصري: سبق التعريف به.

(٤) تزندق: أظهر الزندقة، وهي القول بأزليّة العالم، والشكّ في الله والإلحاد والضلالة.

(٥) هو أبو بكر الشبلي، من كبار المتصوّفة، كان واليًا في دنباوند، ثم زهد وتنسّك واشتهر بالصّلاح، أصله من خراسان. توفي في بغداد سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٦ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٣٣٨.

(٦) العبرة: الاعتبار والتفكّر.

وأمّا الحكماء، فقال بعضهم:

في القلب فَضِيلةٌ شريفةٌ لم تقدِر قوّةُ النطق على إخراجها باللفظ فأخرجَتْها النفسُ بالألحان، فلما ظَهَرت سُرَّت وطَرِبت إليها، فاستَمِعوا من النفس وناجُوها ودَعُوا مُناجاة الظواهر. وقال بعضهم:

نتائجُ السماع استنهاضُ العاجز من الرأي واستجلابُ العازب من الفكر وحِدّة الكالّ من الأفهام والآراء حتى يثوبَ[1] ما عَزَب ويَنْهَض ما عَجَز ويَصْفَو ما كَدَر ويَمْرَح في كل رأيٍ ونيّة فيصيب ولا يخطىء ويأتي ولا يبطىء. ثم ذكر المعنى الذي الوجد عبارة عنه، فقال: هو عبارةٌ عن حالةٍ يُثمرها السماع وهو وارد حقّ جديد عقِيب السماع يجده المستمعُ من نفسه. وتلك الحالة لا تخلو من قسمين: فإنها إما أن ترجعَ إلى مكاشفاتٍ ومشاهداتٍ هي من قبيل العلوم والتنبيهات؛ وإما أن ترجعَ إلى تغيّرات وأحوالٍ ليست من العلوم والتنبيهات، بل هي كالشوقِ والخوفِ والحزنِ والقلقِ والسرورِ والأسفِ والندمِ والبسطِ والقبضِ. وهذه الأحوالُ يهيّجُها السماعُ ويُقوّيها، فإن ضعفت بحيث لم تؤثّرْ في تحريك الظاهر أو تَسكِينِه أو تغيير حالهِ حتى يتحرّكَ على خلاف عادتِه أو يطرُق أو يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته لم يُسَمّ وجدًا، وإن ظهر على الظاهر سُمِّيَ وجدًا إما ضعيفًا وإما قوِيًّا بحسب ظهوره وتغييرهِ الظاهرِ وتحريكه بحسب قوّةِ ورودِه وحفظ الظاهرِ عن التغييرِ بحسب قوّةِ الواجدِ وقدرته على حفظ جوارحِه، فقد يقوَى الوجدُ في الباطن ولا يتغيّر الظاهرُ لقوّةِ صاحبه، وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحلّ عُقَد التماسك. وإلى المعنى الأوّل أشار أبو سعيد بن الأعرابيّ حيث قال في الوجد: إنه مشاهدَة الرقيب وحضورُ الفهم وملاحظةُ الغيبِ ولا يبعدُ أن يكون السماعُ منشأً لكشفِ ما لم يكن مكشوفًا قبله؛ فإنّ الكشفَ يحصلُ بأسباب منها: التنبيهُ، والسماعُ منبّه، ومنها تغيّر الأحوالِ ومشاهدتها وإدراكها، فإنّ إدراكها نوع علمٍ يفيدُ إيضاحَ أمورٍ لم تكن معلومة قبل الورود.

ومنها صفاء القلب، والسماع مؤثّر في تصفية القلوب، والصفاء سبب المكاشفة.

ومنها انبعاث نشاط القلب بقوّة السماع فيقوَى على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوّته كما يقوى البعيرُ على حمل ما كان لا يقوى عليه قبلَه، وهذا

(١) يثوب: يعود عن غيّه، وعزب: بَعُد.

الاستكشاف من ملاحظة أسرارِ الملكوت[١]؛ وكما أنّ حمل الجمل يكون بواسِطة، فبِواسِطة هذه الأسباب يكون سبب الكشف؛ بل القلب إذا صفا تمثّل له الحقّ في صورةِ مشاهدةٍ أو في لفظٍ منظومٍ يَقرَعُ سمَعه يعبّر عنه بصوت الهاتف إذا كان في اليَقَظة وبالرؤيا إذا كان في المنام، وذلك جزء من النبوّة؛ وعلمُ تحقيقِ ذلك خارج عن علم المعاملة. وذلك كما روى عن محمد بن مسروقِ البغداديّ أنّه قال: خرجت يومًا في أيام جهلي وأنا نشوانُ وكنت أُغنّي هذا البيتَ: [من البسيط]

بِطيزَناباذَ[٢] كَرْمٌ ما مررتُ به إلا تعجّبتُ ممن يشرب الماءَ

فسمعت قائلًا يقول: [من البسيط]

وفي جهنّم ماءٌ ما تجرّعهُ خَلْقٌ فأبقى له في الجوف أمعاءَ

فقال: وكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم.

قال أبو حامد: فانظرْ كيف أثّر الغناءُ في تصفية قلبه حتى تمثّل له حقيقة الحقّ في صفة جهنّم وفي لفظٍ منظومٍ موزون وقرع ذلك سمعَه الظاهر، وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب. ويشاهد أيضًا بالبصر صورة الخَضِرْ[٣] عليه السلام فإنه يخيّلُ لأرباب القلوب بصورٍ مختلفةٍ، وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطّلاعُ على ضمائر القلوب؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «اتّقُوا فِراسةَ[٤] المؤمنِ فإنه يَنظرُ بنور الله تعالى»، قال: فحاصل الوجد يَرْجِع إلى مكاشفاتٍ وإلى حالاتٍ ينقسم كل واحدٍ منهما إلى ما لا يمكن التعبير عنه عند الإقامة منه وإلى ما لا تمكن العبارة عنه أصلًا. وضرب لذلك أمثلة، منها أن الفقيه قد تعرضُ عليه مسألتان متشابهتان في الصورة ويُدرِك بذوقه أنّ بينهما فَرْقًا في الحكم، فإذا كُلِّف ذكرَ وجه الفرق لم يساعدْه اللسان على التعبير عنه، وإن كان من أفصح الناس، فيُدرِك بذوقه الفرق ولا يمكنه التعبيرُ عنه. وإدراكُه الفرقَ عِلْمٌ يصادفُه في قلبه بالذوق. ولا شكّ أنّ لوقوعه في قلبه

---

(١) الملكوت: عالم الغيب من نفوس وأرواح وعجائب، وهو العزّ والسلطان. وملكوت الله: سلطانه وعظمته، وهو ملك الله خاصةً.

(٢) طيزناباذ: اسم موضع بعينه في العراق.

(٣) الخضر: نبي معمّر محجوب عن الأبصار، قيل إنه من أنبياء بني إسرائيل، وهو صاحب موسى عليه السلام، وقد التقى معه بمجمع البحرين. وقيل: إنه ليس نبيًا، بل هو عبدٌ صالح من عباد الله تعالى.

(٤) الفراسة: المهارة في تعرّف بواطن الأمور من ظواهرها.

سببًا، وله عند الله تعالى حقيقة، ولا يمكنه الإخبارُ عنه لقصورٍ[١] في لسانه، بل لدقّة المعنى أن تناله العبارة.

وأمّا الحال فكم من إنسانٍ يُدرِك في قلبه في الوقت الذي يصبح فيه قبضًا أو بسطًا ولا يعلم سببه، وقد يتفكّر في شيء فيؤثّر في نفسه أثرًا فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر في نفسه وهو يَحُسّ به. وقد تكون الحالة التي يُحِسّها سرورًا يثبت في نفسه بتفكّره في سبب موجب للسرور، أو حُزْنًا فينسى المتفكّرَ فيه ويحسُّ بالأثر عقِيبه[٢]. وقد تكون تلك الحال حالة غريبة لا يُعرِب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مُفْصِحةً عن المقصود؛ بل ذوق الشعر الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختصّ به بعض الناس دون بعضٍ، وهي حالة يُدركها صاحب الذوق بحيث لا يشكّ فيها (أعني التفرقة بين الموزون والمنزحف) ولا يمكنه التعبير عنها بما يَتّضِح به مقصودُه لمن لا ذوقَ له. وفي النفس أحوال غريبةٌ هذا وصفُها، بل المعاني المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصُل في السماع عن غناء مفهومٍ. فأمّا الأوتار وسائرُ النغماتِ التي ليست مفهومة فإنها تؤثّر في النفس تأثيرًا عجيبًا، ولا يمكن التعبيرُ عن عجائب تلك الأوتارِ، وقد يُعبّر عنها بالشوق، ولكِنْ شوق لا يعرف صاحبه المشتاق إليه، فهذا عجيب. والذي اضطربت نفسُه بسماع الأوتار والشاهينِ وما أشبهه ليس يدري إلى ماذا يشتاق، ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضى أمرًا ليس يدري ما هو، حتى يقع ذلك للعوامّ ومن لا يغلب على قلبه لا حبّ آدميٍّ ولا حبّ الله تعالى، وهذا له سِرّ، وهو أنّ كل شوقٍ فله ركنان، أحدهما: صفة المشتاق وهو نوع مناسبةٍ مع المشتاق إليه. والثاني: معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة الوصول إليه، فإن وُجِدت الصفةُ التي بها الشوقُ ووُجِد العلمُ بالمشتاق ووُجِدت الصفة المشوّقة وحرّكت قلبك الصِّفة واشتعلت نارُها، أورَثَ ذلك دهشةً وحيرةً لا محالة. ولو نشأ آدميّ وحده حيث لم يَرَ صورةَ النساءِ ولا عرف صورة الوِقاعِ[٣] ثم راهق الحُلُمَ[٤] وغلبت عليه الشهوةُ لكان يُحِسّ من نفسه بنار الشهوة ولا يدري أنه يشتاق إلى الوِقاع، لأنه ليس يدري صورة الوِقاع ولا يعرف صورة النساء؛ فكذلك في نفس الآدميّ مناسبةٌ مع العالَم الأعلى واللّذاتِ التي وُعِد

(١) قصور: عجز.
(٢) عقيبه: على أثره.
(٣) الوقاع والمواقعة: الملابسة، ويكنى بها عن الجماع بالمرأة.
(٤) راهق الحلم: قاربه.

بها في سِدرة المنتهى[١] والفراديسِ[٢] العُلا، إلا أنه لم يتخيّل من هذه الأُمور إلّا الصفات والأسماء كالذي يسمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهِد صورةَ امرأةٍ قطّ ولا صورةَ رجلٍ ولا صورةَ نفسِهِ في المرآة ليعرف بالمقايسة؛ فالسماع يحرّكُ منه الشوقَ؛ والجهلُ المفرطُ والاشتغالُ بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربَّه وأنساه مستقرَّه الذي إليه حنينُه واشتياقُه بالطبع، فيتقاضاه قلبه أمرًا ليس يدري ما هو فيدهش ويضطرب ويتحيّر ويكون كالمختنق الذي لا يعرِف طريقَ الخلاص. فهذا وأمثالُه من الأحوال التي لا يُدرَك تمامُ حقائقِها، ولا يمكن المتَّصفُ بها أن يعبّر عنها، فقد ظهر انقسام الوجدِ إلى ما يمكن إظهارُه وإلى ما لا يمكنُ إظهارُه.

قال:

واعلمْ أيضًا أنّ الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلّف يسمّى التواجد، وهذا التواجد المتكلّفُ، فمنه مذموم وهو الذي يقصد به الرّياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها؛ ومنه ما هو محمود وهو التوصُّل إلى الاستدعاء للأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة؛ فإن للكسب مدخلًا في جلب الأحوال الشريفة، ولذلك أمر رسول الله ﷺ مَن لم يحضرْه البكاءُ في قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازنَ، فإنّ هذه الأحوال قد تُتَكلّف[٣] مباديها ثم تتحقّق أواخرها. وكيف لا يكون التكلّف سببًا في أن يصير المتكلِّف بالآخرة طبعًا، وكل من يتعلّم القرآن أوّلًا يحفظه تكلّفًا ويقرؤه تكلُّفًا مع تمام التأمّل وإحضار الذهن ثم يصير ذلك دَيْدَنًا[٤] للسان مُطّرِدًا[٥] حتى يجري به لسانُه في الصلاة وغيرها وهو غافل فيقرأ تمامَ السورةِ وتثوبُ نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها، ويعلم أنه قرأها في حال غفلته. وذكر أبو حامدٍ أمثلةً نحو ذلك ثم قال: وكذلك الأحوالُ الشريفة لا ينبغي أن يقع اليأسُ منها عندَ فقدها، بل ينبغي أن يُتكلّف اجتلابِها بالسماع وغيره؛ فلقد شُوهِد في العادات مَن اشتهى أن يعشَق شخصًا ولم يكن يعشَقُه فلم يزل يردّدُ ذكرَه على نفسِهِ ويديمُ النظرَ إليه ويقرّر على نفسه الأوصافَ المحبوبة إليه والأخلاقَ المحمودة فيه حتى عَشِقَه ورسخ ذلك في قلبه رسوخًا خرج عن حدّ اختياره، واشتهى بعد ذلك الخلاصَ منه فلم يتخلّص، فكذلك حبُّ الله تعالى والشوقُ إلى لقائه والخوفُ من سخطهِ[٦] وغير ذلك من الأحوال الشريفة إذا فقدها

(١) سدرة المنتهى: شجرة في الجنّة، ورد ذكرها في القرآن الكريم.
(٢) الفراديس: جمع فردوس، وهي الجنّة.
(٣) تتكلّف: يُجهد في سبيل الوصول إليها.
(٤) الديدن: العادة والشأن.
(٥) مطّردًا: متتابعًا ومتسلسلًا.
(٦) سخطه: غضبه وانتقامه.

الإنسان فينبغي أن يتكلّف اجتلابَها بمجالسة الموصوفين بها، ومشاهدةِ أحوالهم، وتحسينِ صفاتهم في النفس، وبالجلوسِ معهم في السماع، وبالدعاء والتضرُّع إلى الله تعالى في أن يرزقه تلك الحالة بأن يُيسّر له أسبابها؛ ومن أسبابها السماعُ ومجالسةُ الصالحين والخائفين والمحبّين والمشتاقين والخاشعين؛ فمن جَالَس شخصًا سَرَت إليه صفاتُه من حيثُ لا يدري. ويدلّ على إمكان تحصيل الحبّ وغيره من الأحوالِ بالأسباب قولُ رسول الله ﷺ في دعائه: «اللّهمّ ارزقْني حبَّك وحبَّ مَن أحبّك وحبّ مَن يُقرِّبُني إلى حبّك». فقد فزع[١] إلى الدعاء في طلب الحبّ. قال: فهذا بيان انقسام الوجدِ إلى مكاشفاتٍ وإلى أحوالٍ، وانقسامه إلى ما يمكن الإيضاحُ عنه وإلى ما لا يمكنُ، وانقسامه إلى المتكلّفِ وإلى المطبوع.

المقام الثالث: في آداب السماع ظاهرًا وباطنًا، وما يُحمدُ من آثار الوجد ويُذمّ.

قال الإمام أبو حامد رحمه الله تعالى: فأمّا الآداب فهي خمس جملٍ:

الأوّل: مراعاةُ الزمانِ والمكانِ والإخوانِ. قال الجُنَيْدُ: السماعُ يحتاجُ إلى ثلاثة أشياءٍ وإلا فلا تسمع: الزمان والمكان والإخوان. قال الغزاليّ: ومعناه أن الاشتغال به في وقت حضور طعامٍ أو خصامٍ أو صلاةٍ أو صارفٍ[٢] من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدةَ فيه، فهذا معنى مراعاة الزمان، فيراعي فراغ القلب، والمكان قد يكون شارعًا مطروقًا أو موضعًا كريهَ الصورةِ أو فيه سببٌ يشغلُ القلبَ فيُتجنَّبُ ذلك. وأمّا الإخوان فسببه أنه إذا حضر غيرُ الجنس من منكِر السماعِ متزهّدِ الظاهر مفلسٍ من لطائف القلوب كان مستثقلًا في المجلس واشتغل القلب به، وكذا إذا حضر متكبّر من أهلِ الدّنيا فيحتاج إلى مراقبتِهِ ومراعاتِهِ، أو متكلّف متواجِد من أهل التصوّف يرائي بالوجد والرقصِ وتمزيقِ الثوب، فكل ذلك مشوّشاتٌ، فتركُ السماع عند فقد هذه الشروط أَوْلَى.

الثاني: وهو نظر للحاضرين، أن الشيخ إذا كان حوله مُريدون يضرُّهم السماعُ فلا ينبغي أن يسمعَ في حضورهم؛ فإن سمِع فليشغلْهم بشغلٍ آخر. والمريد الذي لا يستفيد بالسماع أحدُ ثلاثةٍ: أقلُّهم درجةً هو الذي لم يدركْ من الطريق إلا الأعمالَ الظاهرةَ ولم يكن له ذوقُ السماع؛ فاشتغالُه بالسماع اشتغالٌ بما لا يعنِيهِ؛ فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو، ولا من أهل الذوق فيتنعّم بذوق السماع؛ فليشتغل بذكرٍ أو

(١) فزع: لجأ.
(٢) صارف: حادث.

خدمةٍ وإلا فهو مضيّعٌ لزمانه. الثاني: هو الذي له ذوقٌ ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصّفات البشريّة ولم ينكسِر بعدُ انكسارًا تُؤمَنُ غوائله[١]، فربما يُهيّج السماع منه داعيةَ اللّهو والشهوة، فينقطع طريقه ويصدّه[٢] عن الاستكمال. الثالث: أن يكون قد انكسرت شهوتُه وأُمِنت غائلتُه وانفتحت بصيرته[٣] واستولى على قلبه حبُّ الله تعالى، ولكنه لم يُحْكِم ظاهرَ العلم ولم يعرِف أسماء اللهِ وصفاتِهِ وما يجوز عليه وما يستحيل، وإذا فُتِح له باب السماع نزل المسموع في حقّ الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز، فيكون ضرره من تلك الخواطر التي هي كفرٌ أعظم عليه من نفع السماع. قال سهل: كلُّ وجدٍ لا يشهد له الكتابُ والسنّةُ فهو باطل، فلا يصلح السماع لمثل هذا ولا لمن قلبه بعدُ ملوّث بحبّ الدنيا وشهوةِ المحمدةِ والثناءِ، ولا من يسمع لأجل التلذّذ والاستطابة بالطبع، فيصير ذلك عادة له ويشغله عن عبادتِهِ ومراعاةِ قلبِهِ وتنقطع عليه طريقة الأدب؛ فالسماع مَزِلّة[٤] قَدَمٍ يجب حفظُ الضّعفاء عنه.

الأدب الثالث: أن يكون مُصغيًا إلى ما يقوله القائلُ، حاضرَ القلب، قليلَ الالتفات إلى الجوانب، متحرّزًا عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد، مشتغلًا بنفسه ومراعاة قلبِهِ ومراقبةِ ما يفتح الله له من رحمته في سِرّه، متحفّظًا عن حركةٍ تُشوّش على أصحابه قلوبَهم؛ بل يكون ساكنَ الظاهر، هادئ الأطراف متحرّزًا عن التنحنح والتثاؤب، يجلس مُطْرِقًا رأسَه كجلوسِهِ في فكرٍ مستغرقٍ لقلبه، متماسكًا عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجهِ التصنّع والتكلّف والمراءاة[٥]، ساكتًا عنِ النطق في أثناء القول بكل ما عنه بدّ، فإن غلبه الوجد وحرّكه بغير اختيار فهو فيه معذور وغير مَلُومٍ؛ ومهما رجع إليه اختياره فليعُد إلى هدوّه وسكونه. ولا ينبغي أن يستديمه حياء مِن أن يقال: انقطع وجدُه على القرب، ولا أن يتواجد خوفًا من أن يقال: هو قاسِي القلب عديم الصفاء والرقّة. قال: وقوّة الوجد تُحرّك، وقوّة العقل والتماسُك تَضبط الظواهرَ. وقد يغلب أحدُهما الآخرَ إما لشدّة قوّته، وإما لضعفِ ما يقابلُه، ويكون النقصان والكمالُ بحسب ذلك، فلا تظنّن أن الذي يضطربُ بنفسه على الأرض أتمُّ وجدًا من الساكن باضطرابه، بل رُبَّ ساكنٍ أتمّ

(١) غوائله: عواقبه، والحقد الباطن فيه. (٢) يصدّه: يمنعه.
(٣) البصيرة: قوة الإدراك والفطنة، والعلم والخبرة، والحجّة.
(٤) المزلّة: الخطأ والمَيْل عن الصواب، والزَّلَل.
(٥) المراءاة: إظهار خلاف الشيء، والتملّق والرّياء.

وجدًا من المضطرب؛ فقد كان الجنيد[١] يتحرّك في السماع في بدايته ثم صار لا يتحرّك فقيل له في ذلك، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ﴾ [النمل: الآية ٨٨]، إشارةً إلى أن القلب مضطرب جائل في المَلَكُوتِ، والجوارح متأدّبة في الظاهر ساكنة.

الأدب الرابع: ألّا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدِر على ضبط نفسِهِ؛ ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المُراءاة؛ لأن التباكي استجلابٌ للحزن، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط، وكل سرور مُباح فيجوز تحريكُه، ولو كان ذلك حرامًا لما نظرت عائشةُ رضي الله عنها إلى الحَبَشة مع رسول الله ﷺ وهم يزفِنون[٢]. وقد رُوِيَ عن جماعةٍ من الصحابة أنهم حجلوا لمّا ورد عليهم سرورًا أوجب ذلك، وذلك في قصة ابنة حمزةَ بنِ عبد المطّلب لما اختصم فيها عليّ بن أبي طالب وأخوه جعفرٌ وزيدُ بنُ حارثةَ رضي الله عنهم، فتشاحّوا[٣] في تربيتها؛ فقال رسول الله ﷺ لعليّ: «أنتَ مِنّي وأنا منك»، فحجل عليّ. وقال لجعفر: «أشبهتَ خَلْقِي وخُلُقي» فحجل. وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فحجل، الحديث. قال: والحجل: الرقص، ويكون لفرحٍ أو شوقٍ، فحكمه حُكْم مهيِّجِه إن كان فرحه محمودًا؛ والرقصُ يزيده ويؤكّده فهو محمود، فإن كان مباحًا فهو مباح، وإن كان مذمومًا فهو مذموم. نعم لا يليق ذلك بمناصب الأكابر وأهل القدوة؛ لأنه في الأكثر يكون عن لهوٍ ولعبٍ، وما له صورة اللعب في أعين الناس فينبغي أن يجتنبه المقتدَى به لئلا يَصْغُر في أعين الخلق فيُتْرَكَ الاقتداءُ به. وأمّا تخريق الثياب فلا رُخْصَة فيه إلا عندَ خروجِ الأمر عن الاختيار. ولا يبعُدُ أن يغلب الوجدُ بحيث يمزّق ثوبه وهو لا يدرِي لغلبةِ سكر الوجدِ عليه أو يدرِي ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسِه، وتكون صورته صورة المُكْرِه؛ إذ يكون له في الحركة أو التمزيق متنفّسٌ فيضطرّ إليه اضطرارَ المريض إلى الأنين؛ ولو كلّف الصبرَ عنه لم يقدر عليه مع أنه فعْل اختياريّ؛ فليس كلّ فعلٍ حصولُه بالإرادة يقدرُ الإنسانُ على تركه؛ فالتنفّس فعلٌ يحصُل بالإرادة، ولو كلّف الإنسان نفسه أن يمسك النفسَ ساعة اضطر من باطنِه إلى أن يختار التنفّس، فكذلك الزعقةُ[٤] وتخريقُ الثياب قد يكون كذلك، فهذا لا يوصف بالتحريم.

---

(١) الجنيد: سبق التعريف به. (٢) يزفنون: يرقصون.

(٣) تشاحّوا: تنافسوا، ووقعوا في الشحناء والبغضاء.

(٤) الزعقة: الصيحة العظيمة.

الأدب الخامس: موافقةُ القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجدٍ صادق من غير رياءٍ وتكلّفٍ، أو قام باختيارٍ من غير إظهار وجدٍ وقام له الجماعة فلا بدّ من الموافقة، فذلك من آداب الصحبة. وكذلك إن جرت عادة طائفةٍ بتنحيةِ العِمامة على موافقةِ صاحب الوجد إذا سقطت عمامتُه أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتخريق. فالموافقة في هذه الأُمور من حُسْن الصحبة والعِشرة، إذ المخالفةُ موحشة. ولكلّ قوم رسمٌ؛ ولا بدّ من مخالقةِ[١] الناسِ بأخلاقهم كما ورد في الخبرِ لا سيما إذا كانت أخلاقًا فيها حسنُ المعاشرةِ والمجاملة وتطييبُ القلب بالمساعدة. وقول القائل: إنّ ذلك بدعة[٢] لم تكن في الصحابة، فليس كلّ ما يحكم بإباحتهِ منقولًا عن الصحابة، ولم ينقل النهيُ عن شيءٍ من هذا. والقيامُ عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب، بل كان الصحابةُ لا يقومون لرسول الله ﷺ في بعض الأحوال كما رواه أنس رضي الله عنه، وإن كان لم يثبت فيه نَهْيٌ عامٌّ، فلا نرى به بأسًا في البلاد التي جرت العادةُ فيها بإكرام الداخل بالقيام؛ فإنّ القصد منه الاحترامُ والإكرامُ وتطييبُ القلب به؛ كذلك سائرُ أنواع المساعدة إذا قُصِدَ بها طيبةُ القلب واصطلح عليها جماعةٌ فلا بأس بمساعدتهم عليها؛ بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نَهْيٌ لا يَقْبل التأويل[٣]. ومن الأدب ألّا يقوم للرقص مع القوم إن كان يُستثقل رقصُه ويشوّش عليهم أحوالهم؛ إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح، والمتواجد هو الذي يلوح للجمع منه أثر التكلّف، ومن يقوم عن صدقٍ لا تستثقِله الطباع، فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محَكٌّ للصدق والتكلُّف. سئل بعضهم عن الوجد الصحيح، فقال: صحّته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالًا غير أضدادٍ. هذا ملخّص ما أورده الغزاليّ رحمه الله تعالى في معنى السماع وقسمه إلى هذه الأقسام التي ذكرناها.

وأما أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حَزْم[٤] فقد ذكر مسألةَ السماع وبيَّن إباحتَه، فبدأ بذكر الأحاديث التي احتجّوا بها وضَعَّف رُوَاتِها نحو ما تقدّم وذكر الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: الآية ٦]،

(١) المخالقة: المصانعة، والتخلّق بأخلاق الآخرين.

(٢) البدعة: ما يؤتى به مخالفًا للإيمان، أو للكتاب والسنّة.

(٣) التأويل: التفسير، وقلب المسألة على شتّى وجوهها بغية تفسيرها بالاعتماد على العقل والمنطق.

(٤) ابن حزم الأندلسي: سبق التعريف به، وهو الفقيه المعروف، وصاحب المذهب الظاهري.

وأنّه قيل: إنه الغناء، فليس عن رسول الله ﷺ ولا ثَبَتَ عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم؛ فإنما هو قول بعضِ المفسّرين ممن لا يقوم بقوله حُجّة؛ وما كان هكذا فلا يجوز القول به. ثم لو صحّ لما كان فيه متعلّق؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمَان: الآية ٦]، وكلّ شيءٍ اقتُنِيَ ليُضَلّ به عن سبيل الله فهو إثمٌ وحرام ولو أنه شِراء مصحف أو تعليم قرآن. فإذًا لم يصحّ في هذا شيء فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعَام: الآية ١١٩]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٩]، وقال رسول الله ﷺ: «أعظم الناس جُرْمًا في الإسلام مَنْ سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّم فحُرِّم من أجل مسألته»، فصحّ أن كل شيءٍ حرّمه الله عزّ وجلّ علينا فقد فصّله لنا، وكل ما لم يُفصّل تحريمه لنا فهو حلال. واستدلّ رحمه الله على إباحته بالأحاديث التي ذكرناها، حديث عائشة عن خبر أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما في غناءِ الجاريتين، واستدلّ أيضًا بحديث نافع أن ابنَ عمرَ سَمِع مزمارًا فوضع إصبعيه في أُذنيه ونأى عن الطريق، وقال: يا نافع، هل تسمع شيئًا؟ قلت: لا، فرفع إصبعيه عن أذنيه وقال: كنتُ مع رسول الله ﷺ وسَمِع مثل هذا وصنع مثل هذا. قال: فلو كان حرامًا ما أباح عليه الصلاة والسلام لابن عمر سماعَه ولا أباح ابنُ عمر لنافعٍ سماعَه؛ ولكنّه عليه الصلاة والسلام كَرِه لنفسه كلّ شيءٍ ليس من التقرّب إلى الله عزّ وجلّ، كما كَرِه الأكل مُتّكئًا، والتنشّف بعد الغسل في ثوبٍ يعدّ لذلك، والستر الموشّى على سَهْوة عائشة وعلى باب فاطمةَ رضي الله عنهما؛ وكما كَرِه ﷺ أشدّ الكراهة أن يبيت عنده دينار أو درهم. وإنما بُعِث عليه الصلاة والسلام مُنْكِرًا للمنكَر، آمرًا بالمعروف. فلو كان ذلك حرامًا لما اقتصر النبيّ ﷺ أن يسدّ أذنيه عنه دون أن يأمر بتركه وينهى عنه، ولم يفعل عليه الصلاة والسلام شيئًا من ذلك بل أقرّه وتنزّه عنه، فصحّ أنه مباح وأن التركَ له أفضلُ كسائر فضول الدنيا المباحةِ.

قال: فإن قال قائل: قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يُونس: الآية ٣٢]، ففي أيّ ذلك يقع الغناء؟ قيل له: حيث يقع التروّحُ في البساتين وصباغ ألوان الثياب، ولِكُلّ امرىءٍ ما نَوى، فإذا نوى المرء ترويحَ نفسِهِ وإجمامَهَا[1] لتقوى على طاعة الله فما أتى ضلالًا. قال: ولا يحلّ تحريمُ شيءٍ ولا إباحتُه إلا بنصٍّ من الله عزّ وجلّ أو من رسوله ﷺ؛ لأنه إخبار عن الله عزّ وجلّ، ولا يجوز

(١) إجمامها: إراحتها.

عنه تعالى إلا بالنصّ الذي لا شكّ فيه. وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عليّ مُتَعَمِّدًا فليتبوّأ[١] مقعدَهُ من النار». وقد تكلّم على إباحةِ السماعِ جماعةٌ من العلماء. وفيما أوردناه من هذا الفصل كفاية، فلنذكر من سَمِع الغناء من الصحابة رضي الله عنهم.

ذكر مَن سمع الغناء من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم

قد رُوِي أن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم سمعوا الغناء.

منهم النعمانُ بن بَشيرٍ الأنصاريّ[٢] الخزرجيّ رضي الله عنه، روى أبو الفرج الأصفهانيّ في كتابه المترجم بـ «الأغاني» بسَنَدٍ رفعه إلى أبي السائب المخزوميّ وغيره، قال: دخل النعمان بن بَشِير المدينةَ في أيام يَزيد بن معاوية وابنِ الزُّبَيْر، فقال: والله لقد أخفقت أذنايَ من الغناء فأسمعوني، فقيل له: لو وَجّهت إلى عَزّة المَيْلاء[٣]، فإنها مَن قد عرفت؛ فقال: إي وربِّ هذه البَنِيّة[٤]! إنها لممن يَزيد النفسَ طِيبًا والعقلَ شَحْذًا[٥]، اِبعثوا إليها عن رسالتي، فإن أبَتْ صرتُ إليها. فقال له بعض القوم: إنّ النُّقْلة تشتدّ عليها لثقل بدنها، وما بالمدينة دابّةٌ تحملها. فقال النعمان: وأين النجائب[٦] عليها الهوادج[٧]؟ فوجّه إليها بنجيبةٍ فذكرت عِلّةً؛ فلما عاد الرسولُ إلى النعمان قال لجليسِهِ: أنت كنت أخبرَ بها، قوموا بنا. فقام هو مع خواصّ أصحابه حتى طرقوها[٨]، فأذِنت وأكرمت واعتذرت، فقبل النعمان عذرها وقال لها: غنِّي، فغنّت: [من المتقارب]

أجِـدَّ بـعَـمْـرَةَ غُـنْـيـانُـهـا[٩] ... فـتـهـجُـرَ أم شـأنـهـا شـأنُـهـا؟
وعَمْرةُ من سَرَوَاتِ النسا[١٠] ... تَنْفَحُ[١١] بالمسكِ أردانُها[١٢]

---

(١) فليتبوّأ: فليقم ولينزل.
(٢) النعمان بن بشير الأنصاري: من ألمع الصحابة، كان شاعرًا، وعمل واليًا على الكوفة لمعاوية، وعلى حمص ليزيد. بايع ابن الزبير فاغتيل سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٤ م.
(٣) عزّة الميلاء: مغنّية اشتهرت بضرب العود، عاشت في الحجاز وعاصرت عمر بن أبي ربيعة. توفيت نحو ٧٣٣ م.
(٤) البنيّة: إشارة إلى الكعبة المبنيّة.
(٥) شحذًا: إنارة وفطانة.
(٦) النجائب: جمع نجيبة، وهي الناقة من الإبل العتاق.
(٧) الهوادج: جمع هودج، وهو الرّحل، وما يوضع فوق البعير لحمل النساء.
(٨) طرقوها: أتوها ليلًا.
(٩) الغنيان: الاستغناء.
(١٠) سروات النساء: أعلاهنّ شأنًا.
(١١) تنفح: تضمّخ.
(١٢) الأردان: أطراف الأكمام.

قال: وهذا الشعر هو لقَيْس بنِ الخطيم[١] في أمّ النعمان بن بشير، وهي عَمْرةُ بنتُ رَوَاحةَ أختُ عبدِ الله بنِ رواحة[٢]؛ قال: فأشِير إلى عَزّة أنها أمّه فأسكت؛ فقال: غنّيني فوالله ما ذكر إلا كرمًا وطِيبًا ولا تغنّي سائر اليوم غيرَه؛ فلم تزل تغنّيه هذا اللحن حتى انصرف.

ومنهم حسّان بن ثابت الأنصاريّ رضي الله عنه، روى أبو الفرج الأصفهانيّ بسنده إلى محرزِ بنِ جعفرٍ قال: خَتَن[٣] زَيْد بن ثابت[٤] بنيهِ وأولم واجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامّةُ أهل المدينة، وحضر حسانُ بنُ ثابت وقد كُفّ بصرُه يومئذ وثَقُل سمعه فوُضع بين يديه خِوَانٌ[٥] ليس عليه غيره إلا عبدُ الرحمـٰن ابنُه، وكان يسأله كلما وُضِعت صحفةٌ أطعامُ يدٍ أو يدَيْنِ؟ فلم يزل يأكل حتى جِيء بشِواءٍ، فقال: أطعام يد أم يدينِ؟ فقال: بل طعام يدين، فأمسك يده؛ حتى إذا فُرِغ من الطعام ثُنِيت وِسادةٌ وأقبلت عَزّةُ المَيْلاء وهي إذًا شابّة، فوُضع في حجرها مِزْهَر[٦] فضرب به وتغنّت، فكان أوّل ما ابتدأت به شِعر حسّان: [من الطويل]

فــلا زال قَــصْــرٌ بــيــن بُــصْــرَى[٧] وجِــلَّقٍ[٨]
عـلـيـه مــن الـوَسْـمِـيّ[٩] جَـوْدٌ[١٠] ووابـلُ[١١]

فطَرِب حسان وجعلت عيناه تنضحانِ[١٢] على خدّيه وهو مُصغٍ لها.

وروى أيضًا بسنده إلى خارجةَ بن زيدٍ[١٣] أنّه قال: دُعِينا إلى مأدُبة في آل نُبَيْط، فحضرنا وحضر حسان بن ثابت، فجلسنا جميعًا على مائدة واحدة وهو يومئذ

---

(١) قيس بن الخطيم: شاعر جاهلي من الأوس عاش في المدينة، وانتصر لقبيلته الأوس ضدّ الخزرج. له ديوان شعر. ومات نحو ٦٢٠ م.
(٢) عبد الله بن رواحة: صحابي أنصاري خزرجي، شاعر دافع عن المسلمين، استشهد في غزوة مؤتة، وكان حامل لواء. وذلك سنة ٨ هـ/ ٦٢٩ م. انظر: السيرة النبويّة ٢/٤٥٨.
(٣) ختن الولد: نزع غرلته.
(٤) زيد بن ثابت: أنصاري خزرجي من أكابر الصحابة وأعلمهم بالفرائض. تعلم السريانيّة والعبريّة بأمر من الرسول ﷺ، كانت وفاته سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥ م. انظر: شذرات الذهب ١/٥٤.
(٥) الخوان: ما يؤكل عليه.
(٦) المزهر: آلة موسيقية تشبه العود.
(٧) بصرى: ببلاد الشام قريبة من حوران.
(٨) جلّق: هي الشام نفسها.
(٩) الوسميّ: مطر يأتي في الربيع.
(١٠) الجود: المطر الرخيّ الغزير.
(١١) الوابل: المطر الشديد.
(١٢) تنضحان: تسيلان.
(١٣) خارجة بن زيد: من كبار التابعين، وأحد الفقهاء السبعة. توفي سنة ٩٩ هـ/ ٧١٧ م. انظر: شذرات الذهب ١/١١٨.

قد ذهب بصرُه ومعه ابنه عبد الرحمٰن، وكان إذا أُتِيَ بطعام سأل ابنَه عبد الرحمٰن أطعام يد أم طعام يدين؟ (يعني بطعام اليد الثريد، وطعام اليدين الشواء، لأنه ينهش نهشًا)، فإذا قال: طعام يد أكل، وإذا قال: طعام يدينِ أمسك يده؛ فلما فرغوا من الطعام أتَوْا بجاريتين مغنّيتين إحداهما «رائقة» والأخرى «عَزّة» فجلستا وأخذتا مِزْهَريهما وضربتا ضربًا عجيبًا وغنّتا بقول حسان بن ثابت: [من المنسرح]

أُنظر خليلي بباب جِلَّقَ هل تُؤنِس دون البَلْقاءِ[١] من أحَدِ

قال: فأسمعُ حسانَ يقول: قد أراني هناك سمعيًا بصِيرًا، وعيناه تدمعان، فإذا سكتتا سكن عنه البكاء وإذا غَنّتا يبكي. قال: وكنت أرى عبد الرحمٰن ابنه إذا سكتتا يشير إليهما أن غنّيا، فيبكي أبوه، فيُقال: ما حاجتُه إلى بكاء أبيه!

وروى أيضًا بسندهِ إلى عبّاد بن عبد الله بن الزُّبَيْر عن شيخٍ من قريش قال: إني وفِتْية من قريش عندَ قَيْنةٍ ومعنا عبد الرحمٰن بنُ حسّان بن ثابت إذ استأذن حسان، فكرِهنا دخولَه وشقّ علينا؛ فقال لنا عبد الرحمٰن ابنه: أيسرُّكم ألّا يجلس؟ قلنا: نعم، قال: فمُرُوا هذه إذا نظرت إليه أن تُغنّي: [من الكامل]

أولادُ جَفْنةَ[٢] حَوْل قبرِ أبيهِمُ قبرِ ابنِ مارِيَةَ[٣] الكريم المُفْضِلِ
يُغْشَوْن[٤] حتى ما تَهِرُّ[٥] كلابُهم لا يسألون عن السواد المقبِلِ

قال: فغنّته، فواللهِ لقد بكى حتى ظنّنا أنه سيلفظُ نفسه، ثم قال: أفيكم الفاسِقُ؟ لعَمْري لقد كَرِهتم مجلسي اليوم، وقام فانصرف. وهذا الشعر لحسّان بن ثابت وهو مما امتدح به جَبَلَة بن الأيْهم[٦]، وهو من قصيدة طويلة منها قوله في مدح آلِ جفنة[٧]:

بِيضُ الوجوه كريمة أحسابهم شمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأوّلِ

ورَوى أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسيّ رحمه الله تعالى بسند رفعه إلى الحارث بن عبد الله بن العباس: أنه بينما هو يسير مع عُمر بن الخطاب رضي الله عنه

(١) البلقاء: من أعمال الأردن، قريبة من السّلط.
(٢) جفنة: أحد أجداد الملوك الغساسنة. (٣) ابن مارية: يريد به النعمان الملك.
(٤) يغشون: تطرق أبوابهم ويُقصدون. (٥) تهرّ: تشتدّ في النباح.
(٦) جبلة بن الأيهم: آخر ملوك الغساسنة في بادية الشام، شارك الروم في معركتي دومة الجندل واليرموك وانهزم معهم. توفي بالقسطنطينية سنة ٢٠ هـ/ ٦٤١ م.
(٧) آل جفنة: هم ملوك الغساسنة.

بطريق مكّة في خلافته ومعه مَنْ معه مِنَ المهاجرين والأنصار، ترنّم عمرُ ببيتٍ فقال له رجل من أهل العراق ـ ليس معه عراقيّ غيره ـ: غيرك فليقلْها يا أمير المؤمنين! قال: فاستحيا عمر وضرب راحلتَه[1] حتى انقطعتْ مِنَ الرَّكْب. قال المقدسي: ويزيد ذلك وضوحًا ـ وساق حديثًا بسند رفعه إلى يحيىٰ بن عبد الرحمـٰن ـ قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحجّ الأكبر، حتى إذا كان عمرُ بالرَّوْحاء[2] كلّم الناسُ رَبَاحَ بن المعترِف، وكان حسن الصوت بغناءِ الأعراب، فقالوا: أَسْمِعْنا وقَصِّر عنّا الطريق؛ فقال: إنّي أَفْرَقُ[3] من عمرَ، قال: فكلّم القومُ عمرَ. إنّا كلّمنا رباحًا أن يُسمِعَنا ويُقصِّر عنا طريقَ المسير فأبى إلّا أن تأذن له، فقال له: يا رباح، أَسْمِعهم وقصِّر عنهم المسير، فإذا أَسْحرت[4] فارفعْ واْحْدُهم[5] بشعر ضِرار بن الخطّاب؛ فرفع عَقِيرتَه يتغنّى وهم محرمون.

وروى أيضًا بسنده إلى يزيدَ بن أسلم عن أبيه: أن عمر رضي الله عنه مرّ برجل يتغنّى، فقال: إن الغناءَ زادُ المسافِر.

وروى سُفيان الثَّوْرِيّ وشُعْبة كلاهما عن أبي إسحـٰق السَّبِيعيّ عن عامر بن سعد البَجَليّ: أن أبا مسعود البدريّ، وقَرَظَةَ بن كعبٍ، وثابتَ بن يزيد، وهم في عُرْسٍ وعندهم غناء، فقلت: هذا وأنتم أصحابُ محمدٍ ﷺ! فقالوا: إنه رُخِّص لنا في الغناء في العرس والبكاء على الميّت في غير نوح؛ إلّا أن شعبة قال: ثابت بن وديعة مكان ثابت بن يزيد، ولم يذكر أبا مسعود.

وقال الإمام أبو حامد الغزاليّ رحمه الله تعالى عن أبي طالب المكيّ: سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شُعْبة، ومعاوية وغيرهم، وقال: قد فعل ذلك كثير من السَّلَف صحابيّ وتابعيّ بإحسان.

وروى الحافظ أبو الفضل المقدسيّ بسند رفعه إلى عمر بن أبي زائدة قال: حدّثتني امرأةُ عمرَ بنِ الأصمّ قالت: مررنا ونحن جَوَارٍ بمجلس سَعِيد بن جُبَيْر ومعنا

---

(١) الراحلة: الدابّة، والناقة خاصةً.
(٢) الرّوحاء: اسم موضع بعينه قريب من المدينة.
(٣) أفرق: أخاف.
(٤) أسحرت: دخلت في السَّحَر، وهو قبل الفجر.
(٥) احدهم: غنّ لهم حداءً.

جارية تغنّي ومعها دُفّ، وهي تقول: [من الطويل]

لئن فَتَنَتْني فهي بالأمس أَفْتنتْ سَعِيدًا فأمسَى قد قَلَى[1] كلّ مسلم
وألقَى مفاتيحَ القِراءةِ واشترى وِصال الغواني بالكتاب المُنَمْنَم[2]

فقال سعيد: تكذِبين تكذِبين.

ذكر مَن سمع الغناء من الأئمّة والعُبّاد والزهّاد

قالوا: وقد سمِع الغناءَ من الأئمة الإمامُ الشافعيُّ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ رحمهما الله تعالى، وغيرهما من أصحابهما. روى الحافظُ أبو الفضل محمد بن طاهر بن عليّ المقدسيّ رحمه الله تعالى بسندٍ رفعه إلى المَريسيّ، قال: مررنا مع الشافعيّ وإبراهيمَ بنِ إسماعيلَ على دار قومٍ وجاريةٌ تغنّيهم: [من الطويل]

خَليليَّ ما بالُ المطايا[3] كأنها نراها على الأعقاب بالقوم تَنْكِصُ[4]

فقال الشافعيّ: مِيلُوا بنا نسمع، فلما فَرَغت قال الشافعيّ لإبراهيمَ: أيُطربُك هذا؟ قال: لا، قال: فما لك حِسّ!.

وروى أيضًا بسندٍ رفعه إلى صالح بنِ أحمدَ بنِ حنبل قال: كنتُ أحبُّ السماعَ وكان أبي يكره ذلك، فواعدتُ ليلةً ابنَ الخبّازة، فمكث عندي إلى أن عَلِمتُ أنّ أبي قد نام، فأخذ يُغنّي، فسمعتُ خشفةً[5] فوقَ السطح، فصَعِدتُ، فرأيتُ أبي فوق السطح يسمع ما يُغنّى وذيله تحت إبطِهِ وهو يتبختُر كأنه يرقص. قال: وقد رويتُ هذه الحكاية أيضًا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل ـ وساق سندًا إليه ـ قال: كنت أدعو ابنَ الخبّازة وكان أبي ينهانا عن الغناء، وكنت إذا كان عندي كتمتُه من أبي لئلّا يسمع، فكان ذات ليلةٍ عندي وهو يقول: فعرَضَتْ لأبي عندنا حاجةٌ ـ وكانوا في زقاق ـ فجاء وسَمِعه يقول، فوقع في سَمْعه شيءٌ من قولِه، فخرجتُ لأنظرَ فإذا بأبي يترجّح[6] ذاهبًا وجائيًا، فرددتُ الباب ودخلت؛ فلما كان من الغد قال أبي: يا بنيّ، إذا كان مثل هذا فنعم الكلام ـ أو معناه ـ. قال أبو الفضل: وابن الخبّازة هذا هو أبو بكر محمد بنُ عبدِ الله بن يحيىٰ بن زكريّا الشاعر، وكان عاصَرَ أحمدَ ورثاه حين مات.

---

(١) قلى: أبغض. (٢) والمنمنم: المنقّط والمزخرف.
(٣) المطايا: الرواحل، وما يركب من الدوابّ عامّةً والجمال خاصةً.
(٤) تنكص: ترجع. (٥) الخشفة: الصوت والحركة.
(٦) يترجّح: يتمايل.

وروى أبو الفضل أيضًا بسند رفعه إلى أبي مُصْعَب[١] الزُّهْريّ أنّه قال: حضرتُ مجلس مالك بن أنَس فسأله أبو مصعب عن السّماع، فقال مالك: ما أدري، أهلُ العلم ببلدنا لا يُنكرون ذلك ولا يقعدون عنه ولا ينكره إلا غبيٌّ جاهل أو ناسك عِراقيٌّ غليظ الطبع. وقال أيضًا: أخبرنا أبو محمد التميميّ ببغداد قال: سألتُ الشريف أبا عليّ محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشميّ عن السماع، فقال: ما أدري ما أقول فيه، غير أني حضرت دارَ شيخنا أبي الحسن عبد العزيز بن الحارث التميميّ سنة سبعين وثلاثمائة في دعوة عَمِلها لأصحابه؛ حضرها أبو بكر الأَبْهَرِيّ شيخُ المالكيّة، وأبو القاسم الدّاركي شيخُ الشافعيّة، وأبو الحسن طاهرُ بن الحسن شيخُ أصحابِ الحديث، وأبو الحسن بنُ سمعونَ شيخُ الوعّاظ والزهّاد، وأبو عبد الله محمد بن مجاهد شيخُ المتكلّمين، وصاحبه أبو بكر الباقلّانيّ[٢] في دار شيخنا أبي الحسن التميميّ شيخ الحنابلة؛ فقال أبو عليّ: لو سقط السقف عليهم لم يبق بالعراق مَنْ يُفْتِي في حادثة يشبه واحدًا منهم، ومعهم أبو عبد الله غلام تامٌّ، وكان هذا يقرأ القرآن بصوت حَسَن، وربما قال شيئًا. فقيل له: قل لنا شيئًا؛ فقال لهم وهم يسمعون: [من البسيط]

خَطَّتْ أنامِلُها في بطن قرطاس[٣] ... رسالةً بعَبِير لا بأنقاسِ[٤]
أن زُرْ فَدَيتك لي من غير مُحتشمٍ ... فإنّ حبّك لي قد شاع في الناسِ
فكان قولي لمن أدّى رسالتها ... قف لي لأمشي على العينين والراسِ

قال أبو عليّ: فبعد أن رأيت هذا لا يمكنني أن أُفتِيَ في هذه المسألة بِحَظْر ولا إباحة.

وممن أحبّ السماعَ والغناءَ وسمعه من الزهّاد والعبّادِ والعلماءِ أبو السائب المخزوميّ. روى أبو الفرج الأصبهانيّ بسنده إلى صفيّةَ بنتِ الزُّبيرِ بن هشام قالت: كان أبو السائب المخزوميّ رجلًا صالحًا زاهدًا مُتقلّلًا يصوم الدهر، وكان أرقُّ خلقِ الله قلبًا وأشدُّهم غَزَلًا، فوجّه غلامَه يومًا يأتيه بما يُفْطِرُ عليه، فأبطأ الغلامُ إلى

(١) هو أحمد بن أبي بكر الزهريّ، من المدينة. روى الموطّأ عن مالك.
(٢) أبو بكر الباقلاني: واسمه محمد، قاضٍ ومتكلّم أشعري، من كبار علماء الكلام. ولد في البصرة وسكن بغداد. توجّه من قبل عضد الدولة سفيرًا إلى بلاد الروم فناظر ملكهم في القسطنطينية، كما ناظر علماءهم. من كتبه «إعجاز القرآن» و«الإنصاف» و«تمهيد الدلائل» و«مناقب الأئمّة» و«المِلل والنحل» و«دقائق الكلام». مات سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٣ م.
(٣) القرطاس: الورق. (٤) الأنقاس: المداد.

العَتَمة؛ فلما جاء قال له: يا عدوَّ نفسِهِ، ما أخّرك إلى هذا الوقت؟ قال: اجتزتُ ببابِ فلان فسمعت منه غناءً فوقفتُ حتى أخذته. فقال: هاته يا بُنيّ، فوالله لئن كنتَ أحسنتَ لأحْبُوَنَّك[١]، وإن كنتَ أسأت لأضربنّك، فاندفع يُغنّي بشعر كُثَيِّر[٢]: [من الطويل]

ولَمّـا عَـلَوْا شَـغْـبًـا[٣] تَـبَـيَّـنـتُ أنّـه
تَـقَـطَّـعُ مِـن أهـلِ الـحـجـازِ عـلائـقـي
فـلا زِلْنَ حَسْرَى[٤] ظُلَّعًا[٥] لـم حَـمَلْنـهـا
إلـى بـلـدٍ نـاءٍ قـلـيـلِ الأصـادقِ

فلم يزل يغنّيه ويستعيدُه إلى نصفِ الليل، فقالت له زوجتُه: يا هذا، قد انتصف الليلُ وما أفطرتَ. فقال لها: أنتِ الطلاقُ إن أفطرْنا على غيره، فلم يزل يغنّيه ويستعيدُه حتى أسحرَ. فقالت له: هذا السَّحَرُ وما أفطرنا. قال لها: أنت الطلاق إن كان سَحُورنا غيرَه؛ ثم قال لابنه: يا بُنيّ، خذ جُبّتي هذه وأعطني خَلَقَك ليكون الحِباءُ فضلَ ما بينهما. فقال له: يا أبتِ، أنت شيخ وأنا شابّ وأنا أقوى على البرد منك، فقال له: يا بُنيّ، ما ترك هذا الصوتُ للبرد عليّ سبيلًا ما حييتُ.

ويؤيّد هذه الحكايةُ ما حكاه أبو طالب المكيُّ في كتابه، قال: كان بعض السامعين يقتاتُ بالسماعِ لِيقوَى به على زيادةِ طَيّه، كان يَطْوِي اليومَ واليومين والثلاثة، فإذا تاقت نفسُه إلى القوتِ عدل بها إلى السماع، فأثار تواجدَه، فاستغنى بذلك عن الطعام.

وروى أبو الفرج بسندِهِ إلى عبد الله بن أبي مُلَيكةَ عن أبيه عن جدّه، قال: كان بالمدينة رجل ناسكٌ من أهل العلم والعفّة، وكان يَغْشَى عبدَ الله بن جعفر، فسمع

(١) أحبونّك: أعطيك.
(٢) كُثَيِّر: هو كُثَيِّر عَزَّة، عرف بها لأنه أحبّها حتى العبادة فهو من الشعراء العذريّين في الغزل. عاش في عصر بني أُمية، وأقام في المدينة. شعره رقيق للغاية، وفاته كانت سنة ٧٢٣ م، له ديوان شعر مشهور.
(٣) شغب: اسم موضع بعينه.
(٤) حسرى: حاسرات متلهفات حزينات.
(٥) ظلّعًا: فيهن عرج من الإعياء.

جاريةً مُغَنِّية لبعض النخاسِين[١] تُغنّي: [من البسيط]

بانت[٢] سعادُ وأمسى حَبْلُها انقطعا   واحتلّت الغَوْرَ[٣] فالجَدَّيْنِ فالفَرَعَا
وأنكرتْني وما كان الذي نَكِرت   من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

فهام الناسكُ وترك ما كان عليه، حتى مشى إليه عطاء وطاوُس ولاماه؛ فكان جوابُه لهما أن تمثّل: [من البسيط]

يلومني فيك أقوامٌ أُجَالسهم[٤]   فما أُبالي أطارَ اللّومُ أم وَقَعَا

فبلغ عبد الله بن جعفر خبرُه، فبعث إلى النخاس، فاعترض الجاريةَ وسمع غِناءها بهذا الصوت وقال: ممن أخذتيه؟ قالت: مِن عَزَّةَ المَيْلاء؛ فابتاعها بأربعين ألف درهم. ثم بعث إلى الرجل فسأله عن خبرها فأعلمه إيّاه؛ فقال: أتحبّ أن تسمعَ هذا الصوتَ ممن أخذتْه عنه تلك الجاريةُ؟ قال: نعم، فدعا عَزَّة المَيْلاءَ فقال: غنّيهِ إياه، فغنّته، فصَعِق[٥] الرجلُ وخرّ مَغْشِيًا عليهِ. فقال ابن جعفر: أَثِمْنَا فيهِ، الماءَ الماءَ! فنُضح[٦] على وجهِهِ. فلما أفاق قال له: أكلّ هذا بلغ بك عشقُها؟ قال: وما خَفِيَ عليك أكثر. قال: أفتحبّ أن تسمعه منها؟ قال: قد رأيتَ ما نالني حين سمعتُه من غيرها وأنا لا أحبّها، فكيف يكون حالي إن سمعتُه منها وأنا لا أقدِر على مِلْكها! فأخرجها إليه وقال: خذها فهي لك؛ ووالله ما نظرتُ إليها إلا عن عُرُضٍ. فقبّل الرجل يديهِ ورجليهِ وقال: أنَمْتَ عَيْنِي، وأحييتَ نفسي، وتركتني أعيش بين قومي، ورددتَ إليّ عقلي، ودعا له دعاء كثيرًا. فقال عبد الله: ما أرضى أن أُعطِيَكها هكذا، يا غلام، اْحمِلْ معه مثلَ ثمنِها، ففعل.

قال الغزاليّ رحمه الله في «إحياء علوم الدين»: كان ابن مجاهد لا يُجِيب دعوةً إلا أن يكون فيها سماع. قال: وكان أبو الخير العسقلانيّ[٧] الأسود من الأولياء يسمع ويَوْلَهُ عند السماع، وصنّف فيه كتابًا وردّ فيه على مُنكرِيهِ. وحُكي عن بعض الشيوخ أنّه قال: رأيت أبا العباس الخضرَ عليه السلام، فقلت: ما تقول

(١) النخّاسون: تجّار الجواري يقومون بعرضها للبيع.
(٢) بانت: فارقت وبَعُدت.
(٣) الغور والحدّين والفرع: أسماء مواضع بعينها.
(٤) أجالسهم: أعاشرهم.
(٥) صعق: أُصيب بما يشبه الصاعقة من الذهول والدهشة والخوف.
(٦) نُضح: رُشّ عليه الماء.
(٧) العسقلاني: نسبة إلى عسقلان بفلسطين.

في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابُنا؟ قال: هو الصَّفَا الزَّلّال[١] الذي لا تثبُت عليهِ إلا أقدامُ العلماء.

وروى الأصفهانيّ بسند رفعه إلى ابن كُناسةَ قال: اصطحب شيخٌ مع شابٍّ في سفِينة في الفُرَات ومعهم مغنّية، فلما صاروا في بعض الطريق قالوا للشيخ: معنا جاريةٌ وهي تغنّي، فأحببنا أن نَسمع غناءها فهِبْناكَ، فإن أذِنْتَ فَعلْنا. فقال: أنا أصعَدُ على أطلال السفينة، فاصنعوا أنتم ما شئتم؛ فصَعِد وأخذت المغنّيةُ عودَها وغنّت: [من السريع]

حـتـى إذا الـصـبـح بـدا ضـوؤُهُ وغـابـت الـجـوزاء[٢] والـمِـرْزَمُ[٣]

أقـبـلتُ والـوطءُ خَـفِـيٌّ كـمـا يـنـسـابُ مـن مَـكْـمَـنـه الأرْقَـمُ[٤]

فطرِب الشيخُ وصاح، ثم رمى بنفسِهِ وبثيابِهِ في الفُرَات وجعل يغوصُ ويطفو ويقول: أنا الأرقمُ أنا الأرقم! فألقَوْا أنفسَهم خلفَه، فبعد لأيٍ[٥] مّا استخرجوه، وقالوا: يا شيخُ، ما حملك على ما فعلت؟ فقال: إليكم عنّي، فإني أعرِف من معاني الشعر ما لا تعرِفون. فقالوا له: ما أصابك؟ قال: دبّ من قدمي شيءٌ إلى رأسي كدبيبِ النَّمْل ونزل من رأسي مثلُه، فلما اجتمعا على قلبي عَمِلتُ ما عَمِلتُ.

وقال أحمد بن أبي دُواد[٦]: كنتُ أعِيبُ الغناءَ وأطعُنُ على أهله؛ فخرج المعتصمُ يومًا إلى الشَّمَّاسيّة[٧] في حَرّاقة[٨]، ووجّه في طلبي فصِرتُ إليه، فلما قَرُبتُ منه سمعتُ غناء حيَّرني وشَغَلني عن كلّ شيء، فسقط سَوْطي عن يدي، فالتفتُّ إلى غلامي أطلب منه سوطًا؛ فقال لي: قد والله سقط منّي سوطي، فقلت له: أيّ شيء كان سببَ سقوطه؟ قال: صوت سمعته فحيّرني، فما علمتُ كيف سقط، فإذا قِصّتهُ قِصّتي. قال: وكنتُ أُنكر أمرَ الطّربِ على الغناء وما يستفزُّ الناسَ منه فيغلب على

---

(١) الصفا الزلال: الحجارة الملسى العريضة والناعمة.

(٢) الجوزاء: كويكبة معروفة في السماء الشمالية يطلق عليها اسم كوكبة الجبّار.

(٣) المرزم: واحد المرزمين وهما مع الشعريين العبور والغميصاء، من نجوم المطر.

(٤) الأرقم: الثعبان. (٥) اللأي: الجهد والتعب.

(٦) أحمد بن أبي دؤاد: قاضٍ معتزليّ، ولد في البصرة، قرّبه إليه المأمون، وجعله المعتصم قاضي القضاة. توفي سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م.

(٧) الشماسيّة: الموضع الذي كان يقيم فيه المعتصم.

(٨) الحرّاقة: ضرب من المراكب النهريّة.

عقولهم، وأناظرُ المعتصمَ عليه، فلما دخلتُ عليه يومئذ أعلمتُه بالخبر، فضحك وقال: هذا عمّي كان يغنّيني: [من الخفيف]

إنّ هذا الطويل من آل حَفْصٍ   أَنْشَرَ[١] المجدَ بعد ما كان ماتا

فإن تُبتَ مما كنتَ تناظر عليه من ذمّ الغناء سألته أن يُعيده، ففعلتُ وفعل، فبلغ بي الطربُ أكثر مما يبلغُه من غيري، ورجعتُ عن رأيي منذ ذلك اليوم. وعمُّه الذي أشار إليه هو إبراهيم بن المهديّ[٢].

ذكر مَنْ غنّى من الخلفاء وأبنائهم ونُسِبت له أصواتٌ من الغناء نُقِلَتْ عنه

كان مَنْ غنَّى من الخلفاء ـ على ما أورده أبو الفرج الأصفهانيّ في كتابه المترجم بـ «الأغاني» ـ ونسِبت له أصواتٌ جماعةٌ، منهم عمر بن عبد العزيز قد نُسِبَتْ له أصواتٌ، ومنهم من أنكر ذلك. ولعلّ ما نُقل عنه كان منه قبل الخلافة. وكان رحمه الله من أحسن الناس صوتاً، فكان مما نسب إليه من الغناء: [من مجزوء الرمل]

عَلِقَ القلبُ سُعَادا   عادت القلبَ فعادا
كُلّما عُوتب فيها   أو نُهِيَ عنها تمادى[٣]
وهو مشغوفٌ[٤] بسُعْدَى   وعَصَى فيها وزادا

ومما نُسب إليه من الغناء ما قيل إنه غنّاه من شعر جرير[٥]: [من الوافر]

قِفا يا صاحِبيّ نَزُرْ سُعَادَا   لِوَشْك فِراقها ودَعَا البِعادا
لعَمْرُكَ إنَّ نَفْعَ سعادَ عنّي   لمصروفٌ ونفعي عن سعادا
إلى الفاروق[٦] ينتسِب ابنُ ليلى   ومَرْوانُ الذي رفع العِمادا

(١) أنشر: بعث من جديد، وأحيا.
(٢) إبراهيم بن المهديّ: عمّ المأمون وأخو هارون الرشيد، بويع له بالخلافة في غياب المأمون بخراسان. ولما عاد المأمون إلى بغداد عفا عنه. ولقد اشتهر إبراهيم بالغناء، وكانت وفاته سنة ٢٢٤ هـ/ ٨٣٩ م.
(٣) تمادى: أسرف واستمرّ في حبّه.
(٤) مشغوف: مفتون.
(٥) جرير: شاعر أموي مشهور، كنيته أبو حرزة. اشتهر بالهجاء ولا سيما هجاء الأخطل والفرزدق، ضمن شعره الهجاء والمدح والفخر والغزل والرثاء. مات سنة ٧٣٣ م.
(٦) الفاروق: صفة للخليفة عمر بن الخطاب، ومعناها الذي يفرق بين الحق والباطل.

ومن ذلك ما قيل إنّه غنّاه من شعر الأشهب بن رُمَيْلة: [من الوافر]

ألا يا دِينَ قلبُك من سلَيمى ... كما قد دِينَ قلبُك من سعادَا

هما سَبَتا الفؤاد[1] وهاضتاه[2] ... ولم يُدرِك بذلك ما أرادَا

قِفا نَعرِف منازلَ مِنْ سُليمى ... دَوَارِسَ[3] بين حَوْمَلَ أو عُرَادَا[4]

ذكرتُ لها الشباب وآل ليلى ... فلم يزد الشبابُ بها مَزَادَا

فإن تَشِب الذوائبُ[5] أمَّ عمرٍو ... فقد لاقيتُ أيامًا شِدادَا

وممّن غنّى من خلفاء الدولة العباسيّة، ممن دُوِّنت له صنعة، الواثقُ بالله[6] أبو جعفر هارون بن المعتصم بالله بن الرشيد. حكى أبو الفرج الأصفهانيّ بسند رفعه إلى إسحٰقَ بنِ إبراهيمَ الموصليّ قال: دخلتُ يومًا دارَ الواثقِ بالله بغير إذنٍ إلى موضع أمَر أن أدخلَه إذا كان جالسًا، فسمعت صوتَ عُودٍ من بيت وترنُّمًا لم أسمع أحسنَ منه. فأطْلع خادمٌ رأسَه ثم ردّه وصاح بي، فدخلت وإذا أنا بالواثق بالله. فقال: أيَّ شيءٍ سمعتَ؟ فقلت: الطلاق كامل لازمٌ له وكلّ مملوك له حرّ، لقد سمعتُ ما لم أسمع مثلَه قطُّ حُسْنًا! فضحك وقال: وما هو؟ إنما هذه فَضْلة أدب وعلم مدحه الأوائلُ واشتهاه أصحابُ رسول الله ﷺ والتابعون بعدهم وكَثُر في حَرَم الله عزّ وجلّ ومُهَاجَر[7] رسول الله ﷺ، أتحبُّ أن تسمعه؟ قلت: إي والله الذي شرّفني بخطابك وجميل رأيك. فقال: يا غلامُ، هات العودَ وأعط إسحٰقَ رطلًا؛ فدفع الرطلَ إليّ وضرب وغنّى في شعر لأبي العتاهية[8] بلحن صنعه فيه: [من البسيط]

أضحت قبورُهُمُ من بعد عِزّتهم

تَسْفِي[9] عليها الصّبا[10] والحَرْجَفُ[11] الشَّمِلُ

---

(١) سبتا الفؤاد: أسرتاه.

(٢) هاضتاه: كسرتاه وأضعفتاه.

(٣) دوارس: بالية.

(٤) حومل وعراد: اسما موضعين بعينهما.

(٥) الذوائب: جمع ذؤابة، وهي الخصلة من الشعر.

(٦) الواثق بالله، هارون بن المعتصم، خليفة عباسي شغل بالاختلافات الكلامية وناصر المعتزلة وامتحن الناس في خلق القرآن. مات سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٧ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣١٢.

(٧) مهاجره: مكان هجرته، والمقصود المدينة المنوّرة.

(٨) أبو العتاهية: سبق التعريف به.

(٩) تسفي: تذري.

(١٠) الصبا: اسم لريح الشرق.

(١١) الحرجف: الريح الباردة.

لا يَـدفـعـون هـوامًـا[١] عـن وُجُـوهِـهِـمُ
كـأنـهـم خَـشَـبٌ بـالـقـاعِ مُـنـجـدِلُ[٢]

فشربتُ الرطل ثم قمتُ. فدعوتُ له، فاحتبسني وقال: أتشتهي أن تسمعَه بالله؟ قلتُ: إي والله، فغنّانِيهِ ثانية وثالثةً، وصاح ببعض خدمِه وقال: اِحمِلْ إلى إسحٰقَ الساعةَ ثلاثمائة ألف درهم. قال: يا إسحٰقُ، قد سَمِعتَ ثلاثة أصوات وشربتَ ثلاثة أرطال وأخذتَ ثلاثمائة ألف درهم، فانصرفْ إلى أهلك مسرورًا ليُسرُّوا معك، فانصرفتُ بالمال. وقال أبو الفرج بسنده إلى عَرِيب[٣] المأمونيّة قالت: صنع الواثق بالله مائة صوت ما فيها صوت ساقط. ولقد صنع فيَّ هذا الشعرَ: [من البسيط]

هل تَعلَمين وراءَ الحبِّ منزلةً تُدني إليكِ فإن الحبّ أقصاني[٤]
هذا كتابُ فتًى طالت بليّتُه[٥] يقول يا مُشتَكَى بثّي[٦] وأحزاني

قال: وكان الواثق بالله إذا أراد أن يَعرضَ صِنعَته على إسحٰق نسبها إلى غيره فقال: وقع إلينا صوتٌ قديمٌ من بعض العجائز فاسمعه، وأمر مَن يغنّيه إياه. وكان إسحٰق يأخذُ نفسه بقول الحقّ في ذلك أشدّ أخذ، فإن كان جيّدًا رَضِيَهُ واستحسنه وإن كان فاسدًا أو مُطَّرَحًا أو متوسّطًا ذكر ما فيه. فإن كان للواثق فيه هوًى سأله تقويمَه وإصلاحَ فاسدِهِ وإلّا اطَّرحه. وقال إسحٰق بن إبراهيم: كان الواثق أعلم الناس بالغناءِ، وبلغت صنعته مائة صوت، وكان أحذق[٧] مَنْ غنَّى بضرب العود، ثم ذكر أغانيَه. وذكر أبو الفرج الأصفهانيّ منها أصواتًا؛ منها: [من الطويل]

ولـم أرَ لَيْـلَى غـيـرَ مَـوْقِـفِ لَيْـلةٍ بخَيْفِ مِنًى[٨] تَرْمِي جِمارَ المُحَصَّبِ[٩]
ويُبْدِي الحَصَى منها إذا خَذَفَتْ به مِن البُرْدِ أطرافَ البنانِ المُخَضَّبِ

---

(١) الهوام: ما لا يتماسك من الرمل فهو ينهار أبدًا.
(٢) منجدل: منصرع.
(٣) عريب: ويقال لها عريب المأمونية، شاعرة مغنية قرّبها المأمون فنسبت إليه. عشقها إبراهيم بن المدبّر، وراسلها وراسلته.
(٤) أقصاني: أبعدني.
(٥) بليّته: معاناته ومصابه.
(٦) البثّ: أشد الحزن والوجع.
(٧) أحذق: أمهر.
(٨) خيف مِنًى: اسم موضع بمِنًى، وفيها مسجد مشهور يعرف بمسجد الخَيْف.
(٩) جمار المحصّب: الحجارة الصغيرة التي يحصب بها الشيطان بمِنًى.

ألا إنـــمـــا غـــادَرْتِ يـــا أمّ مـــالِكٍ صدًى أيْنما تَذْهَبْ به الريحُ يَذْهَبِ

وأصبحتُ مِن لَيْلَى الغَدَاةَ كناظرٍ مع الصبحِ في أعجازِ[1] نَجْمٍ مُغَرِّبِ

وذكر أصواتًا كثيرة غير هذا تركنا ذكرها اختصارًا.

قال: ولما خرج المعتصِمُ إلى عَمُّورِيَّةَ[2] استخلف الواثقَ، فوجّه الواثقُ إلى الجلساء والمغنّين أن يُبَكِّروا إليه يومًا حدّه لهم، ووجّه إلى إسحٰق، فحضر الجميع. فقال لهم الواثق: إني عزمتُ على الصَّبوح[3]، ولستُ أجلس على سريرٍ حتى أختلط بكم ونكون كالشيء الواحد، فاجلسوا معي حَلْقة، وليكن إلى جانبِ كلّ جليسٍ مُغنّ، فجلسوا كذلك. فقال الواثق: أنا أبدأ، فأخذ العود فغنّى وشربوا وغنّى مَن بعده، حتى انتهى إلى إسحٰق وأُعْطِي العودَ فلم يأخذه؛ فقال: دعوه. ثم غنّوْا دورًا آخر؛ فلما بلَغ الغناءُ إلى إسحٰق لم يُغنّ وفعل ذلك ثلاث مرّات. فوثب الواثق فجلس على سريره وأمر بالناس فأُدْخِلوا؛ فما قال لأحد منهم: اجلسْ. ثم قال: عليّ بإسحٰق؛ فلما رآه قال: يا خُوزِيّ[4] يا كلبُ، أتَبَذَّلُ لك وأُغنّي فتترفّع عليّ! أتُراني لو قتلتك كان المعتصِم يُقِيدُني[5] بك! ابطَحوه، فبُطِح وضُرِب ثلاثين مِقْرعة[6] ضربًا خفيفًا وحلف لا يُغنّي سائر يومه سِواه، فاعتذر وتكلّمت الجماعةُ فيه؛ فأخذ العود، وما زال يغنّي حتى انقضى مجلسه. وللواثق بالله في الغناء أخبار وحكايات يطول بذكرها الشرح.

ومنهم المنتصرُ بالله[7] أبو جعفر محمد بن المتوكل على الله أبو الفضل جعفر. قال يَزِيد المهلّبيّ: كان المنتصر حَسَن العلم بالغناء، وكان إذا قال الشعر صَنَع فيه وأمر المغنّين بإظهاره، فلما وَلِيَ الخلافةَ قطع ذلك وأمر بستر ما تقدّم منه؛ فلذلك لم تظهر أغانِيه.

---

(١) أعجاز: أواخر.

(٢) عمورية: مدينة بيزنطية في آسيا الصغرى، فتحها الأفشين قائد المعتصم في معركة مشهورة وذلك سنة ٨٣٨ م.

(٣) الصبوح: خمرة الصباح.

(٤) الخوزي: المنسوب إلى خوزستان جنوب شرقي العراق ببلاد فارس.

(٥) يقيدني: يثأر منّي.

(٦) المقرعة: الآلة التي يقرع بها ويضرب.

(٧) المنتصر بالله: محمد بن المتوكّل، الخليفة العباسي الحادي عشر. تآمر مع الأتراك فاغتال والده. قتله الأتراك بالسمّ سنة ٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٤.

ومنهم المعتزُّ بالله[١] أبو عبد الله محمد بن جعفر المتوكّل. ذِكر أيضًا أنه كان يغنّي أصواتًا، فممّا غنّى به في شعر عديّ بن الرّقّاع[٢]: [من المتقارب]

لَعَمْرِي لقد أَصْحَرتْ[٣] خَيْلُنا بـأَكْـنـافِ[٤] دِجْـلَةَ لـلْمُـصْـعَـبِ
فـمَـن يـك مـنّـا يَـبِـتْ آمـنًـا ومَـنْ يـك مـن غـيـرنـا يَـهْـرُبِ

وهذه الأبيات من قصيدة لعديّ بن الرّقاع قالها في الوقعة التي كانت بينَ عبدِ الملك بن مروان ومُصْعَبِ بن الزُّبير[٥] وقُتِل فيها مصعب بن الزبير، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار عبد الله بن الزبير.

ومنهم المعتمد على الله[٦] أبو العباس أحمد بن المتوكّل على الله، هو ممن له يدٌ في الغناء وصنعةٌ حسنة. ومما نُقِل عنه من أغانيه أنه غنّى في شعر الفرزدق: [من البسيط]

ليس الشفيعُ الذي يأتيكَ مؤتزِرًا[٧] مِثلَ الشفيع الذي يأتيك عُرْيَانًا

وقـال عُـبـيـد الله بـن عـبـد الله بـن طـاهـر[٨]: إن الـمـعـتـضِـد[٩] جـمـع الـنـغـم الـعـشـر فـي صـوت صـنـعـه فـي شـعـر دُرَيـد بـن الـصِّـمَّـة[١٠] وهـو:

---

(١) المعتزّ بالله: محمد بن المتوكّل، هو الخليفة الثالث عشر من خلفاء بني العباس. تولّى بعد عزل المستعين. عزله القادة الأتراك وقتلوه سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م.

(٢) عدي بن الرقاع، العاملي، شاعر أموي دمشقي هاجى عددًا من شعراء زمانه. مدح الوليد بن عبد الملك، وكانت وفاته نحو سنة ٧١٤ م.

(٣) أصحرت: برزت إلى الصحراء. (٤) أكناف: أنحاء وجوانب.

(٥) مصعب بن الزبير أخو عبد الله بن الزبير ونائبه في العراق. قاوم الخوارج وقضى على المختار الثقفي سنة ٦٨٧ م. قتله عبد الملك بن مروان في معركة دير الجاثليق سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م.

(٦) المعتمد على الله: أحمد بن المتوكل، الخليفة العباسي الخامس عشر. انتصر على الزنج وحارب البيزنطيّين. أعاد العاصمة إلى بغداد من سامرّاء، توفي مسمومًا سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٨.

(٧) المؤتزر: لابس الإزار، ويخلافه العريان.

(٨) عبد الله بن طاهر، من أشهر الولاة في عهد المأمون العباسي. وطّد الأمن في مصر. خلف أخاه طلحة في حكم خراسان. توفي سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م. انظر: الفهرست ص ١٧٠.

(٩) المعتضد بالله، أحمد بن الموفق، الخليفة العباسي السادس عشر. عقد صلحًا مع خمارويه الطولوني، واقترن بابنته. هزم جيش أبو سعيد الجنابي. كانت وفاته سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣٢٠.

(١٠) دريد بن الصمّة: شاعر جاهلي وفارس من هوازن، قاتل المسلمين فقتل بوقعة حنين سنة ٦٣٠ م.

[من مجزوء الرجز]

يا ليتني فيها جَذَعْ[١] أَخُبّ[٢] فيها وأَضَعْ

قال: واستعلمني هل هو صحيح القسمة والأجزاء أم لا، فعرّفته صحّته ودللته على ذلك حتى تيقّنه فسرّ به. قال عبيد الله: وهو لعَمْري من جيّد الصنعة ونادرها. قال: وقد صنع ألحانًا في عدّة أشعار قد صنع فيها الفحول من القدماء والمُحْدَثِين وعارضهم بصنعتِهِ فأحسن وشاكل[٣] وضاهى فلم يعجز ولا قصّر، ولا أتى بشيءٍ يُعتذر منه. قال: فمن ذلك أنه صنع في قول الشاعر: [من البسيط]

أما القَطاةُ[٤] فإني سوفَ أنعتُها نعتًا يوافق نعتي بعضَ ما فيها

فجاء في نهاية الجَوْدة وهو أحسن ما صُنِع في هذا الشعر على كثرة الصنعة فيه واشتراكِ القدماء والمُحْدَثين في صنعته مثل مَعْبد ونَشِيط ومالك وابن مُحْرِز وسِنَان وعُمَر الوادي وابن جامع وإبراهيم وابنه إسحٰق وعلّوية[٥].

قال: وصنع في: [من الطويل]

تَشَكّى الكُمَيتُ[٦] الجَرْيَ لمّا جَهدتُهُ وبَيّن لو يَسْطِيع[٧] أن يَتَكَلّمَا

فما قَصّر في صنعته ولا عَجَز عن بلوغ الغاية فيها مع أصوات له صنعها تُنَاهِز مائة صوت ما فيها ساقط ملا مرذول. فهؤلاء الذين لهم صنعةٌ في الغناء من الخلفاء.

* * *

وأما أبناء الخلفاءِ الذين لهم صنعة بدٌّ في هذا الفنّ.

فمنهم إبراهيم بن المهديّ وأخته عُلَيّة بنت المهديّ رحمهما الله تعالى، وإبراهيم يُكنّى أبا إسحٰق أمُه شِكْلَةُ أَمَةٌ[٨] مولّدة[٩] كان أبوها من أصحاب المازيار يقال له:

---

(١) الجذع: الشاب الحدث. (٢) أخبّ: أعدو خببًا.
(٣) شاكل: ماثل وناظر.
(٤) القطاة: ضرب من الحمام البرّي، وجمعه القطا.
(٥) معبد، ونشيط، ومالك، وابن محرز، وسنان، وعمر الوادي، وابن جامع، وإبراهيم الموصلي، وابنه إسحٰق وعلّويه، جميعًا هم من المغنّين العباسيّين المشهورين.
(٦) الكميت: صفة للفرس. (٧) يسطيع، أصلها: يستطيع.
(٨) الأمة: الجارية.
(٩) المولّدة: المولودة بين العرب، الناشئة مع أولادهم، والمتأدّبة بآدابهم.

شاه أفرند قتل مع المازيَار وسُبِيَت شكلة فحُمِلت إلى المنصور فوهبها لمُحيّاة أمّ ولدِهِ فربّتها وبعثت بها إلى الطائف فنشأت هناك، فلما كَبِرَت رُدّت إليها. فرآها المهديّ فأعجبته فطلبها من مُحيّاةَ فأعطته إيّاها فولدت له إبراهيم.

قال أبو الفرج الأصفهانيّ بسند رفعه إلى إسحٰق بن إبراهيم، قال:

كان إبراهيم بن المهديّ أشدَّ خلقِ الله إعظامًا للغناء وأحرصَهم عليه وأشدّهم منافسةً فيه. قال: وكان صنعتُه ليّنةً فكان إذا صنع شيئًا نسبه إلى غيره لئلا يقع عليه طعنٌ أو تقريعٌ فقلّتْ صنعتُه في أيدي الناسِ مع كثرتها. وكان إذا قيل له فيها شيء يقول: إنما أصنع تطرّبًا لا تكسّبًا وأُغنّي لنفسي لا للناس فأعملُ ما أشتهي. قال: وكان حُسْن صوته يستر عَوَارَ[1] ذلك. وكان الناس يقولون: لم يُرَ في جاهليّةٍ ولا إسلام أخٌ وأخت أحسن غناءً من إبراهيم بن المهديّ وأخته عُلَيّة. وكان إبراهيم يجادِل إسحٰقَ ويأخذ عليه في مواطن كثيرة إلّا أنه كان لا يقوم له ويُظْهِر إسحٰقُ خطأه. ووقع بينهما في ذلك بين يدي الرشيد وفي مجلسه كلامٌ كثير أفضى إلى أُمور نذكرها إن شاء الله تعالى في أخبار إسحٰق بن إبراهيم.

وكان إبراهيم بن المهديّ في أوّل أمرِه يتستّر في الغناء بعض التستّر إلّا أنه يذكره في مجلس الرشيد أخيه، فلما كان من أمره في الوثوب على الخلافة ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة العباسيّة عند ذكرنا لخلافة المأمون بن الرشيد، ثم لمّا أمّنه المأمون بعد هربه منه تَهتّك[2] بالغناء ومشى مع المغنّين ليلًا إذا خرجوا من عند المأمون، وإنما أراد المأمون بذلك ليظهِر للناس أنه قد خلع رِبقةَ[3] الخلافة من عنقه وأنه تهتّك فلا يصلح للخلافة. وكان من أعلم الناس بالنغم والوَتَرِ والإيقاعاتِ وأطبعِهم في الغناء وأحسنهم صوتًا. وكان مع علمه وطبعه ومعرفته يقصِّر عن الغناء القديم وعن أن يَنْحُوَه في صنعته. فكان يحذِف نغم الأغاني الكثيرةَ العمل حذفًا شديدًا ويحقِّقها على قدر ما يصلح له ويفِي بأدائه فإذا عِيب ذلك عليه، قال: أنا ملِك وابن ملِكٍ وإنما أغنّي على ما أشتهِي وكما ألتَذّ، فهو أوّل من أفسد الغناء القديم.

ورُوِي عن حمدون بن إسماعيل قال: قال إبراهيم بن المهديّ: لولا أنّي أرفع نفسي عن هذه الصناعة لأظهرتُ منها ما يعلم الناسُ معه أنهم لم يروْا قبلي مثلي.

---

(١) العوار: العيب.

(٢) تهتّك: فعل المنكر والفجور.

(٣) ربقة: نير، وحبل.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ عن جعفر بن سليمان الهاشميّ قال: حدّثنا إبراهيم بن المهديّ قال:

دخلت يومًا على الرشيد وبي فَضْلَةُ خُمارٍ[١] وبين يديه ابنُ جامعٍ وإبراهيمُ الموصِليّ فقال: بحياتي يا إبراهيم غنّ، فأخذتُ العودَ ولم ألتفتْ إليهما لماَ في رأسي من الفَضْلة فغنّيْتُ: [من الكامل]

أسْرَى[٢] بخالِدةَ الخيالُ ولا أرَى	شيئًا ألذَّ من الخيال الطارِقِ[٣]
إنَّ البليَّةَ مَنْ تَملّ حديثَه	فانْقَعْ فؤادَك من حديث الوامق[٤]
أهْواكِ فوق هَوَى النفوس ولم يزل	مذ بِنتِ قلبي كالجَناحِ الخافِقِ
شوقًا إليك ولم تجازِ مودّتي	ليس المكذّب كالحبيب الصادِقِ

فسمعتُ إبراهيم يقول لابن جامع: لو طلَب هذا بهذا الغناء ما نطلب لما أكلنا خبزًا أبدًا، فقال ابن جامع: صدقتَ، فلما فرغتُ من غنائي وضعتُ العود ثم قلت: خذا في حقّكما ودعا باطلَنا.

ورُوِيَ عن إبراهيم قال:

كان الرشيد يحبّ أن يَسمَعَني فخلا بي مَرّات إلى أن سَمِعَني، ثم حضرتُه مرّةً وعنده سليمانُ بنُ أبي جعفر فقال لي: عمُّك وسيّدُ ولد المنصور بعد أبيك وقد أحبَّ أن يَسمعك، فلم يتركني حتى غنّيتُ بين يديه: [من البسيط]

سَقْيًا لربعكِ مِن رَبْعٍ بذي سَلَمِ[٥]	وللزمانِ بهِ إذ ذاكَ من زمَنِ
إذ أنتِ فينا لمن يَنهَاكِ عاصِيةٌ	وإذ أجُرُّ إليكم سادِرًا[٦] رَسَنِي

فأمر لي بألف ألف درهم، ثم قال لي ليلةً ولم يَبْق في المجلس عنده إلا جعفر بن يحيىٰ: أنا أحبّ أن تُشرّف جعفرًا بأن تُغَنّيَه صوتًا فغنّيتُه لحنًا صنعتُه في شعر الدّارِمي[٧]: [من البسيط]

كأنّ صورتها في الوصفِ إذ وُصِفت	دينارُ عَيْنٍ من المضروبةِ[٨] العُتُقِ

---

(١) الخمار: السكر، وذهاب العقل.
(٢) أسرى بها: ذهب بها ليلًا.
(٣) الطارق: الزائر ليلًا.
(٤) الوامق: المحبّ.
(٥) ذي سلم: اسم موضع بعينه.
(٦) سادرًا: متحيّرًا.
(٧) الدارمي: ولقبه مسكين، شاعر عراقي مدح بني أُميّة، مات سنة ٧٠٨ م، أما اسمه الحقيقي فهو ربيعة بن عامر من بني دارم.
(٨) المضروبة: المسكوكة.

فأمر لي الرشيد بألف ألف درهم.

وحُكِيَ عن إسحٰق بن إبراهيم قال: لما صنعت صوتي الذي هو: [من مجزوء الخفيف]

قُلْ لِمَنْ صدَّ[1] عاتِبَا ونأى عنك جانِبَا
قد بلغتَ الذي أرد تَ وإن كنتَ لاعِبَا
واعترفنا بما ادّعيـ ـتَ وإن كنتَ كاذبا
فافعل الآن ما أرد تَ فقد جئتُ تائبَا

اتّصل خبرُه بإبراهيم بن المهديّ، فكتب إليّ يسألني عنه، فكتبتُ إليه الشعر وإيقاعَه وبسيطَه ومَجْراه وإصبعَه وتجزِئتَه وأقسامَه ومخارجَ نغمه ومواضعَ مَقَاطعه ومقاديرَ أدواره وأوزانه فغنّاه ثم لَقِيني فغنّانِيهِ، ففَضَلَنِي فيه بحسن صوته.

وقال ابنُ أبي طيبةَ: كنت أسمعُ إبراهيم بن المهديّ يتنحنحُ فأطرب.

وعن محمد بن خير عن عبد الله بن العبّاس الرَّبيعيّ قال:

كنّا عند إبراهيم بن المهديّ ذاتَ يوم وقد دعا كلَّ محسِن من المغنّين يومئذ وهو جالس يُلاعب أحدَهم بالشِّطْرَنج فترنّم إبراهيم بصوت فريدةَ في شعر أبي العتاهية: [من الخفيف]

قال لي أحمدٌ ولم يَدْرِ ما بي أتحِبُّ الغداةَ عُتْبةَ حقّا
فتنفّستُ ثم قلتُ نَعَمْ حُـ ـبًّا جرى في العروق عِرْقًا فعِرقًا

وهو متّكىء، فلما فرغ ترنّم به مخارق[2] فأحسن فيه وأطربَنَا وزاد على إبراهيم، فغنّاه إبراهيم وزاد في صوته على غِناءِ مخارِق. فلما فرغ ردّه مخارِقٌ وغنّاه بصوته كلّهِ وتحفّظ فيه وكِدنا نطير سرورًا. فاستوى إبراهيم جالسًا وكان مُتّكئًا وغنّاه بصوته كلّه ووفّاه نغمه وشذوره ونظرتُ إلى كتفيه تهتزّان وبدنه أجمَع يتحرّك إلى أن فرغ منه ومخارِقٌ شاخِص نحوه يُرْعَد وقد انتُقِع لونه وأصابعُه تختلِج فخُيِّل إليّ أن الإيوان يسِير بنا، فلما فرغ منه تقدّم إليه مخارق فقبّل يده، وقال: جعلني الله فِداك

(١) صدّ: تمنّع.

(٢) مخارق: من مشاهير المغنّين في العهد العبّاسي، نادم الرشيد والمأمون. توفي سنة ٨٤٥ م.

أين أنا منك! ثم لم يَنْتفع مخارق بنفسه بَقِيّة يومه في شيءٍ من غنائه، والله لكأنّما كان يتحدّث.

ورُوِي عن منصور بن المهديّ قال:

كنت عند أخي إبراهيم في يومٍ كانت عليه فيه نَوْبة لمحمد الأمين(١)، فتشاغل بالشرب في بيته ولم يمضِ، وأرسلَ إليه الأمين عدّةَ رسل فتأخّر. قال منصور: فلمّا كان من غَدٍ قال لي: ينبغي أن نعمل على الرواح إلى أمير المؤمنين فنترضّاه، فما أشُكّ في غضبه علينا. فمضينا فسألنا عن خبره فأُعْلِمنا أنه مشرف على حَيْر الوحشِ وهو مخمور، وكان من عادته ألّا يشرب إذا لحِقه الخُمَار. فدخلنا، وكان طريقنا على حُجْرة تُصنع فيها الملاهي، فقال لي: اذهب فاختر منها عودًا ترضاه وأَصْلِحْه غايةَ الإصلاح حتى لا يُحتاجَ إلى إصلاحه وتغييره عند الضرب به؛ ففعلتُ وجعلته في كُمّي. ودخلنا على الأمين وظَهْرُه إلينا. فلما بَصُرْنا به من بُعْدٍ قال: أَخْرِجْ عودَك فأخرجته، فاندفع يُغَنّي: [من المتقارب]

وكـــأسٍ شَـــرِبـــتُ عـــلى لَذّةٍ ... وأُخْـرَى تـداويـتُ مـنـهـا بـهـا
لِكـي يـعـلَـم الـنـاسُ أنـي امـرؤٌ ... أتـيـتُ الـفُـتُـوّةَ مـن بـابـهـا
وشـاهِـدُنـا الـوردُ والـيـاسَـمِـيـ ... ـنُ والـمُـسْـمِـعـات بقُصّابها(٢)
وَبَـرْبَـطُـنـا(٣) دائـمٌ مُـعْـمَـلٌ ... فـأيُّ الـثـلاثـةِ أزرَى بـهـا(٤)

فاستوى الأمين جالسًا وطرِب طَرَبًا شديدًا، وقال: أحسنتَ والله يا عمّ وأحييتَ لي طربًا. ودعا برطل فشربه على الرّيق وابتدأ شربه. قال منصور: وغنّى إبراهيم يومئذ على أشَدّ طبقة يُتناهَى إليها في العود، وما سَمِعت مثل غنائه يومئذ قط. ولقد رأيتُ منه شيئًا عجيبًا لو حُدِّثْتُ به ما صَدَّقْتُ: كان إذا ابتدأ يغنّي صَغَتِ الوحوشُ إليه ومدّت أعناقَها، ولم تزل تدنو حتى تكاد تضع رؤوسها على الدُّكّان الذي كنّا عليه، فإذا سَكَت نَفَرتْ وبَعُدتْ عنّا حتى تنتهي إلى أبعدِ غاية يمكنها التباعدُ عنّا فيها، وجعل الأمين يَعْجَب من ذلك. وانصرفنا من الجوائز بما لم يُنْصَرف بمثله قطّ.

---

(١) الأمين: هو الخليفة العباسي، ابن هارون الرّشيد، أمّه زبيدة، قُتل في نزاع حول الخلافة مع أخيه المأمون سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م. انظر خبر مقتله في: مروج الذهب ٣/ ٤٢٠ وما بعدها.

(٢) القصّاب: الأوتار.

(٣) البربط: العود.

(٤) أزرى بها: عابها وشانَها.

وعن الحسن بن إبراهيم بن رَبَاح قال:

كنتُ أسأل مُخَارِقًا: أيّ الناس أحسنُ غناءً؟ فكان يجيبُني جوابًا مجملًا، حتى حقّقتُ عليه يومًا فقال: كان إبراهيم الموصِليّ أحسن غِناءً من ابن جامعٍ بعشر طبقاتٍ، وإبراهيم بن المهديّ أحسن غناءً مني بعشر طبقات. ثم قال لي: أحسنُ الناسِ غناءً أحسنُهم صوتًا. وإبراهيمُ بنُ المهديّ أحسن الإنسِ والجِنّ والوحشِ والطيرِ صوتًا، وحسبُك هذا!

وعن إسحٰق بن إبراهيمَ، قال:

غَنّى إبراهيم بن المهديّ ليلةً محمدًا الأمينَ صوتًا لم أرضَه في شعر لأبي نُوَاس، وهو: [من المديد]

يا كثيرَ النّوح في الدِّمَنِ[1] لا عليها بل على السَّكَنِ
سُنَّةُ العشّاقِ واحدةٌ فإذا أحببتَ فاْستَنِنِ[2]
ظَنّ بي مَن قد كَلِفتُ[3] به فهو يجفونِي[4] على الظِّنَنِ
رَشَأٌ[5] لولا ملاحتُه خَلَتِ الدُّنيا من الفِتَنِ

فأمر له بثلاثمائة ألفِ دينار. فقال له إبراهيم: يا أمير المؤمنين، أجزتَني إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم! فقال: وهل هي إلا خراج بعض الكُوَر[6]. هكذا رواه إسحٰق، وقد حُكيت هذه الحكايةُ عن محمد بنِ الحارث، وفيها أن إبراهيم لما أراد الانصراف قال: أَوْقِرُوا[7] زورق عمّي دنانير فأوقَروه، فانصرف بمال جليل. قال: وكان محمد بن موسى المنجّم[8] يقول: حكمت أن إبراهيم بن المهديّ أحسنُ الناسِ كلّهم غناء ببرهان، وذلك أنّي كنتُ أراه في مجالس الخلفاء مثل المأمون والمُعْتَصِم يغنّي المغنُّون ويُغَنّي، فإذا ابتدأ بالصوت لم يبق من الغلمان أحد إلّا ترك ما في يديه وقَرُب من أقرب موضع يمكنه أن يسمعه فلا يزال مُصْغيًا إليه لاهيًا عمّا كان فيه ما دام يغنّي، حتى إذا أمسك وتَغَنّى غيرُه رجعوا إلى التّشاغُلِ بما كانوا فيه

---

(١) الدمن: الأطلال والديار الدارسة، وآثارها ومزابلها.
(٢) أستنن: اتّخذ الحب سنّة. (٣) كلفت به: ولعت به.
(٤) يجفوني: يهجرني. (٥) الرشأ: ولد الظبي.
(٦) الكور: جمع كورة، وهي الناحية والإقليم. (٧) أوقروا: أثقلوا.
(٨) محمد بن موسى المنجم: من المنجمين العباسيين المشهورين، وأسرتهم في الأصل فارسية، من بني نوبخت.

ولم ينبعثوا إلى شيء. فلا برهانَ أقوى من هذا في مثل هذا من شهادة الفِطَن به واتّفاق الطبائع مع اختلافها وتشعُّب طرقها على الميل والانقياد نحوه.

ولإبراهيم بن المهديّ أصوات معروفة، منها ما غنّاه بشعر مَرْوان بن أبي حَفْصة[١]: [من الكامل]

هل تَطْمِسُون[٢] من السماءِ نجومَها ... بأكُفِّكم أو تسترون هِلالَها

أو تدفَعون مقالةً من ربّكم ... جبريلُ بلّغها النبيَّ فقالها

طرَقْتُك[٣] زائرةٌ فحَيِّ خيالَها ... زهراءُ[٤] تخلِط بالدَّلال جمالَها

وأمّا عليّة بنتُ المهديّ، فقد قيل: ما اجتمع في جاهليّةٍ ولا إسلامٍ أخٌ وأخت أحسنُ غناء من إبراهيم بن المهديّ وأخته عليّة. ورُوي عن أبي أحمد بن الرشيد، قال: كنت يومًا بحضرة المأمون وهو يشرَب، ثم قام وقال لي: قم؛ فدخل دار الحُرَم ودخلت معه، فسمِعت غناءً أذهل عقلي ولم أقدِر أن أتقدّم ولا أتأخّر؛ وفَطِن المأمون لما بي فضحك وقال: هذه عمّتك عليّة تُطَارِح عمّك إبراهيم.

قال أبو الفرج: وأمّ عليّة أمّ ولدٍ[٥] مغنّية يقال لها مكنونة، كانت من جوارِي المَرْوانيّة المغنّية. والمروانيّة هذه ليست من آل مروان بن الحكم، وإنما هي زوجة الحسنِ بنِ عبد الله بنِ عُبَيْد الله بن العبّاس. وكانت مكنونة من أحسن جوارِي المدينة وجهًا، وكانت رسحاء[٦]، وكانت حسنة البطن والصدر. فاشتُرِيت للمهديّ في حياة أبيه بمائة ألف درهم؛ فغلبتْ عليه حتى كانت الخَيْزُرَانُ[٧] تقول: ما مَلَكَ أَمَةً[٨] أغلظَ عليّ منها. ولما اشتُرِيَتْ للمهديّ ستَر أمْرَها عن أبيه المنصور حتى مات، وولدتْ للمهديّ عليّة هذه.

---

(١) مروان بن أبي حفصة: شاعر عالي الطبقة، نشأ في العصر الأموي باليمامة، وأدرك زمن العباسيّين، فقدم بغداد ومدح المهديّ والرشيد من الخلفاء، ومعن بن زائدة من الأعيان والأجواد. توفي سنة ٧٩٨ م.

(٢) تطمسون: تمحون.

(٣) طرقتك: زارتك ليلًا.

(٤) الزهراء: البيضاء في حمرة.

(٥) أم ولد: أي هي أَمَة في الأصل، فلما ولدت، صارت بمثابة الحرّة من النساء.

(٦) رسحاء: أي عجيزتها ضامرة وقليلة اللحم.

(٧) الخيزران: جارية المهدي، ولدت له هارون الرشيد والهادي. تآمرت على الهادي فقُتل. ماتت سنة ١٧٣ هـ/ ٧٩٨ م.

(٨) الأمة: الجارية.

وكانت عليّة بنت المهديّ من أجمل الناس وأظرفهم، تقول الشعر الجيِّدَ وتصوغ فيه الألحانَ الحسنة. وكان في جبينها فضلُ سَعَةٍ، فاتّخذت العصائب المكلّلةَ بالجوهرِ لتستُرَ بها جبينَها؛ فهي أوّل من أحدث ذلك.

قال: وكانت عليّةُ حسنةَ الدِّين، وكانت لا تغنّي ولا تشرب النبيذَ إلّا إذا كانت مُعتزلةَ الصلاة؛ فإذا طَهُرت أقبلت على الصلاةِ وقراءةِ القرآنِ وقراءة الكتب. ولم تَلْهُ بشيءٍ غير قول الشعر في الأحيان، إلّا أن يدعوها الخليفة إلى شيء فلا تَقْدِر على خلافه. وكانت رحمها الله تقول: ما حرّم الله شيئًا إلّا وقد جعل فيما حلَّل منه عِوَضًا، فبأيّ شيءٍ يحتجّ عاصِيه والمُنتهِك لحُرُماته! وكانت تقول: لا غَفَرَ الله لي فاحشةً ارتكبتها قطُّ، وما أقول في شعري إلّا عبثًا.

وعن سَعِيد بن هُرَيْم قال: كانت عليّة بنت المهدِيّ تحبّ أن تراسلَ بالأشعار من تختصُّه، فاحتصّت خادمًا يقال له طَلٌّ من خدم الرّشيد، تُراسله بالشعر. فلم تره أيّامًا؛ فمشت على مِيزاب وحدّثته ثم قالت في ذلك: [من السريع]

قـد كـان مـا كُـلِّفْـتُـه زمـنًـا ... يـا طلُّ من وَجْدٍ بكم يكفي
حـتـى أتـيـتُـك زائـرًا عَـجِـلًا ... أمْشِي على حَتْفٍ[1] إلى حَتْفي

فحلف عليها الرشيد ألّا تُكلِّم طَلًّا ولا تُسَمِّيه باسمه، فضَمِنت له ذلك. واستمع عليها يومًا وهي تقرأ آخر سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٥]، فأرادت أن تقول: (فَطَلٌّ) فقالت: فالذي نهى عنه أمير المؤمنين، فدخل الرشيد فقبّل رأسها وقال: قد وهبتُ لكِ طَلًّا ولا أمنعِك بعدها من شيءٍ تُريدِينَه. ولها في طلّ هذا عدّة أشعار صنعت فيها ألحانًا، وكانت في بعضها تصحِّف اسمه وتَكْنِي عنه بغيره. وكانت أيضًا تقول الشعر في خادم لها يقال له: رَشَأ وتَكْنِي عنه بزينبَ. فمن شعرها فيه: [من مجزوء الكامل]

وجَـدَ[2] الـفـؤادُ بـزيـنـبـا ... وَجْـدًا شـديـدًا مُـتْـعِـبَـا
أصـبـحـتُ مِـن كَـلَفٍ بـهـا ... أُدْعَـى شَـقِـيًّـا مُـنْـصَـبَـا[3]
ولـقـد كَـنَـيْـتُ[4] عـن اسـمِـهـا ... عَـمَـدًا لـكـي لا تَـغْـضَـبَـا
وجَـعَـلْـتُ زيـنـبَ سُـتْـرَةً ... وكَـتَـمْـتُ أمـرًا مُـعْـجِـبـا

---

(١) الحتف: الموت والهلاك.
(٢) وجد: تألم وحزن من شدّة العشق.
(٣) المنصب: ذو الحيلة.
(٤) كنيت: لم أظهر.

قــالــت وقــد عَــزّ الــوِصــا لُ ولــم أجِــدْ لــي مَــذْهَــبَــا
واللهِ لا نِـــلْـتَ الـــمـــودّةَ أو تــنـــالَ الـــكـــوكـــبـــا

فصحّفت اسمه في قولها: «زينبا»؛ وهذا من الجناس الخطّي. قال: وكانت لأُمّ جعفر جارية يقال لها طُغيان، فوشتْ بعليّة إلى رَشأ وحكت عنها ما لم تقل. فقالت عليّة: [من الطويل]

لِطُغيانَ خُفٌّ[1] مُذْ ثلاثين حِجّةً جـديـدٌ فـلا يَـبْـلَى ولا يَـتَـخَـرَّقُ
وكيف بِلَى خُفٍّ هو الدهرَ كلَّه على قدميها في السماءِ معلّق
فما خَرَقتْ خُفًّا ولم تُبْلِ جَوْرَبًا[2] وأمّـا سَـراوِيـلاتـهـا فـتُـمَـزَّق

ورُوِي عن أبي هَفَّان قال:

أُهديت للرشيد جاريةٌ في غاية الجمال؛ فخلا معها يومًا وأخرجَ كلَّ قَيْنة في داره واصطبح[3]. وكان مَنْ حضر من جواريه الغناءَ والخدمةَ في الشراب زُهَاء ألفي جارية في أحسن زِيٍّ من كل نوعٍ من أنواع الثياب والجوهر. واتّصل الخبر بأمّ جعفر فعظم عليها ذلك؛ فأرسلت إلى عليّة تشكو إليها. فأرسلت إليها عليّة: لا يهولنّكِ[4] هذا، والله لأَردّنه إليكِ. قد عزمتُ أن أضَع شِعرًا وأصوغ فيه لحنًا وأطرَحه على جَوَارِيّ، فلا تُبْقِي عندكِ جاريةً إلّا بعثتِ بها إليّ وألبسيهنّ أنواعَ الثِّيابِ ليأخذن الصوت مع جوارِيّ؛ ففعلت أمّ جعفر ما أمرتها به. فلما جاء وقت صلاةِ العصرِ لم يشعر الرشيد إلا وعليّة وأمّ جعفر قد خَرَجتا إليه من حُجْرتيهما معهما زُهَاء ألفي جارية من جوارِيهما وسائر جواري القصر عليهنّ غرائب اللِّباس وكلهنّ في لحن واحد هَزَجٍ صنعته عليّة، وهو: [من مجزوء الرجز]

مُـنْـفَـصِـلٌ عـنّـي ومـا قـلـبيَ عـنـه مُـنْـفَـصِـلْ
يـا هـاجِـرِي الـيـومَ لـمـن نَـوَيْـتَ بـعـدِي أن تَـصِـلْ

فطَرِب الرشيد وقام على رجليه حتى استقبل أمّ جعفر وعليّة وهو على غاية السرور، وقال: لم أرَ كاليوم قطّ. يا مسرور، لا تُبْقينّ في بيت المال دِرْهمًا إلا نَثَرته. فكان ما نُثِر يومئذ ستة آلاف ألف درهم، وما سُمِع بمثل ذلك اليوم.

---

(١) الخفّ: الحذاء.
(٢) الجورب: ما يلبس سترًا للقدم.
(٣) اصطبح: تناول خمرة الصباح.
(٤) لا يهولنّك: لا يزعجنّك، ولا يفزعنّك.

ورُوِي عن عَريب أنّها قالت: أحسنُ يوم رأيتُه في الدنيا وأطيبه يوم اجتمعت فيه مع إبراهيم بن المهديّ عند أخته عليّة وعندهما أخوهما يعقوب بن المهديّ، وكان أحذق الناس بالزَّمْر. فبدأت عليّة فغنّت من صنعتها وأخوها يعقوب يزمُر عليها: [من الطويل]

تَحبَّبْ فإنّ الحبّ داعيةُ الحبّ ... وكم من بعيدِ الدارِ مُستوجِبُ القربِ
تَبَصَّرْ فإنْ حُدِّثتَ أنّ أخا هوًى ... نجا سالمًا فارْجُ النجاةَ من الحبّ
إذا لم يكن في الحبّ سُخْطٌ ولا رِضًا ... فأين حلاواتُ الرسائلِ والكُتْب

وغنّى إبراهيم في صنعته وزمَر عليه يعقوب: [من البسيط]

لم يُنْسِنِيكِ سرورٌ لا ولا حَزَنُ ... وكيف لا، كيف يُنْسَى وَجْهُكِ الحَسَنُ
ولا خلَا منك قلبي لا ولا جَسَدِي ... كُلّي بكُلِّكِ مشغولٌ ومُرْتَهَنُ[1]
يا فَرْدَةَ الحُسْنِ ما لي منكِ مُذ كَلِفَتْ ... نفسِي بحُبّكِ إلّا الهمُّ والحَزَنُ
نُورٌ تَولّد من شمسٍ ومن قَمَرٍ ... حتى تكامل فيكِ الروحُ والبَدَنُ

قالت عَرِيب: فما سَمِعتُ مثل ما سَمِعتُ قط وأعلم أني لا أسمع مثله أبدًا.

ورُوِي عن خِشْف الواضحيّة قالت: تَمَارَيْتُ[2] أنا وعَرِيب في غِناء عُلَيّة بحَضْرة المتوكّل أو غيره من الخلفاء. فقلت أنا: هي ثلاثة وسبعون صوتًا، وقالت عَرِيب: هي اثنان وسبعون صوتًا. فقال المتوكّل: غنّيا غناءها؛ فلم أزَلْ أُغَنّي غناءها حتى مضى اثنان وسبعون صوتًا، ولم أدرِ الثالثَ والسبعين. قالت: فقُطِع بي واستعلتْ عَرِيب وانكسرتُ. قالت خَشْف: فلما كان الليل رأيت عُلَيّة فيما يرى النائم، فقالت: يا خَشْف خالفتكِ عَرِيب في غنائي. قلت: نعم يا سيِّدتي. قالت: الصواب معكِ، أفتدرين ما الصوت الذي أُنْسِيتِيهِ؟ قلت: لا والله، ولَوددتُ أنّي فَدَيتُ ما جرى بجميع ما أملك. قالت: هو: [من الرمل]

بُنِيَ الحُبُّ على الجَوْرِ[3] فلو ... أنصف المعشوقُ فيهِ لَسمُجْ[4]
ليس يُسْتحسَن في وصف الهوى ... عاشقٌ يَعْرِف تأليفَ الحُجَجْ
وقليلُ الحبِّ صِرْفًا[5] خالصًا ... لَكَ خيرٌ من كثيرٍ قد مُزِجْ

---

(١) مرتهن: مقيّد.
(٢) تماريت: تجادلت.
(٣) الجور: الظلم، بخلاف العدل.
(٤) سمج: قبح.
(٥) صرفًا: خالصًا.

وكأنها قد اندلعت تغنّي به، فما سَمِعتُ أحسن مما غنّته، وقد زادتني فيه أشياء في نومي لم أكن أعرفها، فانتبهتُ وأنا لا أعقِل فَرَحًا به. فباكرتُ الخليفة وذكرت له القِصّة. فقالت عَرِيب: هذا شيء صَنعتِه أنتِ لِما جَرَى أمس، وأمّا الصوت فصحيح. فحلفتُ للخليفة بما رَضِيَ به أنّ القِصّة كما حكيتُ. فقال: رؤياكِ واللهِ أعجب، رحِم الله عُلَيّة! فما تركت ظَرْفَها حيّة ولا ميّتة. وأجازني جائزة سَنِيّة.

ورَوى أبو الفرج أيضًا بسنده إلى محمد بن جعفر بن يحيىٰ بن خالد، قال:

شَهِدتُ أبي جعفر وأنا صغير وهو يحدّث جَدّي يحيىٰ بن خالد في بعض ما كان يُخْبره به من خَلْوته مع هارون الرّشيد، قال: يا أبتِ، أخذ بيدي أمير المؤمنين، وأقبل في حُجَرِهِ يخترِقها حتى انتهى إلى حُجْرةٍ مُغْلَقة، ففتحها بيده ودخلها ودخلت وأغلق بابها من داخلٍ بيده، ثم صِرْنا إلى رُوَاق[1] ففتحه، وفي صدره مجلس مُغْلَق فقعد على باب المجلس، ونَقَر الباب بيده نَقَرات فسمعنا حِسًّا، ثم أعاد النَّقْرَ ثانيةً فسمِعنا صوت عود، ثم أعاد النقر ثالثةً فغنّت جارية ما ظننتُ واللهِ أنّ الله جلّ وعزّ خلق مثلها في حسن الغناء وجودة الضرب. فقال لها أمير المؤمنين بعد أن غنّت أصواتًا: غَنّي صوتي؛ فغنّت صوته، وهو: [من الكامل]

ومُخَنَّثٍ[2] شهِد الزِّفافَ[3] وقبلَه	غَنّى الجَوارِيَ[4] حاسِرًا[5] ومُنَقَّبا[6]
لَبِس الدَّلَالَ وقام ينقُر دُفّه[7]	نَقْرًا أقرّ به العيونَ وأطربا
إنّ النساءَ رأينه فعَشِقْنه	فشَكَوْنَ شِدّة ما بِهنّ فأكذبا

قال: فطَرِبتُ واللهِ طَرَبًا هَمَمْتُ معه أن أنطَح برأسي الحائط. ثم قال: غنّي:

* طال تكذيبي وتصدِيقي *

فغنّت: [من المديد]

طال تكذيبي وتصدِيقي	لم أجِدْ عهدًا لمخلوقِ

---

(١) الرواق: بيت كالخيمة يحمل على عمود طويل.
(٢) المخنّث: الذي تغلب عليه صفات الأنوثة. (٣) الزفاف: الزواج.
(٤) الجواري: الإماء والمغنّيات. (٥) الحاسر: من حسرت عن وجهها وأظهرته.
(٦) المنقب والمنقبة: من سترت وجهها بالنّقاب.
(٧) الدّف: آلة طرب.

إنّ نـاسًـا فـي الـهـوى غَـدَرُوا   حَـسَّـنُـوا نـقـضَ الـمـواثـيـقِ[١]
لا تَـرَانِـي بـعـدهـمْ أبـدًا   أشـتـكِـي عِـشـقًـا لـمـعـشـوقِ

قال: فرَقَص الرشيدُ ورقصتُ معه؛ ثم قال: أمضِ بنا، فإني أخشى أن يبدو منّا ما هو أكثر من هذا، فمَضَيْنا. فلمّا صرْنا إلى الدِّهْليز[٢] قال وهو قابضٌ على يدي: هل عرفتَ هذه المرأة؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين. قال: فإنّي أعلم أنك ستسأل عنها ولا تكتم ذلك وأنا أُخبرك بها، هذه عليّةُ بنتُ المهديّ. ووالله لئن لفظتَ به بين يديْ أحد وبلَغني لأقتلنّك. قال: فسمعت جَدّي يقول لأبي: فقد والله لفظتَ به؛ ووالله ليقتلنّك، فاصنَعْ ما أنت صانع.

وأخبار عُلَيّة وأغانيها كثيرة، وقد ذكرنا منها ما يُكْتَفَى به.

قال أبو الفرج: وكان مولدُ عليّةَ سنةَ ستينَ ومائةً، وتوفِّيت سنةَ عشرةَ ومائتين، وقيل: سنة تسع ومائتين، ولها خمسون سنة. وكانت عند موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما. وكان سبب وفاتها أنّ المأمون ضمّها إليه وجعل يقبّل رأسها ووجهها مُغطًّى، فشَرِقت من ذلك وسَعَلَتْ ثم حُمَّت بعقب هذا أيامًا يسيرةً وماتت، رحمها الله.

ومنهم أبو عيسى بن الرشيد، هو أبو عيسى أحمد، وقيل: بل اسمُه صالحُ بن هارون الرشيد، وأمّه أمّ ولد بربريّة. كان من أحسنِ الناس وجهًا ومجالسة وعِشْرة وأمْجَنِهم وأحَدِّهم نادرةً وأشدِّهم عبثًا. وكان أبو عيسى جميلَ الوجه جِدًّا؛ فكان إذا عزَم على الركوب جلس الناسُ له حتى يروه أكثر مما كانوا يجلسون للخفاء. وكانت عَرِيب المأمونية تقول: ما سَمِعتُ غِناءً أحسنَ من غِناء أبي عيسى بن الرشيد، ولا رأيتُ وجهًا أحسنَ من وجهه.

ورُوِي أنّ الرشيدَ قال يومًا لأبي عيسى وهو صبيٌّ: ليت جمالَك لعبد الله! (يعني المأمون) فقال له: يا أمير المؤمنين، على أنّ حظّه منك لي. فعجِب الرشيد من جوابه على صِباه وضمَّه إليه وقبّله.

قال أبو الفرج: وكان أبو عيسى جَيِّد الصَّنْعة، وله أغَانٍ منسوبةٌ إليه ومعروفةٌ به. منها: [من مجزوء الخفيف]

رَقَـدت عـنـكَ سَـلْوَتِـي[٣]   والـهـوَى لـيـس يَـرْقُـدُ[٤]

---

(١) نقض الميثاق: عدم الوفاء به.
(٢) الدهليز: المدخل من الباب أو الدار.
(٣) سلوتي: كل ما يتسلّى به.
(٤) يرقد: ينام.

وأطَار السهاد[١] نَو مِي فنومي مُشَرَّدُ
أنتَ بالحُسْنِ منك يا حَسَنَ الوجهِ يُشْهَدُ
وفُؤَادِي بحُسْنِ وجـ ـهِك يَشْقَى ويَكْمَدُ[٢]

وله غير هذا من الأصواتِ. قال: وكان كثير البَسْطِ والمُجُونِ والعَبَثِ. وكان المأمون أشدّ الناس حبًا له، وكان يُعِدّه للأمر بعده ويذكر ذلك كثيرًا. حتى لقد حُكِيَ عنه أنّه قال يومًا: إنه ليسهُل عليّ أمرُ الموتِ وفَقْدُ المُلْكِ، ولا يسهل شيء منهما على أحد؛ وذلك لمحبّتي أن يَلِي أبو عيسى الأمرَ بعدِي لشِدّة حبِّي إياه. وكانت وفاة أبي عيسى في سنة سبع ومائتين.

رُوِي عن عبد الله بن طاهر قال: حدّثني من شَهِد المأمون ليلةً وهم يتراءون[٣] هِلالَ شهر رمضان وأبو عيسى أخوه معه وهو مُستلقٍ على قفاه، فرأوه وجعلوا يدعون. فقال أبو عيسى قولًا أُنْكِرَ عليه؛ كأنه يسخَط لورود الشهر، فما صام بعده. ونُقِل عنه أنه قال: [من الطويل]

دَهَانِيَ[٤] شهرُ الصوم لا كان مِنْ شَهْرِ
ولا صمتُ شهرًا بعدَه آخر الدهرِ
فلو كان يُعْدِيني[٥] الإمامُ بقُدْرةٍ
على الشهر لاستَعْدَيْتُ جُهْدِي على الشهرِ

فناله بعقب هذا القول صُرْعٌ[٦]، فكان يُصْرَع في اليوم مرّات حتى مات. ولمّا مات وَجِدَ المأمون عليه وَجْدًا شديدًا.

رُوِي عن محمد بن عُبّاد المُهَلَّبِيّ قال:

لمّا مات أبو عيسى بن الرّشيد دخلتُ على المأمون فخلعتُ عمامتي ونبذتها[٧] ورائي - والخلفاءُ لا تُعَزَّى في العمائم - فقال لي: يا محمدُ، حالَ القَدَرُ، دون الوَطَر[٨]. فقلت: يا أمير المؤمنين، كلُّ مُصيبة أخطأتْك شَوًى[٩]؛ فجعل الله الحزنَ

(١) السهاد: عدم النوم.
(٢) يكمد: يحزن ويغتمّ.
(٣) يتراءون: يحاولون رؤية هلال شهر رمضان.
(٤) دهاني: أدركني.
(٥) يعديني: يجعلني عدوًا وخصمًا عليه وله.
(٦) الصّرع: علة في الجهاز العصبي تصحبها غيبوبة وتشنّج في العضلات.
(٧) نبذتها: طرحتها أرضًا.
(٨) الوطر: الغاية.
(٩) شوى: هيّنة.

لك لا عليك! قال: فركب المأمون إلى دار أبي عيسى فحضر جِهازه وصلّى عليه ونزل في قبره. وامتنع من الطعام أيامًا حتى خِيف أن يَضُرّ ذلك به. قال: وما رأيت مصابًا حزينًا قطُّ أجمل أثرًا في مُصيبته ولا أحرق وجدًا منه، صامتٌ ودموعُه تهمِي[١] على خَدّيه من غير كلح[٢] ولا استنثار[٣].

ورُوي عن أحمد بن أبي دُوَاد[٤] قال: دخلتُ على المأمون وقد تُوُفِّي أخوه أبو عيسى وهو يبكي ويمسَح عينيه بمِنْدِيل، فقعدتُ إلى جنب عمرو بن مَسْعَدة[٥] وتمثّلت قولَ الشاعر: [من السريع]

نـقـصٌ مـن الـدُّنـيـا وأسـبـابـهـا … نقصُ المنايا من بني هاشمِ[٦]

فلم يزل على تلك الحال يبكي ثم يمسَح عينيه، وتمثّل: [من الطويل]

سأبكيك ما فاضتْ دُمُوعي فإنْ تَغِضْ … فحَسْبُكَ مِنّي ما تُجنّ[٧] الجَوَانِحُ[٨]

كأنْ لـم يَمُتْ حَيٌّ سِواكَ ولـم تَقُمْ … عـلى أحَـدٍ إلّا عـلـيـكَ الـنـوائـحُ[٩]

ثم التفت إليّ وقال: هِيه يا أحمد! فتمثّلتُ بقول عَبْدَة بن الطبيب: [من الطويل]

عليكَ سلامُ الله قَيْسَ بنَ عاصمٍ … ورحـمـتُـه مـا شـاء أن يـتـرحَّـمَـا

تَـحِيّـةَ مـن أولـيـتَـه مـنـك نـعـمـةً … إذا زار عن شَحْطٍ[١٠] بلادَكَ سَلَّما

فما كان قَيْسٌ[١١] هُلْكُه هُلْكُ واحدٍ … ولـكـنّـه بُـنْـيـانُ قـومٍ تَـهَـدَّمَـا

---

(١) تهمي: تسيل. (٢) الكلح: التكشّر والعبوس.
(٣) الاستنثار: إدخال الماء في الأنف ثم دفعه بقوّة، وهو الاستنشاق.
(٤) أحمد بن أبي دؤاد: سبق التعريف به، وهو القاضي المشهور.
(٥) عمرو بن مسعدة: وزير المأمون، من أبلغ كتّاب الإيجاز. في كتب الأدب الكثير من رسائله وتوقيعاته. مات سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م.
(٦) بنو هاشم: رهط النبيّ ﷺ وبني العباس. (٧) تجنّ: تستر.
(٨) الجوانح: الأضلاع القصيرة مما يلي الصدر.
(٩) عبدة بن الطبيب: شاعر جاهلي من بني عبد شمس، له شعر في الصعلكة، وديوانه مطبوع.
(١٠) شحط: بعد.
(١١) هو قيس بن عاصم، من شعراء الجاهلية. أسلم مع وفد تميم سنة ٦٣١ م. مات سنة ٢٠ هـ/ ٦٤٠ م.

فبكى ساعة، ثم التفت إلى عمرو بن مَسْعَدة فقال: هِيه يا عمرو! فقال: نعم يا أمير المؤمنين: [من الكامل]

بكُّوا[١] حُذَيْفةَ لم تُبَكُّوا مثلَه ... حتى تعودَ قبائلٌ لم تُخْلَقِ

قال: فإذا عَرِيب وجوارٍ معها يسمعْنَ ما يدور بيننا؛ فقالت: اجعلوا لنا معكم في القول نصيبًا. فقال المأمون: قولي، فرُبَّ صوابٍ منك كثير. فقالت: [من الطويل]

كَذَا فَلْيَجِلِّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأمرُ ... فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

كأنّ بني العبّاسِ يومَ وفاتِه ... نجومُ سماءٍ خَرَّ من بينها البدرُ[٢]

فبكى وبكينا. ثم قال لها المأمون: نُوحي، فناحت وردّ عليها الجواري. فبكى المأمون حتى قلت: قد فاضت[٣] نفسه وبكينا معه أحَرَّ بكاء، ثم أمسكتْ. فقال المأمون: اصنعي فيه لحنًا على مذهب النَّوْح وغنّي به؛ ففعلت وغنّته إياه على العود. فوالّذي لا يُخلَف بأعظمَ منه لقد بكينا عليه غِناءً أكثرَ مما بكينا عليه نَوْحًا.

ومنهم عبد الله بن موسى الهادي[٤]. قال أبو الفرج: كان له في الغناء صَنْعة حسنة، وله أصوات مذكورة، منها قوله: [من المتقارب]

تقاضاكَ[٥] دهرُكَ ما أسلفا ... وكَدَّر عيشَك بعد الصَّفا

فلا تَجْزَعنّ فإن الزمان ... رهينٌ بتشتيتِ[٦] ما ألّفا

ولما رآك قليلَ الهموم ... كثيرَ الهوى ناعمًا مُتْرَفا

ألحّ عليك برَوْعاته[٧] ... وأقبل يرميك مُستهدِفا

---

(١) بكّوا: ابكوا.

(٢) البيتان من الطويل، وهما للشاعر المشهور أبي تمام في رثاء ابن حميد الطوسيّ. لكنّ ثمة تغييرًا طرأ عليهما في البيت الثاني؛ إذ جعلت عريب (بني العباس) مكان (بني نبهان).

(٣) فاضت نفسه: مات.

(٤) موسى الهادي: هو موسى بن المهدي، وهو الخليفة العباسي الرابع. حاول إكراه أخيه الرشيد على التنازل عن ولاية العهد، فقتل في دار الحريم بالموصل بتحريض من أمّه الخيزران سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٢٩٧.

(٥) تقاضاك: طلبك.

(٦) تشتيت: تفريق.

(٧) الروعات: الأهوال التي تروع.

قال: وكان عبدُ الله هذا من أضرب الناس بالعود وأحسنهم غناء. وكان له غلام أسودُ يقال له «قَلَم»، فعلّمه الضربَ فحذِق فيه؛ فاشترته منه أمّ جعفر بثلاثمائة ألف درهم.

ورُوِي عن سليمانَ بنِ داودَ كاتب أمّ جعفر قال:

كنت جالسًا مع عبد الله بن موسى الهادي، فمرّ به خادم لصالح بن الرشيد؛ فقال له: ما اسمُكَ؟ قال: اسمي لا تَسَلْ. فأعجبه حسنهُ وحسنُ منطقِه، فقال لي: قم بنا حتى نشرب اليوم ونذكر هذا البدر، فقمت معه. فأنشدني في ذلك اليوم: [من مجزوء الرجز]

وشادِنٍ[1] مَرّ بنا ... يجرَح باللَّحظ[2] المُقَلْ[3]
مظلومُ خَصْرٍ ظالمٌ ... منه إذا يمشي الكَفَل[4]
إعتدلت قامُته ... والطرف منه ما عَدَل
بدرٌ تراه أبدًا ... طالعَ سَعْدٍ ما أفَلْ[5]
سألتُه عن اسمه ... فقال: اسمي لا تَسَلْ
وطلعتْ في وَجْنَتَيْـ ... ـه وردتان من خَجَل
فقلت ما أخطا الذي ... سمّاك بل قال المَثَل
لا تسألنْ عن شادنٍ ... فاقَ جمالًا وكَمَل

وقال فيه: [من مجزوء الرجز]

عزّ الذي تهوَى وذَلّ ... صبّ الفؤاد مُختبَلْ[6]
جدّ به الهجرُ وذا الـ ... ـهجرُ إذا جَدّ قتل
من شادن مُمَنْطَق ... فاق جمالًا وكَمَل
تناصف الحسنُ به ... فلا تَسَلْ عن لا تَسَلْ

وعن أحمد بن المكيّ قال: دعاني عبدُ الله بنُ موسى يومًا فقال لي: أتقوِّمُ غلامًا ضاربًا مغنّيًا قيمةَ عَدْل لا حَيْفَ[7] فيها على البائع ولا على المشتري؟ فقلت:

---

(١) الشادن: ولد الظبي، كناية عن المعشوق الغلام.
(٢) اللحظ: باطن العين.
(٣) المُقَل: العيون.
(٤) الكفل: العجُز.
(٥) أفل: غرب وغاب.
(٦) المختبل: الذي ذهب عقله.
(٧) الحَيْف: الظلم.

نعم، فأخرج إليّ ابنه القاسم، وكنت قد عرفت خبره وهو أحسن من القمر ليلة البدر، فأخذ عودًا يضرب به؛ فأكببت على يديه أُقَبّلهما فقال لي عبد الله: أتقبِّل يد غلام مملوك! فقلت: بأبي وأُمّي مِنْ مملوكٍ! وقبّلت رجله أيضًا. فقال: أمّا إذ عرفتَه فأحِبُّ أن تُضاربه، ففعلت. فلما رأى الغلام زيادتي في الضرب عليه اغتمّ وأقبل على أبيه، فقال له كالمعتذر إليه: يا أبتِ، أنا متلذِّذ وهذا متكسِّب. فضحكت وقلت: هو كذلك يا سيِّدي. وعجبت من حدّة جوابه معتذرًا على صغر سنّه.

قال عبد الله بن حبيب:

كان عبد الله بن موسى الهادي مُعَرْبِدًا[١]، وكان قد أعضل[٢] المأمون مما يُعربد عليه إذا شرب معه؛ فأمر به أن يُحْبَس في منزله فلا يخرج منه، وأقعد على بابه حَرَسًا؛ ثم تذمّم من ذلك فأظهر له الرّضا وصرفَ الحرسَ عن بابه. ثم نادمه فعربد عليه أيضًا وكلّمه بكلام أحفظه. وكان عبد الله مُغْرَمًا بالصيد؛ فأمر المأمون خادمًا من خواصّ خدمه يقال له حسن فسَمّه في دُرّاج[٣]، فلما أكله أحسّ بالسمّ، فركب في الليل وقال لأصحابه: هو آخر ما تروني، ومات بعد أيّام. وأكل معه خادمان، فمات أحدهما لوقته، وضَنِي[٤] الآخر ثم مات بعد مدّة.

ومنهم عبد الله بن محمد الأمين. قال أبو الفرج الأصفهانيّ:

كان عبد الله بن محمد الأمين ظريفًا غَزِلًا يقول شعرًا ليِّنًا ويصنعه صَنْعةً صالحة. وكان بينه وبين أبي نَهْشَل بن حُمَيْد مودّة؛ فاعترض عبد الله جاريةً مغنّية لبعض نساء بني هاشم وأعطي بها مالًا عظيمًا. وعَرَفَتْ مولاتها منه رغبةً فيها فزادت عليه في السَّوْم فتركها؛ فاشتراها أخ لأبي نهشل، فتبعتْها نفسُ عبد الله، فسأل أبا نهشل أن يسأل أخاه النزولَ عنها؛ فسأله ذلك فوعده ودافعه. فكتب عبد الله إلى أبي نهشل:

يـا ابـنَ حُـمَـيْـدٍ يـا أبـا نَـهْـشَـلِ ... مـفـتـاح بـاب الـحَـدَثِ الـمُـقْـفَـلِ

يـــا أكـــرمَ الـــنـــاسِ ودادًا وأر ... عـاهـم لـحـقٍّ ضـائـع مُـهْـمَـلِ

أحـسـنـتَ في ودِّي وأجـمـلتَ بـل ... جُـزْتَ فـعـالَ الـمحسِـن الـمُـجْـمِلِ

---

(١) المعربد: المستهتر بالخمرة يفوه بأشياء لا يصح التفوّه بها.
(٢) أعضل: أعيا.
(٣) الدرّاج: ضرب من الطير يشبه السّمان.
(٤) ضني: مرض.

بيتُك في ذي يَمَنٍ شامخٌ تَقْصُر عنه قُنَّتا[١] يَذْبُلِ[٢]

خَلَفتَ فينا حاتمًا[٣] ذا النَّدى وجُدْتَ جودَ العارض[٤] المُسْبِلِ

أيّ أخ أنت لذي وَحْدةٍ تركته بالعزّ في جَحْفَلِ[٥]

نجومُ حظّي منك مسعودةٌ فيما أُرَجّي ليس بالأُفَّلِ[٦]

فصَدِّقِ الظنّ بما قلتَه وسَهِّلِ الأمرَ به يَسْهُلِ

لا تَحْرِمَنّي ولَدَيْك المُنى بالله صيد الرَّشَأ[٧] الأَكْحَلِ

رُمِيتُ منه بسهام الهوَى وما دَرَى ما الرَّمْيُ في مَقْتَلِي

أدنيتَني بالوعد في صيدِه إدناءَ عَطْشانٍ من المَنْهلِ[٨]

ثم تناسيتَ وأسلمتَني إلى مِطالٍ مُوحِشِ المنزِلِ

تركتَني في لُجّة عائمًا لا أعرِف المُدْبِرَ من مُقْبِلِ

صَرِّحْ بأمرٍ واضح بَيِّنٍ لا خيرَ في ذي لَبَسٍ[٩] مُشْكِلِ[١٠]

قال: فلم يزل أبو نهشل بأخيه حتى نزل له عنها. ولعبد الله هذا صنعةٌ منها قوله: [من الوافر]

ألَا يا ديرَ حنظلةَ المُفَدَّى لقد أورثتَني سُقْمًا وكَدًّا

أزِفّ[١١] من الفُرات إليكَ زِفًّا وأجعل حوله الوردَ المُنَدّى

ومنهم أبو عيسى بن المتوكّل. قال عبد الله بن المعتزّ:

جُمِع لأبي عيسى بن المتوكل صنعةٌ مقدارُها أكثرُ من ثلاثمائة صوتٍ، منها الجيِّدُ الصنعةِ ومنها المتوسّطُ. وقال النُّميريّ: سمعت أبا عيسى بن المتوكّل يقول: إذا أتممت صنعة ثلاثمائة وستين صوتًا عدد أيام السنة تركت الصنعة، فلما أتمّها ترك

---

(١) قنّتا: قمّتا، والمفرد قنّة.
(٢) يذبل: اسم جبل بنجد.
(٣) حاتمًا: هو حاتم الطائي الذي يضرب المثل بجوده، وكان من أجواد الجاهلية وفرسانها.
(٤) العارض: السيل الممطر.
(٥) الجحفل: العسكر والجيش.
(٦) الأفّل: الغائبة الغاربة.
(٧) الرّشأ: الظبي.
(٨) المنهل: مورد الماء.
(٩) اللبس: عدم الوضوح.
(١٠) مشكل: معسر.
(١١) أزفّ: أمشي بسرعة.

الصنعة. فمنها قوله في شعر عليّ بن الجَهْم[١]: [من الطويل]

هي النفسُ ما حَمَّلتَها تتحمّلُ ... ولِلدّهرِ أيامٌ تجور[٢] وتَعْدِلُ

وعاقبةُ الصبرِ الجميل جميلةٌ ... وأفضلُ أخلاقِ الرجال التجمُّلُ[٣]

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: وهو لَعَمْري من جيِّد الغناء وفاخِرِ الصنعة، ولو لم يصنع غيره لكفى.

ومنهم عبد الله بن المعتزّ، هو أبو العباس عبد الله بن المعتزّ بالله العباسيّ. قد وصفه أبو الفرج الأصفهانيّ فقال: وأمره مع قُرب عهده بعصرنا مشهورٌ في فضائله وأدبه شهرةً يشترك في أكثرها الخاصّ والعامّ، وشعره وإن كان فيه رقّة الملوكية وغَزَل الظرفاء وهلهلة المُحْدَثين، فإنّ فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدين، ولا تقصُر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله، ليس عليه أن يتشبّه فيها بفحول الجاهلية. وأطنب في وصفه وتقريظه[٤]، وهو فوق ما قال؛ ثم قال:

وكان عبدُ الله حسنَ العلم بصناعةِ الموسيقى والكلام على النَّغَم وعِلَلِها؛ وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهرٍ وبينَ بني حمدون وغيرهم تدلّ على فضله وغزارة أدبه. وذكر منها شيئًا ليس هذا موضع إيرادِه، ثم قال: ومن صنعة عبد الله بن المعتزّ في شعره: [من البسيط]

هل تَرْجِعنّ ليالٍ قد مَضَيْنَ لنا ... والدارُ جامعةٌ أزمانَ أزمانا

قال أبو الفَرَج: ومن صنعته الظريفة الشكل مع جودتها: [من الخفيف]

وا بَلَائِي مِنْ مَحْضَرٍ ومَغِيبِ ... وحبيبٍ منّي بعيدٍ قَريبِ

لم تَرِدْ ماءَ وجهه العينُ إلّا ... شَرِقتْ قبل ريِّها[٥] برقيب

---

(١) علي بن الجهم شاعر بغدادي عاصر أبا تمام، غضب عليه المتوكّل لهجائه فنفاه إلى خراسان فحبسه طاهر بن عبد الله، ثم انتقل إلى حلب فقتله جماعة من بني كلب. له ديوان شعر مطبوع. توفي سنة ٨٦٣ م.

(٢) تجور: تظلم ولا تستقيم أو تعدل.

(٣) التجمّل: المصانعة.

(٤) تقريظه: مدحه.

(٥) ريّها: شبعها من الماء.

قال: ومن صنعته التي تَظَارف فيها ومَلُح[١]: [من الرجز]

زاحم كُمِّي كُمَّه فالْتَوَيَا ... وافقَ قلبي قلبَه فاستَوَيَا

وطالما ذاقا الهوى فاكتَوَيَا ... يا قرّة[٢] العين ويا هَمِّي وَيَا

وحُكِي عن جعفر بن قُدَامة قال: كان لعبد الله بن المعتزّ غلام يحبّه، فغضب الغلام عليه، فجَهد أن يترضّاه، فلم يكن له فيه حيلة. ودخلت عليه فأنشدني فيه: [من مجزوء الخفيف]

بأبي أنتَ قد تَمَا ... دَيْتَ في الهجر والغَضَبْ

واصطباري على صدو ... دِكَ[٣] يومًا من العَجَبْ

ليس لي إن فَقَدتُ وجـ ... ـهَكَ في العيشِ مِن أرَبْ[٤]

رحِم الله مَنْ أعا ... نَ على الصُّلْح واحتسبْ

قال: فمضيت إلى الغلام، فلم أزل أداريهِ وأرفُق به حتى ترضّيته له وجئته به؛ فمرّ لنا يومئذٍ أطيبُ يومٍ وأحسنُه.

ذكر مَن غنّى من الأشراف والعلماء رحمهم الله

كان ممّن غنّى من الأشراف والعلماء على ما نُقل إلينا من أخبارهم:

عبد العزيز بن المطلب[٥]. روى الحافظ أبو الفضل محمدُ بنُ طاهرِ بن علي المقدسيّ رحمه الله بسَند رفعه إلى محمد بن مَسْلَمة قال: حدّثني أبي قال: أتيتُ عبدَ العزيز بنَ المطّلبِ أسألهُ عن بيعة الجنّ للنبيّ ﷺ بمسجد الأحزاب ما كان بدؤُها، فوجدتُه مستلقيًا وهو يغنّي: [من الطويل]

فما روضةٌ بالحَزْنِ[٦] طيّبةُ الثَّرَى ... يَمُجّ النَّدَى جَثْجَاثُها[٧] وعَرَارُهَا[٨]

---

(١) تظارف وملح: أظهر فيها الظرف والملاحة. (٢) قرّة العين: ما يرضي ويسرّ.
(٣) الصدود: الامتناع. (٤) الأرب: الغاية.
(٥) هو عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله بن حنطب، ولي قضاء المدينة للمنصور ثم ولّاه المهدي قضاء مكّة.
(٦) الحزن: الأرض الصلبة. (٧) الجثجاث: نبت زهره أصفر طيّب الرائحة.
(٨) العرار: النرجس البرّي.

بـأطـيـبَ مـن أردانِ عَـزَّةَ مَـوْهِـنَـا
وقـد أوقِـدَتْ بـالـمَـنْـدلِ[1] الـرَّطْـبِ نـارُهـا
مـن الـخـفِـراتِ[2] الـبـيـضِ لـم تـلقَ شِـقْـوةً
وبـالـحَـسَـب الـمـكـنـون صافٍ نِـجـارُهـا[3]
فـإن بـرزتْ كـانـت لـعـيـنـيـك قُـرّةً
وإن غِـبـتَ عـنـهـا لـم يَـغُـمَّـك عـارُهـا

فقلت له: تغنّي أصلحك الله وأنت في جَلالتك وشَرفك! أمَا والله لأحدُوَنّ بها رُكبانَ نجد. قال: فوالله ما أكثرتُ وعاد يتغنّى: [من الطويل]

فما ظبيةٌ أدماءُ[4] خفّاقةُ الحشى ... تجوب بظِلْفيها بطونَ الخمائلِ[5]
بـأحـسَـنَ مـنـهـا إذ تـقـول تـدلُّلَا ... وأدمُعُها يُذرين[6] حَشْوَ المكاحِلِ[7]
تَـمَـتَّـعْ بـذا الـيـوم الـقـصـيرِ فإنّـه ... رهـيـنٌ بـأيّـام الـشـهـور الأطـاولِ

قال: فندمت على قولي له، فقلت: أصلحك الله، أتحدّثني في هذا بشيء! فقال: نعم، حدّثني أبي فقال: دخلتُ على سالم بن عبد الله بن عمرَ ـ رضي الله عنهم ـ وأشعبُ[8] يغنّيه: [من الطويل]

مُعَقْربةٌ كالبدر سُنَّةُ[9] وَجْهِها ... مُطَهَّرةُ الأثوابِ والعِرْضُ وافرُ
لـهـا نَسَبٌ زَاكٍ وعِرْضٌ مُهَذَّبٌ ... وعن كلِّ مكروهٍ من الأمر زاجرُ
مِنَ الخَفِرات البِيضِ لم تلقَ رِيبةً ... ولم يَستمِلْها عن تُقَى اللهِ شاعرُ

فقال له سالم رضي الله عنه: زِدْني. فقال: [من الطويل]

ألـمّـتْ بـنـا والـلـيـلُ داجٍ[10] كـأنّـه ... جَناحُ غُرابٍ عنه قد نَفَض القَطْرا[11]
فقلتُ أعطّارٌ ثَوَى[12] في رِحالنا[13] ... وما احتملتْ ليلى سوى رِيحها عِطْرا

---

(١) المندل: العود الطيّب الرائحة.
(٢) الخفرات: الحيّيات.
(٣) نجارها: حسبها وأصلها.
(٤) الأدماء: السوداء السمراء.
(٥) الخمائل: الجنائن الغنّاء.
(٦) يذرين: يذرفن ويلقين.
(٧) المقصود به الكحل الذي يودع المكاحل.
(٨) أشعب: ظريف من ظرفاء مكة والمدينة، كان حسن الصوت شديد الطمع. أخباره كثيرة في كتب الأدب. عمّر طويلا، وتوفي سنة ٧٧١ م.
(٩) السنّة: الصورة.
(١٠) داج: ساج مظلم.
(١١) نفض القطر: أزاحه عنه.
(١٢) ثوى: أقام.
=

فقال سالم: أمَا والله لولا أن تَدَاوله الرُّواةُ لأجزلتُ جائزتَك، فلك من هذا الأمر مكانٌ.

ومنهم إبراهيمُ بنُ سعد. هو أبو إسحٰق إبراهيمُ بنُ سعدِ بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عوف الزُّهْريّ. كان من العلماء الثِّقات المحدّثين. سمع أباه وابنَ شِهاب الزهريّ وهشام بن عُروة وصالح بن كَيْسان ومحمد بن إسحٰق بن يسار. روى عنه يزيدُ بنُ عبدِ الله بن الهاد وشعبةُ بن الحجاجِ واللّيثُ بن سعد، وابناه يعقوب وسعد ابنا إبراهيم وعبد الرحمٰن بن مهديّ ويزيد بن هارون ويونس المؤدّب وأبو داود الطيالسيّ وسليمان بن داود الهاشميّ وعبد العزيز الآدميّ وعليّ بن الجعد ومحمد بن جعفر الوَرَكانيّ وأحمد بن حنبل وغيرهم. كان يُبِيح السماع ويضرب بالعود ويُغنّي عليه. وله في ذلك قصّة رواها أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسيّ بسند رفعه إلى سعيد بن كثير بن عُفَيْر قال:

قَدِم إبراهيم بن سعد الزهريّ العراقَ سنةَ أربع وثمانين ومائة، فأكرمه الرشيدُ وأظهر برّه. وسُئِل عن الغناء فأفتى بتحليله؛ فأتاه بعض أهل الحديثِ ليسمعَ منه أحاديثَ الزهريُّ، فسمعه يتغنّى، فقال: لقد كنتُ حريصًا على أن أسمع منك، فأمّا الآن فلا سمعتُ منك حديثًا أبدًا. قال: إذًا لا أفقِد إلّا شخصَك. عليّ وعليّ ألّا أُحدِّث ببغداد ما أقمتُ حديثًا واحدًا حتى أغنِّي قبله. وشاعت هذه الحكاية ببغداد، فبلغت الرشيدَ، فدعا به فسأله عن حديث المخزوميّة التي قطعها النبيّ ﷺ في سرقةِ الحليّ؛ فدعا بعود. فقال الرشيد: أعودُ المِجْمَر[1]؟ قال: لا ولكن عود الطَّرَب، فتبسّم. ففهِمها إبراهيم بن سعد، فقال: لعلك بلغك يا أمير المؤمنين حديثُ السفِيهِ الذي آذاني بالأمس وألجأني إلى أن حلفتُ. قال: نعم، فدعا له الرشيد بعود فأخذه وغنّى: [من البسيط]

يا أُمّ طلحةَ إنّ البينَ[2] قد أَفِدَا[3] مُلّ الثَّوَاءُ[4] لأن كان الرحيلُ غدا

فقال له الرّشيد: من كان من فقهائكم يُنكرُ السماع؟ قال: مَنْ رَبَط الله على قلبه. قال: فهل بلغك عن مالك في هذا شيء؟ فقال: لا والله، إلا أن أبي أخبرني

=(١٣) رحالنا: بضاعتنا وما يوضع على ظهر البعير للركوب، والمفرد رحل.
(١) المجمر: الموقد، ومكان الجمر.
(٢) البَيْن: الفراق.
(٣) أفد: اقترب.
(٤) الثواء: المقام.

أنّهم اجتمعوا في مَدْعاة كانت في بني يربوع وهم يومئذ جِلّة[١]، ومالكٌ أقلُّهم في فِقه وقَدْر، ومعهم دفوف ومَعازفُ وعِيدانٌ يغنُّون ويلعبون. ومع مالك دُفّ مربَّع وهو يغنيهم: [من مجزوء الوافر]

سُلَيْمَى أزمعتْ[٢] بَيْنَا وأيــنَ لـقــاؤهــا أيـنــا
وقــد قــالــت لأتــرابٍ[٣] لـهــا زُهْــرٍ[٤] تَـلَاقَـيْـنَـا
تَـعَــالَيْـنَ فـقــد طــاب لـنــا الـعـيـشُ تَـعَـالَيْـنَـا

فضحك الرشيد ووصله بمال عظيم. ومات إبراهيم في هذه السنة وهو ابنُ خمسٍ وسبعينَ سنة. قال: وكان إبراهيم بن سعد يبالِغ فيه إلى هذا الحدّ. وقد أجمعت الأئمّةُ على ثقته وعدالته والروايةِ عنه. واتّفق البخاريُّ ومسلمٌ على إخراج حديثه في الصحيح. ولم تسقط عدالتُه بفعلِه عند أهلِ العلم، بل قُلِّد قضاءَ بغدادَ على جلالتِها، وقُلِّد أبوه القضاءَ بالمدينة على شرفها.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ بسند رفعه إلى إسحٰق بن إبراهيمَ الموصلي قال:

شَهِدتُ إبراهيمَ بن سعدٍ يحلفُ للرشيدِ وقد سأله عمّن بالمدينة يُنكر الغناء، فقال: مَنْ قَنَّعه الله خِزْيَه: مالكُ بنُ أنسٍ، ثم حلف أنه سمع مالكًا يغنّي: [من مجزوء الوافر]

سـلـيـمـى أزمـعـت بـيـنـا فـأيــن لـقــاؤهــا أيــنــا

في عُرْس لرجل من أهل المدينة يُكْنَى أبا حَنْظَلة.

وروى أيضًا بسنده إلى الحسين بن دَحْمان الأشقر، قال:

كنت بالمدينة، فخلا لي الطريقُ في نصف النهار، فجعلت أتغنّى: [من مجزوء الكامل]

مــا بــالُ أهــلكِ يــا رَبَــابُ خُـزْرًا[٥] كـأنـهـمُ غِـضـابُ

---

(١) جلّة القوم: كبار القوم وسادتهم.
(٢) أزمعت: عزمت.
(٣) الأتراب: الرفاق.
(٤) زهر: بيض.
(٥) خزرًا: ضيّقي العيون، غضابًا.

قال: فإذا خَوخةٌ[١] قد فُتحت وإذا وجهٌ قد بدا تتبعُه لِحيةٌ حمراءُ، فقال: يا فاسقُ! أسأتَ التأديةَ، ومنعتَ القائلة[٢]، وأذعتَ الفاحشة[٣]؛ ثم اندفع يغنّيه؛ فظننتُ أنّ طُوَيْسًا[٤] قد نُشر يغنّيه، فقلتُ: أصلحك الله! من أين لك هذا الغناء؟ قال: نشأتُ وأنا غلامٌ أتبعُ المغنّين وآخذ عنهم؛ فقالت لي أُمّي: يا بنيّ، إن المغنّي إذا كان قبيحَ الوجه لم يُلْتَفت إلى غنائه، فدعِ الغناءَ واطلبِ الفقهَ فإنه لا يَضُرّ معه قبح الوجه. فتركتُ المغنّين واتبعتُ الفقهاءَ، فبلغ الله بي ما ترى. فقلت: فأعِدْ جُعِلتُ فداءك. فقال: لا ولا كرامة! أتريد أن تقول أخذتُه عن مالك بن أنس! وإذا هو مالك ولم أعلم.

ومنهم **محمد بن إسماعيلَ بن عليّ** بن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما. كان عالمًا بالفقه والغناء جميعًا. وكان يحيىٰ بن أكثَم وصفه للمأمون بالفقه، ووصفه أحمدُ بن يوسف بالغناء. فقال المأمون: ما أعجبَ ما اجتمع فيه العلم بالعلم والغناءِ!.

ذِكْر مَنْ غنّى من الأعيان والأكابر والقوّاد ممّن نُسبت له صَنعةٌ في الغناء

منهم أبو دُلَف العِجْليّ[٥]، هو أبو دُلَف القاسم بن عيسى بن إدريس أحد بني عِجْل بن لُجَيْم بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل. كان محلّه من الشجاعةِ وبُعدِ الهمّة وعلوّ المحلّ عندَ الخلفاءِ وعظم الغناء في المشاهد وحُسْن الأدب وجَوْدة الشعر محلًا كبيرًا ليس لكثير من أمثاله.

قال أبو الفرج الأصبهانيّ: وله صنعة حَسَنة. فمن جيّد صنعته قوله ـ والشعر له أيضًا ـ: [من الوافر]

بنفسي يا جِنَانُ وأنتِ منّي ... مكانَ الرُّوح من جَسَد الجبَانِ
ولو أنّي أقول مكانَ نفسي ... خَشِيتُ عليك بادرةَ الزمانِ[٦]
لإقدامي إذا ما الخيل حامت ... وهاب كُماتُها[٧] حَرَّ الطِّعان

---

(١) الخوخة: فتحة كبيرة في الباب الكبير الرئيسي.
(٢) القائلة: النوم عند الظهر. (٣) الفاحشة: الإثم الكبير.
(٤) طويس: اسم مغنٍّ مشهور، وسيأتي الحديث عنه.
(٥) هو القاسم بن عيسى، الأمير والأديب والشاعر من رجال الدولة العباسيّة. له كتاب «سياسة الملوك» و«البزاة والصيد». مات سنة ٢٢٦ هـ/ ٨٤٠ م.
(٦) بادرة الزمان: صرفه والحدث منه. (٧) كماتها: فرسانها، جمع كميّ.

قال: وكان أحمد بن أبي دُواد يُنكر أمر الغِناء إنكارًا شديدًا؛ فأعلمه المعتصم أن أبا دُلَف صديقَه يغنّي. فقال: ما أُراه مع عقله يفعل ذلك! فستر المعتصم أحمد بن أبي دواد في موضع وأحضَر أبا دُلَف وأمره أن يغنّي ففعل ذلك وأطال، ثم أخرج أحمد بن أبي دواد عليه؛ فخرج والكراهة ظاهرة في وجهه؛ فلما رآه أحمد قال: سَوْءَةً لهذا مِن فعل! أبعد هذه السنّ وهذا المحلّ تصنع بنفسك ما أرى فخجِل أبو دلف وتشوّر[1] وقال: إنهم لَيُكْرِهونني على ذلك. فقال: هبهم أكرهوك على الغِناء أهم أكرهوك على الإحسان فيه والإصابة!.

قال: وكان أبو دلف يُنادم الواثق[2]. فوُصِف للمعتصم فأحبّ أن يسمعَه، وسأل الواثق عنه، فقال له: يا أمير المؤمنين، أنا على نيّة الفَصْد[3] غدًا وهو عندي. وفُصِد الواثق فأتاه أبو دُلَف وأتته رسل الخليفة بالهدايا؛ فأعلمهم الواثق حصولَ أبي دُلَف عنده. فلم يلبث أن أقبل الخدم يقولون: قد جاء الخليفة. فقام الواثق وكلّ مَن كان عنده حتى تَلَقَّوْه؛ وجاء حتى جلس، وأمر بندماء الواثق فرُدّوا إلى مجالسهم. وأقبل الواثق على أبي دُلَف فقال: يا قاسم، غَنّ أمير المؤمنين. فقال: صوتًا بعينه أو ما اخترتُ؟ قال: بل من صَنْعتك في شعر جرير. فغنّى: [من الكامل]

بانَ الخَليطُ برامَتَينِ[4] فوَدّعوا ... أوَ كلّما اعتزموا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ[5]
كيف العزاءُ ولم أجِدْ مُذْ غِبتُم ... قلبًا يَقِرّ ولا شرابًا يَنْقَعُ[6]

فقال المعتصم: أحسن أحسن ـ ثلاثًا ـ وشرب رطلًا. ولم يزل يستعيده حتى شرب تسعة أرطال. ثم دعا بحمار فركبه، وأمر أبا دُلَف أن ينصرف معه؛ فخرج معه فثُبِّت في ندمائه، وأمر له بعشرين ألف دينار.

قال: وكان أبو دُلَف جوادًا ممدَّحًا. وفيه يقول عليُّ بن جَبَلة من قصيدة يقول فيها: [من المديد]

ذادَ[7] وِرْدَ الغَيِّ[8] عن صَدَرِهْ ... وارعوَى[9] واللّهوُ من وَطَرِهْ[10]

---

(١) تشوّر: استحيا.
(٢) الواثق: خليفة عباسي سبق التعريف به.
(٣) الفصد: إخراج الدم من الوريد بقصد العلاج.
(٤) الرامتان: اسم موضع بعينه.
(٥) تجزع: تفرق.
(٦) ينقع: يسكّن.
(٧) ذاد: دفع.
(٨) الغيّ: الضلال.
(٩) ارعوى: رشد.
(١٠) وطره: غايته.

نَـدَمِـي أنّ الـشـبـابَ مـضـى لـم أُبـلَّغـه مـدى أشَـرِهْ[١]
حَـسَـرتْ عـنّـي بـشـاشـتُـه وذوَى الـمـحـمـودُ من ثَـمَـرِهْ
ودَمٍ أهـدرتُ مـن رَشَـأ[٢] لـم يُـرِدْ عَـقْـلًا عـلى هَـدَرِهْ

جاء منها:

دَعْ جَدًا[٣] قَحْطانَ[٤] أو مُضَرٍ[٥] فـي يَـمَـانِـيـهِ وفـي مُـضَـرِهْ
وامـتـدحْ مـن وائـلٍ رجـلًا عَـصَـرُ الآفـاقِ مِـن عَـصَـرِهْ

ومنهـا:

الـمـنـايـا فـي مَـقَـانـبـه[٦] والـعـطـايـا فـي ذُرَا[٧] حُـجَـرِهْ
مَـلِـكٌ تـنـدَى أنـامـلُه كـانـبـلاج الـنَّـوْءِ[٨] عـن مَـطَـرِهْ
مُـسـتـهِـلٌّ عـن مـواهـبـه كـابـتـسـام الـرَّوْض عـن زَهَـرِهْ

ومنهـا:

إنـمـا الـدنـيـا أبـو دُلَفٍ بـيـن بـاديـه ومُـحْـتَـضَـرِهْ
فـإذا ولّى أبـو دُلَفٍ وَلَّتِ الـدنـيـا عـلى أَثَـرِهْ
كـلُّ مَـنْ فـي الأرض مـن عَـرَب بـيـن بـادِيـهِ[٩] إلـى حَـضَـرِهْ[١٠]
مـسـتـعـيـرٌ مـنـه مـكـرمـةً يـكـتـسِـيـهـا يـوم مُـفْـتَـخَـرِهْ

وهذان البيتان اللذان أحفظا المأمون على عليّ بن جبلة حتى سلّ لسانَه من قفاه.

---

(١) الأشر: المرح والنّشاط.
(٢) الرشأ: الظبي، كناية عن الحبيب. والعقل: الدّية.
(٣) الجدا: العطاء والنوال. (٤) قحطان: أبو عرب الجنوب.
(٥) مضر: عرب الشمال.
(٦) المقانب: جماعات الخيل والفرسان دون المائة تجتمع للغارة، والمفرد مقنب.
(٧) الذرا: الأعالي.
(٨) النوء: المظر الذي تحكمه النجوم والمنازل للنجوم، وثمة في زعم العرب ثمانية وعشرون نوءًا، بحل واحد منها يستمر اثني عشر أو ثلاثة عشر يومًا.
(٩) البادي: قاصد البادية والذي يعيش فيها.
(١٠) الحضر: بخلاف البدو، وهم سكان الحاضرة والأرياف والمدن.

وقوله فيه: [من البسيط]

أنتَ الذي تُنزِل الأيامَ منزِلَها ... وتنقُل الدهرَ من حالٍ إلى حالِ
وما مَددتَ مدَى طَرْفٍ إلى أحدٍ ... إلّا قضيتَ بأرزاقٍ وآجالِ
تَزورُ[1] سُخْطًا[2] فتُضحِي البيضُ ضاحكةً ... وتَستهلّ فتبكي أعينُ المالِ

وكان سبب مدح عليّ بن جبلة أبا دُلَف بقوله: [من المديد]

* إنما الدنيا أبو دلفٍ *

ما رواه أبو الفرج الأصفهاني بسنده عن عليّ بن جبلة، قال: زرتُ أبا دُلف بالجبل، فكان يُظهر من بِرّي وإكرامي والتحَفّي[3] بي أمرًا عظيمًا مُفرِطًا حتى تأخرت عنه حياء. فبعث إليّ مَعْقِلًا وقال: يقول لك الأمير: قد انقطعتَ عني، وأظنك قد استقللتَ بِرّي[4]، فلا يُغضبنك ذلك فإني سأزيد فيه حتى ترضى. فقلت: والله ما قطعني إلا الإفراطُ في البرّ، وكتبت إليه: [من الطويل]

هجرتُكَ لم أهجُرْكَ من كفرِ نعمةٍ ... وهل يُرْتَجى نيلُ الزيادة بالكفرِ
ولكنني لمّا أتيتُك زائرًا ... فأفرطتَ في بِرّي عجزتُ عن الشكر
فَمِ الآن[5] لا آتيكَ إلّا مسلّمًا ... أزورك في الشهرين يومًا وفي الشهر
فإن زدتَني بِرًّا تزايَدتُ جفوةً[6] ... ولم تلقَني طولَ الحياةِ إلى الحشر[7]

فلما قرأها مَعْقِل استحسنها وقال: أحسنت والله! أمَا إن الأميرُ يُعجبه هذا من المعاني. فلما أوصلها إلى أبي دُلَف قال: قاتله الله! ما أشعره وأرقَّ معانيه! وأجابني لوقته ـ وكان حسن البديهة حاضر الجواب ـ: [من الطويل]

ألَا رُبَّ ضيفٍ طارقٍ[8] قد بسطتُه ... وآنستُه قبل الضِّيافةِ بالبِشْرِ
أتاني يُرَجّيني فما حال دونه ... ودون القِرَى[9] والعُرْف من نائلي ستري
وجدتُ له فضلًا عليّ بقصده ... إليّ وبِرًّا زاد فيه على بِرّي
فزوّدتُه مالًا يدوم بقاؤه ... وزوّدني مدحًا يدوم على الدهر

(١) تزوّر: تميل.
(٢) سخطًا: غضبًا.
(٣) التحفّي: التأهيل.
(٤) برّي: إحساني.
(٥) فم الآن: أصلها: فمن الآن.
(٦) الجفوة: البغضاء والبعد والنفور.
(٧) الحشر: يوم القيامة.
(٨) الطارق: الزائر ليلًا.
(٩) القرى: الضيافة.

قال: وبعث بالأبيات وصيفًا وبعث إليّ معه بألف دينار. فقلت حينئذ:

* إنـــمـــا الـــدنـــيـــا أبـــو دلـــف *

الأبيات.

وروى أبو الفرج عن أحمد بن عبيد الله بن عمّار، قال: كنّا عند أبي العبّاس المبرّد[1] يومًا وعنده فتى من ولد أبي البَخْتريّ وهب بن وهب، أمرد[2] حسن الوجه، وفتًى من ولد أبي دُلَف العِجْليّ شبيه به في الجمال. فقال المبرّدُ لابنِ أبي البَخْتَرِيّ: أعرف لجَدّك قصّة ظريفة من الكرم حَسَنة لم يُسْبَق إليها. قال: وما هي؟ قال: دُعِيَ رجلٌ من أهل الأدب إلى بعض المواضعِ فسقَوْه نبيذًا غيرَ الذي يشربون منه؛ فقال فيهم: [من المتقارب]

نَـبِـيـذانِ فـي مـجـلسٍ واحـدٍ   لإيـثـار مُـثْـرٍ[3] عـلى مُـقْـتِـرِ[4]

فـلو كـان فـعـلُك ذا في الـطـعـام   لـزمـتَ قـيـاسَـك فـي الـمـسـكـرِ

ولـو كـنـتَ تـفـعـلُ فـعـلَ الـكـرام   صـنـعـتَ صـنـيـعَ أبـي الـبَـخْـتَـرِي

تـتـبّـع إخـوانَـه فـي الـبـلاد   فـأغـنَـى الـمُـقِـلَّ عـن الـمُـكْـثِـرِ

فبلغت الأبيات أبا البختريّ فبعث إليه ثلاثمائة دينار. قال ابن عمّار: فقلت: وقد وفعل جَدّ هذا الفتى في هذا المعنى ما هو أحسن من هذا. قال: وما فعل؟ قلت: بلغه أنّ رجلًا افتقر من ثروة، فقالت له امرأتُه: افترِضْ في الجند، فقال: [من البسيط]

إليكِ عنّي فقد كَلّفتِني شَطَطًا[5]   حملَ السلاح وقولَ الدّارِعين[6] قِفِ

تمشي المنايا إلى قومٍ فأكرهها   فكيف أمشي إليها عارِيَ الكتفِ

حَسِبتِ أنّ نفادَ المال غيّرني   أو أنّ رُوحِيَ في جنبَيْ أبي دُلَفِ

---

(١) المبرّد: أبو العباس المبرّد، أحد أبرز علماء النحو. تلميذ السجستاني والمازني، بصري الاتجاه، خاصم ثعلب ممثل مذهب الكوفة. علّم في بغداد. أشهر مؤلفاته «الكامل» في النحو. مات سنة ٨٩٨ م.

(٢) أمرد: لا شعر في ذقنه.

(٣) المثري: الجواد الغنيّ.

(٤) المقتر: البخيل.

(٥) شططًا: غاليًا.

(٦) الدارعون: من لبسوا الدروع في الحرب.

فأحضره أبو دلف وقال: كم أمّلتِ امرأتك أن يكون رزقك؟ قال: مائة دينار، قال: كم أمّلتَ أن تعيش؟ قال: عشرين سنة. قال: فذلك لك على ما أمّلت وأمّلتِ امرأتك في مالنا دون مال السلطان، وأمر بإعطائه إيّاه. قال: فرأيت وجه ابن أبي دُلَف يتهلّل[١] وانكسر ابن أبي البختريّ. وهذه الأبيات رُوِيت لابن أبي فِنِنٍ.

ومنهم أخوه مَعْقِلُ بنُ عيسى. كان فارسًا شاعرًا جوادًا مغنّيًا فَهِمًا بالنَّغَم والوَتَر، ذكره الجاحظ مع ذكر أخيه أبي دُلَف، وهو القائل لمخارق ـ وقد كان زار أبا دلف بالجبل ثم رجع إلى العراق، وله في ذلك غناء ـ: [من الطويل]

لعمري لَئِن قرَّتْ بقربك أعيُنٌ ... لقد سَخِنت[٢] بالبُعد عنك عيون

فسِرْ أو أقِمْ، وقفٌ عليك مودّتي ... مكانُك من قلبي عليك مصونُ[٣]

فما أوحشَ الدّنيا إذا كنتَ نازحًا[٤] ... وما أحسنَ الدنيا بحيث تكونُ

ومنهم عبد الله بن طاهر بن الحسين وابنه عبيد الله. فأمّا عبد الله فكان محلُّه من علوّ المنزلة وعظم القدر والتمكّن عند الخلفاء ما هو مشهور مذكور في أخبارهم. وتقلّد الولايات الكبيرة مثل مصر والجزيرة وما يلي ذلك، ثم نُقل إلى خُراسان، وله عطايا وهِبات وصِلَات لا يُنكرها أحد. ومحلّه من الشجاعة والإقدام معروف. وكان يَعْتني بالغناء ويصنعه، إلّا أنه كان يترفّع عن ذكره والاعتراف به ونسبته إليه.

قال أبو الفرج: والأصوات التي غَنّى فيها عبد الله بن طاهر كثيرة. وكان ابنه عُبَيد الله إذا ذكر شيئًا منها مِنْ صَنْعته قال: الغناء للدار الكبيرة، وإذا ذَكَر شيئًا من صنعة نفسه قال: الغناء للدار الصغيرة؛ فمن الأصوات التي صنع فيها عبد الله بن طاهر قولُه: [من البسيط]

هَلّا سَقَيتم بني حزم أسيركُم ... نفسي فداؤك مِن ذي غُلّةٍ[٥] صادي[٦]

الطاعنُ الطَّعنةَ النجلاءَ[٧] يتبعُها ... مُضَرَّجٌ بعْدَ ما جادَتْ بإزبادِ[٨]

---

(١) يتهلّل: يبتسم ويضحك ويبشّ.
(٢) سخنت: ذابت.
(٣) مصون: محفوظ.
(٤) نازحًا: بعيدًا.
(٥) الغلّة: العطش.
(٦) الصادي: العطشان.
(٧) الطعنة النجلاء: الكبيرة الواسعة.
(٨) الإزباد: الإرغاء وإظهار الزبد.

قال: فقد جاء به عبد الله صحيح العمل مزدوج النغم بين لِين وشدّة على رسم الحذّاق[1] القدماء. قال عبيد الله ـ وذكر صوتًا من أصواته ـ: لمّا صنع أبي هذا الصوت لم يحبّ أن يُسْمَع عنه شيء من الغناء ولا ينسب إليه؛ لأنه كان يترفّع عن ذلك، وما جسّ بيده وترًا قطُّ ولا تعاطاه، ولكنه كان يعلم من هذا الشأن بطول الدُّرْبة وحُسْن الثقافة ما لا يعرفه كثير. قال: وبلغ من علم ذلك إلى أن صنعَ في أبيات أصواتًا كثيرة، فألقاها على جواريه، فأخذتَها عنه وغنَّيْن بها وسمعها الناسُ منهنّ، وممن أخذ عنهنّ، فلما أن صنعَ هذا الصوت:

هلّا سقيتمُ بني سهمٍ أسيركُم نفسي فداؤك من ذي غُلّةٍ صادي

نسبه إلى مالك بن أبي السمح. وكانت لآل الفضل بن الربيع[2] جاريةٌ يقال لها راحة، وكانت ترغب إلى عبد الله لمّا ندَبه المأمونُ إلى مصر، وكانت تغنّيه؛ وأخذت هذا الصوت عن جواريه، وأخذه المغنون عنها، ورُوِي لمالك بن أبي السمح مدّة. ثم قَدِم عبد الله العراق، فحضر مجلسَ المأمون وغُنِّي الصوت بحضرته ونُسِب إلى مالك؛ فضحك عبد الله ضحكًا كثيرًا؛ فسُئِل عن القصة فصدَق فيها واعترف بصنعة الصوت. وكشَف المأمون عن القصة، فلم يزل كلٌّ من سُئِل عنه يُخبر عمّن أخذه، فينتهي بالقصّة إلى راحة ويقف فلا يعدوها، فأُحضِرت راحة وسُئِلت فأخبرت بقصّته؛ فعلم أنه من صنعته حينئذ بعد أن جاز على إسحٰق وطبقته أنه لمالك. ويقال: إنه لم يعجَب من شيء عَجَبه من حِذْق عبد الله بمذاهب الأوائل الأوائل وحكاياتهم.

وأمّا عُبَيد الله، ويُكنّى أبا أحمد. قال أبو الفرج الأصبهاني: له محلٌّ من الأدب والتصرُّف في فنونه ورواية الشعر وقولِه والعلم باللّغة وأيّام الناس وعلوم الأوائل من الفلاسفة في الموسيقى والهندسة وغير ذلك ممّا يجلّ عن الوصف ويكثر ذكره. وله صنعةٌ في الغناء حسنة مُتقنة عجيبة تدلّ على ما ذكرناه هٰهنا من توصُّله إلى ما عجز عنه الأوائل من جمع النَّغَم كلّها في صوت واحد تتبّعه هو وأتى به على ما فصّله فيها وطلبه منها.

---

(١) الحذّاق: المهرة، جمع حاذق.

(٢) الفضل بن الربيع: حاجب المنصور العباسي، استوزره الرشيد بعد أن نكب البرامكة. ثم جاء الأمين فأقرّه في الوزارة، ولما جاء المأمون من خراسان إلى بغداد قاومه الفضل فأبعده عنه. توفي سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٤ م.

وكان المعتضدُ بالله ربما أراد أن يصنعَ في بعض الأشعار غناءً ويحضُره أكابر المغنّين فيعدِل عنهم إليه فيصنع فيه أحسن صَنْعة، ويترفّع عن إظهار نفسه بذلك فيومىء إلى أنه من صنعة جاريته ساجي. وسنذكر ساجي إن شاء الله تعالى في أخبار القِيان، وكانت تخريجَ عبيد الله وتأديبه.

قال: ولمّا اختلّت حال عُبيد الله كان المعتضد بالله يتفقّده بالصِّلات. ومن أصوات عبيد الله التي جمع فيها النَّغم العشر قوله في شعر إبراهيم بن عليّ بن هَرْمة[1]: [من الطويل]

وإنّك إذ أطمعتَني منك بالرّضا ... وأيأستَني[2] من بَعْدِ ذلك بالغَضَبْ

كمُمْكِنةٍ من دَرِّها كفَّ حالب ... ودافقةٍ من بعد ذلك ما حَلَبْ

وأخبار عُبيد الله كثيرة سنذكر منها في هذا الباب في أخبار ساجي طَرَفًا، ونورد منها إن شاء الله تعالى في فنّ التاريخ ما يناسب، وأستغفرُ الله العظيم.

ذِكْر أخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسيّة إلى العربيّة ومَن أخذ عنهم ومَنِ اشتهر بالغناء

والغناءُ قديمٌ في الفرس والروم، ولم يكن للعربِ قبلَ ذلك إلا الحُدَاءُ والنشيدُ، وكانوا يُسمّونه «الركبانيّة». وأوّلُ من نقل الغناءَ العجميّ إلى العربيّ من أهل مكّةَ «سَعِيدُ بن مِسْجَح»، ومن أهلِ المدينة «سائب خاثِر». وأوّل من صنع الهَزَج «طُوَيْس». ولنبدأ بذكر أخبار هؤلاء ثم نذكر مَنْ أخذ عنهم إن شاء الله تعالىٰ.

ذكر أخبار سعيدِ بن مِسْجَح

هو أبو عثمان سَعِيدُ بنُ مِسْجَح، مولى بني جُمَح، وقيل: مَوْلى بني مخزوم، وقيل: مولى بني نَوْفَل بن الحارث بن عبد المطّلب. مكيٌّ أسودُ ـ وقيل: أصفرُ ـ حسنُ اللّون. وقيل: كان مولّدًا[3]، يُكْنَى أبا عيسى. وقيل: كان هو وابن سُرَيْج

---

(١) إبراهيم به هرمة: شاعر مخضرم الدولتين الأموية والعباسية. نشأ في المدينة. مدح المنصور وابنه المهدي. توفي سنة ٧٩٢ م.

(٢) أيأستني: جعلتني أيأس وأقنط.

(٣) المولّد: الأعجمي غير العربي الذي ولد ونشأ في بيئة عربية وبين العرب فتأثر بهم وبأخلاقهم وآدابهم وعاداتهم.

لرجل واحد. مغنٍّ متقدّم من فحول المغنّين وأكابرهم، وهو أوّل مَنْ وضع الغناءَ منهم، وأوّلُ مَنْ غنّى الغناء العربيّ بمكّة؛ وذلك أنه مرّ بالفُرْس وهم يبنون المسجد الحرام في أيام عبد الله بن الزُّبَيْر، فسمع غناءهم بالفارسيّة فقَلَبه في شعر عربيّ، ثم رحَل إلى الشام فأخذ ألحان الرُّوم والبربطية والأسطوخوسية، وانقلب إلى فارسَ فأخذ غناءً كثيرًا وتعلّم الضرب، ثم قَدِم إلى الحجاز وقد أخذ محاسنَ تلك النّغم وألقى منها ما استقبحه من النَّبَرات والنّغم؛ وكان أوّل مَنْ فعل ذلك، وتَبِعه الناس بعدُ؛ وعلّم ابنُ سُرَيْج، وعلّم ابنُ سريج الغَرِيضَ. قالوا: وكان في صِباه فَطِنًا ذكيًا، وكان مولاه مُعْجَبًا به، فكان يقول: لَيكونَنّ لهذا الغلام شأن، وما يمنعني من عِتْقه إلّا حُسْنُ فِراستي فيه، ولئن عشتُ لأتعرّفنّ ذلك، وإن مُتُّ قبله فهو حُرّ، فسمعه مولاه يومًا يتغنّى بشعر ابن الرِّقَاع[1] يقول: [من الكامل]

ألْمِمْ على طَلَلٍ عَفَا[2] مُتقادِمِ بين الذُّؤَيْبِ وبين غَيْب النَّاعمِ[3]

لولا الحياءُ وأنّ رأسي قد عَسَا[4] فيه المَشِيبُ لزرتُ أُمَّ القاسِمِ[5]

فدعاه مولاه فقال: أَعِدْ يا بنيّ؛ فأعاده فإذا هو أحسن مما ابتدأ به، وقال: إنّ هذا لَبعضُ ما كنتُ أقول. ثم قال له: أنّى لك هذا؟ قال: سمعتُ هذه الأعاجم تتغنّى بالفارسيّة فقلبتُها في هذا الشعر. قال: فأنت حرٌّ لوجه الله. فلزم مولاه وكَثُر أدبه واتّسع في غنائه وشُهِر بمكّة وأُعْجِبُوا به، فدفع إليه مولاه عُبَيْدَ بن سُرَيْج وقال: يا بنيّ علّمه واجتهِدْ فيه. وكان ابن سُرَيْج أحسنَ الناس صوتًا، فتعلّم منه ثم بَرّز عليه[6]. وقد قيل: إنه إنما سمع الغناء من الفُرْس لمّا أمر معاويةُ ببناء دُوره بمكّة التي يقال لها «الرُّقْط»، وكان قد حمل إليها بَنّائين من الفُرْس الذين كانوا بالعراق فكانوا يبنونها، وكان سَعِيد بن مِسْجَح يأتيهم فيسمع غناءهم على بنائهم؛ فما استحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربيّ، ثم صاغ على نحو ذلك. وكان من قديم غنائه الذي صنعه على تلك الألحان شعر الأحْوَص[7]، وهو: [من الكامل]

أسلَامَ إنكِ قد ملكتِ فاسْجِحِي[8] قد يملك الحرُّ الكريم فيُسْجِحُ

---

(١) ابن الرقاع العاملي، عدي: سبق التعريف به.
(٢) عفا: درس.
(٣) ذؤيب وغيب الناعم، اسما موضعين.
(٤) عسا: غلظ وصلب واشتدّ.
(٥) أم القاسم: كنيته حبيبته.
(٦) برّز عليه: غلبه وتقدّمه.
(٧) الأحوص: شاعر سبق التعريف به.
(٨) اسجحي: ليني وتساهلي.

مُـنّـي عـلى عـانٍ أطـلـتِ عَـنـاءَه في الغُلِّ عندك والعُناةُ(١) تُسَرَّحُ(٢)

إنّـي لأنـصـحـكـم وأعـلـم أنّـه سِيّانِ عندكِ من يَغُشُّ ويَنْصَحُ

وإذا شكـوتُ إلى سَلامةَ حبَّـها قـالـت أجِـدٌّ مـنـك ذا أمْ تَـمْـزَحُ

وهذا من أقدم الغناء العربيّ المنقول عن الفارسيّ. قال: وعاش سَعِيد بن مسجح حتى لقيه مَعْبَد وأخذ عنه في أيام الوليد بن عبد الملك.

ومن أخبار سعيد ما رواه أبو الفرج الأصفهانيّ بسند رفعه، قال: كتب عاملٌ لعبدِ الملكِ بنِ مروان بمكّةَ إليه أنّ رجلًا أسودَ يقال له سعيدُ بنُ مسجح قد أفسد فتيانَ قريشٍ وأنفقوا عليه أموالَهم، فكتب إليه: أنِ اقبضْ ماله وسيِّرْه إليّ. فتوجّه ابن مسجح إلى الشأم؛ فصحبه رجل له جوارٍ مغنّيات في الطريق، فقال له: أين تريد؟ فأخبره الخبر، وقال: أريد الشام؛ فصحبه حتى بلغا دمشق، فدخلا مسجدها فسألا: مَنْ أخصُّ الناسِ بأمير المؤمنين؟ فقالوا: هؤلاء النفرُ من قريش وبنو عمّه. فوقف ابن مسجح عليهم فسلّم، ثم قال: يا فتيانُ، هل فيكم مَنْ يُضيف رجلًا غريبًا من أهل الحجاز؟ فنظر بعضهم إلى بعض وكان عليهم موعدٌ أن يذهبوا إلى قَيْنَةٍ يقال لها «برق الأُفُق»، فتثاقلوا به إلّا فتًى منهم تَذَمَّمَ(٣) فقال له: أنا أَضِيفُك، وقال لأصحابه: انطلقوا أنتم وأنا أذهب مع ضيفي. فقالوا: لا، بل تجيء معنا أنت وضيفك. فذهبوا جميعًا إلى بيت القَيْنة، فلما أُتُوا بالغَداء قال لهم سَعِيد: إني رجل أسود، ولعل فيكم من يَقْذَرُني، فأنا أجلسُ وآكلُ ناحيةً وقام؛ فاستحيوا منه وبعثوا له بما أكل. فلما صاروا إلى الشَّراب قال لهم مثل ذلك ففعلوا. ثم أخرجوا جاريتين، فجلستا على سرير قد وُضِع لهما فغنّتا إلى العشاء ثم دخلتا؛ وخرجت جارية حسنةُ الوجه والهيئة وهما معها فجلستا أسفل السرير عن يمينه وشماله وجلست هي على السرير. قال ابن مسجح: فتمثّلت هذا البيت: [من الطويل]

فـقـلـتُ أشـمـسٌ أم مـصـابـيـحُ بِـيـعـةٍ(٤)

بـدَتْ لـك خَـلْفَ الـسَّـجْـفِ(٥) أم أنـتَ حـالـمُ

---

(١) العناة: جمع عانٍ، وهو الأسير.

(٢) تسرّح: يطلق سراحها.

(٣) تذمّم: خشي الذّم.

(٤) البيعة: الكنيسة وبيت العبادة.

(٥) السجف: السّتر.

فغَضِبتْ الجارية وقالت: أيضرب مثلُ هذا الأسود بي الأمثال! فنظروا إليّ نظرًا منكرًا، ولم يزالوا يُسَكِّنونها، ثم غنت صوتًا. قال ابن مسجح: فقلت: أحسنتِ والله! فغضِب مولاها وقال: أمثلُ هذا الأسود يُقْدِم على جاريتي! فقال لي الرجل الذي أنزلني عنده: قُمْ فانصرف إلى منزلي، فقد ثَقُلْتَ على القوم. فذهبت أقوم، فتذمّم القوم وقالوا: بل أقِمْ وأحسِنْ أدبك، فأقمتُ، فغنّت، فقلتُ: أخطأتِ والله وأسأتِ! ثم اندفعتُ فغنّيتُ الصوتَ؛ فوثبت الجاريةُ فقالت لمولاها: هذا أبو عثمان سعيدُ بنُ مسجح، فقلت: إي والله، أنا هو، والله لا أُقيم عندكم ووثبت؛ فوثب القرشيون. فقال هذا: تكون عندي، وقال هذا: تكون عندي، وقال هذا: بل عندي. فقلت: والله لا أُقيم إلا عند سيِّدكم! (يعني الرجل الذي أنزله منهم) وسألوه عما أقدمه، فأخبرهم، فقال له صاحبه: إني أسمرُ الليلةَ عند أمير المؤمنين، فهل تُحْسِنُ أن تحدو؟ فقال: لا والله، ولكني أصنع حُداءً. فقال له: إنّ منزلي بحذاء منزل أمير المؤمنين، فإذا وافقتُ منه طِيبَ نفس أرسلتُ إليك. ومضى إلى عبد الملك، فلما رآه طيِّبَ النفس أرسل إلى ابن مسجح؛ فأخرج رأسه من وراء شُرَف القصر ثم حدا: [من الرجز]

إنك يا مُعاذُ يا ابنَ الفُضَّلِ ... إن زُلْزِل الأقدامُ لم تُزَلْزَلِ
عن دين موسى والكتابِ المُنْزَلِ ... تُقيم[1] أصداغَ القرون المُيَّلِ
* للحق حتى ينتحوا[2] للأعدَلِ *

فقال عبد الملك للقرشيّ: مَنْ هذا؟ فقال: رجل حجازيٌّ قَدِم عليّ. قال: أحضِرْه، فأحضره. ثم قال له: هل تغنّي غناءَ الرُّكبان؟ فغنّى. فقال له: هل تغنّي الغناء المتقَنَ؟ قال: نعم. قال: هِيهِ[3]، فغنّى؛ فاهتزّ عبد الملك طربًا، ثم قال: أُقسم بالله إنّ لك في القوم اسمًا كبيرًا، مَنْ أنت؟ ويلك! قال: أنا المظلوم المقبوضُ مالُه المسيَّر عن وطنهِ «سَعِيدُ بن مِسْجَح»، قبض مالي عاملُ الحجاز ونفاني. فتبسّم عبد الملك ثم قال: قد وَضَح عُذْرُ فِتيان قريش في أن يُنْفِقُوا عليك أموالَهم؛ وأمّنه ووصَله وكتب إلى عامله بالحجاز أن ارْدُدْ إليه مالَه، ولا تتعرّضْ إليه بسوء، والله أعلم.

---

(١) تقيم أصداغ القوم: تضربها حتى تصير مستقيمة.
(٢) ينتحوا: ينتسبوا. (٣) هيه: اسم فعل، بمعنى هاتِ، وزدني.

ذكر أخبار سائب خاثر

هو أبو جعفر سائب خاثِر بن يَسَار، مولى لبني ليث. وأصله من فَيْء[١] كسرى، واشتراه عبد الله بنُ جعفر فأعتقه[٢]. وقيل: بل كان على ولائه لبني ليث، ولكنه انقطع إلى عبد الله بن جعفر ولَزِمه وعُرِف به، وهو أوّل مَنْ عمل العودَ بالمدينة وغنّى به. قال: وكان عبد الله بن عامر بن كُرَيز سبَى إماءً صَنّاجات[٣] فأتى بهنّ المدينة، فكنّ يلعبن في يوم الجمعة ويسمع الناس منهنّ، فأخذ عنهنّ. وقدِم رجل فارسيّ يُعْرَف بنَشِيط، فغنّى، فعَجِب عبد الله بن جعفر منه. فقال له سائب خاثِر: أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسيّ بالعربيّة. ثم غدا على عبد الله بن جعفر وقد عمل في: [من الكامل]

لِمَنِ الديارُ رسومُها[٤] قَفْرُ ... لعبتْ بها الأرواحُ[٥] والقَطْرُ[٦]
وَخَلَا لها من بعد ساكنها ... حِجَجٌ[٧] مَضَيْنَ ثمانٍ أو عَشْرُ
والزعفرانُ[٨] على ترائبها[٩] ... شَرِقٌ به اللَّبّاتُ[١٠] والنحرُ

قال ابن الكلبيّ: وهو أوّل صوت غُنّي به في الإسلام من الغناء العربيّ المتقن الصّنعة. قال: ثم اشترى عبد الله بن جعفر نشيطًا بعد ذلك؛ فأخذ عنه سائب خاثر الغناءَ العربيّ، وأخذ عنه ابن سُرَيْج وجميلةُ ومَعْبَدُ وعَزّةُ المَيْلاء وغيرهم. وقيل: إنه لم يكن يضرب بالعود وإنما كان يقرع بالقضيبِ ويغنّي مرتجلًا. قال ابن الكلبيّ: وكان سائب تاجرًا موسِرًا يبيع الطعامَ بالمدينة، وكان تحته أربع نسوة. وكان انقطاعه إلى عبد الله بن جعفر، وهو مع ذلك يُخالط سَرواتِ[١١] الناس وأشرافَهم لظَرْفه وحلاوتِه وحُسْن صوته. وكان قد آلى على نفسه ألّا يغنّي أحدًا سوى عبد الله بن جعفر إلّا أن يكون خليفةً أو وليَّ عهد أو

---

(١) الفيء: الغنيمة في الحرب، حرب الجهاد. وكسرى: ملك الفرس.
(٢) أعتقه: أطلق سراحه.
(٣) الصنّاجات: اللاعبات بالصنج، الآلة الموسيقية من النحاس، وهي عبارة عن صفيحتين يضربان بعضهما البعض.
(٤) رسومها: آثارها.
(٥) الأرواح: الرياح.
(٦) القطر: الأمطار.
(٧) الحجج: السنون.
(٨) الزعفران: نبت أصفر طيّب الرائحة.
(٩) الترائب: جمع تريبة، وهي أعلى الصدر.
(١٠) اللبات: مواضع القلادة من النحور، والمفرد لبّة.
(١١) سروات الناس: أعيانهم.

ابن خليفة؛ فكان على ذلك إلى أن قُتل، على ما نذكره. وأخذ عنه مَعْبَد غناءً كثيرًا. قال: وسمع معاوية غناء سائب خاثر مرارًا، فالمرّة الأولى لمّا وَفد عبد الله بن جعفر إلى معاويةَ وهو معه، فسأل عنه معاوية، فأخبره عبد الله خبره واستأذنه في دخوله عليه، فأذِن له. فلما دخل قام على الباب ثم رفَع صوته فغنّى:

* لمن الديارُ رسومُها قَفْرُ *

الأبيات.

فالتفت معاوية إلى عبد الله وقال: أشهد لقد حسّنه. وقضى معاوية حوائجه وأحسن إليه ووصله. وقيل: أشرف معاويةُ ليلةً على منزل يَزيدَ، فسمع صوتًا أعجبه، واستخفّه السماعُ فاستمع حتى ملّ؛ ثم دعا بكرسيّ فجلس عليه واشتهى الاستزادةَ، فاستمع بقيّة ليلته. فلمّا أصبح غدا عليه يزيدُ؛ فقال: يا بنيّ، مَنْ كان جليسَك البارحةَ؟ قال: أيّ جليس يا أمير المؤمنين؟ واستعجم عليه. فقال: عَرِّفني به فإنه لم يخفَ عليّ شيء من أمرك، قال: هو سائب خاثر. قال معاوية: فأكْثِرْ له يا بنيّ من بِرّك وصِلتك، فما رأيتُ بمجالسته بأسًا.

قال ابن الكلبيّ: وقَدِم معاويةُ المدينةَ في بعض ما كان يَقْدَمُ، فأمر حاجبَه بالإذن للنّاس؛ فخرج ثم رجع فقال: ما بالبابِ أحد. فقال معاوية: وأين الناس؟ قال: عند عبدِ الله بن جعفر. فركب معاوية بغلتَه ثم توجّه إليهم. فلما جلس قال بعضُ القرشيّين لسائب خاثر: مِطْرَفِي[1] هذا لك إن اندفعتَ تغنّي (وكان المطرف من خزّ)؛ فقام بين السِّمَاطين[2] وغنّى، فقال: [من الطويل]

لنا الجَفَناتُ[3] الغُرُّ[4] يلمعن بالضُّحى[5]

وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَمَا[6]

فسمع منه معاوية وطَرِب وأصغى إليه حتى سكت وهو مُستحسِن ذلك، ثم انصرف، وأخذ سائب خاثر المِطْرَف.

---

(١) المطرف: الرداء من حرير، وهو معلم، ذو أعلام.
(٢) السماطان: الصفّان. (٣) الجفنات: الصُّحاف.
(٤) الغرّ: البيض. (٥) الضحى: ما بين الصبح والظهر.
(٦) هذا البيت لحسان بن ثابت الأنصاري.

وكان مقتلُ سائب خاثر بالمدينة يوم الحَرَّة[١]، قال: وكان يخشى على نفسه من أهل الشأم، فخرج إليهم وجعل يقول: أنا مغنٍّ، ومن حالي ومن قصّتي كَيْتَ وكَيْتَ، وقد خدمتُ أمير المؤمنين يزيد وأباه قبله. فقالوا له: غنِّ لنا، ففعل. فقام أحدهم فقال: أحسنت والله، ثم ضربه بالسيف فقتله. وبلغ يزيد خَبرُه ومرّ به اسمه في أسماء من قُتِل فلم يعرفه، وقال: من سائب خاثر؟ فعُرِّف به، فقال: ويله ما له وما لنا! ألم نُحْسِن إليه ونَصِله ونخلطه بأنفسنا! فما الذي حمله على عداوتنا! لا جَرَم أنّ بَغْيَه علينا صَرَعه. وقيل: إنه لمّا بلغه قتله، قال: إنا لله! أوَ بلغ القتلُ إلى سائب خاثر وطبقته! ما أرى أنه بقي بالمدينة أحد، وقال: قبّحكم الله يا أهلَ الشام! تجدهم وجدوه في حائط أو حديقة مستترًا فقتلوه. وقد قيل: إنه تقدّم يوم الحَرّة وقاتل حتى قُتِلَ، والله أعلم.

ذكر أخبار طُوَيس

هو عيسى بن عبدِ الله، وكنيتُه أبو عبد المنعم، وغيَّرها المخنَّثون فقالوا: أبو عبد النعيم. وطُوَيْس لقبٌ غلب عليه، وقيل: اسمه طاوُس، مولى بني مخزوم. وكان أيضًا يلقَّب بالذائب؛ لأنه غنّى: [من مجزوء الرمل]

قد براني[٢] الحبُّ حتى كِدتُ من وجدي أذوبُ

وهذا أوّل غناء غنّاه وهَزَجٍ هَزَجه. وقد ضُرب المثل به في الشؤم فقالوا: «أشأم من طُوَيْس»، لأنه وُلد يومَ مات رسول الله ﷺ، وفُطِم يوم مات أبو بكر رضي الله عنه، وخُتِن يوم مات عمرُ رضي الله عنه، وتزوّج يوم قُتِل عثمانُ، ووُلِد له يوم مات عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه. وكان مخنّثًا أحولَ طويلًا؛ وقيل: إنه وُلد ذاهبَ العين اليمنى. قالوا: وكانت أمّه تمشي بين نساء الأنصار بالنمائم[٣]. وطُوَيْس أوّل من صَنع الهَزَج والرمَل في الإسلام، وكان الناس يضربون به المثل فيقولون: «أهْزَج من طُوَيْس». وكان لا يضرب بالعود وإنما ينقُر بالدُّفّ، وكان ظريفًا عالمًا بأمر المدينة وأنساب أهلها.

---

(١) يوم الحرّة: معركة انتصر فيها مسلم بن عقبة قائد جيش يزيد بن معاوية على أهل المدينة، ثم أباح المدينة للنهب والتدمير، كان ذلك سنة ٦٣ هـ/ ٦٨٣ م.

(٢) براني: أضعفني وأهزلني.

(٣) النمائم: جمع نميمة، وهي السعي بين الناس بالكذب والافتراء والبهتان.

حكى أبو الفرج الأصفهانيّ بسنده إلى المدائنيّ قال: قدِم ابنُ سُريج المدينةَ، فجلس يومًا في جماعة وهم يقولون له: أنتَ واللهِ أحسنُ الناس غناءً، إذ مرّ بهم طُوَيْس فسمعهم وما يقولون، فاستلّ دُفّه من حِضْنه ونَقره وغنّى؛ فلما سمعه ابن سُرَيْج قال: هذا والله أحسنُ غناءً لا أنا. وقال المدائني: قال مسلمة بن محارب: حدّثني رجل من أصحابنا قال: خرجنا في سفر ومعنا رجلٌ من أصحابنا فانتهينا إلى وادٍ، فدعونا بالغداء، فمدّ الرجل يدَه إلى الطعام فلم يَقْدِر عليه، وكان قبل ذلك يأكل معنا؛ فخرجنا نسأل عن حاله فنلقى رجلًا طويلًا أحولَ مضطربَ الخَلْق في زِيّ ٱلأعراب؛ فقال لنا: ما لكم؟ فأنكرنا سؤاله لنا؛ فأخبرناه خبر الرجل فقال: ما اسمُ صاحبكم؟ فقلنا: أُسَيْد؛ فقال: هذا واد قد أُخِّذت سِباعُه فارتحلوا، فلو قد جاوزتم الوادي استمرّ صاحبكم وأسِد وأكَل. قلنا في أنفسنا: هو من الجنّ، ودخلتنا فَزْعة. ففهم ذلك وقال: لِيُفرِخْ رَوْعُكم[1] فأنا طُوَيْس. فقال له رجل منّا: مرحبًا بك أبا عبد النعيم، ما هذا الزّيّ؟! فقال: دعاني بعض أوِدّائي[2] من الأعراب فخرجتُ إليهم وأحببتُ أن أتخطّى الأحياء فلا يُنكروني. فسأله رجل منّا أن يغنّينا، فاندفع ونقَر بدُفٍّ كان معه مربَّع، فلقد خُيِّل لي أنّ الوادي ينطق معه حسنًا، وتَعجَّبنا من علمه وما أخبرنا به من أمر صاحبنا.

قال المدائنيّ: وكان طُوَيْس وَلِعًا بالشعر الذي قالته الأَوْس والخَزْرَج[3] في حروبهم، وكان يريد بذلك الإغراء؛ فقَلّ مجلسٌ اجتمع فيه هذان الحيّان فغنّى فيه طُوَيْس إلّا وقَع فيه شيء. فنُهِيَ عن ذلك، فقال: والله لا تركتُ الغناءَ بشعر الأنصار حتى يُوَسِّدوني التراب[4]؛ وذلك لكثرة تولُّع القوم به، وكان يُبْدِي السرائر[5] ويُخْرِج الضغائن[6]؛ وغناؤه يُستحسنُ ولا يُصْبَر عن حديثه.

وحكى الأصبهانيّ عفا الله عنه قال: كان بالمدينة مخنَّثٌ يقال له النُّغاشِي، فقيل لمروانَ بن الحَكَم: إنه لا يقرأ من كتاب الله تعالى شيئًا. فبعث إليه فاستقرأه أُمَّ

---

(١) أفرخ روعه: اطمأنّ وأمن. (٢) أوِدّائي: خلصائي.

(٣) الأوس والخزرج: قبيلتان جنوبيتان عاشتا معًا في يثرب، في الجاهلية، أو المدينة في الإسلام. وقعت بينهما عدة حروب وأيام، أشهرها يوم بعاث.

(٤) يوسدوني التراب: يدفنونني، ويجعلون التراب وسادةً لي.

(٥) السرائر: جمع سريرة، وهي مستودع السرّ، والأسرار التي تكتم.

(٦) الضغائن: جمع ضغينة، وهي الحقد والكراهية.

الكتاب[١]؛ فقال: والله ما معي بناتُها، أوَ ما أقرأ البناتِ فكيف أقرأ أُمُّهنّ! فقال: أتهزأُ لا أُمّ لك! فأمر به فقُتِل ببُطْحان[٢]، وقال: من جاءني بمخنَّث فله عشرةُ دنانير. فأُتِي طُوَيْس وهو في بني الحارث بن الخزرج فأُخْبِر بمقالة مروان؛ فقال: أمَا فَضّلني الأميرُ عليهم بفضلٍ حتى جعل فيّ وفيهم شيئًا واحدًا! ثم خرج حتى نزل السويداء (على ليلتين من المدينة في طريق الشام) فنزلها، فلم يزلْ بها بقيّةَ عمره. وعُمِّر حتى مات في ولاية الوليد بن عبد الملك. ثم ساق الأصفهانيّ هذه القصةَ في موضع آخر بسند آخر، قال: خرج يحيىٰ بن الحَكَم وهو أمير على المدينة، فبَصُر بشخص في السَّبَخةِ[٣] مما يلي مسجد الأحزاب؛ فلما نظر إلى يحيىٰ جلس، فاستراب به، فوجّه إليه أعوانه[٤]، فأُتِي به كأنه امرأة في ثياب مُصَبَّغة مصقولة وهو ممتشط مُختضِب. فقال له أعوانه: هذا ابنُ نُغاشٍ المخنّث. فقال: ما أحسبك تقرأ من كتاب الله تعالى شيئًا! اِقرأ أُمّ القرآن؛ فقال: لو عَرفتُ أُمّهنّ عرفتُ البناتِ. فأمَر به فضُرِبَتْ عنقُه. وساق نحو ما تقدّم، إلّا أنه قال: جعل في كل مخنّث ثلاثمائة درهم.

وحكى أيضًا بسند رفعه إلى صالح بن كَيْسان وغيره: أنّ أبَان بن عثمان لمّا أمّره عبد الملك على الحجاز أقبل، حتى إذا دنا من المدينة تلقّاه أهلها وخرج إليه أشرافها، فخرج معهم طُوَيْس. فلما رآه سلّم عليه، ثم قال له: أيّها الأمير، إني كنتُ قد أعطيتُ الله تعالى عهدًا إن رأيتُك أميرًا لأخضِبَنَّ[٥] يدي إلى المِرْفَقين ثم أزْدُو[٦] بالدّف بين يديك. ثم أبدَى عن دفّه وتغنّى بشعر ذي جَدَنِ الحِمْيريّ: [من مجزوء الكامل]

ما بالُ أهلك يا رَبَابُ　　　خُزْرًا[٧] كأنهم غِضابُ

فطرِب أبَانُ حتى كاد يطير، ثم جعل يقول: حَسْبُك يا طاوُس! - ولم يقل له طويس لنبله في عينه - ثم قال له: اجلسْ، فجلس. فقال له أبَان: قد زعموا أنك كافر. فقال له: جُعِلتُ فِداءك! والله إني لأشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأن محمّدًا رسول الله ﷺ، وأصلّي الخمسَ وأصوم رمضانَ وأحجُّ البيتَ. قال: أفأنت أكبرُ أم عمرو بنُ عثمان؟ - وكان عمرو أخا أبان لأبيه وأمّه - فقال طويس: جُعلت فداءك! أنا

---

(١) أم الكتاب: سورة الفاتحة.
(٢) بطحان: اسم موضع بعينه، قريب من المدينة المنوّرة.
(٣) السبخة: الأرض ذات النزّ والملح.　　(٤) أعوانه: أنصاره وجلاوزته.
(٥) لأخضبنّ يدي: لأصبغنّها بالخضاب، أي الحنّاء.
(٦) أزدو: أضرب.　　(٧) خزرًا: غضابًا.

والله مع جلائل نساء قومي أُمْسِكُ بذيولهنّ يوم زُفَّت أمُّك المباركةُ إلى أبيكَ الطيّب. فاستحيا أبان ورمى بطَرْفِه إلى الأرض.

ذكر أخبار عبد الله بن سريج

هو أبو يحيىٰ عبد الله بن سُرَيْج، مولى بني نَوْفَل بن عبد مَنَاف. وقال ابن الكلبيّ: إنه مولى لبني الحارث بن عبد المطّلب. وقيل: إنه مولى لبني ليث، ومنزله بمكّة. وقال الحسن بن عُتْبة اللّهبِيّ: إنه مولى لبني عائذِ بن عبدِ الله بن عمرو بن مخزوم. وحكى أبو الفرج الأصبهانيّ أنه كان آدَمَ[1] أحمرَ ظاهرَ الدّم سُنَاطًا[2]، في عينيه قَبَلٌ[3]، وبلغ خمسًا وثمانين سنة، وكان منقطعًا إلى عبدِ الله بن جعفر.

ونُقل أيضًا عن ابن الكلبيّ أنه كان مخنّثًا أحولَ أغمش[4]، يُلقَّبُ وجهَ الباب. وكان لا يغنّي إلا متنقّبًا[5]، مُسْبِلَ القِنَاع على وجهه. قال: وكان أحسن الناس غناءً، وكان يغنّي مُرْتجلًا ويُوقِع بقضيب، وقيل: كان يضرب بالعود. وغنّى في زمن عثمانَ بنِ عفّان، ومات في خلافة هشام بنِ عبد الملك. وقيل: كان اسمه عُبَيْد بن سُريج من أهل مكّة. وقال ابن جُرَيْج: كان عُبَيْد بن سُرَيْج مولى آل خالد بن أَسِيد، وقيل: كان أبوه تركيًا. وقيل: كان عُودُه على صنعة عيدان الفُرْس، وهو أوّل مَنْ ضرب به على الغناء العربيّ بمكّة؛ وذلك أنّه رآه مع العجم الذين قدِم بهم ابنُ الزُّبير لبناء الكعبة، فأعجَبَ أهل مكّة غناؤهم. فقال ابنُ سُريج: أنا أضرب به على غنائي، فضرب به فكان أحذقَ الناس. وأخذ الغناء عن سَعِيد بن مِسْجَح، وقد تقدّم ذكرُ ذلك. وأوّلُ ما اشتهرَ بالغناء في خِتانِ ابنِ مولاه عبدِ الله بن عبد الرحمـٰن بن أبي حُسَيْن. قال ابن سُرَيْج لأمّ الغلام: خَفِّضي عليك بعضَ المغرَم والكُلْفة، فوالله لأُلْهِيَنّ نساءكِ حتى لا يدرين ما جئتِ به. وكان مَعْبَد إذا أعجبه غناءُ نفسِه قال: أنا اليوم سُرَيْجيّ.

ومن أخباره أيضًا أن عطاء بن أبي رباح لَقِيه بذي طُوًى[6] وعليه ثياب مُصَبَّغةٌ وفي يده جَرادةٌ مشدودةُ الرِّجلِ بخيطٍ يُطِيرها ويَجذِبُها كلما تخلّفت؛ فقال له عطاء: يا فتّانُ، ألَا تكُفّ عما أنت فيه! كفى الله الناسَ مؤونتك. فقال له ابن سُرَيْج: وما على

---

(١) آدم: أسود. (٢) سناطًا: كوسجًا، لا لحية له.
(٣) القبل في العين: الحول.
(٤) أعمش: في عينيه عمش، وهو ضعف بصرهما مع سيلان دمعهما في أكثر الأوقات.
(٥) متنقبًا: لابسًا نقابًا على وجه. (٦) ذي طوى: اسم موضع بعينه.

الناس من تلويني ثيابي ولَعِبي بجرادتي! فقال: تُغَنِّيهم أغانيَك الخبيثة. فقال له ابن سُرَيْج: بحقّ من تَبِعته من أصحاب رسول الله ﷺ، وبحقّ رسول الله ﷺ إلّا سمعتَ منّي بيتًا من الشعر، فإن سمعتَ منكرًا أمرتَني بالإمساك عما أنا عليه، وأنا أقسم بالله وبحقّ هذه البَنِيّةِ[1] إن أمرتَني بعد استماعك منّي بالإمساك عمّا أنا عليه لأفعلنّ. فأطمع ذلك عطاءً في ابنِ سُرَيْجٍ وقال له: قل، فاندفع يغنّي بشعر جرير: [من الكامل]

إنّ الـذيـنَ غَـدَوْا بـلُبِّـكَ[2] غـادروا وشَلًا[3] بعينكَ لا يزال مَعِينَا[4]

غَيَّضْنَ[5] مِنْ عَبَراتِهِنّ[6] وقلن لي مـاذا لَقِيـتَ مـن الـهـوى ولَقِيـنـا

قال: فلمّا سمعه عطاءٌ اضطرب اضطرابًا شديدًا وداخلته أرْيَحِيّةٌ[7]، فحلف ألّا يكلِّم أحدًا بقيّةَ يومِه إلا بهذا الشعر، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام، فكان كلُّ مَن يأتيه يسألُ عن حلالٍ أو حرامٍ أو خبرٍ لا يُجيبُه إلا بأن يضربَ إحدى يديه على الأخرى ويُنشِد هذا الشعرَ حتى صلّى المغربَ، ولم يُعاوِد ابنَ سريج بعدَها ولا تعرّض له.

وحُكِيَ عنه أيضًا أنّ عمرَ بنَ أبي ربيعةَ حجّ في عام من الأعوام ومعه ابنُ سُرَيْج، فلما رَمَوُا الجمراتِ تقدّما الحاجَّ إلى كَثِيبٍ على خمسةِ أميالٍ من مكّةَ مشرفٍ على طريق المدينة وطريق الشام والعراق، وهو كثِيب شامخ مُفْرَد عن الكُثْبان، فصارا إليه فأكلا وشربا. فلما انتشَيا أخذ ابن سريج الدفَّ فنقَره وجعل يتغنّى وهم ينظرون إلى الحاجّ، فلما أمسيا رفع ابن سُريج صوتَه وتغنّى بشعر لعمرَ بنِ أبي ربيعة، فسمعه الرُّكبانُ، فجعلوا يَصيحون به: يا صاحب الصوت، أمَا تتّقي الله! قد حبسْتَ الناسَ عن مناسِكهم، فيسكتُ قليلًا حتى إذا مَضَوْا رفع صوتَه فيقف آخرون؛ إلى أن وقف عليه في الليل رجلٌ حسنُ الهيئة على فرس عتيقٍ حتى وقف بأصل الكَثِيب، ثم نادى: يا صاحبَ الصوت، أيسهُل عليك أن تردّدَ شيئًا مما سمعُه منك؟ قال: نعم ونِعمة عينٍ، فأيّها تريد؟ فاقترح صوتًا فغنّاه. ثم قال له ابن سريج: ازْدَدْ إن شئتَ، فاقترح صوتًا آخر فغنّاه، فقال له: والثالث ولا أستزيدك، فغنّاه الثالث. وقال له ابن سريج:

---

(١) البنيّة: المراد بها الكعبة.
(٢) لبّك: عقلك.
(٣) الوشل: ماء العين.
(٤) معينًا: غزيرًا.
(٥) غيّضن: قلّلن.
(٦) عبراتهنّ: دموعهنّ.
(٧) الأريحيّة: الارتياح إلى الندى، والنشاط إلى المعروف.

أبَقِيتْ لك حاجة؟ قال: نعم، تنزل لأخاطبك؛ فنزل إليه فإذا هو يزيد بنُ عبد الملكِ[١]، فأعطاه حُلّته وخاتمه وقال: خذهما ولا تُخْدَع فيهما فإن شراءهما ألف وخمسمائة دينار؛ فعاد ابن سريج بهما فأعطاهما لعمرَ بنِ أبي ربيعة وقال: هما بك أشبهُ منهما بي، فأخذهما وعوّضه عنهما ثلاثمائة دينار، وغدا فيهما إلى المسجد، فعرفهما الناسُ وجعلوا يتعجّبون ويسألون عمرَ عنهما، فيُخبرهم أن يزيدَ بنَ عبد الملك كساه ذلك. وقيل: إن عمر بن عبد العزيز مرّ به فسمِع ابنَ سريج وهو يغنّي، فقال: لله درُّ هذا الصوتِ لو كان بالقرآن!.

قال إبراهيم بن المهديّ: كان ابن سريج رجلًا عاقلًا أديبًا، وكان يعاشر الناسَ بما يشتهون فلا يغنّيهم بما مُدِح به أعداؤهم ولا بما فيه عارٌ عليهم أو غَضاضة[٢] منهم.

ومن أخباره ما حكاه أبو الفرج الأصبهاني بإسناده، قال: كتب الوليد بن عبد الملك إلى عامل مكّة أن أَشْخِصْ إليّ ابنَ سريج، فأشخصَه إليه. فلما قدِم مكث أيامًا لا يدعوه ولا يلتفت إليه، ثم ذكره فاستحضره، فدخل عليه وسلّم فأذِن له بالجلوس واستدناه حتى كان قريبًا منه؛ فقال: وَيْحَك يا عُبَيْد! لقد بلغني عنك ما حملني على الوِفادة بك من كثرة أدبك وجودة اختيارك مع ظرف لسانك وحلاوة مجلسك. قال: جُعِلت فِداءك يا أمير المؤمنين! «تسمع بالمُعَيْدِي لا أن تراه»[٣]، قال الوليد: إني لأرجو ألا تكونَ أنتَ ذاك، ثم قال: هاتِ ما عندك؛ فاندفع يغنّي بشعر الأحوص[٤]: [من الطويل]

وإنّي إذا حَلّت بِبَيْشٍ[٥] مقيمة   وحَلّ بوَجٍّ[٦] جالسًا أو تَتَهما[٧]

---

(١) يزيد بن عبد الملك: الخليفة الأموي التاسع. خلف عمر بن عبد العزيز. قضى على ثورة يزيد بن المهلّب عامله في خراسان. مال إلى اللّهو، ومات سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٤ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٢٧٧.

(٢) الغضاضة: العيب.

(٣) مثل مشهور، مفاده أو معناه أن الخبر قد يكون خيرًا من مرآه. وأوّل من قال هذا المثل المنذر بن ماء السماء، وكان يسمع بمشقّة بن ضمرة المعيدي ويعجبه ما يبلغه عنه. فلما رآه وكان كريه المنظر، قال المثل السالف الذكر. انظر: مجمع الأمثال، للميداني ١/ ١٢٩.

(٤) الأحوص، لقبه، واسمه عبد الله، شاعر من أهل المدينة في زمن بني أُميّة. اشتهر بالهجاء والغزل وكان ماجنًا فاسقًا فناله الجلد والتشهير. مات سنة ١٠٤ هـ/ ٧٢٣ م.

(٥) بيش: اسم موضع بعينه بين اليمن وعسير.

(٦) وجّ: اسم واد بعينه.

(٧) تتهم: قصد أو أقام في تُهامة.

يمانِيّةٌ شَطّت وأصبح نفعُها رجاءً وظنًّا بالمَغِيب مرجّما[١]
أُحِبّ دنوَّ الدّار منها وقد أبى بها صَدْعُ[٢] شَعْبِ الدار إلّا تَثَلُّمَا[٣]
بكاها وما يَدْرِي سوى الظنّ ما بكى أحيًّا يُبَكّي أم ترابًا وأَعْظُما
فدَعْها وأخلِفْ للخليفة مِدْحةً تُزِلْ عنك بُؤسَي أو تفيدُك مَغْنما
فإن بكفَّيْه مفاتيح رحمةٍ وغيثَ حيًا[٤] يحيا به الناسُ مُرْهِمَا[٥]
إمامٌ أتاه الملكُ عفوًا ولم يُثب على ملكه مالًا حرامًا ولا دَما
تخيَّره ربُّ العباد لخَلْقه وليًّا وكان الله بالناس أعلما
ينال الغِنى والعزَّ مَنْ نال ودَّه ويَرْهب موتًا عاجلًا من تَشَأَما

فقال الوليد: أحسنتَ والله وأحسن الأحوصُ. ثم قال: يا عُبَيْد هِيهِ! فغنّاه بشعر عَدِي بن الرِّقاع العامِلِيّ[٦] يمدح الوليد: [من البسيط]

طار الكَرَى[٧] وأَلَمّ[٨] الهَمُّ فاكتَنَعا[٩] وحِيل بيني وبين النوم فامتنعا
كان الشبابُ قِناعًا أستكِنُّ به[١٠] وأستظِلُّ زمانًا ثُمّت[١١] انقشعا[١٢]
واستبدل الرأسُ شيبًا بعد داجيةٍ[١٣] فَيْنانةٍ[١٤] ما ترى في صُدْغِها[١٥] نَزعا[١٦]
فإن تكن مَيْعةٌ[١٧] من باطل ذهبتْ وأعقب الله بعد الصَّبْوة[١٨] الوَرَعَا[١٩]
فقد أبِيتُ أُراعِي الخَوْدَ[٢٠] رابيةً على الوسائد مسرورًا بها ولِعا
برّاقةَ الثغر يشفِي القلبَ لذّتُها إذا مُقبِّلها في ريقها كرَعا[٢١]

---

(١) مرجّمًا: مظنونًا.
(٢) الصدع: الانفطار والتكسّر.
(٣) التثلم: التكسر.
(٤) الحيا: المطر.
(٥) المرهم: المطر الذي هو من الرهام، أي الأمطار الضعيفة المتواصلة.
(٦) عدي بن الرقاع: شاعر أموي سبق التعريف به.
(٧) الكرى: النوم.
(٨) ألَمّ: حضر.
(٩) اكتنع: دنا وحضر.
(١٠) أستكنّ به: أستتر به.
(١١) ثُمّت: لغة في ثمّ!.
(١٢) انقشع: زال.
(١٣) الداجية: صفة لخصلات الشعر السوداء الكثيفة.
(١٤) الفينانة: الكثيرة الأفنان، صفة ثانية لها.
(١٥) الصدغ: جانب الرأس.
(١٦) النزع: انحسار الشعر في مقدم الرأس ومن الجانبين.
(١٧) الميعة: أول الشباب أو الصّبا.
(١٨) الصبوة: الجهل والمَيْل إلى الهوى.
(١٩) الورع: التقوى.
(٢٠) الخود: المرأة الناعمة الشابّة.
(٢١) كرع: شرب.

كالأُقْحُوانِ بضاحِي الروض صبّحه غيثٌ أَرَشّ[١] بتَنْضاحٍ[٢] وما نقعا[٣]
صلّى الذي الصلواتُ الطيّبات له والمؤمنون إذا ما جمّعوا الجُمَعا
على الذي سبق الأقوام ضاحيةً بالأجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذي جمع الرحمٰنُ أمّتَه على يديه وكانوا قبله شِيَعا
عُذْنا بذي العرش أن نحيا ونَفْقِدَه وأن نكون لراعٍ بعده تبعا
إن الوليد أمير المؤمنين له مُلْك أعان عليه الله فارتفعا
لا يمنع الله ما أعطى الذين هُمُ له عباد ولا يُعْطَوْن ما منعا

فقال الوليد: صدقتَ يا عُبَيْد، أنّى لك هذا؟ قال: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ٣٧]. قال الوليد: لو غيرَ هذا قلتَ لأحسنتُ أدبك. قال ابن سريج: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: الآية ٥٤]، قال الوليد: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: الآية ١]. قال ابن سريج: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: الآية ٤٠]. قال الوليد: لعلمك والله أكثر وأعجبُ إليّ من غنائك! غنّني؛ فغنّاه بشعر عدِيّ بن الرّقاع يمدح الوليد، فقال: [من الكامل]

عرَف الدّيارَ توهّمًا فاعتادَها من بعد ما شَمِل البِلى[٤] أبلادَها
إلا رواسيَ[٥] كلهنّ قد اصطلى[٦] جمرًا وأشعل أهلُها إيقادَها
كانت رواحلَ للقدور فعُرّيت منهنّ واستلب الزمانُ رمادَها
وتنكّرتْ كلَّ التنكّر بعدنا والأرض تعرف بعلها[٧] وجمادِها[٨]
ولَرُبَّ واضحةِ العوارض[٩] حُرّة كالرِّيم[١٠] قد ضربت به أوتادها
تصطاد بهجتُها المعلَّل[١١] بالصبا عَرَضًا فتُقصِده[١٢] ولن يَصطادها
كالظّبية البكر الفريدة تَرْتعي من أرضها قُفّاتِها[١٣] وعِهادها[١٤]

---

(١) أرشّ: أمطر مطرًا يشبه الرشاش أو الرذاذ.
(٢) التنضاح: المصدر على وزن (تفعال) من نضح، وهو النضح، والرّشح.
(٣) نقع: سكَن.
(٤) البلى: الفساد والخراب والتلف.
(٥) الرواسي: صفة للجبال.
(٦) اصطلى: تدفأ، وطلب صلاء النار.
(٧) البعل من الأرض، ما لم يصبها المطر إلّا في مواسم معيّنة.
(٨) الجامدة: ما لم يصبها المطر.
(٩) واضحة العوارض: الجميلة والحسنة اللون.
(١٠) الريم: الغزال.
(١١) المعلل: المشغول.
(١٢) تقصده: تقتله وتصيبه بسهامها.
(١٣) القفات: ضرب من النبت.
(١٤) العهاد: المطر الذي ينبت الزرع بعد يباس.

خضبت لها عقد البِراق[١] جبينها ... من عَركها عَلَجانها وعَرَادها[٢]

كالزَّيْن في وجه العروس تبذّلَت ... بعد الحياء فلاعبتْ أرْآدها

تُزجي[٣] أغنَّ[٤] كأن إبرة رَوْقه[٥] ... قلمٌ أصاب من الدّواة مِدادها

رَكِبتْ به من عالجٍ[٦] متحيّرًا ... قفرًا تُريّثُ[٧] وحشه أولادَها

فترى مَحانِيَه[٨] التي تَسِقُ[٩] الثرى ... والهَبْرُ[١٠] يُونِقُ[١١] نبتُها روّادها

بانت سعاد وأخلفت ميعادَها ... وتباعَدَتْ عنا لِتمنع زادَها

إني إذا ما لم تَصِلْنِي خُلّتي[١٢] ... وتباعَدَت عنّي اغتفرتُ بِعادها

إمّا تَرَيْ شَيْبي تَقشّع لِمّتي[١٣] ... حتى علا وضَحٌ[١٤] يلوح سوادَها

فلقد ثنيتُ يدَ الفتاة وِسادةً ... لي جاعلًا يُسرى يَدَيّ وِسادَها

وأُصاحِبُ الجيشَ العَرَمْرم[١٥] فارسًا ... في الخيل أُشهِدُ كَرّها وطِرادها

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمع بينهما ... حتى أقوِّمَ ميلَها وسِنادَها[١٦]

نَظَرَ المثقِّفِ[١٧] في كُعوب قَناتِه[١٨] ... حتى يُقِيمَ ثِقافُه مُنآدَها[١٩]

فسترتُ عيبَ معيشتي بتكرّم ... وأتيتُ في سَعَةِ النعيم سِدادَها[٢٠]

وعلِمتُ حتى ما أُسائل واحدًا ... عن عليم واحدةٍ لكي أزدادَها

صلّى الإلهُ على امرىءٍ ودّعتُه ... وأتمّ نعمَته عليه وَزادَها

وإذا الربيعُ تتابعت أنواؤه[٢١] ... فسقى خُناصِرةَ الأحَصّ[٢٢] فجادها[٢٣]

---

(١) البراق: جمع برقة، وهي الأرض الغليظة.
(٢) العلجان والعراد: ضربان من النبت.
(٣) تزجي: ترسل.
(٤) الأغنّ: ولد الظبية فيه غنة في الصوت.
(٥) الروق: القرن. وإبرة الروق: ما نبت واستطال حديثًا من القرن.
(٦) عالج: اسم موضع بعينه.
(٧) تريّث: تبطّىء.
(٨) محانيه: ثناياه.
(٩) تسق: تجمع.
(١٠) الهبر: ما اطمأنّ من الأرض.
(١١) يونق: يزيّن.
(١٢) الخلّة: الرفيقة والصديقة.
(١٣) اللمة: الشعر في أوّل الرأس.
(١٤) الوضح: البياض.
(١٥) العرمرم: الكثير العدد.
(١٦) السناد: عيب شعري يصيب القافية.
(١٧) المثقف: من يقوم الرماح.
(١٨) كعوب القناة: المفاصل فيها. والقناة: قناة الرمح.
(١٩) المنآد: المعوجّ.
(٢٠) السداد: ما يسد الخلّة، أي الفقر والحاجة.
(٢١) الأنواء: الأمطار التي تتحكّم بها الأنواء، وهي تستند إلى مراعاة سير عدد من الكواكب والنجوم.
(٢٢) الأحص: اسم موضع بعينه، ومثله خناصرة.
(٢٣) جادها: أصابها بالمطر وأغاثها.

نـزل الـولـيـد بـهـا فـكـان لأهـلـهـا غـيـثًـا أغـاث أنـيـسَـهـا وبـلادَهـا
أوَلَا تـرى أن الـبـريّـة كـلّـهـا ألـقـتْ خزائـمـهـا[١] إلـيـه فـقـادهـا
ولـقـد أراد الله إذ ولّاكـهـا مِـن أمّـةٍ إصـلاحَـهـا ورَشـادَهـا
أعْـمرتَ أرضَ الـمـسلمين فـأقبلت وكـفَـفْـتَ عـنـهـا مـن يـرومُ فـسادَهـا
وأصبتَ في أرض الـعـدوّ مـصـيبةً عَـمّت أقـاصـيَ غَـوْرها ونِـجادَهـا[٢]
ظَـفَـرًا ونـصـرًا مـا تـنـاول مـثـلَه أحـدٌ مـن الـخـلـفـاء كـان أرادهـا
فـإذا نـشـرتَ لـه الـثـنـاءَ وجـدتَـه جَـمَـعَ الـمـكـارمَ طِـرْفَـهـا وتِـلادَهـا[٣]
غَـلب الـمسـاميح[٤] الـولـيـدُ سـمَـاحـةً وكفى قريشَ الـمُـعْضِـلاتِ[٥] وسادَهـا
تـأتِـيـه أسـلابُ الأعِـزّة عَـنْـوةً[٦] قَـسْـرًا ويـجـمـع لـلـحـروب عَـتـادَهـا
وإذا رأى نـارَ الـعـدوّ تـضـرّمـت سـامَـى جـمـاعـةَ أهـلِـهـا فـاقـتـادَهـا
بِعَرَمْرم[٧] تبدو الرَّوَابِي ذي وَعًى[٨] كالحرّة[٩] احتمل الضُّحَى أطوادَها[١٠]
أطـفـأتَ نـارًا لـلـحـروب وأُوقِـدت نـارٌ قَـدَحْـتَ بـراحـتـيـك زِنـادَهـا
فبدَت بصيرتُها لمن يَبغي الهُدى وأصـابَ حَـرُّ شـديـدِهـا حُـسّـادَهـا
وإذا غـدا يـومًـا بـنَـفْـحـةِ نـائِلٍ عَـرَضـت لـه الـغـدَ مـثـلُهـا فـأعـادَهـا
وإذا عَـدتْ[١١] خـيـلٌ تُـبـادِرُ غـايـةً فـالـسـابـق الـجالِي[١٢] يقـود جِـيـادَهـا

فأشار الوليدُ إلى بعض الخدم فغطّوْه بالخِلَع، ووضعوا بين يديه كيس الدنانير وبِدَر الدراهم[١٣]، ثم قال الوليد: يا مولى بني نَوْفَل بن الحارث لقد أُوتِيتَ أمرًا جليلًا، فقال ابن سريج: وأنت يا أمير المؤمنين لقد آتاك الله ملكًا عظيمًا وشرفًا عاليًا

---

(١) الخزائم: جمع خزامة، وهي الحديدة أو ما يوضع في أنف البعير أو الدابّة، ليشدّ به.
(٢) النجاد: جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض. والغور بخلافه، والنجاد، أيضًا، حمالة السيف.
(٣) التلاد: المال القديم. والطرف: المال المحدث.
(٤) المساميح: جمع مسمح ومسماح، وهو الشديد السماحة والجود.
(٥) المعضلات: الأمور الصعبة.
(٦) عنوةً: قسرًا.
(٧) العرمرم: صفة للجيش الكثير العدد.
(٨) وعى: جليّة.
(٩) الحرّة: الأرض البركانية السوداء.
(١٠) أطوادها: جبالها.
(١١) عَدَت: ركضت.
(١٢) الجالي أو المجلّي: هو الذي يأتي في طليعة الفرسان المتسابقين.
(١٣) بدر الدراهم: أكياسها.

وعزًّا بسط يدك فيه فلم يَقْبِضه عنك ولا يفعل إن شاء الله، فأدام الله لك ما وَلّاك وحفظك فيما استرعاك، فإنك أهل لما أعطاك، ولا ينزعه منك إذ رآك له مَوْضِعًا. قال: يا نوفليّ، وخَطِيبٌ أيضًا! قال ابن سريج: عنك نطقت، وبلسانك تكلّمت، وبعزّك بيّنت، وكان قد أمر بإحضار الأحوص بن محمد الأنصاريّ وعدِيّ بن الرّقَاع العامِليّ، فلما قَدِما عليه أمر بإنزالهما حيث ابن سريج فأنزِلا منزلًا بجوار منزله. فقالا: والله لَقربُ أمير المؤمنين كان أحبَّ إلينا من قربك يا مولى بني نوفل، وإن في قربك لما يَلذّنا ويشغَلُنا عن كثير مما نريد. فقال لهما ابن سريج: أو قِلّة شكر! فقال له عديّ: كأنك يا ابنَ اللَّخناء[١] تَمُنّ علينا، عليّ وعليّ إن جمعنا وإياك سقف بيت أو صحنُ دار عند أمير المؤمنين، فقال الأحوص: أوَ لا تحتمل لأبي يحيىٰ الزّلّة والهفوة، وكفّارةُ يمينٍ خيرٌ من لَجاج في غير منفعة. فتحوّل عديّ وبقي الأحوصُ. وبلغ الوليدَ ما جرى بينهم، فدعا ابن سريج فأدخله بيتًا وأرخى دونه سِترًا ثم أمره إذا فرغ الأحوصُ وعديٌّ من كلمتيهما أن يغنّي، فلما دخلا وأنشداه مدائحَ لهما فيه، رفع ابنُ سريج صوتَه من حيث لا يَرَوْنه وضرب بعود. فقال عَدِيّ: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي أن أتكلّم؟ قال: قل يا عامِليّ، قال: مثلُ هذا عند أمير المؤمنين ويبعث إلى ابن سريج يتخطّى رقابَ قريشٍ والعرب من تهامة إلى الشام ترفعه أرضٌ وتَخْفِضه أخرى ليسمع غناءه! قال: ويحك يا عديّ! أوَ لا تعرف هذا الصوتَ؟ قال: لا والله ما سمعتُه قط ولا سمعتُ مثلَه، ولولا أنّه في مجلس أمير المؤمنين لقُلْت طائفةٌ من الجنّ يتغنّوْن، فقال: أُخرج عليهم، فخرج فإذا ابن سريج. فقال عديّ: حَقٌّ لهذا أن يُحْمل! حقٌّ لهذا أن يحمل! ثلاثًا، ثم أمر لهما بمثل ما أمر به لابن سريج وارتحل القومُ.

وروى أبو الفرج أيضًا عن سهل بن بركة وكان يحمل عودَ ابن سريج، قال:

كان على مكّة نافعُ بنُ عَلْقمة الكِنانيّ فشدّد في الغناء والمغنّين والنبيذِ ونادَى في المخنّثين، فخرج فِتيةٌ من قريش إلى بطن مُحَسّر[٢] وبعثوا برسول لهم، فجاءهم براويةٍ من شراب الطائف، فلما شربوا وطرِبوا قالوا: لو كان معنا ابنُ سريج تمّ سرورُنا، فقلت: هو عليّ لكم، فقال لي بعضُهم: دونَك هذه البغلة فاركبها وامض إليه، فأتيتُه فأخبرتُه بمكان القوم وطلبهم إيّاه، فقال لي: ويحك! وكيف لي بذلك مع

(١) اللخناء: المنتنة والخسيسة.

(٢) بطن محسّر: اسم موضع بعينه.

شدّة السلطان في الغناء ونِدائه فيه. فقلت له: أتردّهم؟ قال: لا والله! فكيف لي بالعود؛ فقلت: أنا أخبؤه لك فشأنَك. فركِب وسترتُ العودَ فأردفني، فلما كنّا ببعض الطريق إذا بنافع بن عَلْقمة قد أقبل؛ فقال لي: يا بن بركة، هذا الأمير. فقلت له: لا بأس عليك! أرسِل عِنانَ البغلةِ وامضِ ولا تَخَفْ، ففعل. فلما حاذيناه عرفني ولم يعرف ابنَ سريج، فقال لي: يا ابن بركة، من هذا أمامك؟ قلت: من ينبغي أن يكون! هذا ابنُ سريج، فتبسّم ثم تمثّل: [من الطويل]

فإن تَنْجُ منها يا أَبانُ مُسَلَّمًا فقد أَفْلَت الحجّاجُ خيلَ شبيبِ[1]

ثم مضى ومضينا. فلمّا كنّا قريبًا من القوم نزل إلى شجرة يستريح، فقلتُ له: غنِّني مرتجِلًا؛ فرفع صوته فخيّل إليّ أنّ الشجرة تنطِق معه، فغنّى وقال: [من الكامل]

كيف الثَّواءُ[2] ببطن مكّة بعد ما هَمّ الذين تُحِبّ بالإنْجاد[3]

أم كيف قلبُك إذ ثَوَيتَ مخمَّرًا سَقِمًا خِلافَهمُ وكربُك[4] بادِي

هل أنت إن ظَعَنَ[5] الأحبّةُ غادِي أم قبل ذلك مُدْلِجٌ[6] بسوادِ

قال: فقلت: أحسنتَ والذي فلق[7] الحبّة وبرأ النَّسَمة[8]. ولو أن كنانة كلّها سمعتك لاستحسنتك، فكيف بنافع بن علقمة! المغرورُ من غرّه نافع. ثم قلت: زِدْني وإن كان القوم متعلّقة قلوبهم بك؛ فغنّى وتناول عودًا من الشجرة فوقّع به على الشجرة؛ فكان صوتُ الشجرة أحسنَ من خفق بطون الضّأن على العيدان إذا أخذتها عيدان الدِّفْلى[9]، وغنّى: [من الكامل]

لا تجمعِي هَجْرًا عليّ وغُربةً فالهجرُ في تَلَفِ المحبّ[10] سريعُ

مَنْ ذا فديتُكِ يستطيع لحبّه دَفْعًا إذا اشتَملت عليه ضلوعُ

---

(١) شبيب الوارد في هذا البيت هو شبيب بن يزيد الخارجي الشيباني من كبار الثائرين على الأمويين. قاوم الحجاج طويلًا، مات غرقًا في نهر دجيل سنة ٧٧ هـ/ ٦٩٦ م.

(٢) الثواء: الإقامة.

(٣) الإنجاد: التوجه إلى نجد.

(٤) الكرب: الغمّ.

(٥) ظعن: ارتحل.

(٦) مدلج: داخل في الظلام ومسافر فيه.

(٧) فلق: شقّ.

(٨) برأ النسمة: خلقها، وهو الله تعالى. والنسمة: كل كائن حيّ فيه روح.

(٩) الدّفلى: نبت مرّ زهره كالورد الأحمر، وحمله كالخرّوب، يتّخذ للزينة.

(١٠) تلف المحب: هلاكه وفساده.

فقلت: بنفسي أنت والله، من لا يُكَلّ ولا يُمَلّ! والله ما جَهِل مَنْ فَهِمَك، اِركب بنا فَدَتْك نفسي. قال: أمْهِلني كما أمهلتُك أقضِ بعض شأني. فقلت: وهل عما تريد مَدْفعٌ! فقام فصلّى ركعتين ثم ضرب بيده إلى الشجرة، وقال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمدًا عبده ورسوله. ثمّ مضينا والقوم مستشرِفون، فلما دنونا منهم إذا الغَرِيضُ يغنّيهم: [من الكامل]

مِن خَيْل حَيٍّ لا تَزال مُغِيرةً ... سَمِعتُ على شَرَف صَهِيلَ حِصانِ

فبكى ابن سريج حتى ظننت أن نفسه قد خرجت. فقلت: ما يُبكيك يا أبا يحيىٰ؟ جُعِلتُ فِداك لا يسوءك الله ولا يُريك سوءًا! قال: أبكاني هذا المخنّثُ بحسن غنائه وشجا صوته، والله ما ينبغي لأحد أن يغنّي وهذا الصبيّ حيٌّ؛ ثم نزل واستراح وركِب. فلما سرنا هُنيهةً اندفع الغَرِيضُ يغنّي لهم بلحنه: [من الخفيف]

يا خَليليّ قد مَلِلتُ ثَوائي[1] ... بالمُصَلّى[2] وقد سئمتُ البَقِيعا[3]

بلِّغاني ديارَ هندٍ وسُعدَى ... وارجِعاني فقد هَوِيتُ الرجوعا

قال: ولصوته دويٌّ في تلك الجبال. فقال ابن سريج: يا بن بركة، أسمِعتَ مثل هذا الغناء قط؟! قال: ونظروا إلينا فأقبلوا نَشَاوى يسحَبون أعطافَهم وجعلوا يقبّلون وجه ابن سريج. فنزل فأقام عندهم ثلاثًا، والغَرِيض لا ينطِق بحرف، وأخذوا في شرابهم وقالوا: يا حبيب النفس وشقيقها، أَعْطِها بعضَ شأنها. فضرب بيده إلى جيبه فأخرج منه مِضرابًا ثم أخذه بيده ووضع العود في حجره ـ فما رأيتُ يدًا أحسنَ من يده ولا خشبةً تخيّلتْ لي أنها جوهرةٌ إلّا هي ـ ثم ضرب فلقد ضجّ القومُ جميعًا؛ ثم غنّى فكلٌّ قال: لبّيْك لبّيْك! فكان ممّا غنّى به واللّحن له هزجٌ: [من مجزوء الرجز]

لبّيكِ يا سيّدتي ... لبّيكِ ألفًا عددا

لبّيكِ من ظالمةٍ ... أحببتُها مجتهِدا

قُومي إلى ملعبنا ... نَحْكِ الجواري الخُرَّدَا[4]

وضْعَ يَدٍ فوق يَدٍ ... نرفعها يدًا يدا

---

(١) ثوائي: إقامتي.

(٢) المصلّى: مكان الصلاة، ويقصد به مسجد الرسول ﷺ.

(٣) البقيع: اسم موضع بعينه قريب جدًا من مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنوّرة.

(٤) الخرّد: الشابات الحسان، جمع خريدة.

فكلٌّ قال: نفعل ذاك؛ فلقد رأيتنا نستبق أيّنا تقع يده على يده. ثم غنّى: [من مجزوء الكامل]

ما هاج شوقَك بالصَّرائمْ ... رَبْعٌ أحال لآل عاصِمْ
ربعٌ تقادَم عهده ... هاج المحبَّ على التقادم
فيه النواعمُ والشبا ... بُ النّاعمون مع النواعم
مِن كل واضحة الجبيـ ... ـن عَميمةٍ ريّا المعَاصِم[1]

ثم غنّى بقوله: [من الطويل]

شجاني[2] مغاني[3] الحيّ وانشقّتِ العصا
وصاح غرابُ البين أنتَ مريضُ
ففاضت دموعي عند ذاك صبابةً
وفيهنّ خَوْدٌ[4] كالمهاة[5] غَضِيضُ[6]
ووَلّيْت محزونَ الفؤادِ مُرَوَّعًا
كئيبًا ودمعي في الرداء يَفِيض

قال: فلقد رأيتُ جماعةً من الطير وقَعْن بقربنا وما نُحِسّ من قبل ذلك منها شيئًا. فقالت الجماعة: يا تَمام السرور وكمالَ المجالس، لقد سَعِد من أخذ بحظّه منك وخاب من حُرِمك، يا حياةَ القلوب ونسيمَ النفوس جعلنا الله فداءَك، غنّنا. فغنّى: [من مجزوء الكامل]

يا هندُ إنكِ لو علمـ ... ـتِ بعَاذِلَيْن[7] تتابعا

قال: فبَدَرْتُ من بينهم فقبَّلت عينيه، فتهافت القومُ عليه يقبّلونه، ولقد رأيتُني وأنا أرفعهم عنه شفقةً عليه.

---

(١) ريّا المعاصم: كناية عن امتلائها وبضاضة لحمها ونعومة بشرتها.
(٢) شجاني: أحزنني. (٣) المغاني: الديار الحسنة العامرة.
(٤) الخود: العذراء الفتاة الناعمة. (٥) المهاة: بقرة الوحش.
(٦) غضيض: أي تغضّ طرفها، فطرفها ناعس، وهذا مستملح منها.
(٧) العاذلان: اللائمان.

وكانت وفاةُ ابن سريج بالعلّة التي أصابته من الجُذام[١] بمكّة في خلافة سليمان بن عبد الملك[٢] أو في خلافة الوليد، ودُفن في موضع يقال له «دَسْم»[٣]، رحمة الله عليه وعفا عنه وغفر له، والحمد لله ربّ العالمين.

حُكِي أنه لما احتُضِر[٤] نظر إلى ابنته تبكي فبكى، وقال: إنه مِن أكبر همّي أنتِ وأخشى أن تضيعي بعدي. فقالت: لا تخَفْ فما غنّيتَ شيئًا إلا وأنا أغنّيه. فقال: هاتي، فاندفعت فغنّت وهو مصغٍ إليها. فقال: قد أصبتِ ما في نفسي وهوّنتِ عليّ أمرَكِ. ثم دعا سَعِيدَ بن مسعود الهُذَليّ، فزوّجه إيّاها؛ فأخذ أكثرَ غناء أبيها وانتحله.

ذكر أخبار معبد

هو معبَدُ بنُ وهبٍ، وقيل: ابن قَطَنيّ، مولى ابن قَطَن؛ وقيل: إن قَطَنًا مولى العاص بن واقِصة المخزوميّ، وقيل: مولى معاوية بن أبي سفيان، غنّى معبد في أيام بني أُميّة في أوائِلها، ومات في أيام الوليد بن يزيد بدمشق.

قال أبو الفرج الأصفهانيّ:

إنّه لمّا مات خرجت سَلامة جاريةُ الوليد بن يزيد بن عبد الملك وأخذت بعمود السرير والناسُ ينظرون إليها وهي تَنْدُبه وتقول شعرَ الأحوص: [من مجزوء الرمل]

قد لعَمْرِي بِتُّ ليلي كأخِي الداءِ الوَجِيعِ
ونجيُّ الهمّ مِنّي بات أدنى من نَجِيعِي[٥]
كلّما أبصرتُ ربعًا خاليًا فاضت دموعِي
قد خلا من سيّدٍ كا ن لنا غيرَ مُضِيعِ
لا تَلُمْنا إن خشعنا أو هَمَمْنا بخشوعِ

(١) الجذام: مرض يأكل الأعضاء فتتساقط.
(٢) سليمان بن عبد الملك: الخليفة الأموي السابع. أسّس مدينة الرملة. حاصر القسطنطينية فلم يستطع فتحها. توفي في دابق قرب حلب سنة ٩٩ هـ/ ٧١٧ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٢٧٥.
(٣) دسم: اسم موضع.
(٤) احتضر: صار في النزاع الأخير من حياته وأشرف على الموت.
(٥) النجيع: الدم.

وكان معبد قد علّمها هذا الصوتَ فنَدبته به. قال إسحٰقُ بن إبراهيم الموصليّ: كان معبدُ من أحسن الناس غِناءً، وأجودِهم صنعة، وأحسنِهم خَلْقًا، وهو إمام أهل المدينة في الغناء، وأخذ عن سائب خاثِرٍ ونَشِيط الفارسيّ مولى عبد الله بن جعفر، وعن جَميلة مولاة بَهْز (بطن من بني سليم). وفي معبدٍ يقول الشاعر: [من الطويل]

أجاد طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِيُّ بعده　　وما قَصَباتُ السَّبْق[١] إلا لمعبدِ

وحكى أبو الفرج أيضًا:

أن الوليد بنَ يزيدَ اشتاق إلى معبد، فوجّه إليه البريدَ إلى المدينة فأحضره، فلمّا بلَغ الوليدَ قدومُه أمر ببركة مُلِئَتْ ماء وَرد وخُلِط بمسك وزعفران، ثم جلس الوليد على حافّة البركة وفُرِش لمعبدٍ مُقابِلَه وضُرِب بينهما سِترٌ ليس معهما ثالث. وجيء بمعبد فقيل له: سلِّم على أمير المؤمنين واجلس في هذا الموضع؛ فسلَّم فردّ عليه من خَلْف السَّجف[٢]، ثم قال له: أتدري لِمَ وجّهتُ إليك؟ قال: الله أعلم وأمير المؤمنين. قال: ذكرتُك فأحببتُ أن أسمع منك. فقال له معبد: أأُغَنّي ما حضر أو ما يقترحه أميرُ المؤمنين؟ قال: بل غَنِّ: [من البسيط]

ما زال يعدو عليهم رَيْبُ دهرهُم[٣]　　حتى تفانَوْا[٤] وريبُ الدهر عدَّاء[٥]

فغنّاه، فرفع الجواري السَّجَف، ثم خرج الوليدُ فألقى نفسه في البركة فغاص فيها، ثم خرج منها، فاستقبله الجواري بثياب غيرِ الثياب التي كانت عليه، ثم شرب وسقى معبدًا ثم قال له: غنِّني يا معبد: [من الكامل]

يا رَبْعُ ما لَكَ لا تُجِيبُ متيَّمًا[٦]　　قد عاجَ[٧] نحوَك زائرًا ومسلِّما

جادَتك[٨] كلُّ سحابةٍ[٩] هطَّالةٍ　　حتى تُرى عن زَهْرةٍ[١٠] متبسِّما

لو كنتَ تدري من دعاك أجبتَه　　وبكيتَ مِن حُرَقٍ عليه إذًا دما

---

(١) قصبة السبق: ما يدلّ على السابق المجلّي في الحلبة.
(٢) السجف: الستر.
(٣) ريب الدهر: صرفه.
(٤) تفانوا: أفنى بعضهم بعضًا.
(٥) عدّاء: سريع العدو، والعداوة أيضًا.
(٦) المتيّم: العاشق المتبول.
(٧) عاج: مال.
(٨) جادتك: أصابتك ومنحتك.
(٩) السحابة الهطّالة: الغيمة الممطرة.
(١٠) الزهرة: الحسن والنضارة.

قال: فغنّاه، وأقبل الجواري فرفعن السِّتر، وخرج الوليد فألقى نفسه في البركة فغاص فيها ثم خرج، فلبِس ثيابًا غير تلك الثياب، ثم شَرِب وسقى معبدًا وقال له: غنِّني يا معبد: [من مجزوء الرمل]

عَـجِـبَـتْ لـمّـا رأتـنِـي	أنـدُب[1] الـربع الـمُـحِـيـلا
واقـفًـا فـي الـدار أبـكِـي	لا أرى إلّا الـطـلولا[2]
كـيـف تـبـكـي لأنـاسٍ	لا يَـمَـلُّون الـذَّمِـيـلا[3]
كـلّما قـالـت اطـمـأنـتْ	دارُهـم جَـدّوا الـرَّحـيـلا[4]

قال: فلمّا غنّاه ألقى نفسه في البركة ثم خرج فردّوا عليه ثيابَه، ثم شرب وسقى معبدًا وقال له: يا معبد، من أراد أن يزداد حُظوةً عند الملوك فليكتم أسرارَهم. فقال: ذلك ممّا لا يَحتاج أميرُ المؤمنين إلى إيصائي به. فقال الوليد: يا غلام احمل إلى معبد عشرةَ آلاف دينار تَحصَّل له في بلده وألفَيْ دينار لنفقة طريقه؛ فحُمِلت إليه كلّها، وحُمِل على البريد من وقته إلى المدينة. وقد قيل: إنه أعطاه في ذلك المجلس خمسة عشر ألف دينار.

وقال أبو الفرج بسند رفعه:

إن معبدًا كان قد علّم جاريةً من جواري الحجاز الغناءَ تُدعى «طيبة»، وعُنِي بتخريجها؛ فاشتراها رجل من أهل العراق وأخرجها إلى البصرة وباعها هناك، فاشتراها رجل من أهل الأهواز[5] فأُعْجب بها وذهبت به كلَّ مذهبٍ وغَلبت عليه، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده برهةً من الزمان؛ فأخذ جواريه أكثرَ غنائِها عنها. فكان لمحبّته إيّاها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقرُّه، ويُظهر التعصّبَ له والميلَ إليه والتقديمَ لغنائه على سائر الأغاني من أهل عصره، إلى أن عُرِف ذلك منه وبلغ معبدًا خبرُه. فخرج من مكة حتى أتى البصرةَ؛ فلما وردها صادفَ الرجلَ قد خرج عنها في ذلك الوقت واليوم إلى الأهواز، فجاء معبدٌ في طلب سفينة تحمله إلى الأهواز، فلم يجد غيرَ سفينة الرجل، فركِب فيها وكلاهما لا يعرف الآخَر؛ وانحدرت السفينةُ. فلما صاروا بفمِ نهر الأُبُلّة[6]، أمر الرجلُ جواريَه بالغناء فغَنَّيْن، إلى أن غنّت

---

(١) أندب: أبكي أسفًا.
(٢) الطلول: ما بقي من المنازل الدارسة.
(٣) الذميل: ضرب من السير.
(٤) جدّوا الرحيل: شدّوا إليه الركائب.
(٥) الأهواز: كورة، أو مدينة، من بلاد خوزستان بين العراق وفارس.
(٦) الأبلّة: مدينة قديمة كانت تقع على دجلة قريبًا من البصرة.

إحداهنّ صوتًا من غناء معبد فلم تُجِدْ أداءَه؛ فصاح بها معبد: يا جاريةُ، إن غناءَك هذا ليس بمستقيم. فقال مولاها وقد غَضِب: وأنت ما يُدريك الغناء ما هو! ألَا تُمْسِكُ وتلزَمُ شأنَك! فأمسك. ثم غنّت أصواتًا من غناء غيره وهو ساكتٌ لا يتكلّم حتى غنّت من غنائه فأخلّت ببعضه؛ فقال لها معبد: يا جارية، قد أخللتِ بهذا الصوت إخلالًا كثيرًا. فغضب الرجل وقال له: ويلك! ما أنتَ والغناءَ! ألا تَكُفّ عن هذا الفضول! فأمسك معبدٌ. وغنّى الجواري مليًّا؛ ثم غنَّت إحداهنّ صوتًا من غنائه فلم تَصْنَع فيه شيئًا. فقال لها معبد: يا هذه، أمَا تَقُومين على أداء صوتٍ واحد! فغضب الرجلُ وقال له: ما أراك تَدَعُ هذا الفضولَ بوجهٍ ولا حيلةٍ! فأُقْسِم بالله إن عاودتَ لأُخرِجنّك من السفينة. فأمسك معبدٌ، حتى سكتت الجواري سَكْتةً، فاندفع يغنّي الصوت الأوّل حتى فرغ منه. فصاح الجواري: أحسنتَ والله يا رجل، فأَعِده. قال: لا والله ولا كرامةَ. ثم اندفع يغنّي الثاني؛ فقلن لسيّدهنّ: ويحك! هذا والله أحسن الناس غناءً، فسَلْه أن يُعيده علينا ولو مرّة واحدة لعلّنا نأخذه منه، فإنه إن فاتنا لم نَجِدْ مثلَه أبدًا. قال: قد سمعتنّ سوءَ ردّه عليكنّ وأنا خائف مثلَه منه، وقد استقبلناه بالإساءة، فاصْبِرْن حتى نُداريَه. قال: ثم غنّى الثالثَ فزلزل عليهم الأرضَ. فوثب الرجل فقبّل رأسَه وقال: يا سيّدي أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك. فقال له: وَهَبْكَ لم تعرِف موضعي، قد كان ينبغي لك أن تتثبّت ولا تُسرعَ إلى سوء العِشرة وجفاءِ القول. فلم يزل يرفُق به حتى نزل إليه، وكان معبدٌ قد أُجلس في مؤخّر السفينة. فقال له الرجل: ممن أخذتَ هذا الغناء؟ قال: من بعض أهل الحجاز، فمن أين أخذه جواريك؟ قال: أخذته من جارية كانت لي، كانت قد أخذت الغناءَ عن أبي عَبّاد معبد وكانت تَحُلّ مني مكانَ الروح من الجسد، ثم استأثر الله بها وبقي هؤلاء الجواري وهنّ من تعليمِها، فأنا إلى الآن أتعصّب لمعبد وأفضّله على المغنّين جميعًا، وأفضّل صنعَته على كل صنعة. فقال له معبد: وإنك لأنت هو! أفتعرِفني؟ قال: لا. قال: فصَكّ[1] معبد بيده صلعَته، ثم قال: فأنا والله معبدٌ وإليك قَدِمتُ من الحجاز ووافيتُ البصرةَ ساعةَ نزلتُ السفينةَ لأقصدك بالأهواز، ووالله لا قصّرتُ في جواريك هؤلاء ولأجعلنّ لك في كل واحدة خَلَفًا من الماضية. فأكبّ الرجلُ والجواري على يده ورجليه يقبّلونها، ويقولون: كتَمْتَنا نفسَك حتى جَفَوْناك[2] في

(١) صكّ: ضرب.
(٢) جفوناك: أغلظنا لك في معاشرتَك، وكرهناك.

المخاطبة وأسأنا عشرتَك وأنت سيّدُنا ومن نتمنّى أن نلقاه. ثم غيّر الرجلُ أثواب معبد وخلع عليه عدّة خِلَع وأعطاه في ذلك الوقت ثلاثمائة دينار وطِيبًا وهدايا مثلها، وانحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى رَضِي حِذْقَ جواريه، ثم ودّعه وانصرف إلى الحجاز.

ذكر أخبار الغريض
وما يتّصل بها من أخبار عائشة بنت طلحة

هو عبدُ الملك، وكنيتُه أبو زيدٍ، وقيل: أبو مروان. والغَرِيضُ لقبٌ لقّب به؛ لأنه كان طَرِيّ الوجه نَضِرًا غَضّ الشباب حسن المنظر، فلُقّب بذلك. والغريض: الطّريّ من كل شيء. وقال ابن الكلبي: شُبّه بالإغريض وهو الجُمّار[(١)] ثم ثَقُلَ ذلك على الألسنة فحذفت الألف، فقيل: الغَرِيض، وهو من مُوَلَّدِي البَرْبَر[(٢)]. وولاؤه للثريّا (صاحبةِ عمر بن أبي ربيعة) وأخواتِها الرُّضَيّا وقُرَيبةَ وأمّ عثمانَ بناتِ عليّ بنِ عبد الله بن الحارثِ بنِ أميّة الأصغر. قالوا: وكان يضرب بالعود وينقر بالدّفّ ويُوقِع بالقضيب، وكان قبل الغناء خيّاطًا، وأخذ الغناءَ في أوّل أمره عن عُبيد بن سُرَيْج؛ لأنه كان قد خدمه، فلما رأى ابن سريج طبعَه وظَرْفَه وحلاوةَ منطقه، خشِي أن يأخذه غناءَه فيغلبَه عليه ويفوقَه بحسن وجهه، وحسَده، فاعتلّ عليه وشكاه إلى مَوْلياتِه، وكنّ دفعنَه إليه ليعلّمه الغناءَ، وجعل يتجنّى عليه ثم طرده. فعَرَّف مَوْلَياتِه غرضَ ابن سريج فيه وأنه حَسَده؛ فقلن له: هل لك أن تسمع نَوْحَنا على قتلانا فتأخذه وتغنّي عليه؟ قال: نعم، فأسمعنه المراثيَ فاحتذاها[(٣)] وخرَّج غناءه عليها. وكان ينوح مع ذلك فيدخل المآتِمَ وتُضْرَب دونه الحُجُب ثم ينوح فيفتِن كلَّ من سمعه. فلما كثر غناؤه عدَل الناسُ[(٤)] إليه لما كان فيه من الشَّجا[(٥)]؛ فكان ابن سريج لا يغنّي صوتًا إلا عارضَه فيه فيغنّي فيه لحنًا آخر، فلما رأى ابنُ سريج موقعَ الغَرِيض اشتدّ عليه وحسده، فغنّى الأرمالَ والأهزاجَ، فاشتهاها الناسُ. فقال له الغَرِيض: يا أبا يحيىٰ قصّرتَ الغناء وحذفتَه. قال: نعم يا مخنّثُ حين جعلتَ تنوح على أبيك وأمّك. قال: ولم يُفَضّل ابنُ سريج عليه إلا بالسَّبْق، وأما غير ذلك فلا.

---

(١) الجمّار والإغريض: كل شيء طريّ، ويكون أبيض. والجمّار، خاصة، هو قلب النخلة.
(٢) البربر: الأعاجم الذين نشأوا في بيئة عربية وتأثروا بالعرب وأخلاقهم وآدابهم.
(٣) احتذاها: اتّخذها حذوة، أي قلّدها. (٤) عدلوا إليه: مالوا.
(٥) الشجا: الحزن والنّغم.

وقال بعضُهم: كان الغَرِيضُ أشجى غناءً، وابنُ سريج أحكَم صنعةً. وحكى أبو الفرج الأصفهاني بسند رفعه إلى أيّوب بن عَبَايَةَ عن مولى لآل الغَرِيض، قال: حدّثني بعضُ مولياتي وقد ذَكَرْن الغَرِيضَ فترحَّمْن عليه، وقلن: جاءنا يومًا فحدّثنا بحديث أنكرناه عليه ثم عرفناه بعد ذلك حقيقةً. قالت: وكان ابنُ سُرَيْج بجوارنا فدفعناه إليه ولُقِّن الغناء، وكان من أحسن الناس صوتًا، ففتَن أهلَ مكّةَ بحسن وجهه مع حسن صوته. فلما رأى ذلك ابنُ سريج نحّاه عنه. فكان بعضُ مولياته تعلِّمه النِّياحة فبرَّز فيها، فجاءني يومًا فقال: نَهَتْني الجنّ أن أنوحَ وأسمعتني صوتًا عجيبًا، فقد ابتنيتُ عليه لحنًا فاْسمعِيه مني، فاندفع فغنّى بصوتٍ عجيبٍ في شعرٍ لمَرّار الأسديّ[1]: [من الطويل]

حلفتُ لها بالله ما بين ذي الغَضَا[2] وهَضْبِ القَنَان من عَوَانٍ ومن بِكْرِ[3]
أحبُّ إليـنـا مـنـكِ دَلّا ومـا نـرى بـه عـنـد لـيـلى مـن ثَـوابٍ ولا أجرِ

قالت: فكذّبناه وقلنا: شيءٌ فكّر فيه وأخرجه على هذا الجنس. فكان في كل يوم يأتينا، فيقول: سمعت البارحة صوتًا من الجنّ بترجيع وتقطيع، فقد بنيتُ عليه صوت كذا وكذا بشعر فلان، فلم يزل على ذلك ونحن نُنكر عليه، فإنا لكذلك ليلةً وقد اجتمع جماعةٌ من نساء أهل مكّة في جمع لنا سَمَرْنا[4] فيه ليلتَنا والغَرِيضُ يغنّينا بشعر عمرَ بن أبي ربيعةَ، حيث يقول: [من المتقارب]

أمِـن آل زيـنـبَ جـدّ[5] الـبـكـورُ نَـعَـمْ فـلأيِّ هـواهـا تَـصِـيـرُ

إذ سمعنا في بعض الليل عَزِيفًا عجيبًا وأصواتًا ذعَرتْنا وأفزعتْنا. فقال لنا الغَرِيضُ: إن في هذه الأصوات صوتًا إذا نِمْتُ سمعتُه وأُصْبِح أبني عليه غِنائي؛ فأصغينا إليه فإذا نغمتُه نغمةُ الغَرِيض بعينها، فصدّقناه تلك الليلة.

وكانت وفاةُ الغَرِيض باليمن في خلافة سليمانَ بنِ عبد الملك أو عمرَ بن عبد العزيز؛ وكان قد هرب من نافع بن عَلْقمة لمّا ولي مكّةَ من مكّة إلى اليمنِ واستوطنها ومات بها.

---

(١) هو المرار بن سعيد الفقعسي الأسدي، من شعراء الدولة الأموية. كان مفرط القصر، ضئيل الجسم له هجاء وشعر كثير.
(٢) ذو الغضا وهضب القنان: موضعان بعينهما.
(٣) العوان من النساء وغيرهنّ: ما كان متوسّطًا في العمر. والبكر: الشابّة الفتيّة.
(٤) سمرنا: سهرنا نتحادث. (٥) جدّ: نشط.

وللغريض أخبارٌ مستظرفة وحكاياتٌ مستحسنةٌ قد رأينا أن نُثبِت في هذا الموضع ما سنقفُ عليه إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك ما حكاه أبو الفرج الأصبهانيّ في كتابه المترجم بالأغاني في أخبار الحارثِ بنِ خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المَخْزوميّ، بعد أن ساق قطعة من أخباره مع عائشة بنتِ طلحةَ بن عُبيد الله، وأنه كان يهواها ويشبِّب بها في شعره، ثم قال في أثناء ذلك: لمّا قدِمتْ عائشةُ بنت طلحة مكّة أرسل إليها الحارثُ وهو أمير مكّة يومئذ، وكان وَلِيَها من قِبَل عبد الملك بن مروان، فأرسل إليها: إني أريد السلام عليك؛ فإذا خفّ ذلك عليهِ أذِنتِ، وكان الرسولُ الغريضَ. فأرسلت إليه: إنّا حُرُمٌ[1]، فإذا أحللْنا أذِنّاك. فلما أحلّت خرجت سرًّا على بغلتها، ولحقها الغَريضُ بعُسْفان[2] أو قريب منه ومعه كتاب الحارثِ إليها، وفيه: [من السريع]

ما ضَرّكم لو قلتُم سَدَدًا[3] إنّ المطايا[4] عاجلٌ غَدُها

ولها علينا نعمةٌ سلَفت لسنا على الأيام نجحَدُها

لو أتْمَمَتْ أسبابَ نِعمتها تَمّتْ بذلك عندنا يَدُها

فلما قرأت الكتابَ قالت: ما يَدَع الحارثُ باطلَه! ثم قالت للغريض: هل أحدثتَ شيئًا؟ قال: نعم فاسمعي، ثم اندفع يغنّي في هذا الشعر. فقالت عائشةُ: والله ما قلنا إلا سَدَدًا ولا أردنا إلا أن نشتريَ لسانَه؛ واستحسنت الشعرَ، وأمرت للغَريض بخمسة آلاف درهم وأثوابٍ، وقالت: زِدْني، فغنّى في قول الحارث أيضًا حيث يقول: [من الكامل]

زعَموا بأنّ البَيْن بعد غَدِ فالقلبُ ممّا أحدثوا يَجِفُ[5]

والعينُ مُنذ أُجِدّ بينُهُم مثلَ الجُمَان[6] دموعُها تَكِفُ[7]

نشكو وتشكو ما أَشَتّ بنا[8] كلٌّ بوَشْك البين مُعْتَرِف

ومَقالُها ودُموعُها سُجُمٌ[9] أَقْلِلْ حنينَك حين تَنْصرف

---

(١) حرم: أي بدون أزواج أو رجال.
(٢) عسفان: اسم موضع بعينه.
(٣) السدد: الصواب.
(٤) المطايا: الدواب التي تركب.
(٥) يجف: يضطرب.
(٦) الجمان: اللؤلؤ.
(٧) تكفُ: تسيل بالدمع.
(٨) أشتّ بنا: فرّق وباعد.
(٩) سجم: منسكبة.

فقالت عائشة: يا غريضُ، بحقّي عليك أهو أمرك أن تغنّيني في هذا الشعر؟ قال: لا وحَياتِك يا سيّدتي؛ فأمرت له بخمسة آلاف درهم، ثم قالت: غنّني في غير شعره؛ فغنّاها بشعر عمر بن أبي ربيعة ـ وكان عمرُ قد سأله ذلك ـ فقال: [من الخفيف]

أَجْمعتْ خُلّتي[1] مع الهجر بَيْنَا ... جَـلَّل الله ذلـك الـوجـهَ زَيْـنـا

أجمعتْ بَيْنَها ولم نَكُ منها ... لـذّةَ العيشِ والشبابِ قَضَيْنا

فتولّت حُمولُها واستقلّت ... لم تُنِلْ طائلًا ولم تَقْضِ دينا

ولقد قلتُ يوم مكّة لمّا ... أرسلتْ تقرأُ السلام علينا

أنعم الله بالرسولِ الذي أر ... سل والمُرْسِلِ الرسالة عَيْنا

قال: فضحكت ثم قالت: وأنت يا غريضُ، فأنعم الله بك عينًا وأنعِمْ بابنِ أبي ربيعةَ عينًا، لقد تلطّفت حتى أدّيتَ إلينا رسالتَه، وإنّ وفاءك له لممّا يزيدنا رغبةً فيك وثقةً بك. وكان عمر سأل الغَريضَ أن يغنّيها بشعره هذا لأنه كان قد ترك ذكرها لمّا غَضِبت بنو تَيْم من ذلك، فلم يُحِبَّ التصريحَ بها وكرِه إغفالَ ذكرها. فقال له عمرُ بن أبي ربيعة: إنْ إبلغتَها هذه الأبيات في غناءٍ فلك خمسة آلاف درهم، فوفّى له، وأمرتْ له عائشةُ بخمسة آلاف درهم. ثم انصرف الغَريض من عندها، فلقِي عاتكةَ بنتَ يزيد بن معاوية امرأةَ عبد الملك بن مروان، وقد كانت حجّت في تلك السنة؛ فقال لها جواريها: هذا الغريضُ. فقالت لهنّ: عليّ به؛ فجِئْن به إليها. قال الغريض: فلما دخلتُ سلّمتُ فردّت عليّ وسألتني عن الخبر، فقصصته عليها، فقالت: غنّني بما غنّيتَها به، ففعلتُ؛ فلم أرها تَهَشُّ لذلك؛ فغنّيتها معرِّضًا ومذكِّرًا بنفسي في شعر مُرّةَ بن مَحْكان السَّعْدِيّ يخاطب امرأته وقد نزل به أضياف: [من البسيط]

أقول والضيفُ مخشيٌّ ذِمامَتُه[2] ... على الكريم وحقُّ الضيف قد وَجَبَا

يا ربّة البيت قُومي غيرَ صاغرةٍ ... ضُمّي إليكِ رِحال القوم[3] والقِرَبا[4]

في ليلةٍ من جُمادى ذاتِ أنديةٍ ... لا يُبصِر الكلبُ في ظَلْمائها الطُّنُبا[5]

لا ينبَح الكلبُ فيها غيرَ واحدة ... حتى يَلُفّ على خَيْشومه[6] الذَّنَبا

---

(١) خلّتي: صاحبتي. (٢) الذمامة: الذمّة والعهد.

(٣) رحال القوم: الأمتعة التي معهم، والتي تحمل فوق الجمال.

(٤) القرب: جمع قربة، وهي وعاء الماء. (٥) الطنب: الحبال.

(٦) خيشومه: أنفه.

فقالت وهي مبتسمة: نعم وقد وجب حقُّك يا غَرِيضُ، فغنِّني؛ فغنّيتُها: [من الكامل]

يـا دهرُ قـد أكـثـرتَ فَـجْـعَـتـنـا[١] بسَرَاتنا[٢] ووقَرْتَ[٣] في العَظْم
وسـلـبـتـنـا مـا لـسـتَ مُـخْـلِفَـه يا دهر ما أنصفتَ في الحُكْم
لـو كـان لـي قـرنٌ[٤] أنـاضـله[٥] ما طاش[٦] عند حَفِيظةٍ[٧] سَهْمي
لو كان يُعطِي النَّصْفَ[٨] قلتُ له أحرزتَ قِسمك فآلُهُ عن قِسْمي

فقالت: نُعطيك النَّصْفَ فلا يضيعُ سهمُك عندنا ونُجزل لك[٩] قِسْمَك، وأمرت له بخمسة آلاف درهم وثياب عَدَنِيّة وغير ذلك من الألطاف. قال الغَرِيض: فأتيتُ الحارثَ بنَ خالدٍ فأخبرتُه الخبرَ وقَصَصْتُ عليه القصّة؛ فأمر لي بمثل ما أمرتا لي جميعًا؛ وأتيتُ ابن أبي ربيعةَ فأعلمتُه بما جرى، فأمر لي بمثل ذلك. فما انصرف أحدٌ من ذلك الموسِم بمثل ما انصرفتُ به: نظرة من عائشةَ، ونظرة من عاتكةَ ـ وهما أجملُ نساءِ عالَمِهما ـ وبما أمرتا لي به، والمنزلةُ عند الحارث ـ وهو أمير مكّة ـ وابنِ أبي ربيعة وما أجازاني به جميعًا من المال.

ولْنَصِلْ هذا الفصلَ بشيءٍ من أخبار عائشةَ بنتِ طلحة؛ لأن الشيء بالشيء يُذكر.

هي عائشةُ بنتُ طلحةَ بنِ عُبيدِ الله بن عثمانَ بنِ عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم. وأمّها أُمُّ كلثوم بنتُ أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه. وكانت عائشةُ لا تسترُ وجهَها من أحد، فعاتبها مُصْعب في ذلك، فقالت: إن الله تبارك وتعالى وسَمَني بميسَم جمال أحببتُ أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم فما كنتُ لأستره، ووالله ما فِيّ وَصْمةٌ[١٠] يقدِر أن يذكرني بها أحد.

قال أبو الفرج الأصبهانيّ: وكانت شَرِسةَ الخُلُق، وكذلك نساءُ بني تيم، هنّ أشرسُ خلق الله خُلُقًا وأحظاهنّ[١١] عند أزواجهنّ. قال: وآلَت[١٢] عائشةُ من

(١) فجعتنا: مصيبتنا.
(٢) سراتنا: أشرافنا وأعلانا.
(٣) وقرت: حللت.
(٤) القرن: المثيل.
(٥) أناضله: أصارعه.
(٦) طاش السهم: خاب ولم يصب الهدف.
(٧) الحفيظة: الغضب.
(٨) النصف: العدل.
(٩) نجزل لك: نوفيك العطاء.
(١٠) الوصمة: العيب والسوء.
(١١) أحظاهنّ: أكثرهنّ حظوة ومكانة.
(١٢) آلت: طلقت نفسها منه بالإيلاء.

زوجها مصعب بن الزبير، فقالت: أنتَ عليّ كظهر أُمّي، وقعدتْ في غرفةٍ وهيّأت ما يُصْلِحها، فجهِد مصعبٌ أن تكلّمه فأبت، فبعث إليها ابنَ قيس الرُّقَيَّات[١] فسألها كلامَه، فقالت: كيف بيميني؟ فقال: هٰهنا الشَّعْبيّ فقيه أهل العراق فاستفتِيه. فدخل الشّعبيّ عليها فأخبرتْه، فقال: ليس هذا بشيء؛ فأمرت له بأربعة آلاف درهم.

وحكى أبو الفرج أنّ مصعب بن الزبير لمّا عزمَ على زواج عائشةَ بنتِ طلحة، جاء هو وعبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصدّيق وسَعِيدُ بن العاص[٢] إلى عزة المَيْلاء ـ وكانت عزّة هذه يألفها الأشرافُ وغيرُهم من أهل المرُوءات، وكانت من أظرف الناس وأعلمِهم بأمور النساء ـ فقالوا لها: إنّا خطبنا فانظري لنا. فقالت لمصعب: يا ابن أبي عبد الله، ومَن خطبتَ؟ قال: عائشة بنت طلحة. قالت: فأنت يا ابن أبي أُحَيْحَة؟ قال: عائشة بنت عثمان بن عفّان. قالت: فأنت يا ابن الصّدّيق؟ قال: أمّ الهيثم بنت زكريا بن طلحة. فقالت: يا جارية، هاتي مَنْقَليّ (تعني خفّيها)، فلبستهما وخرجت ومعها خادمٌ لها، فبدأت بعائشة بنت طلحة، فقالت: فديتُك، كنّا في مأدبة أو مأتم لقريش، فتذاكروا جمالَ النساء وخَلْقَهن فذكروكِ فلم أَدْرِ كيف أصِفُك، فديتك، فألقِي ثيابك؛ ففعلت فأقبلت وأدبرت فارتجّ كلُّ شيء منها. فقالت لها عزّة: خُذِي ثوبك. فقالت عائشة: قد قضيتِ حاجتكِ وبقيت حاجتي. فقالت عزّة: وما هي؟ فديتُك! قالت: تغنّيني صوتًا. فاندفعت تغنّي لحنها في شعرٍ لجميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذْرِيّ[٣]: [من الطويل]

خَلِيلَيّ عُوجَا[٤] بالمحلّة من جُمْلٍ[٥] ... وأترابِها[٦] بين الأُصَيْفِرِ فالحَبْلِ[٧]

نَقِفْ بمَغَانٍ[٨] قد عفا رسمَها البِلَى ... تَعَاقَبُها الأيامُ بالرّيح والوَبْلِ[٩]

---

(١) هو عبيد الله بن قيس الرقيات، من شعراء العصر الأموي الأجواد، كانت وفاته سنة ٨٥ هـ/ ٧٠١ م.

(٢) سعيد بن العاص: صحابي من الأمراء والولاة الفاتحين. ولّاه عثمان بن عفان الكوفة ثم المدينة. كانت وفاته سنة ٥٩ هـ/ ٦٧٩ م.

(٣) هو الشاعر الأموي المشهور، من بني عذرة، جميل بثينة، تغنّى بحبيبته بثينة فعُرف بها، شعره الغزلي عذري رقيق، مات نحو ٨٥ هـ/ ٧٠١ م.

(٤) عوجا: ميلا وانزلا.

(٥) جمل: صفة لبثينة.

(٦) أترابها: صديقاتها ومثيلاتها.

(٧) المحلة والأصيفر والحبل، أسماء مواضع بعينها.

(٨) المغاني: الديار العامرة الناضرة.

(٩) الوبل: المطر.

فلو دَرَج النملُ الصغار بجلدها ... لأَنْدَب أعلى جلدها[١] مَدْرَجُ النّمل
وأحسن خلق الله جِيدًا ومُقلةً ... تُشَبَّه في النّسوان بالشادِن الطّفل[٢]

فقبّلت عائشةُ ما بين عينيها ودعت لها بعشرة أثواب وطرائف من أنواع الفضّة، فدفعته إلى مولاتها. وأتت النّسوة على مثل ذلك تقول ذلك لهنّ. ثم أتت القومَ في السقيفة، فقالوا: ما صنعتِ؟ فقالت: يا ابن أبي عبد الله، أمّا عائشةُ فلا والله ما رأيتُ مثلها مُقبِلةً ولا مُدبرة، محطوطة[٣] المتنين، عظيمةَ العجيزة[٤]، ممتلئةَ الترائب[٥]، نقيّةَ الثغر وصفحةِ الوجه، فرعاءَ الشعر[٦]، ممتلئةَ الصدر، خمِيصة البطن[٧] ذات عُكَنٍ[٨]، ضخمةَ السُّرّة[٩]، مُسَرْوِلةَ الساق، يرتجّ ما بين أعلاها إلى قدميها؛ وفيها عيبان، أمّا أحدُهما فيواريه الخِمارُ[١٠]، وأما الآخرُ فيواريه الخُفّ: عِظَمُ الأُذنِ والقدم. وكانت عائشة بنت طلحة كذلك. ثم قالت عزّة: وأما أنت يا ابن أبي أُحَيْحَة، فإني والله ما رأيتُ مثل خَلْق عائشة بنت عثمان لامرأةٍ قطّ! ليس فيها عيب والله لكأنما أفرِغتْ إفراغًا ولكن في الوجه رَدّةٌ، وإن استشَرتَني أشرتُ عليك. قال: هاتِ. قالت: عليك بوجه تستأنس به. وأما أنت يا ابن الصدّيق، فوالله ما رأيتُ مثل أمّ الهيثم، كأنها خُوط بانة[١١] تنثني، أو كأنها جانٌّ يتثنّى على رمل، لو شئتَ أن تعقِد طَرفيها لفعلتَ، ولكنها شَخْتَةُ الصدر[١٢] وأنت عريض الصدر، فإذا كان كذلك كان قبيحًا، لا والله حتى يملأ كلُّ شيء مثلَه، قال: فوصلها الرجال والنساء وتزوّجوهنّ.

وحكى أبو الفرج أيضًا: أنّ مصعبَ بن الزبير إنما تزوّجها بعد عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر، وقال: وكانت عائشةُ بنت طلحة تُشَبّه بخالتها عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، فزوّجتها عائشةُ من ابن أخيها عبدِ الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر، وهو أوّل من تزوّجها. ولم تَلِدْ عائشة بنتُ طلحة مِن أحد من أزواجِها

(١) أندب أعلى جلدها: جعل فيه ندوبًا، أي جروحًا.
(٢) الجيد: العنق، والمقلة: العين، والشادن: ولد الظبي الصغير.
(٣) محطوطة المتنين: محدودتهما.
(٤) العجيزة: المؤخّرة.
(٥) الترائب: أعلى الصدر.
(٦) فرعاء الشعر: طويلته، وهو أسود اللّون.
(٧) خميصة البطن: ضامرتها.
(٨) العكن: ما انطوى من لحم البطن وكان سمينًا.
(٩) السرّة: وسط البطن.
(١٠) الخمار: النقاب تختمر به المرأة.
(١١) خوط بانة: جذع أو فرع بانة، وهي من الأشجار الطيبة الطويلة.
(١٢) شختة الصدر: دقيقته.

غيرَه، ولدت له عِمرانَ وبه كانت تُكْنَى، وعبدَ الرحمٰن وأبا بكر وطلحة ونفيسة، ولكلّ من هؤلاء عَقِبٌ[١]. وأنا من عَقِب طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر من ولده ليث بن طلحة، وليس هذا موضع سرد نسبيّ فأسرده.

قال أبو الفرج: وصارمت[٢] عائشةُ بنت طلحة زوجَها عبد الله بن عبد الرحمٰن وخرجت من داره مُغْضَبةً تريد عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، فرآها أبو هريرة[٣] فسبّح الله تعالى وقال: كأنها من الحُورِ العين، فمكثت عند عائشة قريبًا من أربعة أشهر. وكان عبد الله قد آلى منها؛ فأرسلت عائشة إليه: إني أخاف عليك الإيلاءَ، فضَمّها إليه وكان مُوليًا منها. فقيل له: طلّقها؛ فقال: [من الطويل]

يقولون طَلِّقْها لأُصْبِح ثاوِيًا[٤] مُقِيمًا عليّ الهمُّ، أحلامُ نائم
وإنّ فِراقي أهلَ بيت أُحِبّهم لهم زُلْفةٌ[٥] عندي لإحدى العظائم[٦]

وتُوفّي عبد الله بعد ذلك وهي عنده، فما فتحتْ فاهَا عليه؛ وكانت عائشةُ أمّ المؤمنين رضي الله عنها تَعُدّ هذا عليها في ذنوبها التي تعدّدها. ثم تزوّجها بعده مصعب بن الزُّبير، فمَهَرها[٧] خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثل ذلك.

وكانت عائشة تمتنع على مصعب في غالب الأوقات، فحُكي أنه دخل عليها يومًا وهي نائمة ومعه ثماني لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار، فأنبهها ونثر اللؤلؤ في حجرها. فقالت: نومتي كانت أحبّ إليّ من هذا اللؤلؤ. ولم تزل حالُها معه على مثل ذلك حتى شكا ذلك إلى كاتبه ابن أبي فَرْوَة، فقال له: أنا أكْفيك هذا إن أذِنتَ لي. قال: نعم! افعلْ ما شئتَ، فأتاها ليلًا ومعه أسودانِ فاستأذن عليها، فقالت: أفي مثل هذه الساعة؟ قال: نعم؛ فأذِنت له فدخل. فقال للأسودين: احفِرا هٰهنا بئرًا. فقالت له جاريتُها: وما تصنع بالبئر؟ قال: شُؤمُ مولاتك، أمرني هذا الظالمُ أن أدفنها حيّة، وهو أسْفَكُ خلقِ الله لدَم حرام. قالت عائشة: فأنْظِرْني أذهبْ إليه؛ قال: هيهات لا سبيلَ إلى ذلك، وقال للأسودين: احفِرا. فلما رأت الجِدَّ منه بكت وقالت: يا ابن أبي فروة، إنك لقاتلي ما منه بدّ؟ قال: نعم، وإني لأعلم أن الله عزّ

---

(١) عقب: ذريّة ونسل.
(٢) صارمت: باعدت وفارقت وجفت.
(٣) أبو هريرة: من رجال الحديث، سبق التعريف به.
(٤) ثاويًا: مقيمًا.
(٥) الزلفة: القربة.
(٦) العظائم: جمع عظيمة، وهي المصيبة والأمر العظيم.
(٧) مهرها: أعطاها أو جعل لها مهرًا، أي صداقًا.

وجلّ سيُخْزيه بعدكِ، ولكنّه قد غَضِب وهو كافرُ الغضب. قالت: وفي أي شيء غضبُه؟ قال: مِن امتناعكِ عليه وقد ظنّ أنك تُبْغِضينه وتَتطلّعين إلى غيره، فقد جُنّ. فقالت: أنشُدُك الله إلّا عاودتَه. قال: أخاف أن يقتلني؛ فبكت وبكى جواريها. فقال لها: قد رقَقْتُ لك وحلَف لها إنه يغرّر بنفسه، وقال لها: فما أقول؟ قالت: تضمَن له عنّي أني لا أعود أبدًا. قال: فما لي عندك؟ قالت: قيامٌ بحقّك ما عِشت؟ قال: فأعطيني المواثيق فأعطته. فقال للأسودين: مكانَكما. وأتى مصعبًا فأخبره، فقال: استوثِق منها بالأيمان؛ فاستوثق منها ففعلت، وصلحت بعد ذلك لمصعب.

قال: وكان مصعب من أشدّ الناس إعجابًا بها، ولم يكن لها شبيه في زمانها حُسْنًا وديانةً وجمالًا وشارةً وعِفّة. وإنها دعت يومًا نِسوةً من قريش، فلما جِئْنها أجلستهنّ في مجلس قد نُضد[(١)] فيه الريحان والفواكه والطِّيب والمجامرُ[(٢)]، وخلعت على كلّ امرأة منهن خلعة من الوَشْي والخزّ[(٣)] ونحو ذلك، ودعت عَزّة المَيْلاء ففعلت بها مثل ذلك وأضعفته؛ ثم قالت لعزّة: هاتِ يا عزّةُ فغنّينا، فغنّتهنّ في شعر امرىء القيس، فقالت: [من المتقارب]

وثغرٍ[(٤)] أغرّ[(٥)] شَنِيب[(٦)] اللِّثاتِ   لـذيـذ الـمُـقَـبَّـل والـمُـبْـتَـسَـمْ
ومـا ذقـتُـه غـيـرَ ظـنٍّ بـه   وبالظنِّ يَقْضِي عليك الحَكَم

وكان مصعب قريبًا منهنّ ومعه إخوانٌ له، فقام فانتقل حتى دنا منهنّ والستور مُسْبَلةٌ، فصاح بها: يا هذه، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفتِ، فبارك الله فيكِ يا عزّة. ثم أرسل إلى عائشة: أمّا أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندكِ، وأمّا عزّةُ فتأذنين لها أن تغنّينا هذا الصوتَ ثم تعود إليك، ففعلت وخرجت عزّة إليهم فغنّتهم هذا الصوتَ مرارًا، وكاد مصعب أن يذهب عَقلُه فرحًا. ثم قال لها: يا عزّة، إنك لتُحسِنين القول والوصفَ، وأمرها بالعَوْد إلى مجلسها.

قال: ولم تزل عند مصعب حتى قُتِل عنها، فخطبها بِشر بن مروان[(٧)]، وقدِم عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر التَّيْمي من الشام فنزل الكوفة، فبلَغه أن بِشْرًا خطبها،

---

(١) نُضد: رُتّب ونُسّق.
(٢) المجامر: جمع مجمرة، وهي وعاء الجمر حيث يوقد الطيب كالنّدّ وغيره.
(٣) الخزّ: الحرير والديباج.
(٤) الثغر: الفم.
(٥) الأغرّ: الأبيض الناصع.
(٦) شنيب اللثات: أسنانه فيها بياض، وشنب.
(٧) بشر بن مروان بن الحكم: أمير أموي، حكم الكوفة والبصرة. أحب الشعر واللّهو، ومدحه جرير والأخطل والفرزدق من الشعراء. كانت وفاته سنة ٧٥ هـ/ ٦٩٤ م.

فأرسل إليها جارية لها وقال: قُولي لابنة عمّي: ابنُ عمك يُقرئك السلام، ويقول لكِ: أنا خير لك من هذا المَبْسور المَطْحول[١]، وأنا ابن عمّك أحقّ بك، وإن تزوجتُ بك ملأتُ بيتك خيرًا. فتزوّجته فبنى عليها بالحِيرة[٢]، فمَهَّدت له سبعة أفرِشة عَرْضُها أربع أذرع؛ فأصبح ليلةَ بنى بها عن تسعة. فلقيته مولاة لها فقالت: أبا حفص، فديتُك! قد كَملتَ في كلّ شيء حتى في هذا. وقيل: إنه لما تزوّجها حمل إليها ألف ألف درهم، خمسمائة ألف مهر، وخمسمائة ألف هديّة، وقال لمولاتها: لكِ عليّ ألف دينار إن دخلتُ بها الليلة، وأمر بالمال فحُمِل فأُلْقِي في الدار وغُطّيَ بالثّياب؛ وخرجت عائشة فقالت لمولاتها: ما هذا؟ أفرشٌ أم ثيابٌ؟ قالت: أُنظري إليه؛ فنظرت فإذا هو مال، فتبسّمت. فقالت الجارية: أجَزاءُ من حملَ هذا المال أن يَبيت عَزَبًا[٣]! قالت: لا والله، ولكن لا يجوز دخولُه إلا بعد أن أتزيّن له وأستعدّ. قالت: وماذا؟ فوالله لَوَجْهُك أحسنُ من كلّ زينة وما تَمُدّين يديك إلى طِيب أو ثوب أو مال أو فراش إلّا وهو عندك، وقد عزَمتُ عليك أن تأذني له. فقالت: افعلي. فذهبت إليه فقالت له: بِتْ بنا الليلةَ. فجاءهم عند العِشاء الآخرة فأُدْنِي إليه طعام فأكل الطعام كلّه حتى أعرى الخوانَ[٤] وغسل يده وسأل عن المُتَوَضّأ[٥] فأُخبر به، فقام فتوضّأ وقام يصلّي حتى ضاق صدري ونمتُ، ثم قال: أعليكم آذَن؟ قلت: نعم فادْخُل، فأدخلتُهُ وأسبلتُ السّتر عليهما. فلما أصبحنا وقفتُ على رأسه فقال: أتقولين شيئًا؟ قلتُ: نعم والله ما رأيت مثلك! فضحك وضرب بيده على منكِب عائشة وقال لها: كيف رأيتِ ابنَ عمّك؟ فضحكت وغطّت وجهها وقالت: [من الرمل]

قد رأيناك فلم تَحْلُ لنا ... وبلوناك[٦] فلم نَرْضَ الخبَرْ

ومكثت عائشةُ عند عمرَ بنِ عبيد الله ثمانيَ سنين حتى مات سنة اثنتين وثمانين. ولما مات ندبته قائمةً، ولم تندُب أحدًا قبله من أزواجها إلّا جالسة. فقيل لها في ذلك، فقالت: إنه كان أكرَمهم عليّ وأمسَّهم بي رَحِمًا، فأردتُ ألّا أتزوّج بعده. وكانت المرأة إذا ندبت زوجَها قائمةً لا تَتزوّج بعده أبدًا. ولم تتزوّج عائشةُ بنتُ طلحة بعد زوجِها عمر بنِ عبيد الله.

---

(١) المبسور: المقطب العابس. والمطحول: الذي فيه طحلة، وهي الغُبرة والسواد، أو هو الذي ضخم طحاله.
(٢) بنى عليها بالحيرة: تزوّجها ودخل عليها بالحيرة، موقع في العراق قرب النجف.
(٣) العزب: بدون زوج.
(٤) الخوان: ما يوضع فوق المائدة.
(٥) المتوضّأ: مكان الوضوء والغسل.
(٦) بلوناك: جرّبناك.

ومن أخبار عائشة بنتِ طلحة أيضًا ما رواه أبو الفرج الأصبهانيّ بسنده إلى يزيد بن عِياض، قال:

استأذنت عاتكةُ بنتُ يزيد بن معاوية عبدَ الملك في الحجّ، فأذِن لها وقال: ارفعي حوائجك واستَظْهِري، فإن عائشة بنت طلحة تَحُجّ، ففعلت وتجهّزت بهيئة جَهَدت فيها. فلما كانت بين مكّة والمدينة إذا موكِبٌ قد جاء فضَغَطها وفرّق جماعتها؛ فقالت: أرى هذه عائشةَ بنت طلحة، فسألت عنها، فقالوا: هذه جاريتها. ثم جاء موكِب آخر أعظم من ذلك، فقالوا: عائشة عائشة، فضَغَطَهم فسألت عنها، فقالوا: هذه ماشِطتُها[١]. ثم جاءت مواكبُ على هذا لحاشيتها، ثم أقبلت في ثلاثمائة راحلة عليها القِباب والهوادج؛ فقالت عاتكةُ: ما عند الله خير وأبقى. قال: ووفَدَت عائشةُ بنت طلحة على هشام بن عبد الملك، فقال لها: ما أوفدك؟ قالت: حبَسَتِ السماء مطرَها ومنع السلطان الحقَّ. قال: فأنا أصِل رحمك وأعرف حقَّك. ثم بعث إلى مشايخ بني أميّة فقال: إن عائشة عندي فأسْمُروا عندي الليلة فحضروا، فما تذاكروا شيئًا من أخبار العرب وأشعارها وآثارها إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجمٌ ولا غار[٢] إلا أسمَتْه. فقال لها هشام: أمّا الأوّل فلا أنكره، وأمّا النجوم فمن أين لك؟ قالت: أخذتُه عن خالتي عائشة رضي الله عنها؛ فأمر لها بمائة ألف درهم وردّها إلى المدينة.

قال: ولما تأيّمت[٣] عائشة كانت تُقيم بمكّة سنةً وبالمدينة سنةً، وتخرج إلى مالٍ لها بالطائف عظيم وقصرٍ لها هناك فتتنزه وتجلس فيه بالعشِيّات، فتتناضل[٤] بين يديها الرُّماةُ، فمرّ بها النُّمَيْري الشاعر[٥]، فسألت عنه فانتسب لها؛ فقالت: ائْتُوني به، فجيء به. فقالت له: أنْشِدني مما قلتَ في زينب، فامتنع وقال: بنتُ عمّي وقد صارت عظامًا بالية. قالت: أقسمتُ عليك لمّا فعلت؛ فأنشدها قوله:
[من الطويل]

نَـزَلْنَ بـفَـخٍّ[٦] ثـم رُحْـنَ عـشِـيَّـةً يُـلَبِّـيـن لـلرحـمـٰن مُـعْـتَـمِـراتِ[٧]

---

(١) ماشطتها: التي تعنى بتمشيطها وتسريح شعرها.
(٢) غار: غاب. (٣) تأيمت: صارت أيّمًا، بدون زوج.
(٤) تتناضل: يرمي بعضهم بعضًا بالنّبال.
(٥) النميري: هو أبو جندل النميريّ، من شعراء العصر الأموي. غلب عليه لقب الراعي لوصفه الإبل. هجاه جرير. مات سنة ٧٣٨ م.
(٦) فخّ: اسم موضع بمكّة. (٧) معتمرات: حاجّات العمرة.

يُخَمِّرنَ[١] أطرافَ الأكفّ من التّقى ويَخرجن جُنْحَ اللّيل مُعْتَجِراتِ[٢]
ولما رأت ركب النُّمَيْريّ[٣] راعها وكنّ مِنَ أنْ يَلْقَيْنه حَذِرات
تضوّع مِسْكًا[٤] بطنُ نَعْمانَ[٥] أنْ مَشَتْ به زينبٌ في نِسوةٍ خَفِراتِ[٦]

وزينبُ هذه هي زينبُ بنتُ يوسفَ الثَّقفيّ أختُ الحجّاج، وكان النُّميريُّ يهواها ويُشبّب بها، وله معها أخبارٌ يطول شرحُها ليس هذا موضع إيرادها ـ قال: فقالت له عائشة لما أنشدها هذا الشعر: والله ما قلتَ إلّا جميلًا، ولا وصفتَ إلا كرمًا وطِيبًا ودينًا وتُقًى، أعْطُوه ألف درهم. فلما كانت الجمعةُ الأخرى تعرّض لها، فقالت: عليّ به؛ فجاء فقالت له: أنشدني من شعرك في زينب؛ قال: فأُنْشِدُكِ من قول الحارث فيك. فوثب مواليها إليه، فقالت: دعوه فإنه أراد أن يَستقِيد[٧] لابنة عمّه، هاتِ؛ فأنشدها: [من الكامل]

ظَعَنَ[٨] الأميرُ بأحسنِ الخَلْقِ وغدا بلبّك[٩] مَطْلَع الشرقِ
وتَنُوء[١٠] تُثْقِلُها عَجِيزتُها[١١] نهضَ الضعيف ينوء بالوَسْق[١٢]
ما صبّحت زوجًا بطلعتها إلا غدا بكواكب الطَّلْقِ[١٣]
بيضاءُ من تَيْم كَلِفتُ بها هذا الجنونُ وليس بالعِشق

فقالت: والله ما ذكر إلّا جميلًا، ذكر أني إذا صبّحتُ زوجًا بوجهي غدا بكواكب الطَّلْق، وأني غدوتُ مع أمير تزوّجني إلى الشرق، أعطوه ألف درهم واكسوه حُلّتين ولا تَعُد لإتياننا يا نميريّ؛ والله أعلم، ولنرجع إلى أخبار المغنّين.

ذكر أخبار محمد بن عائشة

يُكنَّى أبا جعفر ولم يكن له أبٌ يعرف فنُسب إلى أُمّه؛ وكان يزعم أن اسم أبيه جعفر. وعائشة أمّه مولاةٌ لكَثِير بن الصَّلْت الكِنديّ حليفِ قريش، وقيل: هي مولاة

(١) يخمّرن: يغطّين بالخمار.
(٢) معتجرات: لابسات على رؤوسهنّ العجر، وهي الأثواب ملفوفة كالعمائم.
(٣) النميري: الشاعر الراعي النميري.
(٤) تضوّع مسكًا: فاح بالمسك.
(٥) بطن نعمان: اسم علم بعينه. خفرات: حيّيات.
(٦) خفرات: حيّيات.
(٧) يستقيد: يثأر.
(٨) ظعن: ارتحل.
(٩) لبّك: عقلك.
(١٠) تنوء: تعجز.
(١١) عجيزتها: مؤخرتها.
(١٢) الوسق: الحمل.
(١٣) كواكب الطلق: كواكب السعد.

لآل المطلب بن أبي وَداعة السَّهْمي. وقال ابن عائشة ـ وقد سأله الوليد بن يزيد فقال: يا محمد أَلِبغْيَةٍ[١] أنت؟ ـ: كانت أمي يا أمير المؤمنين ماشطةً وكنت غلامًا، وكانت إذا دخلت إلى موضع قالت: ارفعوا هذا لابن عائشة، فغلَبت على نسبي. قالوا: وكان ابن عائشة يفتِنُ كلَّ مَن سمعه، وكان فتيان من المدينة قد فسدوا في زمانه بمحادثته ومجالسته. وأخذ عن مَعْبد ومالك بن أبي السَّمْح، ولم يموتا حتى ساواهما على تقديمه لهما واعترافه بفضلهما. وكان تيّاهًا[٢] سيّىء الخُلُق، إن قال له إنسان: تغنَّ قال: أَلِمثلي يقال هذا! فإن غنّى وقال له إنسان: أحسنت، سكت؛ فكان قليلًا ما يُنتفع به.

وكان ابن عائشة مُنْقَطِعًا إلى الحسنِ بن الحسن، وكان الحسن مُكْرِمًا له، فسأله الحسن أن يخرج معه إلى البُغَيْبِغَة[٣]، فامتنع ابنُ عائشة؛ فأقسم عليه وأظهر الجِدّ. فلما عاين ما ظهر عليه قال: أخرُج طائعًا لا كارهًا؛ فأمر له ببغلة فركِبها ومَضَيا إلى البُغَيْبِغة، فنزلا الشِّعبَ[٤] ثم أكلوا. وقال له: غنِّني، فاندفع فغنّاه صوتًا فاستحسنه. فقال ابن عائشة: والله لا غنّيتُك في يومي هذا شيئًا، فأقسم الحسنُ ألّا يفارقَ البغيبغةَ ثلاثةَ أيام. فاغتمّ ابن عائشة ليمينه ونَدِم، فلما كان في اليوم الثاني قال له: غَنِّ فقد برّت يمينُك؛ فنظر إلى ناقةٍ تَقْدُم جماعةَ إبلٍ فاندفع يغنّي: [من المتقارب]

تَـمُـرّ كـجَـنْـدلـةِ[٥] الـمـنـجـنِـيــ ـقِ[٦] يُرْمى بها السُّورُ[٧] يوم القتال

وهي أبيات لأُميّةَ بن أبي عائذٍ الهذليّ يصف حمارًا وحشيًّا؛ والبيت «يمر» بالياء.

وقيل: سال العقيق[٨] مرّةً فدخل عَرْصَةَ[٩] سعيد بن العاص الماء حتى ملأها، فخرج الناس إليها، وخرج ابن عائشة فجلس على قرن البئر. فبينا هم كذلك إذ طلع الحسن على بغلة ومعه غلامانِ أسودانِ، فقال لهما: امضِيا رويدًا حتى تَقِفا بأصل القَرْن الذي عليه ابنُ عائشة، ففعلا ذلك. ثم ناداه الحسن: كيف أصبحْتَ يا بن عائشة؟ قال: بخير. قال: انظر مَنْ تحتك، فنظر فإذا العَبْدانِ. قال: أتعرفهما؟ قال:

---

(١) أَلِبغية: أي أَلِحاجة أتيت؟
(٢) تياهًا: مفتخرًا متكبّرًا ومتبخترًا.
(٣) البغيبغة: اسم موضع بعينه.
(٤) الشعب: المنفرج بين جبلين.
(٥) الجندلة: الرمي بالجندل والحجارة.
(٦) المنجنيق: آلة تضرب بها الحجارة الكبيرة، وهي الصرّادة.
(٧) السور: الحائط.
(٨) العقيق: واد فيها ماء قريب من المدينة.
(٩) العرصة: باحة الدار.

نعم، قال: فهما حُرّانِ لئن لم تُغَنِّني مائة صوت لآمرنّهما بطَرْحك في البئر، وهما حُرّان لئن لم يفعلا لأقطعنّ أيديهما. فاندفع ابن عائشة وغنّى بشعر الهُذَليّ[١]: [من مجزوء الوافر]

ألَا للهِ دَرّك مِـــــــــنْ فــتَـــى قـــوم إذا رَهِــبُـــوا

وقـــالـــوا مَــنْ فــتًــى لــلحــرْ بِ يَــرْقـبُــنـــا ويَــرْتَــقِــب

فــكــنــتَ فــتــاهــمُ فــيــهــا إذا تُــدْعَــى لــهـــا تَــثِــبُ

ذكــرتُ أخــي فــعـــاودنــي صُداعُ الــرأس والــوَصَــبُ[٢]

كــمــا يَــعــتــادُ ذاتَ الــبـــــــــوِّ[٣] بــعــد سلوّهــا الــطَّــربُ

عــلى عــبــد بــن زُهْــرةَ بـــ ـــتُّ طــول الــلــيــل أنــتــحــبُ

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ بسند رفعه إلى حمّاد الراوية[٤]:

أن الوليد بن يزيد استقدمه من العراق إلى الشام على دَوابّ البريد، وكان ممّا حكاه عنه قال: قَدِمتُ عليه فأذِن لي، فدخلتُ فإذا هو على سريرٍ مُمهّد وعليه ثوبانِ أصفرانِ وعنده معبدٌ ومالك بن أبي السَّمْح وأبو كامل مولاه، فاستنشدني: [من الكامل]

* أمِـن الـمـنـونِ ورَيْـبِـهـا تـتـوجّـعُ *

فأنشدتُه حتى أتيتُ على آخرها، ثم قال: يا مالك، غنّني: [من مجزوء الوافر]

ألَا هـــل هَـــاجَـــك الأظـــعَـــا نُ[٥] إذ جـــاوَزْنَ مُـــطّـــلَـحـــا

فغنّاه، ثم قال: غنّني: [من البسيط]

جَـلَا[٦] أُمـيّـةُ عـنّـي كـلَّ مَـظْـلِـمـةٍ سهلَ الحجاب وأَوْفَى بالذي وَعَدَا

---

(١) الهذلي: هو أبو ذؤيب الهذلي، الشاعر الجاهلي الإسلامي المخضرم. اشترك في فتح إفريقية. مات سنة ٦٤٨ م.

(٢) الوصب: التعب والفتور في البدن.

(٣) البوّ: جلد ولد الناقة يحشى تبنًا ويقرّب من الناقة التي فصل عنها ابنها.

(٤) حماد الراوية: ولد في الكوفة، وتوفي ببغداد سنة ٧٧٢ م. حفظ الشعر الجاهلي والإسلامي وأيام العرب ورواها. له الفضل في جمع المعلّقات الجاهلية.

(٥) الأظعان: جماعة الراحلين. (٦) جلا: أزال.

فغنّاه. ثم قال: غنِّني: [من الوافر]

أتَـنْـسَـى إذ تُـودِّعُـنـا سُـلَـيْـمَـى ... بِفرعِ بَشَامةٍ، سُقِي البَشامُ![1]

فغنّاه؛ ثم أتاه الحاجبُ فقال: يا أمير المؤمنين، الرجلُ الذي طلبت بالباب، فأذِن له فدخل شابٌّ لم أرَ أحسنَ وجهًا منه. فقال له: غنِّني: [من الرمل]

وهـي إذ ذاك عـلـيـهـا مِـئْزرٌ[2] ... ولـهـا بـيـتُ جَـوارٍ مِـن لُعَـب

فغنّاه، فنبذ إليه الثوبين، ثم قال: غنِّني: [من مجزوء الكامل]

طـاف[3] الـخـيـالُ فـمـرحـبًا ... ألـفًـا بـرؤيـة زيـنـبـا

فغضِب معبدٌ وقال: يا أمير المؤمنين، إنّا مُقْبِلون عليك بأقْدارنا وأسناننا وإنك تركتنا بمَزْجَر الكلب[4] وأقبلتَ على هذا الصبيّ. فقال: يا أبا عبّاد، ما جهِلتُ قدرَك ولا سنَّك، ولكن هذا الغلام طَرحني في مثل الطَّنَاجير من حَرارة غِنائه. قال حمّاد: فسألت عن الغلام فقيل لي: هو ابن عائشة.

وحُكِي عن شيخ من تَنُوخ[5] قال: كنتُ صاحبَ سِتْر الوليد بن يزيد، فرأيت ابن عائشة عنده وقد غنّاه: [من الكامل]

إنّـي رأيـتُ صـبـيـحـةَ الـنَّـفْـر[6] ... حُـورًا[7] نَـفَـيْـن عـزيـمـةَ الـصـبـرِ

مـثـلَ الـكـواكـب فـي مـطـالِـعـهـا ... بـعـد الـعِـشـاء أطَـفْـن بـالـبـدرِ

وخـرجـتُ أبـغِـي الأجـرَ مُـحْـتَـسِـبًا ... فـرجَـعْـتُ مـوفـورًا مـن الـوِزْرِ

فطرب الوليد حتى كفر وألْحد، وقال: يا غلام، اسْقِنا بالسماء السابعة، ثم قال: أحسنتَ والله يا أميري، أعِد بحقّ عبد الشمس فأعاد، ثم قال أحسنت يا أميري والله، أعِد بحقّ أميّة فأعاد، ثم قال: أعِد بحق فلان حتى بلغ من الملوك نفسَه،

---

(١) البشام: شجر طيّب الريح والطعم يستاك بورقه، لا ثمر له، إذا قطع غصنه أو ورقه سال منه لبن أبيض، والواحدة منه البشامة.

(٢) المئزر: الثوب يؤتزر به.

(٣) طاف: زار.

(٤) بمزجر الكلب: أي بمكان قريب جدًا.

(٥) تنوخ: قبيلة عربية من الحيرة، انتقلت إلى بلاد حلب، منها أمراء لبنان التنوخيّون الذين عرفوا بأمراء العرب أو البحتريون.

(٦) النفر: يوم انتقال الحجيج من عرفات إلى مزدلفة فمنًى.

(٧) الحور: صفة للجواري والنسوة اللواتي في عيونهنّ حور، وهو اشتداد سواد العين وبياضها.

فقال: أعِذْ بحياتي فأعاده؛ فقام فأكبّ عليه، فلم يَبْقَ عضوٌ من أعضائه إلّا قبّله؛ ثم نَزع ثيابه فألقاها عليه وبقي مجرّدًا إلى أن أتَوْه بمثلها، ووهب له ألف دينار وحمَله على بغلة وقال: اركبها بأبي أنتَ وانصرِفْ، فقد تركتني على مثل المِقْلَى من حرارة غنائك، فركِبها على بساطه وانصرف.

وحُكِي أيضًا أن ابن عائشة انصرف من عند الوليد وقد غنّاه: [من الوافر]

أبعدَكَ مَعْقِلًا[1] أرجو وحِصنًا قَدَ اعيتني المعاقلُ والحصونُ

فأمر له بثلاثين ألف درهم وبمثل كارَةِ[2] القصّار[3] كسوةً، فبينا ابن عائشة يسير إذ نظر إليه رجلٌ من أهل وادي القُرى، وكان يَشتهي الغناءَ ويشرب النبيذَ، فقال لغلامه: مَن هذا الراكب؟ قال: ابنُ عائشة المغنّي، فدنا منه فقال: جُعلت فِداءك! أنتَ ابن عائشة أمّ المؤمنين؟ قال: لا أنا مولًى لقريش وعائشةُ أُمّي، وحسبُك هذا. قال: وما هذا الذي أراه بين يديك من المال والكُسْوة؟ قال: غنّيتُ أمير المؤمنين صوتًا فأطربه فكفَر وترك الصلاةَ وأمر لي بهذا المال وهذه الكسوة. قال: جُعلتُ فداءك! فهل تَمُنّ عليّ أن تُسْمِعَني ما أسمعتَهُ إيّاه؟ فقال: ويلك! أمثلي يُكلّم بهذا في الطريق! قال: فما أصنع؟ قال: الحقني بالباب. وحرّك ابنُ عائشة بغلتَه لينقطعَ عنه، فعدا معه حتى وافيا الباب كفَرَسَيْ رِهانٍ[4]. ودخل ابنُ عائشةَ فمكث طويلًا طمَعًا أن يضجَرَ فينصرفَ، فلم يفعل حتى أعياه. فقال لغلامه: أدخِله، فلما دخل، قال له: ويلك! مِن أين صبّك الله عليّ! قال: أنا رجل من أهل وادي القُرى أشتهي هذا الغناءَ. فقال له: هل لك فيما هو أنفع لك منه؟ قال: وما ذاك؟ قال: مائتا دينار وعشرةُ أثواب تنصرفُ بها إلى أهلك. فقال له: جُعِلتُ فداءك! والله إن لي بُنيّةً ما في أُذنها ـ علم الله ـ حَلْقةٌ من الوَرِق فضلًا عن الذهب، وإن لي زوجةً ما عليها ـ شهد الله ـ قميصٌ، ولو أعطيتَني جميعَ ما أمر لك به أمير المؤمنين على هذه الحالة والفقر اللّذين عَرَّفْتُكهما وأضعفتَ لي هذا لكان الصوتُ أعجَب إليّ. فتعجّب ابن عائشة وغنّاه الصوت، فجعل يحرّك رأسه ويطرَب له طربًا شديدًا حتى ظنّ أن عنقَه

(١) المعقل: المكان الحصين يتحصّن فيه.
(٢) الكارة: ما يجمع ويشدّ ويحمل على الظهر من طعام أو ثياب.
(٣) القصّار: من يقصر الثياب قصارة، أي يدقّها وينظّفها.
(٤) فرسا الرهان: الفرسان اللذان يراهن على أيّ منهما يسبق الآخر.

ستَنْقصف؛ ثم خرج من عنده ولم يَرْزَأه[١] شيئًا. وبلغ الخبرُ الوليدَ بن يزيد، فسأل ابنَ عائشة عنه، فجعل يغيب عن الحديث؛ فلم يزل به حتى صدَقه الحديثَ، فطلب الرجلَ، فطُلِب حتى أُحْضِر إليه ووصله صِلةً سنيّةً وجعله من ندمائه، ووكّله بالسَّقْي؛ فلم يزل معه حتى قُتل رحمه الله.

وعن عليّ بن الجهم[٢] الشاعر، قال: حدّثني رجل أنّ ابن عائشة كان واقفًا بالموسِم مُهَجِّرًا[٣]، فمرّ به بعضُ أصحابه فقال: ما يُقيمُك هاهنا؟ قال: إني أعرف رجلًا لو تكلّم لحبس الناسَ هٰهنا فلم يذهب أحدٌ ولم يجيء. فقال له الرجل: ومن ذاك؟ قال: أنا، ثم اندفع يغنّي: [من الوافر]

جَرَتْ سُنُحًا[٤] فقلت لها أجِيزي   نوًى مشمولةً فمتى اللِّقاءُ
بنفسي مَن تَذَكُّره سَقامٌ   أُعانيه ومَطْلَبُهُ عناءُ[٥]

قال: فحبس الناسَ واضطربت المحاملُ ومدّت الإبلُ أعناقَها، فكادت الفتنة أن تقع. فأُتِيَ به هِشام بن عبد الملك، فقال له: يا عدوّ الله! أردتَ أن تَفْتِنَ الناسَ! قال: فأمسك عنه وكان تيّاهًا؛ فقال له هشام: ارْفُقْ بتِيهِك. فقال: يَحِقّ لمن كانت هذه مقدرتَه على القلوب أن يكون تيّاهًا! فضحِك هِشامٌ وخلّى سبيله.

واختُلِف في وفاة ابن عائشة وسببها، فقيل: كانت وفاتُه في أيام هشام بن عبد الملك، وقيل: في أيام الوليد بن يزيد وهو أشبه، لأنه قد تقدّمَ أنه نادم الوليدَ وغنّاه. والذي يقول: إنّه تُوفّي في أيام هشام يزعُم أنه نادمَ الوليدَ في أيام ولايته العهدَ. وكانت وفاتُه بذي خُشُبٍ، وهو على أميال من المدينة. قيل: كان سببُ وفاته أن الغمرَ بن يزيد خرج إلى الشام؛ فلمّا نزل قصرَ ذي خشبٍ جلس على سطحه، فغنّى ابنُ عائشة صوتًا طرِب له الغمر، فقال: أعِدْه فأبَى، وكان لا يردّد صوتًا لسوء خُلُقه. فأمر به فطُرِح من أعلى السطح فمات. وقيل: بل قام من اللّيل يبول وهو سكرانُ فسقط من السطح فمات. وقيل: بل كان قد رجع من عند الوليد بن يزيد، فلما قَرُب من المدينة نزل بذي خُشُب، وكان والي المدينة إبراهيمَ بن هشام المخزوميّ وكان في قصره هناك، فدعاه فأقام عنده ذلك اليوم. فلما أخذوا في الشّرب

(١) يرزأه شيئًا: يصيب منه خيرًا.
(٢) علي بن الجهم: الشاعر العباسي المعروف، سبق التعريف به.
(٣) مهجّرًا: واقفًا في الهاجرة، وهي اشتداد الحرارة في وسط النهار.
(٤) سنحًا: عرضًا.   (٥) العناء: السقم والتعب.

أخرج المخزوميّ جوارِيَه، فنظر إلى ابن عائشة وهو يعمِز جاريةً منهنّ؛ فقال لخادمه: إذا خرج ابن عائشة يريد حاجتَه فارْم به من القصر، وكانوا يشربون في سطح القصر. فلما قام رماه الخادم، فمات. وقيل: بل أقبل من الشام فنزل بقصر ذي خُشُب فشرب فيه ثم صَعِد إلى أعلى القصر فنظر إلى نسوة يمشِين في ناحية الوادي، فقال لأصحابه: هل لكم فيهنّ؟ فقالوا: وكيف لنا بهنّ! فلبس مُلاءةً مدلوكةً ثم قام على شُرْفة من شُرُفات القصر وتغنّى بشعر ابن أُذَيْنة: [من الهزج]

وقد قالت لأترابٍ[1] ... لها زُهْرٍ[2] تلاقَيْنا
تعالَيْن فقد طاب ... لنا العَيْشُ تعالَيْنا

فأقبلن عليه، فطرِب واستدار فسقط فمات، عفا الله تعالى عنه ورحمه. وقيل: بل مات بالمدينة، وأوّل هذه الأبيات: [من الهزج]

سُلَيْمَى أزمعت[3] بَيْنا[4] ... وأين لقاؤُها أيْنا
وقد قالت لأترابٍ ... لها زُهْرٍ تلاقينا
تعالَيْن فقد طاب ... لنا العيش تعالينا
فأقبلن إليها مُسْـ ... ـرِعات يتهادينا
إلى مثل مَهاة[5] الرمـ ... ـلِ تكسو المجلس الزَّيْنَا
إلى خَوْدٍ[6] مُنعَّمة ... حَفَفنَ[7] بها وفَدَّينا
تمنَّين مُناهنّ ... فكنّا ما تمنَّينا

ذكر أخبار ابن مُحْرِز

هو مسلم، وقيل: عبد الله بن مُحْرز، ويُكْنى أبا الخطاب. مولى عبد الدار بن قُصَيّ. وكان أبوه من سَدَنة[8] الكعبة، وأصلُه من الفرس. وكان يسكن المدينةَ مرّةً ومكة مرّةً. فكان إذا أتى المدينةَ أقام بها ثلاثة أشهر يتعلّم الضربَ من عَزَّة الميلاء، ثم يرجع إلى مكة فيُقيم بها ثلاثةَ أشهر. ثم شخَص إلى فارس فتعلّم ألحانَ الفرس وأخذ غناءَهم، ثم صار إلى الشام فتعلّم ألحان الروم وأخذ غناءهم. وأسْقَط من ذلك

(١) الأتراب: الرفيقات.
(٢) زهر: بيض حسان.
(٣) أزمعت: عزمت.
(٤) البَيْن: الرحيل والفراق.
(٥) المهاة: البقرة الوحشية.
(٦) الخود: الفتاة الشابة الحسناء.
(٧) حففن: أحطن.
(٨) سدنة: حَفَظة.

ما لا يُسْتحسن من غناء الفريقين ونغمهم وأخذ محاسنَها، فمزَج بعضَها ببعض وألّف منها الأغاني التي صنعها في أشعار العرب، فأتى بما لم يُسْمع مثلُه. وكان يقال له صَنّاج[1] العرب.

وقيل: إنّه أوّل من أخذ الغناء عن ابن مِسْجَح، وهو أوّل من غنّى بالرَّمَل وما غُنّي قبله. وكان ابنُ محرز قليلَ المُلَابَسةِ للناس، فأخمل ذلك ذكرَه. وأخذ أكثرَ غِنائه جاريةٌ كانت لصديق له من أهل مكّة كانت تألفه فأخذه الناسُ عنها، ومات بعلّة الجُذام، وكان ذلك سببَ امتناعه من معاشرة الخلفاء ومخالطةِ الناس.

وحُكِي أنه رحل إلى العراق، فلما بلغ القادسيّةَ لَقِيه حُنَيْنٌ فقال له: كم منَّتك نفسُك من العراق؟ قال: ألف دينار؛ قال: هذه خمسمائة دينار فخذها وانصرِف واحْلِف ألّا تعود، ففعل. فلما شاع ما فعل حنينٌ لامه أصحابُه. فقال: والله لو دخل العراق ما كان لي خبزٌ آكله ولاطُّرِحْتُ ثم سقطتُ إلى آخر الدهر. ولم أقفْ من أخبار ابن محرز على أكثر من هذا فأُورِده، والسلام.

ذكر أخبار مالك بن أبي السَّمْح

هو أبو الوليد مالك بن أبي السَّمْح، واسم أبي السمح جابر بن ثعلبةَ الطائيّ، وأمّه قرشيّةٌ من بني مَخْزوم؛ وقيل: بل أمّ أبيه [منهم]؛ وقيل فيه: مالك بن أبي السمح بن سليمان. وكان أبوه منقطعًا إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ويتيمًا في حِجْره أوصى به أبوه إليه. وكان مالكٌ أحولَ طويلًا، وأخذ الغناءَ عن جَمِيلةَ ومعبدٍ وعمرَ، وأدرك الدولة العباسيّة، وكان منقطِعًا إلى بني سليمان بن عليّ، ومات في خلافة أبي جعفر المنصور.

وروى الأصفهانيّ بسنده إلى الوَرْدانيّ، قال:

كان مالك بن أبي السمح المغنّي من طيّىء، فأصابتهم حُطمة[2] في بلادهم بالجبلين، فقدِمت به أمّه وبإخوة له وأخواتٍ أيتام لا شيء لهم. وكان يسأل الناسَ على باب حمزةَ بن الزبير، وكان معبدٌ منقطعاً إلى حمزة يكون عنده في كل يوم، فسمِع مالكٌ غناءَه فأعجبه واشتهاه. وكان لا يفارق باب حمزة يسمع غناءَ معبد إلى

---

(١) صنّاج العرب: الذي يضرب بالصّنج، الآلة الموسيقية من نحاس.

(٢) الحطمة: السنة الشديدة من القحط والجوع.

الليل، ولا يطوف بالمدينة ولا يطلب من أحد شيئاً ولا يَرِيم[١] موضعَه، فينصرف إلى أمّه ولم يكسب شيئًا فتضربه، وهو مع ذلك يترنَّم بألحان معبد فيؤدّيها نغمًا بغير لفظ. وجعل حمزةُ كلما غدا أو راح رآه ملازِمًا لبابه؛ فقال لغلامه يومًا: أدْخِل هذا الغلامَ إليّ فأدخله الغلام إليه؛ فقال له حمزة: من أنت؟ قال: غلام مِن طيىء أصابتنا حُطْمَة بالجبلين فهبطنا إليكم ومعي أمٌّ لي وإخوةٌ، وإني لزِمتُ بابَك فسمِعت من دارك صوتًا أعجبني ولزِمت بابك من أجله. قال: فهل تعرف منه شيئًا؟ قال: أعرف لحنه كلَّه ولا أعرف الشعر. فقال: إن كنت صادقًا إنك لفَهِمٌ. ودعا بمعبد فأمره أن يغنّي صوتًا فغنّاه، ثم قال لمالك: هل تستطيع أن تقوله؟ قال: نعم، قال: هاته؛ فاندفع فغنّاه فأدّى نغمه بغير شعر، يُؤدّي مَدّاتِه وليّاتِه وعَطَفاتِه ونَبَراته ومتعلّقاته لا يَخْرِم[٢] منه حرفًا. فقال لمعبد: خذ هذا الغلام إليك وخرِّجه فَلَيكونَنّ له شأنٌ. قال معبد: ولِمَ أفعل ذلك؟ قال: لِتَكون محاسنُه منسوبة إليك وإلّا عدَاكَ إلى غيرك فكانت محاسنُه منسوبةً إليه. فقال معبد: صدق الأمير، وأنا أفعل ما أمرتني به. قال حمزة لمالك: كيف وجدتَ مُلازمَتَك لبابنا؟ قال: أرأيتَ إن قلتُ فيك غير الذي أنتَ له مستحقّ من الباطل أكنتَ ترضى بذلك؟ قال: لا. قال: وكذلك لا يسرّك أنْ تُحْمَد بما لم تفعل؛ قال: نعم. قال: فوالله ما شبِعت على بابك شَبْعةً قط، ولا انقلبتُ إلى أهلي منه بخير، فأمر له ولأمّه ولإخوتِه بمنزل وأجرى عليهم رِزْقًا وكُسوةً وأمر لهم بخادم يخدُمهم وعبدٍ يسقيهم الماء، وأجلس مالكًا معه في مجالسه، وأمر معبدًا أن يطارِحه فلم يَنْشَب أن مهَر. فخرج مالك يومًا فسمع امرأة تنوح على زيادةَ الذي قتله هُدْبَةُ بن خَشْرم - والشعرُ لأخي زيادة - : [من الطويل]

أبعد الذي بالنَّعْف[٣] نعفِ كُوَيْكِب[٤] رهينةَ رمسٍ[٥] ذي تُرابٍ وجَندلِ[٦]
أُذَكَّر بالبُقيا على من أصابني وذلك أنّي جاهِدٌ غيرُ مُؤْتَلِي
فلا يَدْعُني قومِي لزيدِ بن مالكٍ لئن لم أُعجِّلْ ضربةً أو أُعَجَّلِ
وإلّا أنَلْ ثأري من اليوم أو غدٍ بنِي عمّنا[٧] فالدّهرُ ذو مُتطوَّلِ
أنَخْتُمْ[٨] علينا كَلْكَل[٩] الحرب مرّةً فنحن مُنِيخُوها عليكم بكَلْكَلِ

---

(١) لا يريم: لا يبرح أو يغادر.
(٢) يخرم: ينقص.
(٣) النّعف: منحدر الجبل باتجاه الوادي، السفح.
(٤) كويكب: اسم موضع بعينه.
(٥) الرمس: القبر.
(٦) الجندل: الحجارة.
(٧) بني عمنا: نصبت على الاختصاص.
(٨) أنختم: حططتم.
(٩) الكلكل: الصدر.

فغنّى في هذا الشعر لحنَيْن، أحدُهما نَحَا فيه نحو المرأة في نَوْحها ورقَّقه وأصلحه، والآخرُ نحا فيه نحو معبد في غنائه. ثم دخل على حمزة فقال له: أيّها الأمير، إني قد صنعتُ غناءً في شعر سمعتُ أهلَ المدينة يُنْشِدونه وقد أعجبني، فإن أذِن الأميرُ غنّيتُه. قال: هاتِ؛ فغنّى اللحنَ الذي نحا فيه نحو معبدٍ؛ فطرب حمزة وقال: أحسنتَ يا غلام، هذا الغِناءُ غناءُ معبدٍ بطريقته. قال: لا تَعْجَل أيها الأمير واسمع مِنّي شيئًا ليس من غناء معبد ولا طريقتِهِ؛ فغنّاه اللحنَ الذي تشبّه فيه بنوح المرأة. فطرِب حمزةُ حتى ألقى عليه حُلّةً كانت عليه قيمتُها مائتا دينار. ودخل معبدٌ فرأى حُلّة حمزة على مالكٍ فأنكرها. وعَلِم حمزةُ بذلك فأخبر معبدًا بالسبب، وأمر مالكًا فغنّاه الصوتين، فغضِب معبد لمّا سمِع الصوت الأوّل وقال: قد كرهت أن آخُذ هذا الغلام فيتعلّم غنائي فيدّعِيه لنفسه. فقال حمزة: لا تَعْجَلْ واسمه غِناءً صنعه ليس من شأنك ولا غنائك، وأمرَه أن يغنّي الصوتَ الآخر فغنّاه، فأطرق معبدٌ. فقال له حمزة: والله لو انفرد بهذا لضَاهَاك[1] ثم تزايد على الأيام، وكلّما كَبِر وزاد شِخْتَ أنت وانتقصتَ، فلأن يكون منسوبًا إليك أجملُ. فقال له معبدٌ وهو مُنْكَسِر: صدق الأمير. فأمر حمزةُ لمعبدٍ بخلعة من ثيابه وجائزة حتى سكَن وطابت نفسُه. فقام مالكٌ على رجليه وقبّل رأس معبد وقال له: يا أبا عبّاد، أساءك ما سمعتَ مني؟ والله لا أُغنّي لنفسي شيئًا أبدًا ما دمتَ حيًا! وإن غلبتني نفسي فغنّيتُ في شعر استحسنتُه لا نسبتُه إلّا إليك، فطِبْ نفسًا وارْضَ عنّي. فقال له معبد: أتفعل هذا وتفي به؟ قال: إي والله وأزيد. فكان مالك إذا غنّى صوتًا وسُئِل عنه، قال: هذا لمعبد، ما غنّيتُ لنفسي شيئًا قط، وإنما آخذ غناءَ معبد فأنقُلُه إلى الأشعار وأحسّنه وأزيد فيه وأنقُص منه. وحضر مالكُ بن أبي السَّمْح عند يزيد بن عبد الملك مع معبد وابن عائشة فغنَّوْه، فأمر لكلّ واحد منهم بألف دينار.

وحُكي عن ابن الكلبيّ قال: قال الوليد بن يزيد لمعبد:

قد آذَتْنِي وَلْوَلَتُك هذه، وقال لابن عائشة: قد آذاني استهلالُك هذا، فاطلُبا لي رجلًا يكون مذهبُه متوسّطًا بين مَذْهَبَيْكما. فقالا له: مالك بن أبي السمح؛ فكتب في إشخاصه إليه وسائرِ من بالحجاز من المغنّين. فلما قَدِم مالك على الوليد بن يزيد فيمن معه نَزل على الغَمْر بن يزيد، فأدخله على الوليد فغنّاه فلم يُعْجِبه. فلما انصرف قال له الغمر: إنّ أمير المؤمنين لم يُعْجِبه شيءٌ من غنائك، فقال له:

---

(١) ضاهاك: ماثلك وشاكلك.

جعلني الله فدَاكَ! اطلُبْ لي الإذن عليه مرّة أخرى، فإن أعجبه شيءٌ ممّا أغنّيه وإلا انصرفتُ إلى بلادي. فلما جلس الوليد في مجلس اللّهو ذكره الغمرُ له؛ فأذن له فشرب مالكٌ ثلاث صُرَاحيّات[١] صِرْفًا[٢]، ودخل على الوليد وهو يَخْطِر[٣] في مشيته، فلما بلغ بابَ المجلس وقف ولم يُسَلِّم وأخذ بحَلْقة الباب، ثم رفع صوتَه فغنّى: [من المنسرح]

لا عيشَ إلا بمالك بن أبي السَّمْـ ـح فـلا تَـلْحَـنـي[٤] ولا تَـلُم
أبيضُ كالبدر أو كما يلمع الـ ـبارق فـي حـالـكِ مـن الـظُّلَمِ
فليس يَعْصِيك إن رَشدتَ ولا يَهْتِك[٥] حقّ الإسلام والحُرَم
يُصِيبُ مِن لذّة الكرام ولا يجهل آيَ الترخيصِ في اللَّمَم[٦]
يا رُبّ ليلٍ لنا كحاشيةِ الـ ـبُرْدِ ويـوم كـذاك لـم يَـدُمِ
نَعِمتُ فيه ومالكَ بن أبي السّمـ ـحِ الكريمَ الأخلاقِ والشِّيَم[٧]

فطرِب الوليد ورفع يديه حتى بان إبطاه وقام فاعتنقه، ثم أخذ في صوته ذلك فلم يزالوا فيه أيامًا، وأجزل له العطيّةَ حين أراد الانصرافَ. قال: ولما أتى مالكٌ على قوله: «أبيض كالبدر»، قال الوليد:

أحولُ كالقِرْد أو كما يَرْقُب السّـ ـارق فـي حـالـكِ مِـن الـظُّلَمِ

قالوا: وكان مالكُ بن أبي السمح مع الوليد بن يزيد يوم قُتِل هو وابنُ عائشةَ. قال ابن عائشة: وكان مالكٌ من أحمق الخَلْق، فلما قُتِل الوليد قال: اهْرُبْ بنا؛ قلت: وما يُريدون منّا؟ قال: وما يؤمِّنك أن يأخذوا رأسينا فيجعلوا رأسَه بينهما ليحسِّنوا أمرهم بذلك!.

ذكر أخبار يونس الكاتب

هو يونسُ بن سليمانَ بنِ كُرْدِ بن شَهْرِيارَ مِن ولد هُرْمُز[٨]، مولًى لعمرو بن الزبير، ومنشؤه ومنزلُه بالمدينة، وكان أبوه فقيهًا فأسْلَمه في الديوان وكان من كُتّابه.

---

(١) الصراحيات: باطيّات الخمر وأوعيتها. والمفرد صراحية.
(٢) صرفًا: خالصةً.
(٣) يخطر: يحيس ويتبختر.
(٤) تلحني: تلمني وتلعنّي.
(٥) يهتك: يخرق.
(٦) اللمم: الذنوب الصغار.
(٧) الشيم: الأخلاق والطباع الحسنة.
(٨) هرمز: اسم خمسة من ملوك الفرس سانيين، أشهرهم هرمز الرابع والد كسرى.

وأخذ الغناءَ عن معبد وابن سريج وابن مُحْرِز والغَرِيض، وكان أكثرُ روايته عن معبد. ولم يكن في أصحاب معبد أحذقُ منه ولا أقومُ بما أُخِذ عنه منه، وله غناءٌ حسن، وصَنعة كثيرة، وشعر جيِّد، وهو أوّل من دوّن الغناءَ، وله كتاب في الأغاني نسبها إلى من غنّى فيها. وخرج إلى الشام في تِجارة، فبلغ الوليد بن يزيد مكانُه فأحضره والوليدُ إذ ذاك وليُّ العهد، قال: فلمّا وصلتُ إليه سلّمتُ عليه، فأمرني بالجلوس، ثم دعا بالشراب والجواري. قال يونس: فمكثنا يومَنا وليلتَنا في أمرِ عجيب، وغنّيته فأُعْجِب بغِنائي إلى أن غنّيته: [من الخفيف]

إنْ يَعِشْ مُصْعَبٌ فنحن بخير قد أتانا مِن عيشنا ما نُرَجِّي[1]

ثم تنبّهتُ فقطعتُ الصوتَ وأخذتُ أعتذر من غنائي بشعرِ في مصعب، فضحك ثم قال: إن مُصْعَبًا قد مضى وانقطع أثرُه ولا عداوة بيني وبينه، وإنما أُريد الغناء، فأمضِ الصوتَ؛ فعُدْتُ فيه فغنّيته ولم يَزل يَستعيده حتى أصبح فشرب مُصْطَحِبًا وهو يَستعيدني هذا الصوت ولا يَتجاوزه. فلما مضت ثلاثةُ أيّام قلت: جعلني الله فداك إني رجل تاجر خرجتُ مع تُجّارٍ وأخاف أن يرتحِلوا فيضيع مالي، فقال: أنت تغدو غدًا، وشَرِب باقي ليلته وأمر لي بثلاثة آلاف دينار، فحُمِلَتْ إليّ وغدوتُ إلى أصحابي، فلما استُخْلِف بعث إليّ فأتيته فلم أزلْ معه حتى قُتِلَ.

ذكر أخبار حُنَيْن

هو حنينُ بنُ بَلْوَعَ الحِيرِي، واختُلف في نسبه، فقيل: هو من العِبادِيّين من تَمِيم، وقيل: إنه مِن بني الحارث بن كعب، وقيل: إنه من قوم بَقُوا من طَسْم وجَدِيس[2]، فنزلوا في بني الحارث بن كعب فعُدّوا فيهم. ويُكْنى أبا كعب. وكانَ شاعراً مُغَنّيًا من فحول المُغَنِّين، وكان يَسكن الحِيرةَ ويُكْرِي[3] الجمال إلى الشام، وكان نَصْرانيًا. وعن المدائنيّ قال: كان حُنينٌ غلامًا يَحْمِل الفاكهةَ بالحِيرة، وكان إذا حمل الرياحين إلى بيوت الفتيانِ ومياسيرِ أهل الكوفة وأصحاب القِيان والمُتَطرّبين ورأَوْا رشاقته وحسنَ قَدّه وحلاوتَه وخِفّةَ روحه استحلوه وأقام عندهم، فكان يَسمع الغناءَ ويُصْغِي له، حتى شدا منه أصواتًا فاستمعه الناسُ، وكان مطبوعًا حسنَ الصوت. واشتهر غناؤه وشُهِر بالغناء ومَهَر فيه وبلَغ فيه مبلغًا كبيرًا. ثم رحل إلى

(١) نرجّي: نطلب ونتمنّى.

(٢) طسم وجديس: من قبائل العرب البائدة، في جنوب الجزيرة العربية.

(٣) يكري: يؤجّر.

عمر بن داود الوَادِيّ وإلى حَكَم الوَادِيّ وأخذ منهما وغنّى لنفسه واستولى على الغناء في عصره، وهو الذي بذل لابن مُحْرِزٍ خمسمائة دينار حتى رجع عن العراق، كما قدّمناه في أخبار ابن محرز. وبلغ من الناس بالغناء مبلغًا عظيمًا، حتى قيل له فيما حُكي: إنك تغنّي منذ خمسين سنة فما تركتَ لكريم مالًا ولا دارًا ولا عَقارًا إلا أتيتَ عليه. فقال: بأبي أنتم! إنما هي أنفاسِي أقْسِمها بين الناس، أفتلومونني أن أُغْلِي بها الثمن.

وحكى المدائنيّ[1]، قال: حجّ هشامُ بن عبد الملك وعديلُه الأبرشُ الكلبيّ؛ فوقَف له حنينٌ بظهر الكوفة ومعه عودٌ وزامِرٌ له، فلما مرّ به هشام عرَض له فقال: من هذا؟ قيل: حنين؛ فأمر به هشام فحُمِل في مَحْمِلٍ على جمل وعديلُه زامِرُه وسيّره أمامه، فغنّاه: [من مجزوء الوافر]

أمِـن سَـلْمـى بِـظـهـرِ الـكـو ... فـةِ الآيـاتُ[2] والـطّـلَلُ
تـلـوح كـمـا تـلـوح عـلـى ... جـفـون الـصَّـيْـقَـلِ[3] الـخِـلَلُ

فأمر له هشام بمائتي دينار وللزّامر بمائة دينار.

وحُكي أن خالد بن عبد الله القَسْري[4] حرّم الغناءَ بالعراق في أيّامه ثم أذِن للناس يومًا في الدخول عليه عامّةً؛ فدخل عليه حنين في جملة الناس ومعه عودٌ تحت ثيابه فقال: أصلح الله الأمير! كانت لي صِناعةٌ أعود بها على عيالي فحرّمها الأميرُ فأضَرّ ذلك بي وبهم. فقال: وما كانت صِناعتُك؟ فكشف عن عوده وقال: هذا. فقال له خالد: غَنِّ؛ فعرك أوتارَه[5] وغنّى: [من الخفيف]

أيّـهـا الـشّـامـتُ الـمُـعَـيِّـر بـالـدهـ ... ـر أأنـتَ الـمُـبَـرَّأُ الـمـوفـورُ
أم لـديك الـعهـدُ الـوثيقُ من الأيّـ ... ـام بـل أنـتَ جـاهـلٌ مـغـرورُ
مـن رأيـتَ الـمـنونَ خَـلّدن أم مَـنْ ... ذا عـلـيه مِـنْ أن يُـضـامَ خَـفـيـرُ[6]

---

(١) المدائنيّ: علي بن محمد، المؤرخ المشهور، عاش في بغداد. له مؤلفات في المغازي والسيرة النبويّة. عنه أخذ الطبري والبلاذري. مات سنة ٨٣٩ م.

(٢) الآيات: العلامات. (٣) الصيقل: السيف.

(٤) خالد بن عبد الله القسري، أمير العراق في عهد هشام بن عبد الملك. عزل من الإمارة، ثم سجن فمات في السجن سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٣ م.

(٥) عرك أوتاره: شدّها و«دوزنها».

(٦) هذا الشعر لعدي بن زيد العبادي، الشاعر الجاهلي، قالها للنعمان بن المنذر بن ماء السماء، =

قال: فبكى خالد، وقال: قد أذِنتُ لك وحدك خاصّةً، ولا تجالِس سفيهًا ولا مُعَرْبِدًا. فكان إذا دُعِيَ قال: أفيكم سفيه أو معربِدٌ؟ فإذا قالوا: لا، دخل.

وقال بشر بن الحسين بن سليمان بن سَمُرَة بن جُنْدب: عاش حنين بن بَلْوَع مائة سنة وسبع سنين.

ذكر أخبار سِياط

هو عبدُ الله بنُ وهبٍ ويُكْنى أبا وهب، وسِياطٌ لقب غلَب عليه، وهو مَكيٌّ مولى خزاعة. كان مقدّمًا في الغناء رِوايةً وصَنعةً، مقدّمًا في الطرب، وهو أستاذ ابنِ جامعٍ وإبراهيمَ الموصليّ وعنه أخذا، وأخذ هو عن يونسَ الكاتب. وكان سياط زوجَ أمّ ابن جامع. قيل: وإنما لُقّب سِياطٌ بهذا اللقبِ لأنه كان كثيرًا ما يغنّي: [من الوافر]

كأنّ مزاحفَ الحيّاتِ فيها ... قُبيلَ الصبح آثارُ السّياطِ[1]

حُكي أن إبراهيم الموصليّ غنّى صوتًا لسِياط، فقال ابنه إسحٰق: لِمَنْ هذا الغناء يا أبت؟ قال: لِمن لو عاش ما وجد أبوك خبزًا يأكل، سِياط.

وحُكي أن سِياطًا مرّ بأبي رَيْحانةَ في يوم بارد وهو جالسٌ في الشمس وعليه سَمَلٌ[2] ثوبٍ رقيق رثّ؛ فوثب إليه أبو ريحانة المدنيّ وقال: بأبي أنت يا أبا وهب! غَنّنِي صوتك في شعر ابن جُندب: [من الطويل]

فؤادي رهينٌ في هواك ومُهجتي[3] ... تَذوبُ وأجفاني عليك هُمولُ[4]

فغنّاه إياه، فشقّ قَميصَه، ورجع إلى موضعه من الشمس وقد ازداد بردًا وجَهْدًا. فقال له رجل: ما أغنى عنك هذا مِن شقّ قميصك؟ فقال: يا بن أخي، إن الشعر الحسن من المغنّي المحسِنِ ذي الصوت المطرِبِ أدفأُ للمقرور[5] من حمّام مُحْمًى. فقال له رجل: أنت عندي من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦]، فقال: بل أنا مِمّن قال الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ

= ملك الحيرة، متحدّثًا بلسان شجرة كان نزل في ظلّها مع الملك الحيري. والخفير: الحارس. ويضام: يُذلّ ويظلم.

(١) السياط: جمع سوط، وهو القضيب من جلد وغيره يُجلد به.

(٢) السمل من الثياب: الخلق البالي.

(٣) مهجتي: روحي ونفسي.

(٤) همول: سائلة منسكبة.

(٥) المقرور: البردان.

يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٨]. وقد حكيت هذه الحكاية أيضًا من طريق آخر: أنّه لمّاه غنّاه هذا الصوت شقّ قميصَه حتى خرج منه وبَقِيَ عاريًا وغُشِيَ عليه واجتمع الناسُ حوله، وسِياطٌ واقف يتعجّب مما فعل، ثم أفاق فقام إليه. فقال له سياطٌ: مالك يا مشؤوم! أيَّ شيءٍ تريد؟ قال: غنّني بالله عليك يا سيّدي: : [من الكامل]

وَدِّع أُمَامةَ[1] حان منك رحيلُ ... إنّ الوداع لمن تُحِبّ قليل

مِثل القضيب تمايَلَتْ أعطافُه[2] ... فالرّيح تَجْذِب مَتْنَه[3] فيَميل

إن كان شأنُكم الدّلال فإنّه ... حسنٌ دلالكِ يا أُمَيم[4] جميلُ

فغنّاه، فلَطم وجهه حتى خرج الدَّمُ من أنفه ووقع صريعًا. ومضى سياطٌ وحمل الناسُ أبا ريحانةَ إلى الشمس، فلما أفاق قيل له في ذلك، فقام نحو ما تقدّم. قال: ووجّه إليه سياطٌ بقميص وسراويلَ وجبّةٍ وعِمامة.

وكانت وفاةُ سياط في أيام موسى الهادي، ودخل عليه ابن جامع وقد نَزَل به الموت فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم لا تَزِدْ في غنائي شيئًا ولا تَنْقُص منه، فإنما هو ثمانيةَ عشرَ صوتًا دَعْه رأسًا برأس. وقيل: بل كانت وفاتُه فجأةً، وذلك أنه دعاه بعض إخوانه فأتاهم وأقام عندهم وبات؛ فأصبحوا فوجدوه مَيْتًا في منزلهم؛ فجاؤوا إلى أُمّه وقالوا: يا هذه إنا دعَوْنا ابنَكِ لِنُكرمه ونُسَرَّ به ونأنَس بقربه فمات فجأة، وها نحن بين يديكِ، فاحكمي ما شِئتِ، وناشَدْناكِ الله أن لا تُعَرِّضينا للسلطان أو تدّعِي علينا ما لم نفعله. قالت: ما كنتُ لأفعل، وقد صدَقْتم، وهكذا مات أبوه فجأةً، وتوجّهتْ معهم فحملَته إلى منزله ودفنته.

ذكر أخبار الأَبْجَرِ

هو عبيد الله بنُ القاسم بنِ مُنَبِّهٍ، ويُكنى أبا طالب. وقيل: اسمه محمدُ بن القاسم، والأَبْجرُ لقبٌ غلَب عليه، وهو مولى لكنانةَ ثم لبني ليث بن بكر. وكان يلقّب بالحَسْحَاس، وكان مَدنيًا منشؤه مكّة أو مكيًا منشؤه المدينة. قال عَوْرَك اللِّهبيّ:

---

(١) أمامة: اسم المرأة.

(٢) أعطافه: جمع عطف، وهو الجانب والخصر.

(٣) المتن: الظهر.

(٤) أميم: تصغير وترخيم أمامة.

لم يكن بمكّةَ أحدٌ أظرفَ ولا أسْرى ولا أحسنَ هيئةً من الأبجر؛ كانت حُلّتُه بمائة دينار وفرسُه بمائة دينار ومركبُه بمائة دينار؛ وكان يقف بين المأزِمينِ[١] ويرفع عَقِيرته، فيقف الناسُ له فيركب بعضُهم بعضًا. وروى الأصفهانيّ بسنده إلى إسحٰق بن إبراهيم الموصليّ قال:

جلس الأبجر في ليلة اليوم السابع من أيام الحجّ على قريب من التَّنْعيم[٢] فإذا عسكر جرّار قد أقبل في آخر الليل وفيه دوابُّ تُجْنَبُ ومنها فرس أدهمُ[٣] عليه سرجٌ حليته ذهَب، فاندفع يغنّي: [من الطويل]

عَرفتُ ديارَ الحيّ خاليةً قَفْرا كأنّ بها لمّا توهّمتُها سطرا

فلمّا سمعه من في القِباب والمحامل أمسكوا وصاح صائحٌ: ويحك أعِدِ الصوتَ! فقال: لا والله إلا بالفرس الأدهم بسَرْجه ولجامه وأربعمائة دينار؛ وإذا الوليد بن يزيد صاحبُ العسكر. فنُودِي: أين منزلُك؟ ومن أنتَ؟ فقال: أنا الأبجرُ، ومنزلي على زُقاق باب الخرّازين[٤]. فغدا عليه رسولُ الوليد بذلك الفرس وأربعمائة دينار وتختِ ثياب وَشْيٍ وغير ذلك، ثم أُتِيَ به الوليدُ، فأقام وراح مع أصحابه عشيَّةَ التَّرْوِية[٥] وهو أحسنُهم هيئة، وخرج معه أو بعده إلى الشام.

وحُكي عن عمرو بن حفص بن أُمّ كلاب، قال:

كان الأبجرُ مولانا وكان مكيًّا، وكان إذا قَدِم من مكّة نزل علينا، فقال لنا يومًا: أسمِعونا غِناء ابن عائشتكم هذا؛ فأرسلنا إليه فجمعنا بينهما في بيت ابن هبّار، فغنّى ابن عائشة؛ فقال الأبجرُ: كلُّ مملوكٍ له حرّ إن غنّيت معك إلّا بنصف صوتي، ثم

(١) تثنية المأزم، من الأزم، وهو العضّ. والمأزمان، اسم موضع بمكّة بين المشعر الحرام وعرفة، وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عُرنة، وبه المسجد الذي يجمع فيه بين الصلاتين الظهر والعصر، وباختصار منهما حدود الحرم المكي الشريف، قبل عرفات. وقيل: هما جبلا مكة وليسا من المزدلفة. انظر: معجم البلدان ٤/٩٧.

(٢) التنعيم: موضع بمكّة في الحلّ بين مكة وسَرِف، وسمّي بهذا الاسم لأن جبلًا يقال له نعيم، من جهة اليمن، وجبلًا آخر يقال له ناعم، من الشمال، والوادي النعمان، ومن التنعيم يحرم المكّيّون بالعمرة.

(٣) أدهم: أسود يضرب إلى الحمرة.

(٤) الخرّازون: جمع خرّاز، وهو الذي يتعاطى بيع الخرز.

(٥) التروية: وتكون في اليومين اللذين يسبقان يوم عرفة في التاسع من شهر ذي الحجّة، وسميت بهذا الاسم لأن الحجيج يملأ الروايا بالماء ليحملها معه إلى عرفات. وتكون التروية أيضًا في ليلة الذهاب إلى عرفة.

أدخل إصبعه في شِدْقِه وغنّى فسمِع صوتَه من في السوق، فحشر الناس علينا، فلم يفترِقا حتى تشاتَما.

ذكر أخبار أبي زيد الدَّلَال

هو أبو زيد ناقِدٌ مَدَنِيٌّ، مولى عائشةَ بنتِ سعيدِ بن العاص، وكان مُخَنَّثًا.

قال إسحٰق:

لم يكن في المختّثين أحسن وجهًا ولا أنظف ثوبًا ولا أظرف من الدَّلَال. قالوا: ولم يكن بعد طُوَيْس أظرف منه ولا أكثر مُلَحًا. وكان كثيرَ النوادر نَزْرَ[1] الحديث، فإذا تكلم أضحك الثّكالى[2]، وكان ضاحكَ السنّ، ولم يكن يغنّي إلّا غناءً مُضَعَّفًا (يعني كثير العمل).

وقال أيّوب بن عَبَاية:

شَهدتُ أهلَ المدينة إذا ذكروا الدَّلَال وأحاديثَه طوَّلوا رقابَهم وفخروا به، فعلمتُ أن ذلك لفضيلةٍ كانت عنده. قالوا: وكان مُبْتلًى بالنِّساء والكونِ معهنّ، فكان يُطلَب فلا يُقْدَر عليه. وكان صحيحَ الغِناء حسنَ الجِرْم. قالوا: وإنما لُقِّب بالدّلال لشكله وحسن ظَرْفِه ودلّه وحلاوةِ مَنْطِقه وحسن وجهه. وكان مشغوفًا بمخالطة النساء يُكثر وصفهنّ للرجال. وكان يُشاغِل كلَّ من يجالسه عن الغناء بأحاديث النساء كراهةً منه للغناء. وكان إذا غنّى أجاد، كما حكاه ابن المَاجِشُون عن أبيه، قال: غنّاني الدّلالُ يومًا بشعر مجنون بني عامر[3]، فلقد خِفْتُ الفتنةَ على نفسي. واستحضره سليمانُ بن عبد الملك من المدينة سرًّا وغنّاه وأقام عنده شهرًا ثم صرفه إلى الحجاز مكرمًا.

قال الأصمعيّ:

حجّ هشامُ بن عبد الملك؛ فلما قدِم المدينة نزل رجلٌ من أشراف أهل الشام وقوّادِهم بجَنْب دارِ الدَّلال، فكان الشاميُّ يَسمع غناءَ الدلال ويُصغي إليه ويصعَد فوق

(١) نزر: قليل.

(٢) الثكالى، جمع ثكلى، وهي الأم التي فقدت ولدها.

(٣) مجنون بني عامر: شاعر غزل من أهل نجد، اسمه قيس بن الملوّح العامري، عشق ليلى العامريّة فرفض أهلها أن يزوّجوها به فهام على وجهه يتغنّى بحبّه العذري، واشتهر بلقب مجنون ليلى، مات سنة ٦٨٨ م.

السطح لِيقرب من الصوت، ثم بعث إلى الدّلال: إمّا أن تزورنا وإمّا أن نزورَك. فبعث إليه الدّلالُ: بل تزورنا. فبعث الشاميّ ما يَصْلُح ومضى إليه بغلامين من غِلمانه كأنهما دُرّتان مكنونتان. فغنّاه الدّلالُ، فاستحسن الشاميُّ غناءَه، فقال: زِدْني؛ قال: أوَ ما يكفيك ما سمعتَ! قال: لا والله ما يَكفيني. قال: فإنّ لي حاجة، قال: وما هِي؟ قال: تَبيعني أحدَ هذين الغلامين أو كليهما، فقال: اخْتَرْ أيَّهما شئت، فاختار أحدهما، فقال له الشاميّ: هو لك؛ فقبِله منه الدّلالُ، ثم غنّاه وغنّى: [من الطويل]

دَعَتْني دَواعٍ مِن أُرَيّا[١] فهيّجتْ ... هوًى كان قِدْمًا مِن فؤاد طَروبِ
لعلّ زمانًا قد مضى أن يعودَ لي ... فتغفِرَ أرْوَى عند ذاك ذنوبي
سَبَتْني أُرَيّا يوم نَعْفِ مُحَسِّرٍ[٢] ... بوجهٍ جميلٍ للقلوب سَلُوبِ

فقال له الشاميّ: أحسنتَ، ثم قال له: أيّها الرجل الجميلُ، إن لي إليك حاجةً، قال الدّلال: وما هي؟ قال: أُريد وصيفةً[٣] ولِدتْ في حِجْرِ صالحٍ ونشأت في خير، جميلةَ الوجه مجدولةً وضيئةً جَعْدةً في بياض مُشْرَبةً حُمْرةً حسنةَ الهامةِ سَبْطة[٤] أسيلةَ الخدّ[٥] عذبةَ اللّسان لها شكْلٌ ودلٌّ تملأ العين والنفس. فقال له الدّلال: قد أصبتُها لك، فما لي عندك إن دللتُك عليها؟ قال: غلامي هذا. قال: إذا رأيتَها وقبِلتها فالغلام لي؟ قال: نعم. قال: فأتى امرأة كَنَّى عن اسمها، فقال لها: جُعِلْتُ فِداءكِ! نزل بقربي رجلٌ مِن قوّاد هشام، له ظَرْف وسخاءٌ، وجاءني زائرًا فأكرمتُه، ورأيت معه غلامين كأنهما الشمسُ الطالعة المنيرة والكواكب الزاهرة ما وقعتْ عيني على مثلِهما ولا يطول لساني بوصفهما، فوهب لي أحدَهما والآخرُ عنده، وإن لم يَصِرْ إليّ فنفسِي ذاهبةٌ. قالت: وتُريد ماذا؟ قال: طلب مني وصيفةً على صِفةٍ لا أعلمها إلا في ابنتِك، فهل لك أن تُريهِ إيّاها؟ قالت: وكيف لك بأن يَدْفع الغلام إليك إذ رآها؟ قال: إني قد شرطتُ عليه ذلك عند النظر لا عند البيع. قالت: شأنَك، لا يعلم هذا أحد. فمضى الدّلال وأتى بالشاميّ، فلما صار إلى المرأة وُضِع له كرسيٌّ وجلس. فقالت له المرأة: أمِن العرب أنت؟ قال: نعم. قالت: مِن أيّهم؟ قال: مِن خُزَاعة[٦]. قالت: مرحبًا

(١) أريا: تصغير أروى، اسم للمرأة.
(٢) نعف محسّر: موضع بين مكّة وعرفة.
(٣) الوصيفة: الخادمة.
(٤) سبطة: طويلة.
(٥) أسيلة الخلد: ناعمته.
(٦) خزاعة: قبيلة عربية من الأزد ارتحلت إلى الشمال إثر تصدّع سدّ مأرب. كانت لهم سدانة الكعبة بمكّة إلى أن انتزعها منهم قصيّ، أحد أجداد النبيّ ﷺ.

بك وأهلًا! أيَّ شيء طلبتَ؟ فوصف لها الصِّفةَ. قالت: قد أصبتَها؛ وأسرّت إليّ جارية لها فدخلتْ فمكثت هنيهة ثم خرجت فنظرت فقالت: اُخرجي، فخرجت وصيفةٌ ما رأى الراؤون مثلَها. فقالت لها: أقْبِلي فأقبلتْ، ثم قالت: أدْبِري فأدبرت تملأ العينَ والنفسَ، فما بَقِيَ منها شيء إلا وضَع يدَه عليه. فقالت له: أتحبّ أن نؤزّرَها لك؟ قال: نعم. قالت: ائْتَزِري؛ فضمّها الإزارُ وظهرت محاسنها الخفيّة؛ فضرب بيده إلى عَجيزتها وصدرِها. ثم قالت: أتحب أن نجرّدها لك؟ قال: نعم. قالت: أي حبيبتي، وضّحِي؛ فألقت الإزارَ فإذا أحسنُ خَلْق الله كأنها سبيكةٌ. فقالت: يا أخا العرب، كيف رأيتَ؟ قال: منيةُ المتمنّي. قال: بِكم تقولين؟ قالت: ليس يوم النظر يوم البيع، ولكن تعود غدًا حتى نُبايعك فلا تَنصرف إلّا عن رضًا، فانصرف من عندها. فقال له الدَّلالُ: أرضِيتَ؟ قال: نعم، ما كنتُ أحسب أن مثل هذه في الدنيا، وإن الصفة لتَقْصُر دونها، ثم دفع إليه الغلامَ الثاني. فلما كان من الغَدِ قال له الشاميّ: اُمضِ بنا. فمضَيَا حتى قرعا البابَ، فأُذِن لهما فدخلا فسلّما، فرحّبتِ المرأة بهما ثم قالت للشاميّ: أعْطِنا ما تَبْذُل؛ فقال: ما لها عندي ثمنٌ إلّا وهي أكثرُ منه، فقولي أنت يا أمَةَ الله. قالت: بل قل أنتَ، فإنا لم نُوطِئك أعقابَنا ونحن نُريد خِلافَك وأنت لها رِضًا. قال: ثلاثة آلاف دينار. قالت: والله لقبلةٌ منها خيرٌ من ثلاثة آلاف دينار. قال: أربعة آلاف دينار. قالت: غفَر الله لك أعْطِنا أيّها الرجل. قال: والله ما معي غيرها ـ ولو كان لزدتُكِ ـ إلا رقيقٌ ودوابّ. قالت: ما أراك إلا صادقًا، أتَدْري مَنْ هذه؟ قال: تُخْبِرينِي. قالت: هذه ابنتي فلانة بنت فلان وأنا فلانة بنت فلان، قم راشِدًا. فقال للدّلال: خدَعْتني. قال: أوَ ما تَرْضَى أن تَرى ما رأيتَ من مثلها وتَهَبُ مائة غلام مثل غلامك؟ قال: أمّا هذا فنعم. وخرجا من عندها.

والدّلال أحدُ من خُصِيَ من المخنّثين بالمدينة لمّا أمر سليمانُ بن عبد الملك عاملَه على المدينة أبا بكرِ بنَ عمرو بن حَزْم بِخَصْيِهم.

ذكر أخبار عطَرّد

هو أبو هارون عطرّد، مولى الأنصار ثم مولى بني عمرو بن عوف، وقيل: إنه مولى مُزَيْنَة. مدنيٌّ كان ينزِل قُباء[1]، وكان جميلَ الوجه حسنَ الغناء طَيِّبَ الصوت

(١) قباء: اسم قرية قريبة من المدينة المنوّرة على يسار القاصد إلى مكّة، بها أثر بنيان كثير، ومسجد قديم، وآبار ومياه عذبة، إضافة إلى مسجد ضرار الذي ورد ذكره في القرآن الكريم.

جيِّد الصنعة حسنَ الزيّ والمروءة فقيهًا قارئًا للقرآن. وقيل: إنه كان مُعَدَّل الشهادة بالمدينة. وأدركَ دولةَ بني أُميّة وبقي إلى أوّل أيام الرشيد، وكان يُغَنّي مرتَجِلًا.

وحكى أبو الفرج الأصفهانيّ بسند رفعه، قال:

لمّا استُخْلِفَ الوليدُ بن يزيدَ كتب إلى عاملة بالمدينة فأمره بإشخاصِ عَطَرّدٍ المغنّي إليه، ففعل. قال عَطرّدُ: فدخلتُ على الوليد وهو جالسٌ في قصره على شَفير[1] بركة مُرَصَّصَةٍ مملوءةٍ خمرًا ليست بالكبيرة ولكنّها يدور الرجلُ فيها سِباحةً. قال: فوالله ما تركني أسلِّم حتى قال: أعَطَرّد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ما زلتُ إليك مشتاقًا يا أبا هارون، غنِّني: [من الكامل]

حَيِّ الحُمُولَ بجانب العَزْلِ[2] إذ لا يشاكل[3] شكلُها شكلي
الله أنجعُ[4] ما طلبت به والبِرُّ خيرُ حقيبةِ الرَّحْلِ[5]
إني بحبْلِك واصلٌ حبلي وبريش نَبْلِكِ رائشٌ[6] نَبْلي[7]
وشمائلي[8] ما قد عَلِمتِ وما نبحتْ كِلابُكِ طارقًا[9] مِثلي

قال: فغنّيته إيّاه، فوالله ما أتْمَمْتُه حتى شقّ حُلّةَ وَشْيٍ كانت عليه لا أدري كم قيمتُها، فتجرّد منها كما ولَدته أُمّه، وألقى نفسه في البركة فنَهل منها حتى تبيّنتُ أنها قد نقصت نقصانًا بيّنًا، وأُخْرِج منها وهو كالميت سكرًا، فأُضْجِع وغُطِّي؛ فأخذت الحُلّةَ وقمتُ وانصرفتُ إلى منزلي متعجِّبًا من فعله. فلما كان في غد، جاءني رسولُه في مثل الوقت فأحضَرني. فلما دخلتُ عليه قال: يا عَطَرَّد! قلت: لبَّيْك يا أمير المؤمنين! قال: غنِّني: [من الطويل]

أيذهب عُمري هكذا لم أَنَلْ به
مجالسَ تَشْفِي قَرْحَ[10] قلبي من الوَجْدِ[11]

---

(١) شفير: حافّة.
(٢) العزل: اسم موضع بعينه.
(٣) يشاكل: يماثل.
(٤) أنجع: أكثر انتجاعًا، وطلبًا للنجعة، أي الماء والخير.
(٥) الرّحل: ما يحمل على ظهر الدابّة.
(٦) رائش: اسم الفاعل من راش السّهم، إذا ركب عليه الريش لينطلق بسرعة أكبر.
(٧) النبل: السهام.
(٨) الشمائل: الأخلاق والطباع الحسنة.
(٩) الطارق: الزائر ليلًا.
(١٠) القرح: الجرح.
(١١) الوجد: شدّة العشق والحزن. ويجدي: ينفع.

وقـــالـــوا تَـــدَاوَ إنّ فـــي الـــطـــبّ راحـــةً
فـــعـــلّلتُ نـــفـــســـي بـــالـــدواء فـــلـــم يُـــجْـــدِ

فغنّيتُه إيّاه، فشقّ حُلّةَ وَشْي كانت تَلْمَع عليه بالذّهب احتقرتُ والله الأولى عندها، ثم ألقى نفسه في البركة فنَهِل[1] منها حتى تبيّنتُ نُقْصانها وأُخْرِج كالميت سكرًا، فأُلْقِيَ وغُطِّي ونام؛ وأخذتُ الحُلّة وانصرفت. فلما كان اليوم الثالث، جاءني رسولُه فدخلت إليه وهو في بَهْوٍ[2] قد أُلْقِيتْ ستورُه، فكلّمني من وراء الستور وقال: يا عطَرّد! قلت: لبّيْك يا أمير المؤمنين! قال: كأني بك الآن قد أتيتَ إلى المدينة فقمتَ في مجالسها وقعدتَ وقلتَ: دعاني أميرُ المؤمنين فدخلتُ عليه فاقترح عليّ فغنّيتُه فأطربتُه فشقّ ثيابَه وأخذتُ سَلَبه[3] وفعل وفعل! ووالله يا ابن الزّانية إن تحرّكت شَفَتاك بشيءٍ مما جرى لأضربنّ عُنُقَك يا غلام أعْطِهِ ألف دينار؛ خذها وانصرِف إلى المدينة. فقلتُ: إنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذَن لي في تقبيل يده ويزوّدني نظرة منه وأغنّيه صوتًا! فقال: لا حاجةَ بي ولا بك إلى ذلك، فانصرِفْ. قال عطَرّد: فخرجتُ من عنده وما علم الله أنّي ذكرتُ شيئًا مما جرى حتى مضت من دولة بني هاشم مدّةٌ. ودخل عطرّد على المهديّ وغنّاه. قيل: ودخل على الرشيد وغنّاه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصّواب.

ذِكْر أخبار عمر الواديّ

هو عمرُ بن داودَ بن زَاذَان، وجَدُّه زاذان مولى عمرو بن عثمان بن عفّان. وأخذ الغناءَ عن حَكَم، وقيل: بل أخذ حكمٌ عنه. وهو من أهل وادي القُرى، قَدِمَ الحَرَمَ وأخذ من غناء أهلِهِ فحذِق وصَنَع فأجاد، وكان طيِّبَ الصوت شَجِيًّا مُطْرِبًا، وهو أوّل من غنّى من أهل وادي القُرى، واتّصل بالوليد بن يَزِيد في أيّام إمارتِهِ فتقدّم عنده جدًّا، وكان يسمّيهِ «جامع لذّاتي ومُحْيي طربي». وقُتِل الوليدُ وهو يغنّيه، وكان آخرَ الناس به عهدًا. قال: وكان يجتمع مع معبد ومالك بن أبي السَّمْحِ وغيرهما من المُغنّين عند الوليد بن يزيد، فلا يمنعه حضورُهم من تقديمه والإصغاءِ إليه والاختصاص به. وفي عمر هذا يقول الوليدُ بن يزيد: [من المديد]

إنــمــا فــكّــرتُ فــي عُــمَــرٍ حــيــن قــال الــقــولَ واخــتــلجــا

---

(١) نهل: شرب. (٢) البهو: القاعة الفسيحة.
(٣) سلبه: ما يلبس من ثياب وغيرها، ويندرج في ذلك الدروع والسلاح.

إنــه لــلمُــسْــتَــنِــيــر بــه قمرٌ قد طمّس(١) السُرُجَا(٢)

ويـغـنّـي الـشـعـرَ يَـنْـظِـمـه سـيّـدُ الـقـوم الـذي فـلجـا(٣)

أكـمـل الـواديُّ صَـنْـعـتـه في كـتـاب الـشـعر فـانـدمـجا

أراد الوليد بن يزيد بقوله: «سيّد القوم» نفسَه.

ذكر أخبار حَكَم الواديّ

هو أبو يحيىٰ الحكمُ بنُ ميمونَ، وقيل: الحكم بن يحيىٰ بن ميمون. مولى الوليد بنِ عبدِ الملك، كان أبوه حلّاقًا يَحْلِق رأسَ الوليد، فاشتراه فأعتقه. وكان حكمٌ طويلًا أحولَ، يُكْري الجمال يَنْقُل عليها الزيت من الشام إلى المدينة. وقيل: كان أصلُه من الفُرس. وكان واحدَ عصره في الحِذْق، وكان يغنّي بالدُّفّ ويغنّي مرتجلًا. وعُمِّر عمرًا طويلًا، غنّى الوليدَ بن عبد الملك، وغنّى الرشيدَ، ومات في الشَّطر من خلافته. وأخذ الغناءَ عن عمر الواديّ، وقد قيل: إن عمر أخذ عنه. قال حمّاد بن إسحٰق: قال لي أبي: أربعةٌ بَلَغت في أربعة أجناس من الغناء مبلغًا قَصّر عنه غيرُهم: «معبدٌ» في الثقيل، و «ابنُ سريجٍ» في الرّمَل، و «حكمٌ» في الهَزَج، و «إبراهيمُ» في الماخوريّ. قال أبو الفرج الأصفهانيّ: وزار حكمٌ الواديّ الرشيدَ، فبَرّه ووصله بثلاثمائة ألف درهم، وخيّره فيمن يكتُب له بها عليه؛ فقال: اكتبْ لي بها على إبراهيمَ بنِ المهديّ ـ وكان إبراهيمُ إذ ذاكعاملًا له بالشام ـ فقدِم عليه حكمٌ بكتابِ الرشيد؛ فأعطاه ما كتَب له به، ووصلَه بمثل ذلك، إلّا أنه نَقَصه ألفَ درهم من الثلاثمائة ألف، وقال له: لا أَصِلُك بمثلِ ما وصلَك أمير المؤمنين. قال إبراهيمَ بن المهديّ: وأقام عندي ثلاثين يومًا أخذت عنه فيها ثلاثمائة صوت، كلُّ صوت أحبُّ إليَّ من الثلاثمائة ألف التي وهبتُها له. وقيل: إنه لم يَشْتَهِر بالغناء حتى صار إلى بني العبّاس، فانقطع إلى محمدِ بنِ أبي العباس، وذلك في خلافة المنصور، فأُعْجِب به واختاره على المغنّين وأعجبته أهزاجُه. وكان يقال: إنه أهزجُ الناس. ويقال: إنه غنّى الأهزاجَ في آخر عمره؛ فلامه ابنُه على ذلك وقال: أبَعْدَ الكبَر تغنّي غناءَ المخنّثين! فقال له: اسكت فإنّك جاهل، غنّيتُ الثقيل ستين سنة فلم أَنَلْ إلا القوت، وغنّيتُ الأهزاجَ منذ سنتين فكَسَبتُك ما لم تر مثله قطّ، والله أعلم.

(١) طمس: أطفأ.
(٢) السرج: جمع سراج، وهو المصباح والقنديل.
(٣) فلج: ظفر.

ذكر أخبار ابن جامع

هو أبو القاسم إسماعيل بنُ جامعِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ المطلبِ بن أبي وَدَاعَةَ بنِ صُبَيْرَةَ بنِ سهمِ بنِ هُصَيْصِ بنِ كعبِ بنِ لُؤَيّ. قالوا: وكان ابنُ جامع من أحفظِ خلق الله لكتاب الله تعالى، كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلّي الصبح ثم يَصُفُّ قدمَيْه حتى تَطْلُع الشمس، فلا يصلّي الناسُ الجمعةَ حتى يختم القرآنَ ثم ينصرف إلى منزله. وكان حسنَ السَّمْت[١]، كثيرَ الصلاة. وكان يعتمُّ بعمامةٍ سوداءَ على قَلَنْسُوة ويلبَس لباسَ الفقهاء ويركب حمارًا مَرّيسيًّا[٢] في زيِّ أهل الحجاز. ورُوي عنه أنّه قال: لولا أن القِمارَ وحبَّ الكلاب قد شَغَلاني لتركتُ المغنّين لا يأكلون الخبزَ. قال ابن جامع: أخذتُ من الرشيد بيتين غنّيْتُه إياهما عشرةَ آلاف دينار. قالوا: وكان إبراهيمُ بن المهديّ يفضّل ابنَ جامعٍ فلا يقدّم عليه أحدًا. قال: وكان ابن جامع مُنقطِعًا إلى موسى الهادي في أيّام أبيه، فضربه المهديّ وطردَه. فلما مات المهديّ بعث الفضلُ بن الربيع[٣] إلى مكة فأحضَر ابنَ جامع في قُبّةٍ ولم يُعْلِم به أحدًا. فذكره موسى الهادي ذاتَ ليلةٍ فقال لجلسائه: أمَا فيكم أحدٌ يُرسل إلى ابن جامع وقد عرفتم مَوْقِعَه مني؟ فقال الفضل بن الربيع: هو والله عندي يا أمير المؤمنين وأحضره إليه. فوَصَل الفضلَ في تلك الليلة بعشرة آلاف دينار وولّاه حِجابَته[٤].

وحُكي أنه دخل على الهادي فغنّاه فلم يُعْجِبه؛ فقال له الفضلُ: تركتَ الخفيفَ وغنّيْتَ الثقيل. قال: فأَدْخِلني عليه أُخرى فأدخله؛ فغنّاه الخفيفَ، فأعطاه ثلاثين ألف دينار. قال أحمد بن يحيىٰ المكيّ: كان ابن جامع أحسنَ ما يكون غناءً إذا حزِن. وأحبّ الرشيدُ أن يَسمع ذلك، فقال للفضل بن الربيع: ابْعَثْ بخريطة فيها نَعْيُ ابنِ جامع - وكان بَرًّا بأمّه - ففعل. فقال الرشيد: يا ابن جامع، في هذه الخريطة نَعْيُ أمّك؛ فاندفع ابن جامع يغنّي بتلك الحُرْقة والحزنِ الذي في قلبه: [من البسيط]

كم بالدروب وأرضِ السِّنْد[٥] من قَدَم ... ومِنْ جَماجِم صَرْعى[٦] ما بها قُبِروا
بقُنْدُهار[٧] ومن تُكْتَبْ منيّتُه ... بقُنْدهارَ يُرَجَّمْ دونه الخبرُ[٨]

(١) السمت: الهيئة.
(٢) مرّيسيًّا: منسوبًا إلى مرّيس ببلاد النّوبة.
(٣) الفضل بن الربيع: وزير الرشيد بعد نكبة البرامكة، ولما رجع المأمون من خراسان أبعده منها. مات سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٤ م.
(٤) حجابته: خدمته في الحجابة، وهي تشبه الوزارة.
(٥) السند: بلاد تقع بين بلاد فارس والهند.
(٦) صرعى: ملقاة على الأرض.
(٧) قندهار: مدينة أفغانية مشهورة.
(٨) يرجم دونه الخير، بمعنى يصبح نسيًا منسيًا.

قال: فوالله ما ملكنا أنفسنَا، ورأيت الغِلمانَ يضرِبون برؤوسهم الحيطانَ والأساطين[١]، وأمر له الرشيدُ بعشرة آلاف دينار.

وروى أبو الفرج بسنده إلى عبد الله بن عليّ بن عيسى بن مَاهَان، قال: سمعتُ يزيدَ يحدِّثُ عن أُمّ جعفرٍ أنه بلغها أنّ الرشيد جالسٌ وحده وليس معه أحد من الندماء ولا المسامرين، فأرسلت إليه: يا أميرَ المؤمنين، إنّي لم أَرَكَ منذ ثلاث وهذا اليومُ الرابع. فأرسل إليها: عندي ابنُ جامع. فأرسلتْ إليه: أنتَ تعلم أني لا أتهنّأ بشرب ولا سماعٍ ولا غيرهما إلّا أن تَشْرَكَني فيه، ما كان عليك أن أشْرَكَك في هذا الذي أنتَ فيه! فأرسل إليها: إني صائرٌ إليكِ الساعة. ثم قام وأخذ بيد ابن جامع وقال للخادم: امضِ إليها وأعلِمْها أنّي قد جئت. وأقبل الرشيد؛ فلما نظر إلى الخدم والوصائف قد استقبلوه علِم أنّها قد قامت تستقبله؛ فوجّه إليها: إن معي ابن جامع، فعدَلت إلى بعض المقاصير[٢]. وجاء الرشيدُ وصيّر ابنَ جامع في بعض المواضع التي يُسمعُ منه فيها، ثم أمر ابنَ جامعٍ فاندفع يغنّي: [من المنسرح]

مـا رَعَـدَتْ رَعْـدَةً ولا بَـرَقَـتْ	لـكـنـهـا أُنْـشِـئـت لـنـا خَـلِـقَـهْ[٣]
الـمَـاءُ يَـجْـري ولا نِـظَـامَ لـه	لـو يـجـد الـمـاءُ مَـخْـرقًـا خَـرَقَـهْ
بِـتـنـا وبـاتَـتْ عـلى نَـمـارِقِـهـا[٤]	حتى بدا الصُّبح عينُها أَرِقَهْ[٥]
أنْ قـيـل إن الـرحـيـل بـعـد غـدٍ	والـدّارُ بـعـد الـجـمـيـع مُـفْـتَـرِقَـه

فقالت أمّ جعفر للرشيد: ما أحسنَ ما اشتهيتَ والله يا أمير المؤمنين! ثم قالت لمسلم خادمها: اِدْفع إلى ابن جامعٍ بكل بيت مائة ألفِ درهم. فقال الرّشيد: غَلَبتِينا يا ابنةَ أبي الفضلِ وسبقتِينا إلى برّ ضَيفِنا وجليسِنا. فلما خرج حمَل الرشيدُ إليها مكان كل درهم دينارًا.

ذكر أخبار عمرو بن أبي الكَنَّات

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: هو أبو عثمانَ، وقيل: أبو معاذٍ عمرو بنُ أبي الكَنّات، مولى بني جُمَح. وهو مكيٌّ مُغَنّ حسنُ الصوت، من طبقة ابن جامع

---

(١) الأساطين: جمع أسطوانة، وهي العمود.
(٢) المقاصير: جمع مقصورة، وهي الردهة والحجرة.
(٣) خلقه: فجأة، أخذت في المطر.
(٤) النمارق: جمع نمرقة، وهي الوسادة وما يتكأ عليه.
(٥) أرقة: لا تنام.

وأصحابه. وفيه يقول الشاعر: [من الخفيف]

أحسنُ الناسِ فاعلموه غِناءً رجلٌ من بني أبي الكَتّاتِ

قال محمدُ بنُ عبدِ الله بن فَرْوَة: قلت لإسماعيلَ بنِ جامعٍ يومًا: هل غلَبك أحدٌ من المغنّين قطّ؟ قال: نعم، كنتُ ليلةً ببغدادَ إذ جاءني رسولُ أميرِ المؤمنين هارونَ الرشيدِ فأمرني بالرّكوب، فركِبتُ حتى صرتُ إلى الدار، فإذا أنا بالفضل بن الربيع ومعه زَلْزَلٌ العوّادُ وبَرْصوما(١)؛ فسلّمت وجلست يسيرًا. فطلع خادمٌ فقال للفضل: هل جاء؟ قال: لا، قال: فابعث إليه. ولم يزل المغنّون يدخلون واحدًا واحدًا حتى كنّا ستّةً أو سبعةً. ثم طلَع الخادم فقال: هل جاء؟ فقال: لا؛ فقال: قم فابعثْ في طلبه؛ فقام فغاب غيرَ طويلٍ فإذا هو قد جاء بعمرو بن أبي الكتاب. فسلّم وجلس إلى جَنْبي، فقال لي: مَنْ هؤلاء؟ قلتُ: مُغَنّون، هذا «زلزّل» وهذا «برصوما». فقال: لأُغنِّيَنَّك غناءً يخرِق هذا السقفَ وتجيبُه الحيطانُ. ثم طلع الخَصِيُّ فدعا بكراسيّ، وخرج الجَواري. فلما جلسن قال الخادم: شُدّوا فشدّوا عيدانَهم؛ ثم قال: يغنّي ابنُ جامع، فغنّيت سبعة أو ثمانيةَ أصوات، قال: اسكتُ، وليغنِّ إبراهيم الموصليُّ؛ فغنّى مثلَ ذلك أو دونَه ثم سكتَ، وغنّى القوم كلُّهم واحدًا بعد واحد حتى فَرَغوا. ثم قال لابن أبي الكتّات: غَنِّ؛ فقال لزلزل: شُدّ طبقتك فشَدّ؛ ثم قال له: شُدّ فشَدّ، ثم أخذ العودَ من يَده فجسّه حتى وقف على الموضع الذي يريده، ثم قال: على هذا. وابتدأ الصوت الذي أوّلُه «ألالا»؛ فوالله لقد خُيِّل إليّ أن الحيطان تجاوبُه؛ ثم رجّع النغمةَ فيه؛ فطلع الخصيّ فقال: اسكت لا تُتِمّ الصوتَ فسكت. ثم قال: يجلس عمرو بن أبي الكتّات وينصرف سائرُ المغنّين؛ فقمنا بأسوأ حال وأكسفِ بال، ولا والله ما زال كلُّ واحد منّا يسأل صاحبَه عن كلّ ما يرويه من الغناء الذي أوّلُه «ألالا» طمَعًا في أن يعرفه وأن يوافقَ غناءَه فما عرَفه منا أحدٌ. وبات عمرو عند الرشيد ليلتَه وانصرف من عنده بجوائز وصِلاتٍ وطُرَفٍ(٢) سنيّة.

وقال موسى بنُ أبي المهاجر: خرج ابنُ جامعٍ وابنُ أبي الكتّات حين دفَع الإمامُ من عَرَفَة، حتى إذا كانوا بين المأزِمَيْن عمروٌ على طرَف الجبل ثم اندفع يغنّي، فركب الناسُ بعضُهم بعضًا حتى صاحوا به واستغاثوا: يا هذا، الله الله!

(١) زلزل وبرصوما: مغنيان مشهوران سبق ذكرهما.

(٢) طرف، جمع طرفة، وهي الشيء الثمين النادر والعجيب. والسنيّة: الثمينة.

أُسكُتْ عنا يَجُزِ الناسُ؛ فضبط ابن جامع بيده على فِيه حتى مضى الناسُ إلى مُزْدَلِفة[1].

قال عليّ بن الجهم: حدّثني من أثِق به، قال: واقفتُ ابنَ أبي الكنّات على جسر بغدادَ أيامَ الرشيدِ فحدّثته بحديث اتّصل بي عن ابنِ عائشةَ أنه وقف في الموسم في أيام هشامٍ، فمرّ به بعضُ أصحابه فقال: ما تصنع؟ فقال: إني لأعرف رجلًا لو تكلّم لحَبسَ الناسَ فلم يَذْهَب منهم أحدٌ ولم يَجِىءْ. فقلت له: من هذا الرجل؟ قال: أنا، ثم اندفع فغنّى فحبَس الناسَ، فاضطربت المحاملُ ومدّت الإبلُ أعناقَها. فقال ابن أبي الكنّات وكان مُعْجَبًا بنفسه: أنا أفعل كما فعل وقدرتي على القلوب أكثرُ من قدرته. ثم اندفع فغنّى الصوت الذي غنّى فيه ابن عائشة، وهو: [من الوافر]

جَرَتْ سُنُحًا[2] فقلت لها أَجِيزِي نَوًى مشمولةً فمتى اللّقاءُ
بنفسي مَن تذكُّره سَقَامٌ أُعالجه ومطلبُه عناءُ

قال: فغنّاه، وكنا إذ ذاك على جسر بغداد، وكان على دجلةَ ثلاثةُ جسور، فانقطعت الطُّرُق وامتلأت الجسورُ بالناس فازدحموا عليها واضطربت حتى خيف عليها أن تنقطع لِثِقَل من عليها من الناس، فأُخِذَ فأُتِيَ به الرشيد؛ فقال له: يا عدوّ الله، أردتَ أن تَفْتِن الناس! قال: لا والله يا أمير المؤمنين ولكنّه بلغني أنّ ابن عائشةَ فعل مثل هذا في أيّام هشام، فأحببتُ أن يكون في أيّامك مثلُه. فأعجبه ذلك، وأمر له بمال وأمره أن يغنّي فغنّى؛ فسمِع شيئًا لم يَسْمَع مثله، فاحتبسه عنده شهرًا يَستزيده، وكلّ يوم يُستأذَن له في الانصراف فلا يأذَن له حتى تمّم شهرًا، وانصرف بأموال جسيمة.

وقال عثمانُ بنُ موسى: كنّا على شَراب يومًا ومعنا عمرو بن أبي الكنّات إذ قال لنا قبلَ طلوع الشمس: مَنْ تحبّون أن يَجيئكم؟ قلنا: منصور الحَجَبيّ. فقال: أمهلوا حتى يكون الوقتُ الذي يَنْحَدِر فيه إلى سوق البقر. فمكثنا ساعةً ثم اندفع

---

(١) مزدلفة: اسم موضع قريب من مكة يأتيه الحاج مساءً بعد أن يمكث في عرفات صبيحة وظهيرة التاسع من شهر ذي الحجّة. وفي مزدلفة يبيت الحجيج ويجمعون الجمار. ثم إنهم في صبيحة العاشر من ذي الحجّة ينتقلون إلى منى.

(٢) سنحًا: أي من جهة الشمال إلى جهة اليمين، وهذا ممّا يتفاءل به، وقيل: هو العكس، أي إذا مرّت من اليمين إلى الشمال.

يغنّي: [من الخفيف]

أحسنُ الناسِ فاعلموه غِناءً ... رجلٌ من بني أبي الكتّاتِ
عَفَتِ[١] الدّارُ فالهِضابُ اللّواتي ... بين ثَوْرٍ[٢] فملتقى عَرَفَاتِ[٣]

فلم نلبث أن رأينا منصورًا من بُعْد قد أقبل يركُضُ دابّتَه نحونا، فلما جلس إلينا قلت له: من أين علِمتَ بنا؟ قال: سمعتُ صوت عمرو وأنا في سوق البقر، فخرجت أركض دابّتي حتى صِرتُ إليكم. قال: وبيننا وبين ذلك الموضع ثلاثةُ أميال.

وقال يحيىٰ بن يَعْلَى بن سعيد: بينا أنا ليلةً في منزلي في الرَّمْضَة بأسفل مكّةَ، إذ سمعتُ صوتَ عمرو بن أبي الكتّات كأنّه معي، فأمرتُ الغلامَ فأسرجَ لي دابّتي وخرجت أُريدُه، فلم أزل أتبع الصوتَ حتى وجدتُه جالسًا على الكثيب العارضِ ببطن عرفةَ يغنّي: [من الطويل]

خُذِي العَفْوَ مِنّي تَسْتديمي مَودّتي ... ولا تَنْطِقي في سَوْرَتي[٤] حين أغضَبُ
ولا تَنْقُرِيني نَقْرةَ الدُّفّ مرّةً ... فإنّكِ لا تَدْرِين كيف المُغَيَّبُ
فإني رأيتُ الحبَّ في الصدرِ والأذى ... إذا اجتمعا لم يَلْبثِ الحبُّ يذهبُ

ذكر أخبار أبي المُهَنّأ مُخارِق

هو أبو المُهَنّأ مخارِقُ بنُ يحيىٰ بنِ ناووس الجزّار مولى الرشيد، وقيل: بل ناووس لقبُ أبيه يحيىٰ؛ وإنما لُقّب بناووس لأنه بايع رجلًا أنه يمضي إلى ناووس الكوفة فيطبخ فيه قِدْرًا بالليل حتى تَنْضَجَ، فطرح رهنَه بذلك؛ فدسّ الرجل الذي راهَنه رجلًا فألقى نفسَه في الناووس بين الموتى. فلما فرغ ناووس من الطبخ مدّ الرجلُ يدَه من بين الموتى وقال له: أَطْعِمني؛ فغرف بالمِغرفة من المَرَق[٥] وصبّها في يد الرجل فأحرقها وضربها بالمغرفة وقال له: اصْبِر حتى نُطْعِمَ الأحياء أوّلًا ثم نتفرّغ للموتى؛ فلُقّب ناووسًا لذلك.

---

(١) عفت: درست، وخلت.
(٢) ثور: اسم جبل مشهور قريب من مكّة، وفيه الغار الذي كان النبيّ ﷺ يتأمّل فيه.
(٣) عرفات، معروفة، قريبة من مكّة لجهة الشرق.
(٤) سورتي: مثنّى سورة، وهي حدّة الغضب.
(٥) المرق: الماء الذي أغلي فيه اللحم فصار دسمًا، سمّي كذلك لأنه شيء يمرق من اللحم.

قال: وكان مخارقٌ لعاتكةَ بنتِ شهدةَ، وهي من المغنّيات المُحْسنات المتقدّمات في الضرب. نشأ مخارقٌ بالمدينة؛ وقيل: كان منشؤه بالكوفة. وكان أبوه جزّارًا مملوكًا، وكان مخارقٌ وهو صبيّ ينادي على ما يبيعه أبوه من اللّحم. فلما بان طِيبُ صوته علّمته مولاتُه طَرَفًا من الغناء، ثم أرادت بيعَه، فاشتراه إبراهيم الموصليّ منها وأهداه للفضل بن يحيىٰ، فأخذه الرشيدُ منه ثم أعتقه. وقيل: اشتراه إبراهيم من مولاتِه بثلاثينَ ألفِ درهم وزادها ثلاثة آلاف درهم. قال: ولما اشتراه قال له الفضل بن يحيىٰ: ما خبرُ غلام بَلغني أنك اشتريتَه؟ فقال: هو ما بَلَغك. قال: فأَرِنِيهِ، فأحضره، فغنّى بين يديهِ؛ فقال له: ما أرى فيه الذي رأيتَ. قال: تريد أن يكون في الغناء مثلي في ساعةٍ واحدةٍ! فقال: بكم تَبِيعُه؟ قال: اشتريتُه بثلاثين ألف درهم، وهو حرّ لوجه الله تعالى إن بعتُه إلا بثلاثة ألف دينار. فغضِب الفضل، وقال: إنما أردتَ ألّا تبيعَه أو تجعلَه سببًا لأن تأخذ منّي ثلاثة وثلاثين ألف دينار. فقال إبراهيم: أنا أصنع بك خَصْلة واحدةً، أبيعُك نصفَه بنصف هذا المال وأكون شريكَك في نصفه وأُعلّمه، فإن أعجبك إذا علمتُه أتممتَ لي باقي المال وإلا بعتُه بعدُ، وكان الرِّبحُ بيني وبينك. فقال الفضلُ: إنما أردتَ أن تأخذ منّي المالَ الذي قدّمتَ ذكرَه، فلما لم تَقْدِرْ على ذلك أردتَ أن تأخذ نصفَه، وغَضِب. فقال إبراهيم له: فأنا أَهَبُه لك على أنه يساوي ثلاثة وثلاثين ألف دينار؛ قال: قد قبلتُه؛ قال: وقد وهبتُه لك. وغدا إبراهيم على الرشيد؛ فقال له: يا إبراهيم، ما غلامٌ بلغني أنك وهبتَه للفضل؟ قال: غلام يا أمير المؤمنين لم تَمْلِك العربُ ولا العجمُ مثلَه، ولا يكون مثلُه أبدًا. قال: فوجّه إلى الفضل يأمره بإحضاره. فوجّه به إليه، فغنّى بين يديه؛ فقال له: كم يُساوِي؟ قال إبراهيم: يساوي خراجَ[1] مصر وضِياعَها. قال: ويحك! أتدري ما تقول! مبلغُ هذا المال كذا وكذا! قال: وما مِقدارُ هذا المال في غلام لم يَمْلِك أحدٌ مثلَه قطُّ! قال: فالتفت الرشيدُ إلى مسرور الكبير وقال: قد عرفتَ يميني أني لا أسأل أحدًا من البرامكة[2] شيئًا. فقال مسرور:

---

(١) الخراج: الإتاوة، وما يخرج من غلّة الأرض والمال، وهو المال المضروب على الأرض، والجزية.

(٢) البرامكة: أسرة فارسية من بلخ، تولّى أبناؤها الوزارة في عهد العباسيّين، ولما عظم شأنهم، وكانوا قرّبوا الشعراء واشتهروا بالكرم، نقم عليهم هارون الرشيد ونكبهم. وأشهرهم خالد بن برمك، الذي خدم السفاح، ويحيى بن خالد الذي وزر للرشيد. ونكبة البرامكة حصلت سنة ٨٠٣ م.

فأنا أمضي إلى الفضل فأَسْتَوْهِبه منه، فإذا كان عندي فهو عندك. فقال له: شأنَك. فمضى مسرور إلى الفضل واستوهَبه منه، فوهَبه له. وقيل: بل إبراهيمُ هو الذي أهداه للرشيد؛ فأمره الرشيدُ بتعليمه فعلَّمه حتى بلَغ ما بلَغه. قال: وكان مخارقٌ يقف بين يدَي الرشيدِ مع الغِلمانِ لا يجلس ويغنّي وهو واقف. فغنّى ابنُ جامع ذاتَ يوم بين يديّ الرشيد: [من البسيط]

كأنّ نِيرانَنا في جَنْبِ قَلْعَتِهِمْ   مُصَبَّغات على أرْسانِ قَصّار[1]
هَوَتْ هِرَقْلةُ[2] لمّا أن رأتْ عجبًا   جوائِمًا تَرْتَمي بالنُّفط والنّار

فطرِب الرشيد واستعاره مرارًا؛ وهو شعر مُدِح به الرشيدُ في فتح هِرَقْلة. فأقبل الرشيد على ابن جامع دون غيره، فغمز مخارقٌ إبراهيمَ بعينه وتقدّمه إلى الخلاء، فلما جاء قال له: ما لي أراك مُنْكَسِرًا؟ فقال له: أمَا تَرى إقبالَ أمير المؤمنين على ابن جامع بسبب هذا الصوت! فقال مخارقٌ: قد والله أخذتُه. فقال: ويحك! إنه الرشيد، وابنُ جامعٍ من تَعْلَم، ولا يُمكن معارضته إلّا بما يزيد على غنائه وإلّا فهو الموت! فقال: دعني وخَلَاك ذَمٌّ، وعَرِّفْه أنّي أُغَنّي به، فإن أحسنتُ فإليك يُنْسَب، وإن أسأتُ فإليّ يعود. فقال إبراهيم للرشيد: يا أمير المؤمنين، أراك مُتَعَجّبًا من هذا الصوت بغير ما يستحقّه وأكثر مما يستوجبه! فقال: لقد أحسن فيه ابن جامع ما شاء. قال: أوَ لابنِ جامع هو؟ قال: نعم، كذا ذكَر. قال: فإنّ عبدَك مخارقًا يغنّيه. فنظر إلى مخارق؛ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: هاتِه؛ فغنّاه وتحفّظ فيه فأتى بالعجائب، وطَرِب الرشيدُ حتى كاد يطير؛ ثم أقبل على ابن جامع فقال: ويلك! ما هذا؟ فابتدأ يحلِف بالطلاق وكلِّ مُحْرِجة أنه لم يسمع ذلك الصوتَ قطّ من غيره، وأنه صنعَه وأنها حيلةٌ جَرَتْ عليه. فأقبل على إبراهيم وقال: أَصْدُقني بحياتي؛ فصدَقَه عن قصّة مخارق. فقال لمخارق: اجلس إذًا مع أصحابك، فقد تجاوزتَ مرتبةَ من يقوم. وأعتقَه ووصلَه بثلاثة آلاف دينار وأقطعه ضَيْعةً ومنزلًا.

(١) القصّار: منظف الثياب وصانعها ومحوّر لونها.
(٢) هرقلة: مدينة ببلاد الروم سمّيت بهرقلة بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح. وكان الرشيد غزاها بنفسه ثم افتتحها عنوةً بعد حصار وحرب شديد ورمي بالنار والنفط حتى غلب أهلها. وكان في سبي هرقلة ابنة بطريقها، فبنى لها الرشيد حصنًا في الرقّة على الفرات، وهو قرب صفّين من الجانب الغربي.

وقد روى أبو الفرج الأصفهانيّ عن هارون بن مخارق، قال: كان أبي إذا غنّى هذا الصوت: [من البسيط]

يا رَبْعَ سلمى لقد هيَّجْتَ لي طَرَبًا زدتَ الفؤادَ على عِلّاته وصَبًا[١]

رَبْعٌ تبدّل ممن كان يسكنه عُفْرَ الظباء[٢] وظُلمانًا[٣] به عُصَبا[٤]

يبكي ويقول: أنا مولى هذا الصوت. فقلت له: كيف يا أبتِ؟ فقال: غنّيتُه مولاي الرشيد، فبكى وشرب عليه رطلًا ثم قال: أحسنتَ يا مخارق! فَسَلْني حاجتَك؛ فقلت: تُعْتِقُني يا أمير المؤمنين أعتقَك الله من النار؛ فقال: أنت حرٌّ لوجه الله تعالى، فأعِدِ الصوتَ فأعدتُه؛ فبكى وشرب رِطلًا، ثم قال: أحسنتَ يا مخارق! فسلني حاجتَك؛ فقلتُ: ضَيْعَةٌ تُقِيمني غَلَّتُها؛ فقال: قد أمرتُ لك بها، أعِدِ الصوتَ فأعدتُه؛ فبكى وقال: سَلْ حاجتَك؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، تأمر لي بمنزلٍ وفرسٍ وخادم؛ فقال: ذلك لك، أعِدِ الصوت فأعدتُه؛ فبكى وقال: سَلْ حاجتَك؛ فقبّلتُ الأرضَ بين يديه وقلت: حاجتي أن يُطيل الله بقاءَك ويُديم عزَّك ويجعلني من كل سوءٍ فداءَك؛ فأنا مولى هذا الصوت بعد مولاي.

ويُروى أيضًا عن الحسين بنِ الضحاك[٥] عن مُخارق أنّ الرشيد قال يومًا للمغنّين وهو مصطبح[٦]: مَن منكم يغنّي

* يا رَبْعَ سَلْمَى لقد هيَّجت لي طربًا *

فقمتُ وقلت: أنا يا أمير المؤمنين، فقال: هاتِه؛ فغنّيتُه فطرِب وشرب ثم قال: عليّ بهَرْثَمَةَ؛ فقلت في نفسي: ماذا يريد منه! فجاء هرثمةُ فقال له: مخارق الشّاريّ الذي قتلناه بنواحي المَوْصِل ما كانت كنيتُه؟ فقال: أبو المُهَنّأ؛ فقال: انصرِفْ فانصرف؛ ثم أقبل الرشيد عليّ فقال: قد كنّيتُك أبا المهنّأ لإحسانك؛ وأمر لي بمائة ألف درهم؛ فانصرفتُ بها وبالكُنْية.

قال أبو عبد الله بن حمدون: كنّا عند الواثق وأمّه عليلةٌ، فلما صلّى المغربَ دخل إليها وأمر ألا نبرحَ، فجلسنا في صَحْن الدار، وكانت ليلةً مقمِرةً وأبطأ الواثقُ

---

(١) الوَصَب: التعب والألم الدائم.
(٢) عفر الظباء: الغزلان المغبرّة اللون.
(٣) الظلمان: جمع ظليم، وهو ذكر النعام.
(٤) عصب: جماعات، جمع عصبة.
(٥) الحسين بن الضحّاك، من كبار شعراء العهد العباسي، بصريّ المولد والنشأة. مال إلى المجون والخلاعة. نادم الخلفاء، وكان زميل أبي نواس، خمرياته وغزلياته مشهورة. مات سنة ٨٦٤ م.
(٦) مصطبح: يشرب الصبوح، وهي خمرة الصباح.

علينا؛ فاندفع مخارق يغنّي، فاجتمع علينا الغِلْمان، وخرج الواثقُ فصاح: يا غلام، فلم يُجِبْه أحد، ومشى في المجلس إلى أن توسَّط الدارَ؛ فلما رأيتُه وبادرتُ إليه؛ فقال لي: ويلك! هل حدَث في داري شيء؟ فقلتُ: لا يا سيِّدي. قال: فما بالي أصِيح فلا أُجاب؟ فقلت: مخارق يغنّي والغِلْمان قد اجتمعوا إليه فليس فيهم فَضْلٌ لسماع غير ما يسمعونه. فقال: عذرٌ والله لهم يا ابنَ حمدون وأيّ عذر! ثم جلس وجلسنا بين يديه إلى السَّحَر. وقد رُوِي نحو هذه الحكاية في أمر الغِلْمان مع مخارق عند المعتصم. وقال محمد بن عبد الملك الزيّات: قال لي الواثق: ما غنّاني مخارق قط إلّا قَدّرت أنه من قلبي خُلِق. وكان يقول: أتُريدون أن تنظروا فضلَ مخارق على جميع أصحابه؟ أنظروا إلى هؤلاء الغِلْمان الذين يقفون في السِّماط[1]، فكانوا يتفقّدونهم وهم وقوفٌ فكلّهم يسمع الغناء من المغنّين جميعًا وهو واقفٌ مكانه ضابطٌ لنفسه، فإذا تغنّى مخارق خرجوا عن صُوَرِهم فتحرّكت أرجلُهم ومناكبهُم وبانت أسبابُ الطرب فيهم، وازدحموا على الحبل الذي يقفون من ورائه.

وحُكي أنّه خرج مرّة إلى باب الكُناسة بمدينة السلام[2]، والناسُ يرحلون إلى مكّة؛ فنظر إلى كثرتهم وازدحامهم، فقال لأصحابه الذين معه: قد جاء في الخبر أنّ ابن سريج كان يغنّي في أيّام الحجّ والناسُ يمشون فيستوقفهم بغِنائه، وسأستوقف لكم هؤلاء الناس وأستلهيهم جميعًا لتعلموا أنّه لم يكن لِيَفْضُلَني إلّا بصنعته دون صوته؛ ثم اندفع يؤذّن، فاستوقف أولئك الخلقَ واستلهاهم، حتى جعلت المحاملُ يَغْشَى بعضُها بعضًا.

قالوا: وجاء أبو العتاهية إلى باب مخارق وطَرَقه فخرج إليه؛ فقال له: يا حُسّان هذا الإقليم، يا حكيمَ أرض بابل، أُصْبُبْ في أذني شيئًا يفرَح به قلبي وتتنعّم به نفسي ـ وكان في جماعة منهم محمد بن سعيد اليَزيديّ ـ فقال: انْزِلوا، فنزلوا، فغنّاهم. فقال محمد بن سعيد: فكدتُ أسعى على وجهي طربًا. قال: وجعل أبو العتاهية يبكي، ثم قال: يا دواءَ المجانين، لقد رقَقْتَ حتى كِدتُ أن أحْسُوَك، فلو كان الغناء طعامًا لكان غناؤك أُدْمًا[3]، ولو كان شرابًا لكان ماءَ الحياة.

---

(١) السماط: الصّفّ.

(٢) مدينة السلام، هي بغداد التي بناها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور.

(٣) الأدم من الطعام: ما يؤكل بالخبز، أو مع الخبز.

وقال أبو الفرج عن عمرَ بن شِبّةَ قال: حدّثني بعض آل نُوبَخْت[(١)] قال: كان أبي وعبد الله بن أبي سهل وجماعةٌ من آل نوبخت وغيرُهم وقوفًا بكُناسة الدّوابّ في الجانب الغربيّ ببغداد يتحدّثون، وإنهم لكذلك إذ أقبل مخارقٌ على حمار أسودَ وعليه قميصٌ رقيقٌ ورداءٌ مُسَهَّم[(٢)]؛ فقال: فِيمَ كنتم؟ فأخبروه. فقال: دعونا من وَسْوَاسِكم هذا، أيُّ شيء لي عليكم إن رميتُ بنفسي بين قبرين من هذه القبور وغطّيتُ وجهي وغنّيت صوتًا فلم يَبْقَ أحد بهذه الكُناسة ولا في الطريق من مُشْتَر ولا بائع ولا صادرٍ ولا وارد إلا ترك عملَه وقَرُب منّي واتّبع صوتي؟ فقال عبد الله: إني لأُحِبُّ أن أرى هذا، فقل ما شئتَ. فقال مخارق: فرسَك الأشقرَ الذي طلبتُه منك فمنعتنيه. قال: هو لك إن فعلتَ ما قلتَ. قال: فرمى بنفسه بين قبرين وتغطّى بردائه، ثم اندفع يغنّي بشعر أبي العتاهية: [من الكامل]

نادَتْ بِوَشْكِ رحيلِكَ الأيّامُ ... أفلستَ تسمَعُ أم بك اسْتِصْمامُ[(٣)]
ومضى أمامك مَنْ رأيتَ وأنتَ للـ ... ـباقين حتى يلحقوك أمامُ
ما لي أراكَ كأنّ عَيْنَك لا ترى ... عِبَرًا تمرّ كأنهنّ سِهام
تمضي الخطوبُ وأنتَ منتبهٌ لها ... فإذا مضت فكأنّها أحلامُ

قال: فرأيتُ الناس يأتون إلى المَقْبُرة أرْسالًا بين راكبٍ وراجل وصاحب شغل ومارّ في الطريق حتى لم يَبْقَ أحد. ثم قال لنا من تحت ردائه: هل بقي أحدٌ؟ قلنا: لا، وقد وجَب الرّهن. فقام فركِب حماره، وعاد الناسُ إلى صنائعهم؛ وقال لعبد الله: أحضِرِ الفرسَ، قال: على أن تُقيم عندي؛ قال: نعم! فسلّم الفرس إليه وبرّه وأحسن رِفْدَه[(٤)].

ورُوِيَ عن يحيىٰ المكيّ قال: خرج مخارقٌ مع بعض إخوانه إلى بعض المُتَنَزَّهات، فنظر إلى قوس مُذْهَبةٍ مع بعض من خرج معه، فسأله إيّاها، وكان المسؤولُ ضَنّ[(٥)] بهاء، وسنحت[(٦)] ظِباءٌ بالقرب منه؛ فقال لصاحب القوس: أرأيتَ

---

(١) نوبخت: أسرة بغدادية شيعية فارسية الأصل، أنجبت عددًا من العلماء والمتكلّمين والنقلة والفلكيين، أشهرهم الحسن بن موسى بن نوبخت.
(٢) مسهّم: مخطّط، فيه وشي كالسّهام.
(٣) الاستصمام: إظهار الصّمم، وعدم القدرة على السماع.
(٤) أحسن رفده: رفده رفدًا عظيمًا، والرفد: الرزق.
(٥) ضَنّ: بخل.
(٦) سنحت: مرّت سنحًا، أي من الشمال إلى اليمين، وقيل من اليمين إلى الشمال، وهذا مما=

إن تغنّيتُ صوتًا فعطَفتْ عليّ به خدودُ هذه الظَّباء أتدفع إليّ القوسَ؟ قال: نعم! فاندفع يغنّي: [من المجتثّ]

ماذا تقول الظباءُ	أفُرقَةٌ أم لِقاءُ
أم عهدُها بسُلَيْمَى	وفي البيان شِفاء
مرّت بنا سانِحاتٍ	وقد دنا الإمساءُ
فما أحارَتْ جوابًا	وطال فيها العَناءُ[1]

قال: فعَطفتِ الظباءُ راجعةً إليه حتى وقفت بالقرب منه تنظر إليه مُصْغِيةً إلى صوته. فعجِب من حضَر من رجوعها ووقوفها؛ وناوَله الرجلُ القوسَ، فأخذها وقطع الغناء، فعاودت الظباء نِفارَها ومضت راجعةً على سَنَنها.

ورُوِي عن إسحٰق بن إبراهيم قال: دخلت على أبي وهو جالسٌ بين بابين له ومخارقٌ بين يديه، وهو يغنّيه: [من الكامل]

يا ربعَ بِشْرةَ إن أضرّ بك البِلَى	فلقد رأيتُك آهِلًا[2] معمورا

قال: فرأيتُ أبي ودموعُه تجري على خدّيه من أربعةِ أماكن وهو يَنْشِج[3] أحرَّ نشِيج، فلما رآني قال: يا إسحٰقُ، هذا والله صاحبُ اللّواء غدًا إن مات أبوك.

ورُوي عن مخارق قال: رأيتُ وأنا حَدَثٌ كأنّ شيخًا جالسًا على سرير في روضة حسنة، فدعاني فقال لي: غنّني يا مخارق؛ فقلت: أصوتًا تقترحه أو ما حضَر؟ فقال: ما حضَر. فغنّيتُه: [من الطويل]

دَعِي القلبَ لا يَزْدَدْ خَبالًا[4] مع الذي	به منكِ أو داوِي جَوَاهُ[5] المُكَتَّما
وليس بتزويق اللسان وصَوْغه	ولكنّه قد خالط اللّحمَ والدَّما

فقال لي: أحسنتَ يا مخارق! ثم أخذ وتَرًا من أوتار العود فلقّه على المِضْراب[6] ودفعه إليّ، فجعل المِضرابُ يطول ويغلُظ والوتر ينتشر ويَعْرُض حتى صار المِضرابُ كالرمح والوتر كالعَذَبة عليه وصار في يدي علمًا، ثم انتبهت فحدّثت

= يتفاءل به.

(١) العناء: التعب.

(٢) آهلًا: عامرًا بالأهل والسكّان.

(٣) ينشج: يغصّ بالبكاء من غير انتحاب.

(٤) الخبال: الجنون.

(٥) الجوى: شدّة الحزن والألم من أثر الحبّ والعشق.

(٦) المضراب: اسم الآلة التي يضرب بها الوتر.

برؤياي إبراهيم الموصليّ؛ فقال لي: الشيخ بلا شك إبليسُ، وقد عَقَد لواء صنعتك فأنتَ ما حيِيتَ رئيسُ أهلِها.

وقال أحمدُ بنُ حمدون: غَضِب المعتصمُ على مخارق أن يُجْعَل في المؤذّنين ويَلْزمهم ففُعل ذلك؛ وأَمْهل حتى عَلِم أن المعتصم يشرب، فأذّنت العصر، فدخل إلى السِّتر حيث يقف المؤذّنُ للسلام، ثم رفع صوته جهدَه وقال: السلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته، الصلاةَ يرحمُك الله. فبكى حتى جرت دموعُه وبكى كلُّ من حضر، ثم قال: أدْخِلوه عليّ وأقبل علينا؛ ثم قال: سمعتم هكذا قط! هذا الشيطانُ لا يتركُ أحدًا يغضب عليه! فدخل إليه فقبّل الأرض بين يديه؛ فدعاه المعتصم إليه فأعطاه يدَه فقبّلها وأمرَه بإحضار عوده فأَحْضره، وأعاده إلى مَرْتبته. وأخباره كثيرة، وفيما أوردناه منها كفاية. وكانت وفاتُه في أوّل خلافة المتوكّل؛ وقيل: بل في آخر خلافة الواثق. وغنّى خمسةً من الخلفاء: الرشيدَ والأمينَ والمأمونَ والمعتصمَ والواثقَ، رحمهم الله تعالى.

ذكر أخبار يحيىٰ بن مَرْزوق المَكّيّ

هو أبو عثمان يحيىٰ بنُ مرزوقٍ المكّيّ، مولى بني أُميّة، وكان يكتُم ذلك لخدمته للخلفاء من بني العبّاس؛ وكان إذا سُئِل عن ولائه انتمى إلى قريشٍ، ولم يذكر البطنَ الذي ولاؤه له، ويَستعفي من يسأله عن ذلك.

قال الأصفهانيّ:

وعُمّر يحيىٰ المكيُّ مائةً وعشرينَ سنةً، وأصاب بالغناء ما لم يُصِبْه أحدٌ من نظرائه ومات وهو صحيحُ العقل والسمع والبصر. وكان قَدِم مع الحجازيّين الذين قَدِموا على المهديّ في أوّل خلافته فبَقِي بالعراق. وكان ابن جامع وإبراهيمُ الموصليّ وفُلَيْحٌ يفزَعون[1] إليه في الغناء القديم فيأخذونه عنه، ويُعَايِي[2] بعضُهم بعضًا بما يأخذونه منه. فإذا خرجتْ لهم الجوائزُ أَحْذَوْه[3] منها ووفّروا نصيبَه. وله صنعة عجيبةٌ نادرة متقدِّمة. قال: وله كتاب في الأغاني ونِسَبها وأجناسِها كبيرٌ جليلٌ مشهور؛ إلّا أنّه كالمطروح عند الرواة لكثرة تخليطه في رواياته؛ والعمل على كتاب ابنه أحمد،

---

(١) يفزعون: يلجأون، يأتون.

(٢) يعايي: يُعجز بعضهم بعضًا، ويسأل بعضهم بعضًا على سبيل التعجيز والمعاياة.

(٣) أحذوه: أعطوه.

فإنه صحّح كثيرًا مما أفسده وأزال ما عرفه من تخاليط أبيه، وحقّق ما نسبه من الأغاني إلى صانعه. قال: وهو يشتمل على نحو ثلاثة آلاف صوت.

قال أحمدُ بنُ سعيد:

كانت صنعةُ يحيىٰ ثلاثةَ آلاف صوت، منها زُهاء ألف صوت لم يُقارِبْه فيها أحدٌ. وسُئِلَ ابنُه أحمدُ عن صنعةِ أبيهِ فقال: الذي صحّ عندي منها ألفُ صوت وثلاثمائة صوت، منها مائة وسبعون صوتًا، غلَب فيها على الناس جميعًا مَن تَقدّم منهم ومن تأخّر، فلم يَقُم له أحد فيها.

قال أحمد بن يحيىٰ: قال لي إسحٰق: يا أبا جعفر لأبيك مائة وسبعون صوتًا من أخذها عنه بمائة وسبعين ألف درهم فهو الرّابح، والله أعلم.

ذكر أخبار أحمد بن يحيىٰ المكيّ المُلقب بطَنِين

هو أبو جعفر أحمدُ بنِ يحيىٰ المكّيّ، وكان يُلَقّب طنينًا، وهو أحد المحسنين المُبَرِّزين الرّواةِ للغناء المُحْكِمي الصنعة. كان إسحٰقُ يقدّمه ويُؤْثِره ويَشْدُو بذكره ويَجْهَر بتفضيله.

قال أبو الفرج: وكتابُه المجرّد في الأغاني ونِسَبها أصلٌ من الأصول المعوّل عليها. قال: وكان مع جودة غنائه وحسنِ صَنعته أحدَ الضُّرّاب الموصوفين المتقدّمين.

قال عليّ بن يحيىٰ: قلت لإسحٰق بنِ إبراهيمَ الموصليّ ـ وقد جرى ذكر أحمدَ بنِ يحيىٰ المكّيّ ـ: يا أبا محمد لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيىٰ مملوكًا كم كان يُساوي؟ قال: أخبرك عن ذلك، اِنصرفتُ ليلةً من دار الواثق فاجتزتُ بدار الحسن بن وهب[1] فدخلتُ إليه فإذا أحمدُ عنده، فلما قاموا لصلاة العشاءِ الآخرةِ قال لي الحسن بن وهب: كم يُساوي أحمد لو كان مملوكًا؟ قلت: يساوي عشرين ألف دينار. قال: ثم رجع فغنّى صوتًا؛ فقال لي الحسن: كم يساوي أحمد لو كان مملوكًا؟ قلتُ: يساوي ثلاثين ألف دينار. ثم تغنّى صوتًا آخر؛ فقلت للحسن: يا أبا عليّ أضْعِفها، ثم أردتُ الانصرافَ فقلت لأحمد:

(١) الحسن بن وهب، أخو سليمان، كتب لمحمد بن عبد الملك الزيّات، وقد ولي ديوان الرسائل. كان شاعرًا بليغًا مترسّلًا فصيحًا، وأحد ظرفاء الكتاب. له كتاب «ديوان الرسائل». انظر: الفهرست، ص ١٧٧.

غنِّني: [من البسيط]

لولا الحياءُ وأنّ السِّتْرَ من خُلُقي إذًا قعدتُ إليك الدهرَ لم أقُم

أليس عندك سكرٌ للتي جَعلتْ ما ابيضّ من قادمات الرأس كالحُمَمِ[1]

فغنّاه فأحسن فيه كلّ الإحسان، فلما قمتُ للانصراف قلتُ: يا أبا عليّ، أضْعِف الجميع. فقال له أحمد: ما هذا الذي أسمعكما تقولانِه ولستُ أدري ما معناه؟ فقال: نحن نَبيعك ونَشتريك منذ الليلة وأنتَ لا تدري. وقال محمد بن عبد الله بن مالك: سألني إسحٰقُ بن إبراهيم الموصليّ يومًا: مَنْ بَقِي من المغنّين؟ قلت: وَجْهُ القَرْعة محمد بن عيسى. فقال: صالح كَيِّسٌ[2]؛ ومَنْ أيضًا؟ قلت: أحمد بن يحيىٰ المكيّ. قال: بَخٍ بَخٍ[3]. ذاك المحسنُ المُجْمِل الضارب المغنّي، القائمُ بمجلسه لا يُحْوِج أهلَ المجلس إلى غيره، وكانت وفاتُه في أوّل خلافة المستعين[4].

ذكر أخبار هاشم بن سليمان مولى بني أُميّة

يُكْنَى أبا العباس. وكان موسى الهادي يسمِّيه أبا الغريض. قال أبو الفرج: وهو حسنُ الصَّنعة غزيرُها؛ وفيه يقول الشاعر: [من السريع]

يا وَحْشتي بعدك يا هاشمُ غِبتَ فشَجْوِي[5] بكَ لِي لازِمُ[6]

اللَّهْوُ واللّذّةُ يا هاشم ما لم تكن حاضرَهُ مأتَمُ

وقال الأصبهانيّ بسند رفعه إلى هاشم:

أصبح موسى أمير المؤمنين يومًا وعنده جماعةٌ فقال: يا هاشمُ غنِّني:

* أبَهارُ قد هيّجتِ لي أوجاعا *

فإن أصبتَ مرادي فيه فلك حاجةٌ مقضيّة. قال: فغنّيتُه، وهو: [من الكامل]

أبَهارُ قد هيّجتِ لي أوجاعا وتركتِني عبدًا لكم مِطْواعا[7]

---

(١) قادمات: جمع قادمة، وهي الشعر في مقدم الرأس. والحمم: الرماد، وكل ما احترق من النار.
(٢) كيّس: ظريف وفطن. (٣) بخ: اسم فعل يفيد التعجب والتعظيم.
(٤) المستعين بالله: هو أحمد بن محمد المعتصم، الخليفة الثاني عشر. بايعه الأتراك بعد وفاة المنتصر ثم قتلوه وولّوا المعتز، كان مقتله سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٥.
(٥) شجوي: حزني. (٦) لازم: دائم.
(٧) مطواع: شديد الطواعية.

بحديثك الحسن الذي لو كُلِّمتْ وحشُ الفلاة به لجِئْنَ سِراعا
وإذا مررتُ على البَهارِ مُنَضَّدًا في السوق هيّج لي إليك نِزاعا[١]
والله لو علِم البهارُ بأنها أضحتْ سمِّيته لصار ذراعا

فقال: أصبتَ وأحسنتَ، سَلْ حاجتَك؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، تأمر بأن يُملأ هذا الكانون دراهم - وكان بين يدَيْه كانون عظيم - فأمر به فمُلىء فوسِع ثلاثين ألف درهم. فلمّا حصّلتُها قال لي: يا ناقص الهمّة، والله لو سألتَ أنْ أملأه لك دنانير لفعلتُ. فقلت: أقِلْني[٢] يا أمير المؤمنين. قال: لا سبيلَ إلى ذلك ولم يُسْعِدك الجَدُّ[٣] به. وقد رُوِيتْ هذه الحكايةُ في موضع آخر، وذُكِر أنّ الذي غنّاه غيرُ هذا الشّعر، وأن الكانون وَسِع ستّ بِدَرٍ، فدفعها إليه.

ذكر أخبار يزيد حَوْراء

هو رجل من أهل المدينة من موالي بني ليث بن بكر بن عبد مَنَاة بن كِنانة؛ ويُكْنى أبا خالد. مُغنٍّ محسنٌ كثيرُ الصنعة، من طبقة ابن جامع وإبراهيم الموصليّ. وكان ممن قدِم على المهديّ في خلافته فغنّاه. وكان حسنَ الصوت حلوَ الشمائل. فحسده إبراهيمُ الموصليّ على شمائله وإشاراته في الغناء، فاشترى عدّة جوارٍ وشارَكه فيهنّ، وقال له: علّمهنّ، فما رزق الله تعالى من ربح فيهنّ فهو بيننا، وأمرهنّ أن يَجْعلن وَكْدَهنّ[٤] أخذَ إشاراته، ففعلن ذلك. فكان إبراهيم يأخذها عنهنّ وهو وابنُه ويأمرهنّ بتعليم كل من يعرِفنه ذلك حتى شهَرها في الناس، فأبْطَل عليه ما كان منفرِدًا به من ذلك.

قال عبد الله بن العباس الرَّبيعيّ:

كان يزيد حَوْراء نظيفًا ظريفًا حسنَ الوجه شَكِلًا، لم يقدَم علينا من الحجاز أنظفُ منه ولا أشكلُ، وما كنتَ تَشاءُ أن ترى خَصْلةً جميلة لا تَراها في أحدٍ منهم إلا رأيتَها فيه. وكان يتعصّبُ لإبراهيم الموصليّ على ابن جامع، فكان إبراهيمُ يرفع منه ويُشيع ذكره بالجميل وينبِّه على مواضع تقدُّمه وإحسانه، ويبعث بابنه إسحٰق إليه يأخذ عنه.

---

(١) البهار: جنس زهر من المركبات الأنبوبية الزهر. يقال له العرار. ومنضّدًا: مرتّبًا ومنسّقًا.
(٢) أقلني: أعفني.
(٣) الجدّ: الحظّ.
(٤) الوكد: القصد والعزم والغاية.

وحكى أبو الفرج بسنَدٍ رفعه إلى يزيد حوراء، قال:

كلّمني أبو العتاهية في أن أُكلِّم المهديّ في عُتْبَةَ؛ فقلت: إن الكلام لا يُمْكنني، ولكن قل شعرًا أُغنّيه به؛ فقال: [من البسيط]

نفسي بشيءٍ من الدنيا معلّقةٌ ... اللهُ والقائمُ المهديُّ يَكْفيها

إني لأيأسُ منها ثم يُطْعِمُني ... فيها احتقارُك للدُّنيا وما فيها

قال: فعمِلتُ فيه لحنًا وغنّيته. فقال: ما هذا؟ فأخبرتُه خبر أبي العتاهيةِ؛ فقال: ننظرُ فيما سأل؛ فأخبرتُ بذلك أبا العتاهية. ثم مضى شهر فجاءني فقال: هل حدَث خبرٌ؟ قلت: لا، قال: فأذْكُرْني للمهديّ. فقلتُ: إن أحببتَ ذلك فقل شعرًا تحرِّكه به وتذكّره وعدَه حتى أغنّيَه به؛ فقال: [من الخفيف]

ليتَ شعري ما عندكم ليتَ شعري ... فلقد أُخِّرَ الجوابُ لأَمْرِ

ما جوابٌ أولى بكل جميلٍ ... مِن جوابٍ يُرَدّ مِن بعدِ شهرِ

قال يزيد: فغنّيت المهديّ، فقال: عليّ بعتبة فأحضِرت؛ فقال: إنّ أبا العتاهية كلّمنِي فيكِ، فما تقولين ولك عندي وله ما تُحِبّان مما لا تبلُغه أمانيكما؟ فقالت: قد علِم أميرُ المؤمنين ما أوجب الله عليّ من حقّ مولاتي، وأريد أن أذكر هذا لها. قال: فافعلي. قال: فأعلمتُ أبا العتاهية. ومضت أيام فسألني معاودةَ المهديّ؛ فقلتُ: قد عرفتَ الطريق، فقل ما شئتَ حتى أغنّيه به؛ فقال: [من الكامل]

أشْرَبْتُ قلبي مِن رجائك ما له ... عَنَقٌ[1] يَخُبّ[2] إليك بي ورَسِيمُ[3]

وأَمَلْتُ نحو سماء جَوْدك[4] ناظري ... أرْعَى مخايِلَ[5] بَرْقها وأَشِيمُ[6]

ولقد تنسمتُ[7] الرّياحَ لحاجتي ... فإذا لها مِن راحتيك نَسِيم

ولربما استيأستُ ثم أقول لا ... إن الذي وعدَ النّجاحَ كريم

---

(١) العنق: ضرب من السير فسيح وسريع.

(٢) يخبّ: يسرع، أو يمشي الخبب، وهو ضرب من السير.

(٣) الرسيم: المشي السريع. (٤) الجَوْد: المطر.

(٥) المخايل: جمع مخيلة، وهي السحابة التي تخالها ماطرة لرعدها وبرقها. والمخيلة: العلامة والمظنّة.

(٦) أشيم: من شام البرق، إذا نظر إليه يتّجه وأين يمطر.

(٧) تنسّمت: تروّحت.

قال يزيد: فغنّيتُه الشعر، فقال: عليّ بعتبة فجاءت؛ فقالت: ما صنعت؟ فقالت: ذكرتُ ذلك لمولاتي فكرِهَتْه وأبَتْ أن تفعل، فليفعل أميرُ المؤمنين ما يريد. قال: ما كنتُ لأفعل شيئًا تكرهه، فأعلمتُ أبا العتاهية بذلك، فقال: [من الكامل]

قطّعتُ منك حبائلَ الآمالِ ... وأرَحْتُ مِن حِلّ[1] ومِن تَرْحالِ[2]

ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلي ... وبَناتُ وَعْدِك يَعْتَلِجْنَ[3] ببالي

ولئن طَمِعتُ لربّ بَرْقةٍ[4] خُلَّبٍ[5] ... مالت بذي طمع ولَمْعةِ آلِ[6]

وقد حكى أبو الفرج أيضًا هذه الحكاية واختصرها، ولم يذكر الأبيات التي منها:

* أشرَبْت قلبي من رجائك ما له *

إلّا أنّه غيّر قولَه: «أشربت قلبي» بقوله: «أعلمتُ نفسي من رجائك»، وقال: فصنع فيه يزيد لحنًا وغنّاه المهديّ. فدعا بأبي العتاهية وقال له: أما عُتْبةُ فلا سبيلَ إليها؛ لأن مولاتها قد مَنعتْ منها، ولكن هذه خمسون ألف درهم فاشْترِ ببعضها خيرًا من عُتْبة فحُمِلت إليه، فأخذها وانصرف.

وحُكِي عن حماد بن إسحٰق قال:

قال يزيد حوراء: كنتُ أجلِس بالمدينة على أبواب قريش، وكانت تمرّ بي جاريةٌ تختلف[7] إلى الزرقاء تتعلّم منها الغناء. فقلت لها يومًا: اِفْهمي قولي ورُدّي جوابي وكوني عند ظنّي؛ فقالت: هاتِ ما عندك. فقلتُ: بالله ما اسمكِ؟ فقالت: مُمنَّعة. فأطرقتُ طِيَرةً[8] من اسمِها مع طمعي فيها، ثم قلتُ: بل باذِلةٌ ومبذولةٌ إن شاء الله فاسمعي منّي. فقالت وهي تتبسّم: إن كان عندك شيء فقُلْ. فقلت: [من الطويل]

لِيَهْنِكِ منّي أنّني لستُ مُفْشِيًا[9] ... هواكِ إلى غيري ولو مُتّ مِن كربي[10]

---

(١) الحل: الإقامة.
(٢) الترحال: الرحيل.
(٣) يعتلجن: يجتمعن.
(٤) البرقة: واحدة البرق.
(٥) خلّب: خادعة.
(٦) الآل: السراب، وهو الماء الخادع.
(٧) تختلف: تتردّد.
(٨) الطّيرة: التشاؤم.
(٩) مفشيًا: ذائعًا.
(١٠) كربي: حزني وغمّي.

ولا مـانـحًـا[١] خَـلْقًـا سِـواكِ مـحـبَّـةً
ولا قـائلًا ما عـشـتُ مِنْ حُبّكـم حسبي[٢]

فنظرت إليّ طويلًا ثم قالت: أنْشُدُك الله، أعن فَرْط مَحبَّة أم اهتياجِ غُلْمةٍ[٣] تكلّمتُ؟ فقلتُ: لا والله إلا عن فرط محبّة. فقالت: [من الطويل]

فوالله ربّ الناس لا خُنْتُك الهوى ... ولا زلتَ مخصوصَ المحبّة من قلبي
فثِقْ بي فإنّي قد وَثِقْتُ ولا تكن ... على غير ما أظهرتَ لي يا أخا الحبّ

قال: فوالله لكأنّما أضرمتْ في قلبي نارًا، فكانت تلقاني في الطريق الذي كانت تسلُكه فتحدّثني فأتفرّج بها؛ ثم اشتراها بعضُ أولاد الخلفاء، وكانت تكاتبُني وتلاطفني دهرًا طويلًا.

ذكر أخبار فُلَيْح بن أبي العَوْراء

هو رجل من أهل مكّة مولى لبني مخزوم، وهو أحد مُغَنّي الدولة العبّاسيّة؛ له محلٌّ كبير من صناعته، وهو أحد الثلاثة الذين اختاروا المائة الصوت للرّشيد التي بنى أبو الفرج الأصفهاني كتابَه المترجَم بالأغاني عليها. قال إسحٰق بن إبراهيم الموصليّ: ما سمعتُ أحسنَ من غناء فليح وابن جامع. وكان المهديّ لا يُغَنّيه مُغَنّ إلّا من وراء الستارة إلا فليح، فإن الستارة كانت تُرفع بينه وبين المهديّ، وهو أوّل مُغَنٍّ نظر وجهَ المهديّ.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ عن يوسفَ بن إبراهيمَ عن إبراهيمَ بنِ المهديّ قال: كتب إليّ جعفرُ بنُ يحيىٰ[٤] وأنا عامل الرشيد على جُنْد دمشق[٥]: قد قدم علينا فُلَيْح بن أبي العوراء، فأفسد علينا بأهزاجه وخفيفه كلَّ غناءٍ سمعناه قبله. وأنا محتال لك في تخليصه إليك لتسمع منه كما أسمعنا. فلم ألبث أن ورد عليّ فليح بكتاب الرّشيد يأمر له بثلاثة آلاف دينار؛ فورد عليّ منه رجلٌ أذكرني لقاؤه الناسَ وأخبرني أنه

---

(١) مانحًا: واهبًا.
(٢) حسبي: يكفيني.
(٣) الغلمة: شدة الشهوة إلى النساء.
(٤) جعفر بن يحيىٰ: هو جعفر بن يحيىٰ البرمكي، وزير الخليفة هارون الرشيد. انقلب عليه لأسباب واضحة وقتله في نكبة مشهورة تُعرف بنكبة البرامكة، وذلك سنة ٨٠٣ م.
(٥) جند دمشق: إقليمها.

قد ناهز[١] المائة، فأقام عندي ثلاث سنين، وأخذ جواري عنه كلَّ ما كان معه من الغناء، وانتشر بعضُ غنائه بدمشق.

وروى أيضًا بسنده إلى أحمد بن يحيىٰ المكّيّ عن فُلَيْح بن أبي العوراء قال: كان بالمدينة فتًى يعشَق ابنةَ عمٍّ له، فوعدتْه أنها تزوره؛ وشكا إليّ أنها تأتيه ولا شيء عنده؛ فأعطيتُه دينارًا للنفقة. فلما زارتهُ قالت له: من يُلْهِينا؟ قال: صديقٌ لي، ووصفني لها؛ ودعاني فأتيتُه؛ وكان أوّل ما غنّيتُه: [من الوافر]

مِن الخَفِراتِ[٢] لم تَفْضَحْ أخاها ... ولـم تَـرْفَـعْ لـوالـدهـا شَـنـارا[٣]

فقامت إلى ثوبها فلبِسَتْه لتنصرف، فتعلّق بها وجَهِد كلَّ الجهد في أن تُقيم فلم تفعل وانصرفتْ. فأقبل يلومني في أن غنّيتُها ذلك الصوتَ. فقلت: والله ما هو شيءٌ اعتمدتُ به مساءَتك ولكنّه شيء اتّفق. قال: فلم نَبْرَحْ حتى عاد رسولُها ومعه صُرّة فيها ألف دينار، فدفعها إلى الفتى، وقال: تقول لك ابنةُ عمّك: هذا مَهْري، فادفعه إلى أبي واخطُبْني، ففعل وتزوّجها.

ذكر أخبار إبراهيم الموصليّ عفا الله عنه

هو إبراهيمُ بنُ ماهانَ بنِ ميمون، وأصلُه من فارس، ومولِدُه في سنة خمس وعشرين ومائة بالكوفة، ووفاتُه ببغداد في سنة ثمان وثمانين ومائة. قالوا: ومات ماهان وترك إبراهيمَ صغيرًا، فكَفَله آلُ خزيمةِ بن خازم، فكان ولاؤه لبني تميم. وكان السببُ في نسبه إلى المَوْصِل أنه لما كَبِر واشتدّ وأدرك صَحِب الفتيانَ واشتهى الغناءَ وطلَبه، فاشتدّ أخوالُه بنو عبد الله بن دارم عليه في ذلك وبلغوا منه، فهرب منهم إلى الموصِل فأقام بها سنة؛ فلما رجَع إلى الكوفة قال له إخوانُه من الفتيان: مَرْحبًا بالفتى الموصليّ، فغلب عليه ثم ارتحل إلى الرّيّ[٤] في طلب الغناء، فطال مقامُه هناك، وأخذ الغناء الفارسي والعربيّ.

---

(١) ناهز: قارب، وشارف.
(٢) الخفرات: الحيّيات.
(٣) الشنار: العار وأقبح العيب.
(٤) الرّيّ: مدينة في شمال إيران بضاحية طهران. وأطلال مدينة تاريخية قديمة فتحها العرب في صدر الإسلام. ازدهرت في عهد العباسيّين والبويهيين والسلاجقة، وكانت من عواصم الإسلام التجارية والفنيّة والثقافية. خرّبها المغول سنة ١٢٢٠ م. ولد فيها هارون الرشيد وإليها يُنسب علماء كثيرون منهم الرّازي الطبيب.

قال إسحٰق: حدّثني أبي قال:

أوّل شيء أُعْطِيته بالغناء أني كنت بالريّ أنادِمُ أهلَها بالسويّة لا أرزؤهم[١] شيئًا ولا أُنْفِق إلا من بقية مال كان معي. فمرّ بنا خادم أبو جعفر المنصور إلى بعض عُمّاله برسالة، فسمعني عند رجل من أهل الرّيّ فشُغِف بي وخلَع عليّ دُوَّاج[٢] سَمُّورٍ له قيمة، ومضى بالرّسالة فرجع وقد وصله العامل بسبعة آلاف درهم وكُسوةٍ كثيرةٍ، فجاءني إلى منزلي الذي كنت أسكنه، فأقام عندي ثلاثة أيام ووهب لي نصف الكسوة التي معه وألفَي درهم. وكان ذلك أوّل مالٍ كسبته من الغناء. فقلت: والله لا أنفق هذه الدراهم إلّا على الصناعة التي أفادتْنيها. ووُصِف لي رجلٌ بالأُبُلّة[٣] اسمه: «جُوانُوَيه» وكان حاذقًا، فخرجت إليه، وصحِبت فتيانها وأخذت عنهم وغنّيتهم فشُغِفوا بي.

قال إبراهيم: ولما أتيت «جُوانُوَيه» لم أُصادِفه في منزله فأقمت حتى جاء. فلما رآني احتشمني وكان مجوسيًا؛ فأخبرته بصناعتي والحال التي قصدتُه فيها؛ فرحّب بي وأفرد لي جَناحًا في داره ووَكّل بي جاريةً، فقدّمتْ لي ما أحتاج إليه. فلما كان العِشاء عاد إلى منزله ومعه جماعة من الفرس ممن يغنّي؛ فنزلت إليه فجلسنا وأخذوا في شأنهم وضربوا وغنّوا؛ فلم أجِدْ في غناء أحدٍ منهم فائدة، وبلغت النَّوْبة إليّ فضربتُ وغنّيت؛ فقاموا جميعًا إليّ فقبّلوا رأسي وقالوا: سَخِرتَ بنا، نحن إلى تعليمك إيّانا أحوج منك إلينا، فأقمت على تلك الحال أيّامًا حتى بلغ محمد بن سليمان بن عليّ خبري، فوجّه إليّ فأحضرني وأمرني بملازمته. فقلتُ: أيّها الأمير، لستُ أتكسّب بهذه الصناعةِ وإنما ألتذّ بالغناء فلذلك تعلّمتُه، وأريد العَوْد إلى الكوفة؛ فلم أنتفِعْ بذلك عنده وأخذني بملازمته وسألني: من أين أنا؟ فانتسبتُ إلى المَوْصِل، فلزِمتنِي وعُرِفتُ بها. ولم أزل عنده مُكَرّمًا، حتى قَدِم عليه خادمُ المهديّ، فلما رآني عنده قال له: يا أمير المؤمنين أحوجُ إلى هذا منك، فَدافَعه عنّي. فلما قَدِم الخادمُ على المهديّ سأله عمّا رأى في طريقه ومَقْصِده، فأخبره بما رأى، حتى انتهى إلى ذكري فوصَفَني له. فأمره المهديّ

(١) أرزؤهم: أعطيهم.
(٢) الدوّاج: ضرب من الفرو. والسمّور: حيوان برّي من فصيلة السمّوريّات ورتبة اللّواحم، يشبه ابن عرس وهو أكبر منه. لونه أحمر يميل إلى السواد. من جلده تتّخذ فراء ثمينة.
(٣) الأبلّة: مدينة قديمة في جنوب العراق على نهر دجلة.

بالرّجوع وإشخاصي[١] إليه، فجاء وأشخصني إلى المهديّ، وحَظِيتُ[٢] عنده وقدّمَني.

قال: وما سَمِع المهديُّ قبلي أحدًا من المُغَنّين سوى فُلَيْح بن أبي العَوْراء وسِياط؛ فإن الفضل بن الربيع وصفهما له.

قال: وكان المهديّ لا يَشربُ، فأرادني على ملازمته وتركِ الشُّرب، فأبيتُ عليه. وكنتُ أغيب عنه الأيام، فإذا جئتُه جئتُه مُنتَشِيًا[٣]؛ فغاظَهُ[٤] ذلك منّي وضرَبني وحبَسني؛ فحَذِقت القراءةَ والكتابة في الحبس. ثم دعاني يومًا فعاتبني على شربي في منازل الناس والتبذّل معهم. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما تعلّمتُ هذه الصناعةَ للذّتي وعشرةِ إخواني ولو أمكنني تركُها وجميعَ ما أنا فيه لله تعالى. فغضِب غضبًا شديدًا وقال: لا تَدْخل على موسى وهارون، فوالله لَئِن دخلتَ عليهما لأفعلنّ وأصنعنّ. فقلت: نعم. ثم بلغه أنّي دخلتُ عليهما وشَرِبتُ معهما وكانا مشتهِرين بالنّبيذ، فضربني ثلاثمائة سوط وستّين سوطًا. فقلتُ له وأنا أُضرَب: إن جُرْمِي ليس من الأجرام التي يحِلّ بها سفك دمي، ووالله لو كان سرُّ ابنيك تحت قدميّ ما رفعتُهما عنه ولو قُطِعتا، ولو فعلتُ ذلك كنت في حالة أبانٍ العبدِ الساعي. فلما قلتُ ذلك ضربني بالسيف في جفنه[٥] فشجّني[٦]، فسقطت مَغْشِيًا عليّ. وقال لعبد الله بن مالك: خُذْه إليك واجعله في مثل القبر. فدعا عبدُ الله بكبش فذَبَحه وسَلخه وألبَسني جلدَه ليسكن الضَربُ عني، ودَفعني إلى خادم له يقال له أبو عثمان سعيد التركيّ، فجعلني في قبر ووكّل بي جارية، فتأذّيت بنزٍّ[٧] كان في القبر وبِبَقٍّ[٨]. فقلت للجارية: أصْلِحي لي مِجْمرةً[٩] وكُنْدُرًا[١٠] ليذهب عني هذا البَقّ ففعلتْ، فلما دخّنَت أظلم القبرُ وكادت نفسي تذهب، ثم خفّ ذلك وزال البَقّ، وإذا حيّتان مُقْبِلتان نحوي من شَقّ في القبر تَدُوران حولي، فهمَمْتُ أن آخُذَ واحدةً بيدي اليمنى والأخرى بيدي اليسرى، فإمّا عليّ وإمّا لِي، ثم كُفِيتُهما، فدَخَلتا في الثُّقْب الذي خرجتا منه. فمكثتُ

---

(١) إشخاصي: إحضاري.
(٢) حظيت: نلت الحظوة والتكريم.
(٣) منتشيًا: سكران.
(٤) غاظه: أغضبه.
(٥) جفن السيف: غمده.
(٦) شجّني: جرحني.
(٧) النزّ: ما يتحلّب من الأرض من ماء وغيره.
(٨) البق: حشرة من رتبة نصفيّة الأجنحة، أجزاء فمها ثاقبة ماصّة على شكل خرطوم، ومنه ضروب مختلفة.
(٩) المجمرة: موقد الجمر والنار.
(١٠) الكندر: اللّبان، وهو نبات من الفصيلة البخورية يفرز صمغًا.

في ذلك القبر ما شاء الله، ثم أُخرِجتُ منه. وأحْلَفني المهديّ بالطّلاق والعِتاق وكلّ يمينٍ لا فسحةَ لي فيها ألّا أدخلَ على ابنيه موسى وهارون أبدًا ولا أغنّيهما، وخلّى سبيلي. قال إبراهيم: وقلتُ وأنا في الحبس: [من المتقارب]

أَلَا طال ليلي أُراعِي(١) النجوم أُعالج في السَّاقِ كَبْلًا(٢) ثقيلا
بدارِ الهوانِ(٣) وشرّ الديارِ أسامُ(٤) بها الخَسْفَ(٥) صَبْرًا جميلا
كثيرُ الأخِلّاء(٦) عند الرخاء فلما حُبِستُ أراهم قليلا
لطول بلائيَ ملّ الصديق فلا يأمَنَنّ خليلٌ خليلا

قال: فلمّا ولِي موسى الهادي الخلافةَ استتر إبراهيمُ منه ولم يَظْهر له بسبب الأيمان التي حلَف بها للمهديّ. فلم يزل يطلبه حتى أُتِي به فلما عايَنه قال: يا سيّدي، فارقتُ أمّ ولدي أعزّ الخلق عليّ؛ ثم غنّاه: [من الخفيف]

يا ابنَ خيرِ الملوك لا تَتْركنّي غَرَضًا للعدوّ يَرْمِي حِيَالِي
فلقد في هواك فارقتُ أهلي ثم عرّضتُ مهجتي(٧) للزوال
ولقد عِفْتُ(٨) في هواك حياتي وتغرّبتُ بين أهلي ومالي

قال إسحٰق بن إبراهيم: فموّله الهادي وخوّله؛ وبِحَسْبِك أنه أخذ منه مائة ألف وخمسين ألف دينار في يومٍ واحد، ولو عاش لنا لبنَيْنا حيطانَ دُورنا بالذهب والفضّة.

قال حمّاد بن إسحٰق: قال لي أبي:

والله ما رأيتُ أكملَ مروءةً من جدّك، وكان له طعام يُعَدّ أبدًا في كل وقت، فقلت لأبي: كيف كان يُمكنه ذلك؟ قال: كان له في كل يوم ثلاثُ شِيَاهٍ(٩)، واحدةٌ مقطّعة في القدور، وأخرى مسلوخةٌ معلّقة، وأخرى قائمة في المطبخ؛ فإذا أتاه قوم طَعِموا ممّا في القدور، فإذا فرغت القدور قُطِّعَت الشّاةُ المعلّقةُ ووُضِعَتْ في القدور

---

(١) أراعي: أرقب.
(٢) الكبل: القيد في الرّجل.
(٣) الهوان: الذلّ والأسر.
(٤) أسام: أذوق وأعذّب.
(٥) الخسف: الظلم.
(٦) الأخلّاء: جمع خليل، وهو الصاحب والصديق.
(٧) مهجتي: روحي.
(٨) عفت: مللت.
(٩) الشياه: جمع شاة، وهي الواحدة من الضّأن أو المعز والبقر.

وذُبِحَتْ القائمة وأُتي بأخرى فأُقيمت في المطبخ. وكانت وظيفتُه لطعامه وطِيبه وما يتّخذ له في كل شهر ثلاثين ألف درهم سوى ما كان يُجْرِي وسوى كُسوته. ولقد كان مرّةً عندنا من الجواري الودائعِ لإخوانه ثمانون جارية، ما فيهنّ واحدة إلّا ويُجْرِي عليها من الطعام والكُسوةِ والطِّيبِ مثل ما يُجْرِي لأخصّ جواريه، فإذا رُدّت الواحدةُ إلى مولادها وصلَها وكساها. ومات وما في ملكه إلّا ثلاثة آلاف دينار وعليه من الدّين سبعمائة دينار قُضِيَتْ منها.

ورُوي عن إسحٰق بن إبراهيم، قال:

اشترى الرشيد من أبي جاريةً بستةٍ وثلاثينَ ألفِ دينار، فأقامت عنده ليلة ثم أرسل إلى الفضل بن الرّبيع، وقال له: إنا اشترينا هذه الجاريةَ من إبراهيمَ ونحن نحسَبُ أنها على صفةٍ وليست كما ظنّنا وما قَرِبْتُها، وقد ثَقُلَ عليّ الثمنُ وبينك وبينه ما بينكما؛ فاذهب إليه فَسَلْه أن يَحُطّنا من ثمنها ستة آلاف دينار. قال: فأتاه الفضل، فخرج إليه وتلقّاه؛ فقال له: دعني من هذه الكرامة التي لا مَؤُونة فيها، قد جئتُك في أمر، ثم أخبره الخبر. فقال له إبراهيم: إنما أراد أن يبلُوَ قدْركَ عندي. قال: هو ذاكَ؟ قال: فمالي في المساكين صدقةٌ إن لم أُضْعِفْه لك، قد حططتُك اثني عشرَ ألف دينار. فرجع الفضل إليه بالخبر؛ فقال: ويحك! إحملْ إليه المالَ بجملته، فما رأيت سُوقةً[1] أنبل منه نفسًا. قال إسحٰق: وكنتُ قد أتيت أبي فقلت: ما كان لحطيطة هذا المال معنًى ولا هو قليل يُتغافل عنه، قال لي: يا أحمقُ، أنا أعرف الناسِ به، والله لو أخذتُ المالَ منه كَمَلًا ما أخذته إلّا وهو كاره ولحَقَدَ ذلك، وكنت أكون عنده صغيرَ القدر، وقد مَننتُ عليه وعلى الفضل وانبسطتْ نفسُه وعَظُمَ قدري عنده، وإنما اشتريتُ الجاريةَ بأربعين ألف درهم وقد أخذت بها أربعة وعشرين ألف دينار. فلما حُمِلَ إليه المالُ بكماله دعاني وقال: كيف رأيتَ يا إسحٰقُ، مَنِ البصيرُ أنا أم أنتَ؟ فقلتُ: أنتَ، جعلني الله فداك. قال: وإبراهيمُ أوّل من علّم الجواري المثمّناتِ الغناءَ فإنه بلغ بالقيانِ كلّ مبلغ ورفع من أقدارهنّ.

ومن أخباره مع الرشيد ما رُوي عن إسحٰق، قال: حدّثني أبي قال:

إنّ الرشيد غضب عليّ فقيّدني وحبسني بالرَّقةِ[2] وجلس للشرب يومًا في مجلس قد زيّنه وحسّنه. فقال لعيسى بن جعفر: هل لمجلسنا عيبٌ؟ قال: نعم، غيبةُ إبراهيم

(١) السّوقة: أوساط الناس، تطلق على الفرد والجماعة.

(٢) الرقّة: مدينة على شاطىء الفرات في شمالي سورية، اتّخذها الرشيد مصيفًا ومقامًا له.

الموصليّ عنه. فأمره بإحضاري، فأحضِرتُ في قيودي، ففُكّت عنّي بين يديه، وأمرهم فناوَلوني عودًا؛ ثم قال: غنِّ يا إبراهيم؛ فغنّيته: [من الطويل]

تَضوَّعَ مِسكًا بطنُ نَعمانَ[1] أن مَشتْ به زينبٌ في نُسوةٍ عَطِرَاتِ

فاستعاده وشرب وطَرِب، وقال: هَنأْتَني وسأهنِئُك بالصلة، وقد وهبت لك الهنيء والمريء[2]، فانصرفتُ؛ فلما أصبحتُ عُوِّضتُ منهما مائتي ألف درهم.

قال إبراهيم: دخلت على موسى الهادي، فقال لي: يا إبراهيم، غنّ من الغناء ما ألذُّ وأطرَبُ عليه ولك حكمُكَ. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن لم يقابلني زُحَلُ[3] ببرده رجوتُ ذلك؛ فغنّيته: [من الطويل]

وإني لَتعْرُوني لِذِكراكِ هِزّةٌ كما انتفضَ العُصفورُ بلَّلهُ القَطْرُ[4]

فضرب بيده إلى جيب دُرّاعته[5] فحطّه ذراعًا؛ ثم قال: أحسنتَ والله! زدني، فغنّيتُ:

فما حُبُّها زِدْني جَوًى[6] كلَّ ليلةٍ ويا سَلوَةَ الأيام مَوعِدُكِ الحشرُ[7]

فضرب بيده إلى دُرّاعته فحطّها ذراعًا آخر، وقال: زدني ويلك! أحسنتَ والله ووجب حكمك؛ فغنّيتُ:

هجرتُكِ حتى قيل ما يعرفُ الهوى وزُرتُكِ حتى قيل ليس له صبرُ

فرفع صوته وقال: أحسنت والله! لله أبوك! هات ما تريد. فقلت: يا سيِّدي عَيْن مروان بالمدينة. فدارت عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان، وقال: يا ابن اللّخناء! أردت أن تَشْهَرني بهذا المجلس فيقول الناس: أطربه فحَكَم عليه فتجعلني سَمْرًا وحديثًا! يا إبراهيم الحرّاني، خذ بيد هذا الجاهل فأدخله بيت مال الخاصة، فإن

(١) بطن نعمان: اسم وادٍ بعينه.
(٢) الهنيء والمريء: اسما موضعين بعينهما في الرقّة.
(٣) زحل: أحد الكواكب السيّارة، وهو من كواكب الرّفعة والشّوْم.
(٤) الشعر لأبي صخر الهذلي، الشاعر المعروف، واسمه عبد الله بن سلمة السهمي الهذلي، عاش في الجاهلية وصدر الإسلام وبقي حتى العهد الأموي، فتعصب لبني أمية ومدحهم. انظر: ديوان الحماسة، لأبي تمام ٢/٦٦ ـ ٦٧.
(٥) الدرّاعة: الجبّة من صوف أو شعر.
(٦) الجوى: الألم من شدّة الحب.
(٧) الحشر: القيامة يوم تحشر الأجساد وتبعث للحساب.

أخذ كلّ ما فيه فخَلّه وإيّاه. فدخلت فأخذت خمسين ألف دينار. وهذا الشعر لأبي صخر الهذليّ، وأوّله: [من الطويل]

عَجِبتُ لسعي الدّهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سَكَن الدّهْرُ
فيا حبّها زِدْني جَوًى كلّ ليلةٍ ويا سَلْوَةَ الأيام مَوْعِدُكِ الحشرُ
ويا هجرَ ليلى قد بلغتَ بيَ المَدَى وزدتَ على ما ليس يبلغه الهجرُ
وإني لتعرُوني لذِكْراكِ هِزّةٌ كما انتفض العصفورُ بلّله القَطْرُ
هجرتُكِ حتى قيل لا يعرفُ الهوى وزرتُكِ حتى قيلَ ليس له صبرُ
أمَا والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمرُه الأمرُ
لقد تركَتْني أحسُدُ الوحشَ أن أرَى أليفَيْنِ منها لا يروعُهما الذُّعْرُ

ذكر نبذة من أخبار إبراهيم الموصلي مع البرامكة رحمهم الله تعالى

كان لإبراهيم الموصليّ مع البرامكةِ أخبارٌ مستحسنة، سنُوردُ منها طرفًا. منها ما حُكي عن مُخَارِق قال:

أذِن لنا أميرُ المؤمنين الرشيدُ أن نُقيمَ في منازلنا ثلاثة أيام وأعلمنا أنه يشتغل فيها مع الحُرَم[1]. فمضى الجلساء أجمعون إلى منازلهم وقد أصبحت السماء مُتغيّمة تطِشُّ طَشِيشًا[2] خفيفًا. فقلت: والله لأذهبنّ إلى أستاذي إبراهيم فأعرف خبره ثم أعود، وأمرتُ مَنْ عندي أن يسوّوا لنا مجلسًا إلى وقت رجوعي. فجئتُ إلى إبراهيم، فدخلت إليه، فإذا هو جالس في رِواق له والستارةُ منصوبةٌ والجواري خلفها؛ فدخلت أترنّم ببعض الأصواتِ وقلتُ له: ما بالُ السّتارةِ لست أسمعُ مِن ورائها صوتًا؟ فقال: اقعد ويحك! إني أصبحت فجاءني خبرُ ضَيْعةٍ تُجاوِرني قد والله طلبتها زمانًا وتمنّيتُها ولم أملكها، وقد أُعطي بها مائةَ ألف درهم. فقلت له: ما يمنعك منها؟ فوالله لقد أعطاك الله أضعافَ هذا المال وأكثر. قال: صدقت، ولكن لستُ أطِيبُ نفسًا بأن أُخرِجَ هذا المال. فقلت: فمن يُعطيك الساعةَ مائة ألف درهم؟ قال: والله ما أطمع في ذلك من الرشيد، فكيف بمن دونه! ثم قال: اجلس، خذ هذا الصوت. ثم نَقَر

---

(١) الحرم: النساء.

(٢) الطشيش: المطر الضعيف.

بقضيب على الدّواة وألقى عليّ هذا الصوتَ: [من البسيط]

نام الخليّون[١] مِن هَمٍّ ومِنْ سَقَمِ[٢] وبِتُّ مِن كَثْرةِ الأحزانِ لم أنَم

يا طالبَ الجودِ والمعروفِ مُجتهدًا إغمِدْ ليحيىٰ حليفِ الجُودِ والكَرمِ

قال: فأخذت الصوت وأحكمتُه. ثم قال لي: انصرفْ إلى الوزير يحيىٰ بنِ خالدٍ[٣] فإنك تجدُ الناسَ على بابه قبل أن يُفتح البابُ، ثم تجد الباب قد فُتح ولم يجلس بعدُ، فاستأذِنْ عليه قبل أن يصل إليه أحدٌ، فإنه يُنكر مجيئكَ ويقول: مِن أين أقبلتَ في هذا الوقت؟ فحدِّثه بقصدك إيّاي وما ألقيتُ إليك من خبر الضّيعة وأعلمه أني قد صنعت هذا الصوت وأعجبني ولم أرَ أحدًا يستحقّه إلا جاريته فلانة، وأني ألقيتُه عليك حتى أحكمته لتطرحه عليها؛ فسيدعوها ويأمر بالستارة فتُنصبُ ويوضع لها كرسيّ ويقول لك: اِطْرَحْه عليها بحضرتي؛ فافعل وأْتِني بما يكون بعد ذلك من الخبر. قال مخارق: فجئت إلى باب يحيىٰ بن خالد فوجدته كما وصف. وسألني فأعلمته بما أمرني به؛ ففعل كل شيء قاله لي إبراهيمُ وأحْضر الجارية فألقيتُه عليها. ثم قال لي: تُقيم عندنا يا أبا المهنّأ أو تنصرف؟ فقلت: بل أنصرف، أطال الله بقاءك، فقد علمتَ ما أُذِنَ لنا فيه. فقال: يا غلامُ، اِحْمِل مع أبي المهنّأ عشرة آلاف درهم واحمل إلى أبي إسحٰق مائة ألف درهم ثمنَ هذه الضّيعة. فحملت عشرة الآلاف معي، وأتيتُ منزلي وقلت: أُسَرُّ يومي هذا وأَسُرُّ مَنْ عندي. ومضى الرسول بالمال إلى إبراهيم؛ فدخلتُ منزلي ونثرتُ على مَنْ عندي دراهم من تلك البَدْرة[٤] وتوسَّدتُها[٥] وأكلتُ وشربت وطرِبت وسُرِرتُ يومي كلّه. فلما أصبحت قلت: والله لآتِينّ أستاذي ولأعرفنّ خبره؛ فأتَيْته فوجدته كهيئته بالأمس ملي مثل ما كان عليه، فترنّمت وطَرِبت فلم يتلَقَّ ذلك بما يجب؛ فقلت: ما الخبر؟ ألم يأتك المال بالأمس؟! فقال: بلى، فما كان خبرك أمس؟ فأخبرتُه بما كان وقلت: ما تنتظر؟ فقال: ارفع السَّجف[٦]، فرفعتُه فإذا عشر بِدَر؛ فقلت: فأيّ شيء بقي عليك في أمر الضيعة؟ فقال: ويحك! ما هو والله إلا أن دخلتُ منزلي حتى شَحَحتُ عليها وصارت

---

(١) الخليّون: جمع خليّ، وهو الخالي من الحب أو العشق والهموم.

(٢) السقم: الوجع والمرض.

(٣) يحيىٰ بن خالد، هو الوزير المعروف ابن خالد البرمكيّ، كان مؤدّبًا لهارون الرشيد. ثم صار وزيرًا له. توفي سنة ٨٠٥ م.

(٤) البدرة: الصّرة.

(٥) توسّدتها: اتّخذتها وسادة.

(٦) السّجف: السّتارة.

مثل ما حويتُ قديمًا. فقلت: سبحان الله! فتصنع ماذا؟ قال: قُمْ حتى ألقِيَ عليك صوتًا صنعتُه يفوق ذاك. فقمت فجلست بين يديه؛ فألقى عليّ: [من الطويل]

ويَــفْــرَحُ بــالــمــولــد مــن آل بَــرْمَــكٍ
بُغَاةُ[١] النَّدَى[٢]، والسيفُ والرِّمحُ والنصلُ[٣]

وتــنــبــسِــطُ الآمــالُ فــيــه لــفَــضْــلِهِ
ولا ســيّــمــا إنْ كــان والــدَه الــفَــضْــلُ

قال مخارق: فلمّا ألقى عليّ الصوتَ سمعتُ ما لم أسمع مثلَه قطّ وصَغُر في عيني الأوّل، فأحكمته. ثم قال: امضِ الساعة إلى الفضل بن يحيىٰ، فإنك تجده لم يأذن لأحد بَعْدُ وهو يريد الخلوةَ مع جواريه اليوم؛ فاستأذِن عليه وحدِّثه بحديثنا وما كان من أبيه إلينا، وأعلمه أني صنعتُ هذا الصوت وكان عندي أرفعَ منزلةً من الصوت الأوّل الذي صنعته بالأمس، وإني ألقيتُه عليك حتى أحكمتَه ووجّهتُ بك قاصدًا لِتُلْقِيَه على فلانة جارِيَته. فصرتُ إلى باب الفضل فوجدتُ الأمر على ما ذكر، فاستأذنتُ فوصلت إليه؛ وسألني عن الخبر، فأعلمتُه بخبري وما وصل إليّ وإليه من المال؛ فقال: أخزى الله إبراهيم! ما أبخله على نفسه! ثم دعا خادمًا فقال له: اِضرب السِّتارة، فضربها؛ فقال لي: ألقِهِ. فلما ألقيته وغنّته الجاريةُ لم أُتِمَّه حتى أقبل يجرّ مِطْرَفه[٤]، ثم قعد على وِسادة دونَ الستارة وقال: أحسنَ واللهِ أستاذُك وأحسنتَ أنتَ يا مخارق. ولم أبرح حتى أحكَمْته الجاريةُ؛ فسُرَّ بذلك سرورًا عظيمًا وقال: أقِمْ عندي اليومَ. فقلت: يا سيِّدي إنما بقي لنا يومٌ واحد، ولولا أنّني أحِبّ سرورَكَ لم أخرج من منزلي. فقال: يا غلام، اِحمل مع أبي المهنأ عشرين ألف درهم وإلى أبي إسحٰق مائتي ألف درهم. فانصرفتُ إلى منزلي بالمال، وفتحتُ بَدرةً ونثرت منها على الجواري وشربت وسُرِرتُ أنا ومَنْ عندي يومنا. فلما أصبحت بكّرت إلى إبراهيم أتعرّف خبره وأعرّفه خبري، فوجدته على الحال التي كان عليها أوّلًا وآخرًا؛ فدخلت أترنّم وأصفّق. فقال لي: أُدْنُ؛ فقلت: ما بقي عليك؟ فقال: اجلس وارفع سَجْفَ هذا الباب؛ فرفعته فإذا عشرون بدرةً مع تلك العشر. فقلت: ما تنتظر الآن؟ فقال: ويحك! ما هو إلّا أن حَصلتْ حتى جرت مَجْرَى ما تقدّم. فقلت: والله ما أظنّ أحدًا

---

(١) البغاة: القصّاد والطّلّاب. (٢) الندى: الجود والمعروف.
(٣) النصل: حديدة الرمح أو السهم أو السكّين. وقد يسمّى السيف نصلًا.
(٤) المطرف: رداء طويل من خزّ مُعلم.

نال من هذه الدولة ما نلتَ! فلِمَ تبخل على نفسك بشيء تمنيتَه دهرًا وقد ملّكك الله أضعافه! ثم قال: اجلس فخذ هذا الصوت. فألقى عليّ صوتًا أنساني صوتي الأوّلين، وهو: [من الطويل]

أفي كلّ يوم أنتَ صَبٌّ[1] وليلةٍ إلى أمِّ بكرٍ لا تُفيق فتُقْصِرُ
أُحِبُّ على الهِجْرانِ أكنافَ[2] بيتها فيا لكَ مِن بيتٍ يُحَبُّ ويُهْجَرُ
إلى جعفرٍ سارتْ بنا كلُّ جَسْرَةٍ[3] طواها سُراها[4] نحوَه والتهجُّرُ[5]
إلى واسع للمجتدين[6] فَنَاؤهُ[7] تروحُ عطاياه عليهم وتَبْكُرُ

ـ وهو شعر مروانَ بن أبي حفصة[8] يمدح جعفر بن يحيىٰ ـ قال مخارق: ثم قال لي إبراهيم: هل سمعتَ مثلَ هذا قطّ؟ فقلتُ: ما سمعتُ قطّ مثله! فلم يزل يردّده عليّ حتى أخذته، ثم قال لي: اِمض إلى جعفر فافعل به كما فعلتَ بأبيه وأخيه. قال: فمضيت ففعلت مثل ذلك وأخبرته بما كان وعرضت عليه الصوت؛ فسُرَّ به ودعا خادمًا فأمره أن يضربَ السِّتارَةَ، وأحضر الجاريةَ وقعد على كرسيّ؛ ثم قال: هاتِ يا مخارقُ؛ فألقيتُ الصوتَ عليها حتى أخذَته؛ فقال: أحسنتَ يا مخارق وأحسن أُستاذُك، فهل لك في المُقام عندنا اليوم؟ فقلت: يا سيّدي، هذا آخرُ أيامنا، وإنما جئتُ لموقع الصوت منّي حتى ألقيته على الجارية. فقال: يا غلام، اِحْمِل معه ثلاثين ألف درهم وإلى الموصليّ ثلاثمائة ألف درهم. فصرتُ إلى منزلي بالمال وأقمتُ ومَن عندي مسرورِين نشرب طولَ يومنا ونطرَب. ثم بكّرتُ إلى إبراهيم فتلقّاني قائمًا، ثم قال لي: أحسنتَ يا مخارق! فقلتُ: ما الخبر؟ قال: اِجْلِس فجلستُ؛ فقال لمن

(١) الصبّ: العاشق، من عنده صبابة ووجد وجهل.
(٢) الأكناف: جمع كنف، وهو الجانب.
(٣) الجسرة: الناقة القويّة.
(٤) سراها: مشيها في الليل.
(٥) التهجّر: المشي في الهاجرة، عند اشتداد الحرارة.
(٦) المجتدون: طالبو الجود والمعروف.
(٧) فناؤه: ساحته القائمة أمام بيته.
(٨) مروان بن أبي حفصة: شاعر مخضرم عاش في آخر عهد بني أُميّة وفي أوائل عهد بني العباس. امتاز بلغته الرقيقة السهلة الصافية. مدح من الخلفاء العباسيين المهدي والرشيد، ومن الأعيان والأجواد مدح معن بن زائدة. ولما مات هذا الأخير رثاه أحسن رثاء. توفي مروان سنة ٧٩٨ م.

خلف الستارة: خذوا فيما أنتم عليه ثم رفع السَّجفَ فإذا المالُ. فقلت: ما خبر الضَّيْعَة؟ فأدخل يده تحت مِسْوَرة[١] وهو متّكىء عليها فقال: هذا صَكُّ الضَّيْعَةِ اشتراها يحيىٰ بنُ خالدٍ وكتب إليّ: «قد علمتُ أنك لا تسخو نفسُك بشراء هذه الضَّيْعَة من مال يحصُل لك ولو حويتَ الدنيا كلَّها، وقد ابتعتها من مالي». ووجّه إليّ بصكها، وهذا المال كما تَرى، ثم بكى وقال: يا مخارقُ، إذا عاشرتَ فعاشِرْ مثلَ هؤلاء، وإذا خنكرت فخَنْكر لمثل هؤلاء، ستمائة ألف، وضيعة بمائة ألف، وستون ألف درهم لك، حَصّلنا ذلك أجمع وأنا جالس في مجلسي لم أبرح منه، متى يُدْرَك مثلُ هؤلاء!.

ورُوِيَ عنه قال: أتيتُ الفضلَ بن يحيىٰ يومًا فقلت له: يا أبا العبّاس، جُعِلتُ فداك! هَبْ لي دراهم فإن الخليفة قد حبس بِرّه. فقال: ويحك يا أبا إسحٰق ما عندي ما أرضاه لك. ثم قال: هاه! إلا أنّ هٰهنا خَصْلةً، أتانا رسولُ صاحب اليمن فقضينا حوائجَه، ووجّه إلينا بخمسين ألف دينار يَشتري لنا بها محبَّتنا. فما فعلتْ ضياءُ جاريتُك؟ قلت: عندي جعلتُ فِداك. قال: فهو ذا، أقول لهم يَشْتَرونها منك فلا تَنْقُصْها من خمسين ألف دينار؛ فقبّلتُ رأسه ثم انصرفتُ. فبكّر عليّ رسول صاحب اليمن ومعه صديقٌ له ولي، فقال: جاريتُك فلانة عندك؟ قلتُ:عندي. قال: أعْرِضْها عليّ فعرضتُها عليه؛ فقال: بكم؟ فقلت: بخمسين ألف دينار ولا أنْقُصُ منها دينارًا واحدًا. وقد أعطاني الفضلُ بن يحيىٰ أمس هذه العطيّةَ، فقال: هل لك في ثلاثين ألف دينار مُسَلّمة؟ وكان مشترى الجارية أربعمائة دينار، فلما وقع في أُذُني ذكرُ ثلاثين ألف دينار أُرْتِج[٢] عليّ ولَحِقني زَمَعٌ[٣]، وأشار عليّ صديقي الذي معه بالبيع، وخِفْت والله أن يَحْدُث بالجارية حَدَثٌ أو بي أو بالفضل بن يحيىٰ، فسلّمتُها وأخذتُ المال. ثم بكّرتُ على الفضل، فإذا هو جالسٌ وحده. فلما نظر إليّ ضَحِكَ وقال لي: يا ضيّقَ العَطَنِ[٤] والحَوصلة[٥]، حَرَمْتَ نفسَك عشرين ألف دينار. فقلت له: جُعِلْتُ فِداك، دَعْ ذا عنك، فوالله لقد دخلني شيء أعجِز عن وصفه وخِفْتُ أن تحدُث

(١) المسورة: الوسادة والتّكية.
(٢) أُرتجَ عليّ: استغلق عليّ الكلامُ.
(٣) الزمع: المضاء في الأمر والعزم عليه، وهنا بمعنى التردّد والاختلاج والارتعاد.
(٤) العطن: مبرك الإبل ومربض الغنم حول الماء. وضيّق العطن: كناية عن تبرّمه وضيق خلقه.
(٥) الحوصلة للطائر: بمنزلة المعدة من الإنسان، وهنا كناية عن معدته، فهو ضيّق برم.

بي حادثةٌ أو بالجارية أو بالمشتري أو بك أعاذك الله من كل سوء، فبادرتُ بقَبول الثلاثين ألف دينار. فقال: لا ضَيْر[١]، يا غلامُ جِئْ بجاريته، فجِيء بها، فقال: خُذْ بيدها وانصرِف بارك الله لك فيها، ما أردنا إلّا منفعتك ولم نُرِد الجَاريةَ. فلما نهضتُ قال لي: مكانَك، إن رسول صاحب أرْمِينية قد جاءنا فقضينا حوائجه ونَفَّذْنا كُتُبَه، وقد ذكر أنه قد جاء بثلاثين ألف دينار يشتري لنا بها ما نُحِبّ، فاعْرِض عليه جاريتَك هذه ولا تَنْقُصْها من ثلاثين ألف دينار؛ فانصرفتُ بالجارية. وبكّر عليّ رسولُ صاحب أرْمِينية ومعه صديقٌ لي آخَرُ، فقاولني[٢] بالجارية؛ فقلت: لن أنقصها من ثلاثين ألف دينار. فقال لي: معي عشرون ألف مُسَلّمَة خذها بارك الله لك فيها. فَدَخلني والله مثلُ الذي دخلني في المرّة الأولى وخِفْتُ مثلَ خوفي الأوّل، فسلّمتُها وأخذت المال. وبكّرتُ على الفضل، فإذا هو وحدَه. فلما رآني ضحك وضرب برجله، ثم قال: ويحك، حَرَمْتَ نفسَك عشرةَ آلاف دينار. فقلتُ: أصلحك الله، خِفْت والله مثلَ ما خِفْتُ في المرّة الأولى. فقال: لا ضَيْرَ، أَخْرِجْ يا غلام جاريتَه فجِيء بها؛ فقال: خُذْها، ما أردناها وما أردنا إلّا منفعتَك. فلما ولّت الجاريةُ صِحْتُ بها: اِرْجِعي فرجَعتْ؛ فقلت: أُشْهِدكَ جُعِلتُ فداكَ هي حرّةٌ لوجهِ اللهِ تعالى، وإني قد تزوّجتُها على عشرة آلاف درهم، كسبَتْ لي في يومين خمسين ألف دينار فما جزاؤها إلّا هذا. فقال: وُفّقت إن شاء الله تعالى.

وأخبارُه مع البرامكة كثيرةٌ وصِلاتُهم له وافرةٌ، وقد ذكرنا منها ما فيه غُنْيةٌ عن زيادة. فَلْنذكر وفاةَ إبراهيم. كانت وفاتُه ببغدادَ في سنةِ ثمانٍ وثمانينَ ومائةٍ، ومات في يوم وفاتِهِ العباسُ بنُ الأحنف[٣] الشاعر، وهُشَيْمةُ الخمّارة؛ فَرُفِع ذلك إلى الرّشيد فأمر المأمونَ أن يصلّي عليهم، فخرج وصلّى عليهم.

قال إسحٰق: لمّا مَرِض إبراهيمُ مرضَ موْتِه ركب الرشيدُ حمارًا ودخل على إبراهيم يعودُه وهو جالس في الأَبْزَن[٤]، فقال له: كيف أنتَ يا إبراهيم؟ فقال: أنا

(١) لا ضيرَ: لا بأس، والضّير: الضرر.

(٢) قاولني: باحثني وجادلني.

(٣) العباس بن الأحنف: وكنيته أبو الفضل، شاعر من شعراء الدولة العباسيّة. اشتهر بالغزل، وله أخبار مع الخليفة الرشيد. له ديوان مطبوع. مات سنة ٨٠٨ م.

(٤) الأبزن: لفظة فارسية، مؤلفة من آب، وهو الماء، ومن زنّ، وهي المرأة. والأبزن: الحوض يغتسل فيه.

والله يا سيّدي؛ كما قال الشاعر: [من الوافر]

سَقِيمٌ[١] مَلَّ مِنْه أقْرَبُوه وأسْلَمه المُدَاوِي[٢] والحَمِيمُ[٣]

فقال الرّشيد: إنّا لله! فخرج، فما بَعُدَ حتى سَمِعَ الواعية[٤] عليه.

تمّ الجزء الرابع من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس
وأوّله ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلي

(١) السقيم: المريض.
(٢) المداوي: المعالج والطبيب.
(٣) الحميم: القريب والصديق.
(٤) الواعية: الصراخ على الميّت إثر وفاته.

لائحــة
المصادر والمراجع

١ - **الأعلام**، للزركلي.

٢ - **تاريخ الخلفاء**، لابن قتيبة، تحقيق طٰه الزين، دار المعرفة، بيروت.

٣ - **التنبيه والإشراف**، للمسعودي، دار صعب، بيروت.

٤ - **ديوان الحماسة**، لأبي تمام، شرح التبريزي، ط. ١، دار القلم، بيروت.

٥ - **السيرة النبوية**، لابن هشام، تحقيق الستّار الإبياري شلبي، دار الكنوز الأدبية.

٦ - **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي، دار إحيار التراث العربي، بيروت.

٧ - **شرح نهج البلاغة للإمام عليّ**، شرح ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٧.

٨ - **العقد الفريد**، لابن عبد ربّه، شرح خليل شرف الدين، دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦.

٩ - **الفهرست**، لابن النديم، دار المعرفة، بيروت.

١٠ - **الكامل في اللغة والأدب**، للمبرّد، مكتبة المعارف، بيروت.

١١ - **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، للمسعودي، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

١٢ - **معجم البلدان**، لياقوت، دار صادر، بيروت ١٩٨٤.

١٣ - **المِلل والنِّحَل**، للشهرستاني، تحقيق محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٠.

١٤ - **وهج الفصاحة في أدب النبيّ ﷺ**، لعلاء الأعلمي، منشورات الأعلمي، بيروت ١٩٨٨.

فهرس المحتويات